

إعلموا أني فاطمة

(الجزء الثالث)

عبد الحميد المهاجر

الطبعة الثانية

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

علي صراط الحق

حقوق الطبع والنشر محفوظة



تسبيح

فاطمة الزهراء عليها السلام

أفكار سارحة في تسبيح الزهراء عليها السلام

في تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام تأتي الأفكار التالية :

أولاً: التسبيح في القرآن يجري على لسان كل شيء في الوجود، فما من شيء إلا وهو يسبح بحمد الله غير أننا لا نفقه هذا التسبيح، قال تعالى:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(١).

ولكي نفقه هذا التسبيح، فإنه لا بد لنا من الذهاب إلى بيت فاطمة الزهراء عليها السلام، لنسمعها وهي تسبح الله وتقده، بذلك التسبيح الخاص الذي انفردت به دون سائر الخلق، وقد بلغ هذا التسبيح درجة من العلو والسمو بحيث يقول الإمام الصادق عليه السلام عن قيمة هذا التسبيح إنه أفضل من ألف ركعة صلاة يصليها الإمام تطوعاً لله عز وجل.

وهذا منتهى التكريم بل هو التعظيم التام لهذا التسبيح والكشف عن قيمته التي لا يعرفها إلا إمام معصوم مثل الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، هذا بالإضافة إلى قيمة الألف ركعة التي يصليها الإمام عليه السلام، وهي بالتأكيد تختلف عن الصلاة التي نصليها نحن، في القيمة والشكل والمضمون .

(١) الإسراء / ٤٤.



على أن هذا الاختلاف والتفاضل في القيمة والمعنى بين صلاة الإمام وصلاة سائر البشر، هو كالفرق بين الإمام وبين الناس، على أننا حين نسلط الأضواء على مضمون تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام فإننا نجده قد اشتمل على كل أبعاد العبادة الحقة ، فهو يبدأ بالتكبير ثم التحميد ويختم بالتسبيح، أي أنه يبدأ باسم الله ويختم باسم الله، أو قل يبدأ بالله وينتهي بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، وهذه هي الحكمة والفلسفة من الخلق، يؤكد ذلك تشريع الأذان والطريقة التي يعلن بها فهو يبدأ بالله حيث يقول المؤذن :

(الله أكبر) ثم ينتهي الأذان ويختم باسم الله أيضاً عندما يقول: (لا إله إلا الله) في آخر الأذان .

وكذلك في تسبيح الزهراء عليها السلام نجد الحكمة نفسها ماثلة أمامنا، تلوح لنا بأنوارها وأضوائها ومنافعها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا نجد التسبيح المذكور إنما هو وثيقة تربوية في أصول الدين وفروعه، يظهر ذلك لنا في أقل نظرة نلقيها على هذا التسبيح العظيم. ولتوضيح الفكرة أضرب لكم المثال التالي :

حين يقع الإنسان في المحنة فإنه يتشبث بكل شيء ليخرج منها أو لكي يحوم حولها ليجد الحل المناسب لتلك المحنة، فإنه يحاول الخروج منها ليعد العدة ويأخذ كامل أهبة الاستعداد، حتى قال الحق في ذلك: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (١) ...

(١) التوبة / ٤٦ .



على أن هذه القاعدة تجري في كل أبعاد الفكر الإسلامي وتنطبق على كل شيء يتعلق بالحياة وبالممات، وهنا أنقل لكم هذا المثل لا أضربه كما قلت، وإنما أنقله لكم من أعماق البحار ومن بطن الحوت الذي كان ينطلق من تحت ظلمات البحار وظلمات الليل وظلمات الهموم والغموم والكروب والأحزان .

فكان صوت التسبيح ينبعث من فم سجين وقع في بطن الحوت حيث التقمه ذلكم الحوت العملاق وهو مليم، وراح يطوف به البحار ينتقل به من بحر إلى بحر ومن ليل داج إلى ليل أكثر سواداً وحلكة وظلاماً، حتى بدأ أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فراح يسبح يونس بن متى عليه السلام من داخل بطن الحوت، وكان هذا التسبيح هو المفتاح الذي فتح له أقفال السجن ونبذه بالعراء تحت شجرة اليقطين ليستعيد نشاطه، ويلتقط أنفاسه لبداية حياة جديدة .

يقول القرآن الكريم :

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١) .

وفي هذه الآية دلالات وعلامات تكشف أمامنا كنوزاً وآفاقاً من العلم والفقه والمعرفة، فهو أولاً لو لم يكن من المسبحين لطال مكثه في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وهذا معناه أن الحوت لديه قدرة العيش ملايين السنين حتى تقوم الساعة، وذلك أعظم دليل على إمكانية العيش عمراً طويلاً، وهذا مما يعطي جواباً للذي يعتريه الشك في

(١) الصافات/ ١٤٣ - ١٤٤ .



بقاء صاحب الزمان (عج) حياً إلى اليوم، وهذا يساعد على الانتقال إلى مرحلة اليقين، ونبذ الشك وضعف العقيدة .

زد على ذلك أن التسبيح يعد بعد هذه الملاحظة، من أعظم وأقوى الأسباب في الخروج من المحن والخلاص من الفتن والخروج من الظلمات إلى النور، على أنه يكفي دليلاً على ذلك إلقاء نظرة فقهية واحدة على الطريقة التي قدم بها أهل البيت تسبيح فاطمة سلام الله عليهم أجمعين، إلى الناس جميعاً .



وتسبح الأنفاس بتسبيح فاطمة عليها السلام

ومن ذلك المسألة الفقهية التي تخص شهر الصيام ورؤية هلال ذلك الشهر العظيم ، فقد قال رسول الله ﷺ، في معرض حديثه في خطبته المعروفة التي خطبها في آخر جمعة من شهر شعبان حتى يهيئ الناس لاستقبال شهر الله العظيم :

(أيها الناس، إنه قد أقبل إليكم شهر الله بالخير والبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات... هو شهر دعيت فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامته، أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب ... الخ) .

وموضع الشاهد هو قوله ﷺ "وأنفاسكم فيه تسبيح"، ولأنه قال هذه العبارة بعد أن ذكر للناس أنهم في ضيافة الله في هذا الشهر وإنهم في تكريم الله لهم ، بل هم من أهل كرامة الله .

أقول: لأنه قال هذا الكلام قبل أن يذكر أن أنفاسنا تسبيح، فإن هذا التسبيح يجب أن يكون من أرقى وأرفع أنواع التسبيح لأننا من أهل كرامة الله في هذا الشهر العظيم الكريم .

والتكريم من الله للعباد يقتضي أن يقدم لهم ثواب أعظم ألوان التسبيح عند الله، وذلكم التسبيح إنما هو تسبيح الزهراء فاطمة بنت محمد صلى الله عليها وعلى أبيها وبعليها وبنيتها، يدل على ذلك قول الأئمة الهداة المهديين صلوات الله عليهم أجمعين، إنهم لا يعلمون أحداً أحب ولا أعز ولا أقرب لرسول الله من فاطمة عليها السلام وأنه لو كان عنده



شيء أعظم من هذا التسبيح لمنحها إياه، فهذا التسبيح هو أعظم شيء عند رسول الله من العبادة والعمل لذلك أعطاها إياه .

إذن : فالتسبيح الذي نتحدث عنه الآن هو تسبيح فاطمة عليها السلام وهو أعظم هدية، وأكبر عطية منحها النبي ﷺ لفاطمة عليها السلام، من هنا فإن أول ليلة من شهر الصيام، وفي أول لحظة منه وبالتحديد عندما يلوح الهلال في الأفق، في تلك اللحظة الرهيبة المحملة بالنور والعطر والطيب والبركة تتحول أنفاسنا من أنفاس عادية لا تثير اهتماماً، ولا تجلب نفعاً، إلى أنفاس توزن بميزان الحق فتظهر قيمتها في كل نفس نتنفسه ألف ركعة من الصلاة تطوعاً ، ثم لا تتسوا الفضل هذا، بأن الألف ركعة هذه ليست من نوع صلاتنا نحن وإنما هي من نوع صلاة الإمام المعصوم، وهو تكريم لنا من الله يفوق كل تكريم .

على أنني أعود لأثبت كلامي هذا بالقول الثابت في الدنيا وفي الآخرة، فأقول: بما أن الله عز وجل قد كرمنا وجعلنا من أهل كرامته في شهر رمضان المبارك هذا، وبما أن أنفاسنا جعلها الله تسبيحاً بحمده في شهر الصيام، وأخيراً بما أن الله عز وجل جعل تسبيح فاطمة من أعظم أنواع التسبيح، فإنه بلا شك ولا ريب سيسجل ويكتب ثواب تسبيح فاطمة عليها السلام، والذي هو ألف ركعة أو يعادل أكثر من ألف ركعة صلاة يصليها الإمام المعصوم تطوعاً لله، فيكتبها الله لنا في كل نفس ومع كل طرفة عين ، وهل بعد هذا التكريم ... تكريم ؟.. وهل بعد هذه المنزلة ... منزلة ؟

على الأقل بالنسبة لنا، نحن البشر معرضون في حياتنا لاقتراف السيئات والخطايا والذنوب قبل الحسنات والصالحات من الأعمال .

أقول : إنه ليس في مقدور الواحد منا أن يقيم هذا العطاء، ويزن ذلكم الثواب العظيم الذي ينزل على قلوبنا من بين حبات مسبحة الزهراء عليها السلام .



تسبيح فاطمة عليها السلام على اليقين

١- الكافي: أحمد بن إدريس، عن محمد بن أحمد رفعه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا شككت في تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام فأعد. (١)

تسبيح فاطمة قائم على اليقين، ويسقي شجرة الإيمان في القلوب، فلا مجال فيه للشك أبداً ومن هنا فإنه لا يتفاعل مع حالات التردد والشك وانعدام اليقين، بأي شكل من الأشكال حتى لو كان الأمر يتعلق بالشك في عدد حبات المسبحة في الزيادة والنقصان، فإنه شك مرفوض، لذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: إذا شككت في تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام، فأعد .

أجل: فأعد، لأنه تسبيح اليقين، واليقين لا يضرب بالشك لذلك فلا بد له من يقين مثله، ومثله أن تعيده بكل صفاء وتوجه واعتبار، وعلى هذا الأساس فإن التسبيح هذا لا تظهر حقيقته إلا بقراءته على طهر وفي رقة وعذوبة وشفافية، وكل هذا إنما يحصل بفعل الصلاة وإقامتها، ولذلك جاءت الرواية تدعو إلى تلاوة هذا التسبيح بعد صلاة الفريضة مباشرة وقبل أن تشي رجلك أو رجلك وأنت في حالة القرفصاء قد خرجت من التشهد والسلام للتو ..

(١) ج ٣ / ٣٤٢، ووسائل الشيعة: ج ١ / ٤٦٤



إذاً: فخذ المسألة في جد ليس فيه لعب، وصدق لا يشوبه كذب، فإنك - أيها القارئ اللبيب - ستشعر براحة كبيرة وطمأنينة وسكينة وإيمان تجد حلاوة ذلك في قلبك، فتحس بالمسؤولية التي تدعوك لحملها والوصول بها إلى شاطئ السلامة والأمن واليقين .. فتطلق عبر منازل الذكر والخير والعطاء، وعبر بيوت أذن الله أن ترفع، فإذا وقفت هناك على أبواب تلك البيوت أتاك صوت التسبيح هذا ممزوجاً بالخشوع والفلاح وحرارة الدموع، لان الانفتاح على الحق يؤدي إلى هذا المضمار .

فما عليك الآن إلا الأخذ بهذا التسبيح والالتزام به، بل ألزمه إذا أردت التوفيق والنجاح والسعادة، فما لزمه أحد فشقي، أي لم يتفاعل معه أحد، إلا وجد الخير يحيط به من جوانبه كلها .

إذاً: فتعالوا ننطلق في رحاب تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام، فانه تسبيح يطهر القلوب من الشك والمرض والوهن .. انه تسبيح يشعل قناديل الشجاعة والسخاء والكرم والمعرفة، في أعماق النفس الإنسانية، وهذا وحده يكفي لإغراق المرء بالخير والرحمة والعطاء والبركة، وهو قبل وبعد كل شيء نور يستضاء به، ويكشف الطريق الواضح أمام رحلة الإنسان في هذه الحياة .

تسبيح فاطمة عليها السلام سعادة وحرية

١- الكافي: محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن صالح بن عقبة عن أبي هارون المكفوف عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يا أبا هارون إنا نأمر صبياننا بتسبيح فاطمة عليها السلام كما نأمرهم بالصلاة فألزمه فانه لم يلزمه عبد فشقي ^(١).

٢- الأُمالي للشيخ الصدوق: حدثنا جعفر بن محمد بن مسرور رضي الله عنه قال: حدثنا الحسين بن محمد بن عامر عن عمه عبد الله بن عامر عن محمد بن أبي عمير عن أبي هارون المكفوف عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: يا أبا هارون، إنا نأمر صبياننا بتسبيح فاطمة عليها السلام كما نأمرهم بالصلاة فألزمه فانه لم يلزمه عبد فشقي ^(٢).

هذه أحاديث وروايات تحتاج من القارئ الفطن إلى دراية قبل الرواية، لان الدرايات للروايات تجعل المؤمن في أقصى درجات المعرفة والتكامل، فهذا تأكيد وتذكير ورد عنهم عليهم السلام إنهم كانوا يأمرون الصبيان وهو يشمل الذكور والإناث بتسبيح فاطمة عليها السلام، لأنه مفتاح النجاح وبوابة السعادة، ثم فيه ضمان بدفع الشقاء واجتذاب السعادة، فمن لزمه أنزل الله عليه الخير والرحمة والظفر والفلاح

(١) ج ٣/٣٤٣، وتهذيب الأحكام: ١٠٥/٢، ووسائل الشيعة: ٤٤١/٦ .

(٢) ص ٦٧٥ .

والبركة وهذه هي أركان السعادة في الحياة، فهو - أي تسبيح
فاطمة عليها السلام - على صغر حجمه وقلة مساحته، الا انه يشتمل على
عالم الملك والملكوت، لأنه - كما في الخبر - لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم
شيئاً أعظم وأفضل منه لأعطاه فاطمة .



تسبيح فاطمة عليها السلام يطرد الشياطين

١- ثواب الأعمال: عن أبيه، عن محمد بن يحيى، عن محمد بن أحمد الأشعري، عن جعفر بن أحمد البجلي، عن ابن أسباط، عن ابن عميرة، عن أبي الصباح بن نعيم، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من سبح تسبيح الزهراء عليها السلام ثم استغفر غفر له وهي مائة باللسان، وألف في الميزان، وتطرد الشيطان، وترضي الرحمن. (١)

٢- وسائل الشيعة: وعن أبيه عن محمد بن يحيى عن محمد بن أحمد عن جعفر بن محمد بن سعيد البجلي بن أخي صفوان بن يحيى عن علي بن أسباط عن سيف بن عميرة عن أبي الصباح بن نعيم العائذي عن محمد بن مسلم قال: قال أبو جعفر عليه السلام: من سبح تسبيح فاطمة عليها السلام ثم استغفر غفر له وهي مائة باللسان وألف في الميزان وتطرد الشيطان وترضي الرحمن. (٢)

٣- وسائل الشيعة: محمد بن إدريس في (آخر السرائر) نقلا من كتاب المشيخة للحسن بن محبوب عن ابن سنان يعني عبد الله عن إسماعيل الجعفي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من سبح تسبيح فاطمة عليها السلام منكم قبل أن يثني رجله من المكتوبة غفر له. (٣)

(١) ص ١٤٨، عنه البحار: ج ٨٢/ ٣٣٢ .

(٢) ج ٤٤٢/ ٦ .

(٣) ج ٤٤٠/ ٦ .



٤- وسائل الشيعة: وعنهم عن أحمد بن محمد بن خالد عن يحيى بن محمد عن علي بن النعمان عن أبي نجران عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من سبح الله في دبر الفريضة تسبيح فاطمة المائة مرة وأتبعها بلا إله إلا الله مرة غفر له. (١)

٥- تهذيب الأحكام: محمد بن يعقوب عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن يحيى بن محمد عن علي بن النعمان عن أبي نجران عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من سبح الله في دبر الفريضة تسبيح فاطمة عليها السلام المائة وأتبعها بلا إله إلا الله غفر الله له. (٢)

٦- من لا يحضره الفقيه: فإنه روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: من سبح تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام في دبر الفريضة قبل أن يثني رجله غفر (الله) له. (٣)

٧- مستدرك الوسائل: السيد علي بن طاووس في فلاح السائل، مما روينا من كتاب محمد بن علي بن محبوب بإسناده إلى عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: من سبح تسبيح فاطمة عليها السلام في دبر المكتوبة من قبل أن ييسط رجله أوجب الله له الجنة. (٤)

(١) ج ٦/٤٤٠ ح ٣

(٢) ج ٢/١٠٥ .

(٣) ج ١/٣٢٠ .

(٤) ج ٥/٣٤ .



٨- مستدرك الوسائل: وفيه، عنه عليه السلام انه قال: من سبح تسبيح فاطمة عليها السلام قبل أن يثني عليه من صلاة الفريضة غفر له ويبدأ بالتكبير. (١)

٩- مستدرك الوسائل: فقه الرضا عليه السلام: ولا تدع تسبيح فاطمة عليها السلام بعقب كل فريضة وهي المائة والاستغفار بعقبها سبعين مرة قبل أن تثني عليك يغفر الله لك جميع ذنوبك إن شاء الله تعالى. (٢)

١٠- فلاح السائل: بإسناده إلى التلعكبري، عن هارون بن موسى، عن أحمد بن محمد بن محمد العطار، عن سعد بن عبد الله، عن محمد بن عيسى اليقطيني، عن الحسن بن محبوب، عن وهب بن عبد ربه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من سبح تسبيح الزهراء فاطمة عليها السلام بدأ وكبر الله عز وجل أربعاً وثلاثين تكبيرة، وسبحه ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، ووصل التسبيح بالتكبير، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين مرة، ووصل التحميد بالتسبيح، وقال بعد ما يفرغ من التحميد:

(لا إله إلا الله إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً، لبيك ربنا لبيك وسعديك، اللهم صل على محمد وآل محمد، وعلى أهل بيت محمد، وعلى ذرية محمد والسلام عليه وعليهم ورحمة الله وبركاته، وأشهد أن التسليم منا لهم، والايتمام بهم، والتصديق لهم، ربنا آمنا وصدقنا واتبعنا الرسول فاكثبنا مع الشاهدين. اللهم صب الرزق علينا صباً صباً، بلاغاً للآخرة

(١) ج ٣٥/٥ .

(٢) ج ٣٦/٥ .

والدنيا، من غير كد ولا نكد، ولا من أحد من خلقك، إلا سعة من رزقك، وطيبا من وسعك، من يدك المملأى عفافا، لا من أيدي لئام خلقك، إنك على كل شئ قدير، اللهم اجعل النور في بصري، والبصيرة في ديني، واليقين في قلبي، والإخلاص في عملي، والسعة في رزقي وذكرك بالليل والنهار على لساني، والشكر لك أبدا ما أبقيتني، اللهم لا تجدني حيث نهيتني، وبارك لي فيما أعطيتني، وارحمني إذا توفيتني إنك على كل شئ قدير) .

غفر الله له ذنوبه كلها، وعافاه من يومه وساعته وشهره وسنته إلى أن يحول الحول من الفقر والفاقة والجنون والجذام والبرص، ومن ميتة السوء، ومن كل بلية تنزل من السماء إلى الأرض، وكتب له بذلك شهادة الإخلاص بثوابها إلى يوم القيامة، وثوابها الجنة البتة . فقلت له: هذا له إذا قال ذلك في كل يوم من الحول إلى الحول ؟ فقال: لا ولكن هذا لمن قال من الحول إلى الحول مرة واحدة يكتب له وأجزأ له إلى مثل يومه وساعته وشهره من الحول الجائي الحائل عليه^(١)

وهنا بعد آخر يضاف إلى بقية الأبعاد الفكرية في تسبيح فاطمة عليها السلام، وهو البعد الغيبي، رغم أن التسبيح كله غارق في الغيب وظاهر في عالم الطبيعة والشهادة .

أجل، فهذه أبعاد غيبية يظهرها الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام وهي:

أولاً- المغفرة المتعلقة بهذا التسبيح بحيث انه إذا تلى حق تلاوته

(١) ص ١٣٥، عنه البحار ج ٦/٨٣ .



وقريء بعد صلاة الفريضة المكتوبة، فانه ينزل التوبة على قارئه، وحين تنزل التوبة، ينزل معها الخير كله، المطر، والمال والرزق الطيب الحلال، وكذلك يخلق هذا التسبيح قوة تضاعف إلى قوة الإنسان، وبهذه القوة يستطيع الشخص أن يفتح أبواب العلم والمعرفة والنور الذي يضيء له الطريق .

ثانياً- الحسنة بعشر أمثالها، وهي عملية تجعل الزيادة في الميزان لا حدود لها، وإن حددت بألف حسنة فان الحسنة هنا وخصوصاً العدد ألف، إنما يراد بذلك الكثرة التي لا تقل، والزيادة التي لا تنقص، والمعروف الذي لا ينقطع أبداً .

يقول أبو جعفر عليه السلام: وهي مائة باللسان - أي عدد حبات التسبيح- وألف في الميزان، - لان الحسنة بعشر أمثالها كما قلت لكم الآن - وهذا لعمري فيه من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما لا يعلم عدده إلا الله عز وجل .

ثالثاً- يبين الإمام عليه السلام: أن تسبيح فاطمة عليها السلام يطرد الشيطان، وطرده الشيطان هنا معناه ان قوة اليقين والإيمان والهداية تزداد عند من يقرأ ويلزم هذا التسبيح، إلى درجة يصبح الشيطان عندها طريداً منبوذاً لا حول له ولا قوة فلا يتمكن من الإغواء، ولا الإثارة، ولا إلقاء التشكيك في روع الإنسان، وهذا من أعظم الأدلة على عظمة هذا التسبيح، والأثر التربوي الذي يتركه على النفس والأسرة والأولاد والبنين ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاً .. على أننا حين ننظر إلى بعض شعائر الله التي ورد فيها طرد الشيطان والسعي لإبعاده عن طريق الحق والصراط المستقيم، نجد ان كل المناسك والشعائر تشير إلى



ضعفه، وانه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه، وعلى الذين فتحوا قلوبهم فأصبحت مرتعاً للشياطين التي كانت تنزل عليهم.

أقول: انظروا إلى رمي الجمرات في منى مثلاً أيام موسم الحج، تجدوا أن التشريع الإسلامي يقضي بأن تكون الحصيات التي تجمعها من وادي المزدلفة، صغيرة وخفيفة لأن كيد الشيطان كان ضعيفاً فهو لا يستدعي منك أن تهين له سلاحاً أكبر من هذه الحصاة، وفيها رمز لغلبة الحق على الباطل، وانتصار الإيمان على الشرك والكفر، وإظهار الدين على كل الأديان .

رابعاً- يقول الإمام عليه السلام: وترضي الرحمان. أي في الفوائد والمنافع التي نأخذها من تسبيح الزهراء عليها السلام، إنها ترضي الرحمان وهذا لعمري من أبلغ الأمور وأعرق الأسباب في مناهج التربية التي أمرنا الله عز وجل أن نأخذها من الحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه وآله .



تسبيح فاطمة عليها السلام غفران ورضوان

١- الكافي: الحسين بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن عامر، عن علي بن مهزيار، عن فضالة بن أيوب، عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: من سبح تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام قبل أن يثني رجله من صلاة الفريضة غفر الله له وليبدأ بالتكبير. (١)

٢ - منه: عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن محمد بن خالد، عن يحيى بن محمد، عن علي بن نعمان، عن ابن أبي نجران، عن رجل، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من سبح الله في دبر الفريضة تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام مائة مرة وأتبعها بلا إله إلا الله غفر الله له. (٢)

إذا نظرنا إلى الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بخصوص تسبيح فاطمة الزهراء عليها الصلاة والسلام، نجد أنها - أي الأحاديث - تبين لنا كيفية التسبيح، والطريقة التي يجري بها، والتأكيد على تقديم التكبير على التحميد، والتحميد على التسبيح، وذلك للإطار التربوي الذي وضع هذا التسبيح فيه بحيث إنه يبدأ باسم الله وينتهي باسم الله، وكذلك ورد التأكيد على الإتيان به قبل أن تثنى رجلك في الصلاة أي بعد التشهد والسلام مباشرة وذلك لأنه من أعظم ألوان العبادة، وأكثر شعائر الله تأثيراً وأسلوباً وتربية وفاعلية .

(١) ج ٣/٢٤٢ ح ٦ .

(٢) ج ٣/٢٤٢ ح ٧ .



التسبيح الموظف

١- الكافي: عنه، عن ابن محبوب، عن العلاء بن رزين، عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن التسبيح، فقال: ما علمت شيئاً موظفاً غير تسبيح فاطمة عليها السلام وعشر مرات بعد الفجر تقول: " لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد (يحيي ويميت) وهو على كل شئ قدير" ويسبح ما شاء تطوعاً. (١)

٢- الكافي: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن الحسين بن سعيد، عن فضالة، عن العلاء، عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن التسبيح فقال: ما علمت شيئاً موقوفاً غير تسبيح فاطمة صلوات الله عليها وعشر مرات بعد الغداة تقول: " لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت ويميت ويحيي بيده الخير وهو على كل شئ قدير" ولكن الإنسان يسبح ما شاء تطوعاً. (٢)

٣- مستدرک الوسائل: كتاب العلاء بن رزين، عن محمد بن مسلم قال: سألته - يعني أبا جعفر عليه السلام - عن التسبيح، قال: (ما علمت فيه شيئاً موظفاً إلا تسبيح فاطمة عليها السلام، وعشراً بعد الغداة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، ويميت ويحيي، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شئ قدير). (٣)

(١) ج ٢/ ٥٣٣ ح ٣٤ .

(٢) ج ٣/ ٢٤٥ ح ٢٥ .

(٣) ج ٥/ ٢٥٠ .

٤- وسائل الشيعة: وعن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن ابن محبوب عن العلاء عن محمد بن مسلم قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن التسبيح فقال ما علمت شيئاً موظفاً غير تسبيح فاطمة عليها السلام وعشر مرات بعد الفجر الحديث (١).

٥- وسائل الشيعة: وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن الحسين بن سعيد عن فضالة عن العلاء عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن التسبيح فقال: ما علمت شيئاً موظفاً غير تسبيح فاطمة عليها السلام وعشر مرات بعد الغداة تقول " لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت ويحيى بيده الخير وهو على كل شئ قدير" ولكن الإنسان يسبح ما شاء تطوعاً (٢).

عندما سئل الإمام عن تسبيح فاطمة عليها السلام والإتيان به قال: ما علمت شيئاً موظفاً غير تسبيح فاطمة عليها السلام على أن المراد بكلمة "موظف" الالتزام بهذا التسبيح. فقد أوصى أهل البيت شيعتهم بالالتزام به والمواظبة عليه بعد كل فريضة بل في الليل والنهار كلما زاد العدد زادت الفائدة وزاد النفع، فقد ورد في اللغة:

- وظف، يظف، وظفاً - الشيء على نفسه - أي ألزمها إياه، - وظفه: عين له في كل يوم وظيفة - ووظف على الصبي كل يوم حفظ آيات من كتاب الله - أي عين له آيات ليحفظها. والوظيفة جمع وظائف، ما يُعين من عمل أو طعام ورزق وغير ذلك، وفيها معنى العهد والشرط - .

(١) ج ٦/٤٣٩ ح ٢

(٢) ج ٦/٤٧٦ ح ٤ .

هذا في اللغة، أما في الفقه فان المراد بكون هذا التسبيح موظفاً، أي مداوم عليه من المداومة والمواصلة بغير انقطاع، ولهذا السبب وردت الروايات تؤكد مواصلة التسبيح دون انقطاعه، أي عليك - إذا بدأت بتسبيح فاطمة عليها السلام ان تواصل إلى آخره، فلا تقطعه الا للضرورة، وإن كان البعض يرى أن الضرورة لا تبيح قطع هذا التسبيح لأنه سرعان ما ينتهي فلا يأخذ من الوقت كثيراً، ولا من الجهد طويلاً، وإنما هو على قلة عدد حياته نجده يغمر الوجود بالخير والعطاء ودفع البلاء واستقطاب القلوب، واجتذاب النفوس لأن له أثراً بالغاً في إلقاء المحبة في القلوب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(١) وهذا الود ليس في القلب وحده، وإنما هو في الأشياء والكائنات كافة، وهو نتيجة طبيعية وثمره طيبة للالتزام به والمداومة عليه - أي تسبيح الزهراء عليها السلام - .

(١) مريم / ٩٦ .

تسبيح فاطمة العليّة

من شعائر الله

عندما يتحدث القرآن عن الشعائر، فإنه يربطها بدرجة الإيمان. فبمقدار الإيمان الذي يكون في داخل الإنسان، يكون إحترامه للدين وتعظيمه لشعائره ومبادئه. وتعظيم الشعائر إنما يتحقق بتطبيق المحتوى الذي تتطوي عليه تلك الشعائر، لأنه من دون تطبيق محتوى الشعار، فإنه يتحول إلى طبل أجوف... مجرد كلمات فارغة فيها من البريق المزيف ما يكفي للتدليل على بطلانها وتقاهتها- من كل ذلك نفهم أن تعظيم الشعيرة - أية شعيرة من شعائر الدين- يعتبر علامة ودليلاً على الإيمان، ودليلاً لا يتحقق إلا بإجراء مراسيمها بالكامل، وتطبيق أهدافها بشكل ليس فيه نقص... بينما إهانة الشعائر يتم بتفريغ محتواها... وتدنيس قدسيّتها، وإطفاء نورها.

على أن تعظيم الشعائر، علامة تدل على الإيمان... في حين أن الإستهانة بها، علامة تدل على الكفر، والنفاق... وذلك أن القلوب المليئة بالإيمان والعامرة بالتقوى هي وحدها التي تغذي الشعائر بالنور، وتمنحها الحياة... بينما القلوب الخاوية على عروشها من العمى والنفاق، تراها تستهين بالشعائر وتدفعها في التراب. ومن هنا نجد إن الشعار ينطفئ عند المنافقين... ويتألق عند المؤمنين... لأن المؤمنين

قلوبهم عامره بالإيمان والتقوى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (١).

على أن الثمار لا يعطي ثماره إلا إذا سبقتة تربية، وهو بعد ذلك كله يحتاج إلى رمز يدل عليه... وهنا نستطيع بقليل من التركيز والانتباه أن نلمس هذين الشرطين في تسبيح الزهراء...

الشرط الأول، هو الشرط التربوي... ونلمسه في تركيبة هذا التسبيح الذي علمه النبي- صلى الله عليه وآله وسلم - لابنته فاطمة الزهراء- سلام الله عليها - والتسبيح يتكون من أربع وثلاثين مرة الله أكبر.. وثلاث وثلاثين مرة الحمد لله، وثلاث وثلاثين مرة سبحان الله... وفي نظرة واعية نلقينا على هذا الترتيب المتقدم نجد أن التسبيح يبدأ بإسم الله، وينتهي بإسم الله. فهو لم يبدأ ب الحمد لله، ولا بدأ ب سبحان الله، وإنما بدأ ب الله أكبر. وختم ب سبحان الله وذلك حتى تكون أول كلمة في التسبيح هي كلمة الله... وآخر كلمة في التسبيح هي كلمة الله. (الله أكبر.. سبحان الله... الحمد لله).

انظروا إلى الكلمتين اللتين أحاطتا بالتسبيح كما يحيط الهلال بحفة النجوم في صدره.

هذا هو الشرط الأول، الشرط التربوي.. حيث ظهرت فيه الإشارة الواضحة إلى المبدأ والمعاد... فنحن من الله، وسنرجع إليه... إنا لله، وإنا إليه راجعون. وهذا معناه إن القراءة، والدعاء، والتسبيح وكل حركة في الحياة يجب أن تكون بإسم الله... كما كانت أول كلمة في

(١) الحج/ ٣٢.



القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١).

فجعل القراءة منصبة في قالب أدبي تربيوي... ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، أي أن القراءة يجب أن تتصب في إطار تربيوي أدبي، لأن التربية مشتقة من الرب، أو كلمة الرب، مشتقة من التربية وهو الأصح في اللغة.

هذا هو الشرط الأول، أما الشرط الثاني والذي يعني أن هناك رمزاً نتخذ منه قدوة، وأسوة حسنة في تطبيق مضمون التسبيح، فهو الفداء، والتضحية... وهنا نجد فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - حين أخذت درس هذا التسبيح من أبيها الرسول الأعظم محمد ﷺ أقول: حين أخذت من أبيها، هذا الدرس انطلقت به إلى قبر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ﷺ وحين وصلت إلى القبر، جلست تصنع حبات لمسبحتها من تراب قبر الشهيد. أجل... فاطمة تصنع مسبحة من تراب قبر الحمزة من أجل أن تعبق حبات هذه المسبحة برائحة الشهادة، وتتضوع بعطر الشهيد الذي أقدم على الفداء والتضحية، من أجل الحق. من أجل أن يحيا الإنسان في أمن وطمأنينة، من أجل أن يعبد الناس رب العالمين في حرية ودون إكراه... من أجل إعطاء الناس حرية، وحقاً وعدالة اجتماعية... من أجل أن ينحدر الظالمون، وينهزم المستكبرون ويذل الطغاة في الأرض.

وفاطمة الزهراء، هنا تعطي الصلاة بعداً جهادياً تربوياً، إنها تعطي العبادات أبعاداً توعية تزيد في رشد الأمة، وتتقص من غبائها وبلادتها.

(١) العلق / ١-٥.

نعم، إنها مسبحة للصلاة، ولكنها ليست مسبحة جامدة فيها حبات من الطين... كلا... إنما هي مسبحة مصنوعة من تراب ممزوج بدم الشهادة ونور الولاية... وهذا هو الذي يجعل للصلاة معنى وقيماً ووزناً. ومن هنا جاءت فكرة السجود على تربة الحسين عليه السلام في الصلاة. وذلك حتى نتذكر دائماً أن الصلاة لا تقوم في الأرض إلا بدماء الشهداء حيث:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
من كل ذلك نخرج بحصيلة نافعة مفادها: أن الشعائر الفارغة لا تؤدي دوراً نافعاً في الحياة... بخلاف الشعائر المليئة بالمضمون، والمحتوى فإنها تبني الحياة وتسعد القلوب، وتربي النفوس، ولهذا نجد الزهراء، قد حولت الشعائر الإسلامية إلى سلوك يتحرك في أعماق الإنسان، وبين يديه ومن خلفه... إن فاطمة حركت الشعائر في القلوب وأعطتها قوة دفع كبيرة يوم استطاعت أن تحرك العواطف، وكثيراً من المشاعر، وتغذي العقول بفصاحتها وبلاغتها وقوة بيانها. فهي لم تحرك مشاعر الذين عاصروها، بل وأيضاً استطاعت أن تؤثر في كل الأجيال، وفي الشعوب كافة بحيث أصبح اسمها رمزاً للفداء والتضحية والبطولة والعظمة. نعم، عندما يكون للشعار مضمون، فهذه كانت نظرة الزهراء الثاقبة في التسبيح.

* الشعار وحامله:

شعارات كثيرة ارتفعت في الدنيا، وزعماء لمعت أسماءهم فترة من الزمن، ولكنهم انطفأوا وانطفأت أسماءهم، عندما داست الجماهير



شعاراتهم تحت الأرجل. في حين نجد شعارات انطلقت على أفواه زعماء آخرين مخلصين فعاش الزعماء والقادة في القلوب، وظلت الشعارات متوجهة متدفقة لا ينقطع عطاؤها أبداً... ولم تستطع قوى الظلام والضلال مجتمعة أن تطفئ شعيره واحدة من تلكم الشعائر... لأنها انطلقت من الصدق والحق والحرية فعاشت في القلوب. ومن هنا نستطيع أن ندرك - على الفور- السبب المباشر في بقاء شعائر، واندثار أخرى... وفي إنطفاء زعيم آخر. إن السبب الرئيسي في كل ذلك هو الصدق... والصدق وحده هو الذي يستبقي الشعار ويجعله خالداً... لأن معنى ذلك أن ليس هناك تنازع، ولا تنازع بين الشعار وبين المبدأ الذي يحمله هذا القائد أو ذاك.

إن أول ما يؤدي إلى سقوط الشعار هو أن يكون الشعار مخالفاً لسلوك الزعيم الذي يرفعه... أما إذا إلتقيا: الشعار والمبدأ فإن النتيجة واضحة وستكون حسنة وجيدة، وهي الخلود الكامل للشعار وحامله. ومن هنا فإننا نجد شعارات الإسلام خالدة وباقية لأنها تنطلق من فطرة الإنسان، تتغذى بالتقوى، والإيمان بالله عز وجل... يقول الحق: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (١).

أي أن القلوب المليئة بالتقوى هي وحدها التي تغذي هذه الشعائر وتحفظها من الضياع. ومن هذا المنطلق نجد الشعائر حين تلمسها فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - تحولها إلى حياة ونور، وواقع... وآلية تحفظ الحقوق، وترعي الذمام. فمثلاً - التسبيح من شعائر الله،

(١) الحج/ ٣٢.

لأنه يعيد الإنسان إلى واقعه، وحقيقته التي خلق من أجلها، وهي العبادة المطلقة لله وحده والتوجه إلى الخالق القادر الذي لا إله غيره... وهو- أي التسبيح - بعد كل ذلك رحلة ينسجم المرء فيها مع كل ما يجري في هذا الكون، لأنه ما من شيء في الأرض ولا في السماء إلا يسبح الله ويقدسه. تقول الأرقام العلية التي نأخذها من القرآن الكريم: أن كل شيء في هذا الكون ساجد يسبح الله ويقدسه، أخذاً من الذرة والخلية وانتهاءً بأكبر سديم في الفضاء ابتداءً من الأميبا، الحيوان ذي الخلية الواحدة، وانتهاءً بأكبر دوحة في الأرض، هذه كلها تشترك في تسبيحة واحدة، وسجود واحد، وتقديس للحق جلّ وعلا... ومن هنا جاءت فكرة التسبيح لتردّ الإنسان إلى هذه الحقيقة وهي الإنسجام الكامل مع ما يجري في الكون.

هذا هو كل ما يمكن أن يقال في التسبيح في هذا المجال... ولكن تعالوا معي لنرى الصديقة فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - كيف حولت هذا الشعار إلى صهريج مليئ بالنور والحركة والعطاء... انظروا كيف استطاعت الزهراء أن تجعل من هذه الشعيرة الإسلامية، منهجاً تربوياً، حضارياً، يسكب الراحة، والطمأنينة في النفس، ويجعل المسلم أقوى من الجبال في مواجهة الطغاة الظالمين.

تبدأ القصة على الشكل التالي: فاطمة استقت بالقريبة حتى أثرت القرية في متنها... وأوقدت تحت القدر حتى ترك ذلك أثره في أثوابها... وكنست البيت حتى علق الغبار بشعرها ووجهها الكريم... وكان النبي ﷺ يدخل عليها فإذا رآها على هذه الحالة تحركت مشاعره وفاضت عيناه بالدموع، وقال: "يا فاطمة... أو بنيّتي فاطمة" تجرعي مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة.."



وأحياناً يحدث أن يكون الإمام علي عليه السلام مشغولاً في مساعدة الزهراء على أعمال البيت وإدارة شؤون الأسرة، فيدخل النبي الكريم فإذا رآهما يعملان معاً جنباً إلى جنب يقول: أيكما أعياء؟ أي: أي منكما أكثر تعباً وإعياء؟ فيجيبه الإمام علي قائلاً: فاطمة يا رسول الله. فكان النبي يجلس مكانها ويطلب منها أن تترك العمل لتأخذ راحتها وتلتقط أنفوسها... وكانت هذه هي السيرة المألوفة في بيت فاطمة... سيرة العمل، والعبادة، والسهر من أجل الآخرين، وقضاء حوائج الناس والدعاء لهم بالتوفيق، وأحياناً يحدث أن تقوم الزهراء بطحن القمح والشعير لجيرانها الضعفاء والفقراء... وإذا كانت الحياة تسير بهذا الشكل في بيت فاطمة فإنه يصبح من المرجح والأحسن والأفضل أن يكون هناك من يخدم الزهراء، ويساعدها على حمل أعباء الحياة العائلية، وهذه المهمة تحتاج إلى فتاة في مطلع العمر تكون في خدمة فاطمة الزهراء- سلام الله عليها- وهكذا اتفقت فاطمة وعلي-عليهما السلام- أن تتقدم فاطمة إلى أبيها رسول الله ﷺ تطلب منه خادمة لمساعدتها على أعمال البيت... والآن الفرصة مؤاتية وقريبة ويجب ألا تذهب هذه الفرصة لأن سبياً قد ورد على النبي، ومن المؤكد أن يكون في هذا السبى فتيات يمكن الاستعانة بواحدة منهن في بيت فاطمة... ومن تكون تلك الفتاة المحظوظة التي يقع الإختيار عليها فتدخل بيت فاطمة؟ إنها ولا شك ستكون محظوظة وموفقة تلك الفتاة التي تحضى بصحبة الزهراء-سلام الله عليها- وبالفعل فقد دخلت فاطمة على أبيها تريد أن تتمنى عليه تحقيق أمنيتها ولكنها ما إن دخلت عليه حتى وجدت مجلسه مزدحماً بالناس ومليئاً بأصحابه ففضلت أن يكون هذا التمني في وقت آخر..



وبالفعل طرحت الفكرة على أبيها في مناسبة أخرى، وبدل أن يلبي النبي نداءها ويجيبها إلى ما أرادت، نراه يعلمها منهجاً تربوياً رائعاً بدل الخادمة، وهو التسبيح المعروف بتسبيح الزهراء. وهو يبدأ بـ ٣٤ تكبيرة. و٣٣ تحميدة، و٣٣ تسبيحة. وهو تسبيح معروف، ومشهور، وخصوصاً عند أهل البيت عليهم السلام حيث كانوا يأمرون أولادهم بحفظه وقراءته، قبل النوم، وكان الإمام الصادق عليه السلام يقول: كنا نعلم أولادنا، أو قال: نعلم صبياننا حفظ هذا التسبيح وقراءته بعد الصلاة وفي أول دقائق النوم. وقد تقدم ذكر هذا التسبيح والتعليق عليه، ونحن إذا أردنا أن ندرك ما تقول فاطمة .. علينا أن نجعل منها قدوة، وأسوة حسنة تفتح أبواب الحياة أمامنا، وتضيء عالمنا الذي أطبق عليه الظلام. وذلك في فهمنا لتسبيح الزهراء .. فعندما نسبح بتسبيح فاطمة في أعقاب الفرائض .. يجب أن نتأثر به، ونتخلق بأدابه ونسعى إلى أن يترك أثره الطيب في سلوكنا في الحياة بحيث أن الذي يقرأ هذا التسبيح أو يقدم على أن عمل في حياته اليومية عليه أن يشعر أنه من أحبة الزهراء أو من أنصارها الذين يحملون مبادئها، وأفكارها وأهدافها إلى شعوب الأرض وإلى الناس أجمعين. ولم لا؟ ألم تكن فاطمة رحمة للعالمين، كما كان أبوها النبي رحمة للعالمين؟ ثم أليست فاطمة هي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين؟ وإذا كانت كذلك، فإن رسالتها هي رسالة لكل شعوب الأرض، وعلى شيعتها أن يرفعوا صوتها إلى العالم أجمع فإنه أحب وأقرب صوت إلى القلوب.

السلوك التربوي في تسبيح فاطمة عليها السلام

في تسبيح الزهراء، نجد أن الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- قد حوّلت هذا الشعار إلى سلوك يومي، وذلك عندما علّمها أبوها النبي ﷺ هذا التسبيح، ذهبت إلى قبر الحمزة بن عبد المطلب .. وأخذت تصنع من تراب قبره حبات لمسبحتها لتدير بها هذا التسبيح كما مر علينا.

ومعنى ذلك أنها أعطت الشعار محتوى ومضموناً، ومعنى، أي أنها جعلته شعاراً حياً، وليس مجرد كلمات تتحرك بها الشفاه واللسان، دون إدراك ولا استيعاب.

إن التسبيح هو تنزيه الله عن العبث، إنه تسبيح يؤكد الحكمة التي أقام الله عز وجلّ عليها الكون والحياة والإنسان .. والشهادة هي قمة هذه الحكمة .. أي أن الشهيد قد بلغ حداً من الحكمة والكمال ليس بعده حد .. وهذه هي الفلسفة، والرشد الذي تريده الزهراء، إنه امتزاج بين التسبيح وبين دماء الشهداء.

إن الصلاة من دون دم الشهيد لا تساوي شيئاً. أو قل: لولا الشهداء لما قام لهذا الذين عمود، وحمزة هو سيد الشهداء. طبعاً قبل واقعة الطف، وقبل مجيء يوم عاشوراء، فلما جاء يوم عاشوراء، يوم الحسين، أصبح الحسين عليه السلام هو سيد الشهداء، كما أنه سيد شباب أهل الجنة، وسيد الأحرار في العالم.

إنه احتكاك فكري، وحضاري بين التسبيح وبين دماء الشهداء، وهذا هو الفارق الذي تتفرد به الحضارة الإسلامية عن غيرها من حضارات خاوية فارغة.

ونحن حينما نصلي على تربة الحسين، فإننا نقيم هذا المعنى في القلوب، وهو: أن الصلاة لا تقوم إلا بالشهادة، ولذلك نخاطب الحسين في الزيارة: "أشهد أنك قد أقيمت الصلاة" أي أنك بشهادتك قد أقيمت الصلاة، وحفظتها من الضياع، وأنت قد أقيمت الصلاة بأهدافها ومبادئها قبل مصرعك، وقبل يوم شهادتك.

على أن السجود هو على التربة الحسينية، وليس للتربة، وهناك فرق بين السجود على الشيء، والسجود للشيء، فالسجود للأشياء قطعاً حرام.

كأن يسجد أحد الناس لصنم أي يسجد له لا عليه .. في حين أن السجود على التربة إنما هو سجود لله وليس للتربة. فالتربة ليست أكثر من أنها تحقق مصداق السجود على الأرض لأن النبي ﷺ كان يقول: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً.

ونحن نعرف أن المسلمين كانوا يصلون على تراب المسجد في أيام رسول الله. ثم إن التسبيح جاء في إطار التربية، فهو يبدأ بالله، وينتهي بالله، وإنه ليلخص مسيرة الحضارة الإسلامية، من منطلقها وإلى هدفها .. من الله وإلى الله فهو يبدأ ب الله أكبر .. وينتهي ب سبحان الله، فيكون قد بدأ ب الله، في حين أن هذا المعنى لم يكن ليحصل لو كان البدء ب الحمد لله مثلاً.



إذن: فالتسبيح -تسبيح الزهراء - قد جاء في إطار تربوي لأنه يستقي نوره من القرآن الكريم، والقرآن قد جاء للتربية، وأول آية، وسورة نزلت في القرآن، نجدها نزلت في إطار تربوي، فأول كلمة فيه هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

ولم يقل: اقرأ باسم الله مثلاً، وإنما قال: اقرأ باسم ربك وكلمة الرب مأخوذة من التربية، بمعنى أن القراءة يجب أن تأتي في إطار تربوي.

ونفس الشيء في تسبيح فاطمة عليها السلام.

تسبيح فاطمة عليها السلام يحفظك

من السقوط في القاع

جاء في الحديث: أنه: من عرف نفسه، فقد عرف ربه.

والقضية واضحة جداً، فالنفس الإنسانية لا يمكن معرفتها على حقيقتها إلا من خلال الذي خلقها وأوجدها، وإلا فليس في وسع أحد أن يعرف نفسه وأن يدرك كم هي عظيمة وكم هي ذات قيمة كبيرة بحيث ليس في إمكان أحد أن يشتريها بالثمن الواقعي إلا الله عز وجل.

إن ثمن نفوسكم غالية .. إن ثمنها الجنة، فلا تبيعوها بغير الجنة. وهل في إمكان أحد أن يشتري مني نفسي؟ لا أظن .. وإذا وجد فمن هو؟
هل في إمكاني أن أعرض بيع نفسي على الآخرين؟ كلا ثم كلا.
وبالمثل لو أنك تملك درة ثمينة، أو جوهرة نفيسة، وتدري أنه ليس في ملوك الأرض من يستطيع أن يدفع ثمنها إلا ملك واحد هو الذي يستطيع أن يدفع ثمنها إليك، فإنك لا شك ستشدد الرحال إلى ذلك الملك حتى تبيعه جوهرتك الثمينة الفريدة من نوعها، ولو بعثها لواحد غير ذلك الملك، فإنك ستخسرهما قطعاً لأنك بعثتها بالثمن (الأوكس) الأبخس.

ومن هنا فإن النفس التي بين جوانحنا غالية وباهظة الثمن، إن ثمنها الجنة وهل هناك من يملك الجنة، غير الله سبحانه وتعالى؟



فالمؤمن إذا لا يبيع نفسه إلا لله عز وجل، وأن الله سبحانه هو الذي يشتري نفس المؤمن منه، ويدفع له فاتورة الثمن، أو صك البيع والشراء وهو الجنة.

يقول القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (١).

إذاً: فقيمة النفس عالية جداً ورفيعة جداً، ولهذا جعل الله الملائكة تسجد للإنسان لأن له نفساً عالية يستطيع أن يشتري بها الجنة ورضواناً من الله أكبر. ولذلك أيضاً، جعل الله سبحانه الكون كله في خدمة الإنسان، فسخر له السموات والأرض، وما فيها، وأسبغ علينا نعمه ظاهره وباطنه.

وهنا نصل إلى نقطة بالغة الأهمية وهي: أن الناس - بحسب هذا الواقع - صنفان: صنف عرف نفسه فأنقذها من السقوط، وأخرجها من الظلام .. وصنف ترك نفسه في التراب ولم يعرف قدرها، ولم يحاول أن يدرك قيمتها، ولذلك دسها في التراب فلم يحصد غير الخيبة والفشل.

إن الإيمان بالله وباليوم الآخر، هو الذي يعطي الإنسان نوراً يمشي به في الناس، ويفهم به قدره، ومنزلته، والذي لا يعرف قدره فقد هلك. يقول الإمام علي أمير المؤمنين -صلوات الله وسلامه عليه-: "هلك امرؤ لم يعرف قدر نفسه". ونحن حين نمعن النظر في هذا الحديث نجد أنفسنا أمام مسؤولية واقعية .. وذلك أن قيمة الإنسان تساوي

(١) التوبة/ ١١١.

الإيمان والعمل الصالح، فالمرء بغير إيمان وبغير عمل صالح، يغدو باهتاً لا يجتذب القلوب نحوه، ولا يستطِب الملائكة حوله، وإنما يصبح محطة للشياطين، ومرفأً للأهواء وبالتالي فهو يخسر نفسه حين يقع في متاهات الشرك، وظلام الجهل، بينما يدخل نفسه في نور الصالحين حين يصبح مؤمناً ويعتق الإيمان عقيدة ومنهجاً وسلوكاً عملياً.

وبالمثل: أليس من المؤسف أن ينسى الإنسان نفسه، فيتصاغر، ويتضاءل أمام الآخرين ومن ثم يعيش في ذلٍّ وهوان؟ هذا الإنسان العظيم، الذي سجدت له الملائكة، والذي سخر الله سبحانه الكون كله في خدمته، كيف يتصاغر ويتنازل لعبادة قطعة من الحجر؟ كيف يعبد الإنسان حجراً أو حيواناً أو يصير تحت أقدام الشياطين تطحنه بأرجلها؟

إنه لما يثير العجب حقاً أن نجد إنساناً يتصرف بهذا الشكل فينزل من القمة التي وضعه الله فيها، وهي قمة الإيمان، ويسقط إلى قاع الشرك، إلى قاع المحرمات! ومن أجل ماذا؟ من أجل شهوة عابرة، أو هوى في رأسه، أو من أجل قطعة حجر أو صنم، سواء كان الصنم من الحجر، أو من البشر، فالأصنام البشرية أكثر بكثير من الأصنام التي كانت تُعبد أيام الجاهلية. وهذا هو منتهى السقوط، فאלله يخلق الإنسان طاهراً يميّزه عن غيره من المخلوقات بعقله النير ويرشده إلى ما فيه خيره ويدعوه إلى سلوك الطريق التي تؤدي به إلى الإيمان، فإذا به ينسى أوامر الله تبارك وتعالى ويسقط من تلقاء نفسه ويهوي إلى المنحدرات السحيقة.

يقول القرآن الكريم في تصويره لعملية السقوط هذه، وكيف يسقط المرء من عليائه إلى أودية سحيقة بالرعب والقلق والظلام وهي أودية الشرك والنفاق، يقول القرآن في ذلك: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (١).

وانطلاقاً من هذا الواقع، وهذه القاعدة، أعلنت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- عن فلسفة وجوب الإيمان، وتحريم الشرك. حيث قالت: "وجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك". والتطهير لا يكون إلا إذا كان في المقابل شيء نجس، والشرك هو هذا الشيء النجس بعينه.

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ (٢).

أي أنه أظهر لهم الحكم الشرعي، وأمرهم بإبعاد المشركين عن البيت الحرام، ثم أعطاهم حلاً لمشكلة اقتصادية يمكن أن يحدثها بعد المشركين عن البيت فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، أي فقراً بسبب عدم مجيء قوافل المشركين إلى مكة، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾. إذاً: فالشرك نجس، والمشركون أنجاس.. ولذا ورد، في معنى قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٣).

(١) الحج / ٣١.

(٢) التوبة / ٢٨.

(٣) البقرة / ١٢٥.



قال الإمام الصادق عليه السلام: «يعني نح عنه المشركين» ^(١).

وجاء في الأثر، حسب الأرقام العلمية أن النفس الذي يتنفسه المشرك هو نجس، وأن البيت الحرام لا تسره أنفاس المشركين تختلط مع تلبية المؤمنين حول البيت. فالشرك إذاً هو السقوط من القمة، لأنه يهوي بالمرء في مكان سحيق، والمكان السحيق يشير إلى الدرك الأسفل من النار، في الدنيا وفي الآخرة، لأن العذاب الذي يقع على الكافر ليس فقط في الآخرة، وإنما هو في الدنيا أيضاً: وإن جهنم لمحيطه بالكافرين.

وتعالوا معي نتأمل هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ^(٢).

لا شك في أنها آية يكشف لك فيها عن وجيب القلوب، وتصاعد الأنفاس من الهلع والخوف الذي يعتري المشرك وهو يهوي في أودية سحيقة ظلماء. وبعد هذه الآية مباشرة يقول الحق: ﴿وَمَنْ يَعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ^(٣).

إن الشرك وعبادة غير الله سبحانه وتعالى، سقوط نهائي للإنسان، وليس هناك مغفرة بعد هذا السقوط.

(١) بحار الأنوار ٩٢/١٢.

(٢) الحج / ٣١.

(٣) الحج / ٣٢.



*** الشرك خيانة عظمى والتوحيد مفتاح الفلاح:**

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (١).

لماذا لا يغفر أن يشرك به؟ لأن الشرك ليس ذنباً، وإنما هو خيانة عظمى. فالذنوب مغفورة - إن شاء الله - مهما كانت كبيرة - ولكن الشرك ليس ذنباً حتى يدخل ضمن قائمة الذنوب، وإنما هو خيانة عظيمة وعدوان سافر على مقام العزة.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

أي ظلم هو أعظم من هذا الظلم، وأي ظلم أكبر من أن يسقط الإنسان من مكانه الرفيع، من قمته العالية إلى الدرك الأسفل من الذل والهوان، والعذاب الأليم؟

إن العبودية لغير الله، لا تقتصر على عبادة الأصنام، وإنما هي تجري في جوانب الحياة كافة .. فالذي يلهث وراء الشهوات، يكون عبداً للشهوات وليس عبداً لله، والذي تتدك عظامه لسماع قرقرة الدراهم، هو الآخر عبد للدنيا والدرهم وليس عبداً لله تبارك وتعالى.

أجل .. إن الذي يصغي إلى صوت الباطل، ويترك صوت الحق، هو عبد لذلك الصوت الذي أصغى إليه وليس عبداً لله.

يقول الإمام محمد بن علي الجواد - عليهما أفضل الصلاة وأزكى

(١) النساء / ٤٨

(٢) لقمان / ١٣.



السلام: "من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن لسان إبليس فقد عبد إبليس".

ويقول الإمام الحسين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: "الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على أسنتهم، يحوطونه ما درت معائشهم، فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون"، وهذا يعني أن عبادة المال، والشهوة، والدنيا، تمزق أستار التوحيد، وتطفئ نور الإيمان في القلوب لأن هذه كلها ألوان من الشرك، وأكبرها عبادة الأحجار والأصنام.

وكما قلنا سابقاً، إن عبادة الأصنام البشرية لا تقل ضرراً، ولا هواناً وجريمة عن عبادة الأصنام الحجرية. واليوم - على الرغم من التقدم التكنولوجي الكبير الذي شمل قارات العالم الخمس، على الرغم من كل ذلك، فإن مشكلة الإنسان العقائدية لم تحل بعد، وإن الإنسان اليوم بات يعاني أزمة خطيرة في العقيدة، وفراغاً مدمراً في الأخلاق والسلوك، وهذه كلها نتائج طبيعية لحالة الشرك التي يعيشها الإنسان، إنسان اليوم ابن الحضارة المادية التي لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر أي كل إنسان غير مسلم ومن يبتغ الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. من هنا انطلق الإسلام بشعاره الحقيقي الذي ينطلق من أعماق الفطرة، كما ينطلق من أعماق العرش:

"قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" أي أن كلمة التوحيد هي مفتاح الفلاح، وأنه لا فلاح ولا نجاح إلا بالتوحيد، والإيمان العميق الذي يكون ضارباً بجذوره في أعماق الإنسان المؤمن.



لا تسبحوا ضد التيار النافع

* مرارة الدنيا وحلاوة الآخرة:

من منا لا يعرف: أن فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - هي أظهر امرأة، وأعظم امرأة، وأقدس امرأة مشيت فوق التراب وابنة خاتم الأنبياء إلى هذا الوجود؟

من منا لا يعرف، أن فاطمة هي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين؟..

وبالتالي: من منا لا يعرف أن مجرد ذكر اسم فاطمة يكفي لإسقاط دولة ظالمة، وإقامة دول الحق والحرية، والسلام؟

أجل.. كلنا يعرف ذلك.. فاسم فاطمة غير مجرى التاريخ، أقام حكومات وأقعد أخرى.. دمر الظالمين، وأنعش المحرومين.. لقد كان اسم فاطمة يحكم نصف الكرة الأرضية قروناً من الزمن.. ابتداءً من بلاد مصر التي تعتبر بوابة القارة الإفريقية، وانتهاءً بأقصى ولاية في إفريقيا، وفي الغرب الأقصى، وذلك يوم كان أبناؤها -الفاطميون- يديرون البلاد، ويحفظون حق العباد، ويكفي لإدراك ما أقول، إلقاء نظرة واحدة على تاريخ أبناء فاطمة، وكيف كانوا يحكمون في الأرض. ومن منا لا يعرف ذلك؟ كلنا نعرف.. ولكن الذي لا نعرفه هو كفاح فاطمة وكيف كانت حياتها تجري في بيت زوجها علي أمير المؤمنين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- فالتاريخ يحدثنا أنها

كانت قليلة الهجوع في الليل، وكانت تستغفر الله في الأسحار، فتقف في محرابها للصلاة حتى تورمت قدمها من كثرة العبادة والدعاء.. وكانت تذوب رقة وخشوعاً في صلاتها وعند دعائها، ولدى قراءتها القرآن الكريم.. فإذا مرت بآية فيها وعد أو وعيد رددتها في بكاء وحزن ودموع..

هذا كان بعض شأنها في الليل... أما في النهار، فقد كانت فاطمة تطحن بالرحى حتى أثرت الرحى بيدها، واستقت بالقربة حتى أثرت القربة بنحرها، وكنت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى طبع الدخان أثره على ملابسها وترك لونه على ثيابها وقت العمل بالطبع^(١) وبلغ بها الحال أن دخل عليها النبي ﷺ ذات صباح، وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، وطفلها يبكي إلى جانبها، فبكى النبي، وقال: «تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة».^(٢)

وذات مرة، وقفت فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- بين يدي أبيها رسول الله ﷺ فنظر إليها، وقد بدت آثار التعب على وجهها، من شدة الجوع والكفاح، فوضع يده الكريمة على صدرها، ورمق السماء بطرفه، وراح يدعو لها، والدموع تترقرق في عينيه، وهو يقول: «يا فاطمة تجرعي مرارة الدنيا، لحلاوة الآخرة». وقد تكرر هذا الموقف من رسول الله لفاطمة، وفي كل مرة يكرر عليها هذه العبارة: يا فاطمة تجرعي

(١) صفوة ٦/٢ وكتاب فاطمة الزهراء لمحمد علي دخیل ص ٦٣.

(٢) أعلام النساء لعمر كحاله ٢١٦/٣ وكتاب فاطمة الزهراء لمحمد علي دخیل ص ٦٣.



مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة.. وفي ذلك درس عظيم لكل فتاة تبحث عن النجاح في الحياة.. فيه درس عظيم لكل امرأة تفتش عن السمو.. تفتش عن التكامل في الإسلام.

يقول جابر بن عبد الله الأنصاري -رضوان الله عليه-: رأى النبي ﷺ ابنته فاطمة، وعليها كساء من أجلة الإبل، وهي تطحن بيدها، وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله ﷺ وقال: يا بنتاه تجرعي مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة، فقالت: الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه. (١)

إن فاطمة الزهراء من خلال سيرتها الذاتية هذه تعطي الفتاة المسلمة أعظم درس في الحياة، يؤدي بها إلى سلوك الصراط المستقيم لتعيش في ظلال رحمة الله سبحانه.

أجل... إن فاطمة تعلم المرأة كيف تصبح فتاةً مسؤولة،.. تتحمل مسؤولية الأسرة، والمجتمع في ثقة وشجاعة.

ونعلم من سيرة الزهراء أنها لما أرهق بدنها الكدح والنضال، وأتعبها الطحن بالرحى، جاءت أباهما تمشي على استحياء، تطلب منه خادمةً تساعدها على تخفيف أعباء المنزل، وثقل الحياة العائلية التي كانت تكابدها ليلاً ونهاراً، علّها تخفف عنها بعض همومها. وقفت بين يدي أبيها رسول الله، مطرقةً برأسها حياءً بعد أن سلمت عليه، فرد عليها السلام، وكان من عادته أنه إذا أقبلت عليه فاطمة، كان يقوم إجلالاً لها ويقبل يدها ثم يجلسها في مجلسه، فجلست وهي مطرقة برأسها

(١) سفينة البحار ٥٧١/١ وكتاب فاطمة الزهراء لمحمد علي دخیل ص ٦٥.



على الأرض، وما كادت تجلس في مكانها، حتى سألها الرسول الأعظم قائلاً: ما جاء بك.. وما حاجتك أي بنية؟ فغلبها الحياء ولم تتمكن من سؤال النبي، فقالت: جئت لأسلم عليك.. وبعد لحظات قامت فودعها النبي، ورجعت إلى دارها دون أن تحقق هدفها الرامي إلى طلب فتاة لخدمة المنزل.

وبعد هذا اللقاء بأيام وجدت فاطمة نفسها لا تستطيع مواصلة العمل دون وجود فتاة إلى جانبها في البيت، فقررت أن تشكو حالها إلى أبيها الحبيب المصطفى لعله هذه المرة يلبي نداءها، ويستجيب لدعوتها، خصوصاً وقد انتصر المسلمون في معارك الجهاد، فاحرزوا غنائم كثيرة وأموالاً عظيمة.. فقامت فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- من ساعتها، وأتت أباهما النبي ﷺ وطلبت منه خادمة، فقال لها: يا فاطمة أعطيك ما هو خير لك من خادم ومن الدنيا وما فيها.

قالت: وما ذاك يا رسول الله؟

قال: «تكبرين بعد كل صلاة أربعاً وثلاثين تكبيرة، وتحمدين الله ثلاثاً وثلاثين حميدة، وتسبحين الله ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، ثم تختمين ذلك بلا إله إلا الله، وذلك خير لك من الذي أردت ومن الدنيا وما فيها»^(١).

وعادت فاطمة إلى دارها تحمل معها أعظم هدية ربّانية، وأكبر عطاء تربوي فكري. تلكم كانت قصة حديث تسبيح فاطمة الذي أطلقوا عليه اسم تسبيح الزهراء، وشاع صيته في الآفاق وأصبح

(١) شرح خطبة فاطمة الزهراء ص ٢٩ للشيخ نزيه.



المسلمون يرددونه في أعقاب كل صلاة في خشوع ودموع. ولكن هل انتهت قصة هذا التسبيح العظيم - تسبيح الزهراء - ؟ كلا.. بالطبع إن تسبيح الزهراء - سلام الله عليها - يعتبر شعيرة عظيمة، من شعائر الله التي هي من تقوى القلوب.

ونحن نعرف أن فاطمة لها أسلوب خاص، وسيرة ذاتية تتعامل بها شعائر الله.. إن مفهوم الشعائر عند فاطمة يختلف عن مفهوم الآخرين للشعائر.. ولكي تأتي الصورة - صورة البحث - أكثر وضوحاً، فإنه لا بد من الدخول في الموضوع من أبوابه العريضة، ولكن باختصار شديد مع الوضوح الكامل في الفكرة والتعبير.

إن الصفة الملازمة لفاطمة الزهراء - صلوات الله عليها - هي أنها تستطيع أن تصور الإسلام في كل خطوة تخطوها، وفي كل شيء تلمسه بيدها الطاهرة وهي - أي هذه الصفة - وإن كانت موجودة في كل أهل البيت عليهم السلام إلا أنها تتألق في شخص الصديقة فاطمة الزهراء، بشكل يشد القلوب، ويبهر الألباب.

إن فاطمة تصوّر الإسلام بكل أبعاده حين تجلس إلى الرحى تطحن فيها القمح والشعير - لتسد أود أبنائها وبلعها ومن يلوذ بها في ظل أهل البيت. وإن فاطمة تصور الإسلام بكل أبعاده، حين تخرج مع أبيها رسول الله في ساحات القتال والجهاد، تضمّد جراحه وجراح بعلمها الوصي، وتمسح عنهما الآلام والأحزان. كانت تصور الإسلام، عندما تستقبل بطل الإسلام علياً أمير المؤمنين، وهو عائد من الحرب، فيدفع السيف لها قائلاً:

أفاطمُ هاك السيف غير ذميم فلست برعديـدٍ ولا بمليم



أجل.. إنها تصور الإسلام عندما تخلع ثوبها ليلة الزفاف وتدفعه لفتاة فقيرة تبدو عليها رقة الحال، ويسألها أبوها عن ثوبها الجديد، فتجيبه بقولها: أبتاه يا رسول الله لقد طرقت عليّ الباب فتاة فقيرة تطلب ثوباً فأخذت ثوبي القديم لأدفعه لها.. ولكنني تذكرت قول الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (١).

وأنا أحب الثوب الجديد فأثرتها به على نفسي فخلعت ثوبي الجديد وأعطيته لها!

آية عظمة هذه، وآية نفس كبيرة تطالعنا بها حياة فاطمة، وسيرتها العذبة التي تتضوع عطر الجنة! إن فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- لتصور الإسلام بشكل جذاب وجميل بكل خطوة تخطوها.. وبكل كلمة تقولها.. إن ذلك يظهر بوضوح في خطبتها المشهورة المليئة بالفكر، والعطاء، والمبادرة. إن شعائر الإسلام تتحول إلى سلوك عندها فإذا أنت أمام شعائر تفور بالحركة، والعطاء، وتتفجر بالصور الساخنة، والمعاني الحية وتتحول في النهاية إلى واقع معاش أساسه الإيمان وركائزه الفضائل وهياكله التسامح والرحمة.

ليس عند فاطمة شعائر جامدة، ولا عبادة راكدة، ولا طقوس فارغة من المحتوى، بل الشعيرة الدينية عند فاطمة متدفقة بالعطاء، مليئة بالمبادرة والانطلاق الصائب نحو الهدف والغاية.

إن الشعيرة الدينية -آية شعيرة- من دون فاطمة، تغدو شعيرة جامدة باهتة، تجري في رتابة مملة، فإذا لمستها فاطمة الزهراء، لمسة

(١) آل عمران/ ٩٢.



واحدة، اهتزت، وربت وأعطت ثمارها. إن لمسة واحدة من فاطمة
للشعار، تكفي لتحويله إلى سلوك عملي يمشي في الناس مشية النور..
وذلك أن فاطمة لا تتعامل مع الشعارات الفارغة، ولا تتعاطى مع
الأوهام.. وإنما هي تؤمن بالحق ولا تتعامل إلا مع الحق والحقيقة.

إن فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- لتضرب آباط الإبل بحثاً عن
الحق ورواده.. علماً بأن الحق لا يتمثل إلا بها ولكن مع هذا كله،
ففاطمة البتول، تفتش أبداً عن أهل الحق، ولا تمشي إلا في طريق
الحق، وإن قلّ سالكوه. إنها لا تستوحش من طريق الحق لقلة سالكيه..
فإذا كان هناك واحد يمشي معها في هذا الطريق، فإن ذلك يدخل
السرور في قلبها، ويجعلها تأنس برفيق الإيمان ولهذا كانت إذا نظرت
إلى وجه الإمام علي، تدفقت السعادة في وجهها وإذا نظر علي إليها
أشرق وجهه بالبشرى، حتى كان يقول: إذا رأيت فاطمة انجلت عني
الهموم والأحزان. فهي حين علمها أبوها النبي، التسبيح المعروف
بتسبيح الزهراء، أخذته بقوة لتحوّله -رأساً- إلى منهج علمي، وسلوك
يتحرك بنوره في الناس.. فهي بدل أن تذهب إلى بيتها نراها ذهبت
إلى قبر الحمزة بن عبدالمطلب لتصنع من تراب القبر حبات لمسبحتها
التي ستدير تسبيح الزهراء فيها!.

وهنا أود أن أتوقف معكم لحظات نتأمل من خلالها هذا الحديث
العظيم إذ لا شك أن ذهابها في هذا الوقت بالذات، وبهذه المناسبة
بالذات أيضاً، إلى قبر سيد الشهداء الحمزة بن عبدالمطلب الذي هدّ
مصرعه قلب النبي فقال في تأبينه: ما وقفت موقفاً أغيظ عليّ من
هذا الموقف حيث كانت هند زوجة أبي سفيان قد قامت بأبشع جريمة



يمكن أن تقوم بها امرأة في مثل وضع هند آكلة الأكباد، إذ شقت صدر الحمزة ثم جدعت أنفه، وأذنه، وقطعت أعضائه وشوهت صورته النورانية بوحشية وحقد يظهران نكسة الشر في طبعها، والدناءة والخبائثة القابعة في داخلها. والمعروف أن الحمزة بن عبدالمطلب، يوم شهادته في أحد، كان صائماً فأفطر في الجنة مع الشهداء والصديقين والزاكيات الطيبات فيما تغتدي وتروح على روحه الطاهرة. فهو يومذاك كان يمثل قمة الشهادة، وسيد الشهداء، لأنه قتل يوم أحد، وأحد قبل يوم كربلاء بقرابة خمسين عاماً من الزمن، ومعنى ذلك أن الحمزة كان سيد الشهداء بحق ودون منازع. فماذا يعني بالنسبة لنا ذهاب فاطمة إلى قبر الحمزة سيد شهداء أحد؟

إن فاطمة عندما تذهب إلى قبر الحمزة، وتصنع مسبحة من التراب الممزوج بدم الشهادة، فإنها تعطينا درساً بليغاً في أن الشعار وحده لا يبني مجتمعات، وقيم أمة، وإنما لا بدّ للشعار من محتوى عملي، ومنهج تطبيقي.. وبكلمة: لا بدّ للشعار من ممارسة فعلية وذلك أن الشعار لا بدّ له من هدف يتجه نحوه، ومن دون هدف، يغدو تافهاً لا يثير دهشة أحد، ولا يشد انتباه أحد، ولا يربط على قلب أحد. وأقبح ما يكون أن يرفع الإنسان شعاراً يخالفه.. ويعمل ضده..

يقول القرآن الكريم في هذا المضمار: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (١).

(١) البقرة/ ٤٤.



وفي مكان آخر يقول: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كِبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (١).

ولذلك كان ولا يزال. ملاك الشعائر تطبقها.. وأصبح تعظيمها يعني العمل بها.. ولا يطبقها إلا من امتحن الله قلبه للقتوى. ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٢).

وللفائدة أقول: إنه لا فرق بين الشعار والشعيرة في هذا الموضوع بالذات.. فالشعار جمعه شعارات والشعيرة جمعها شعائر، ولكنها تصب في نهر واحد، لأن الغاية من ذكرها هنا تحقيق غاية سامية، وهدف شريف رباني وإذا كان الشعار وحده لا يبني مجتمعا خاصة إذا كان خالياً من دون محتوى، فإن أهداف الشهادة هي المضمون الجيد للشعار، وهي المحتوى الراقى لشعائر الله والتسبيح معناه التنزيه لله من كل عبث في الكون والحياة والإنسان، وإذا كان التسبيح معناه التنزيه ومعناه معرفة الله، فمن -يا ترى- ينزه الله، ويعرف الله أكثر من الشهداء؟ إن الشهيد يشكل قمة حضارية عالية في معرفة الحق سبحانه وتعالى، ولذلك صنعت فاطمة حبات المسبحة من تراب أقدس شهيد هوى إلى الأرض بين يدي رسول الله ﷺ.

يكفي أن الزهراء حين تصلي وتسبح الله في صلاتها، تتمثل صورة الشهادة في أنصع أشكالها، وأروع معانيها أمام عينيها.. وكفى بذلك فخراً وتربية، وارتفاعاً في سماء المجد، وآفاق السماحة والشجاعة،

(١) الصف / ٢-٣.

(٢) الحج / ٢٢.



والفصاحة والمحبة في قلوب المؤمنين. من هنا جاءت فكرة السجود على تراب كربلاء، لأن تراب كربلاء تضمّن جسد الحسين عليه السلام.. ومن هو الحسين؟ الحسين بن رسول الله.. الحسين بن فاطمة.. الحسين الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «حسين منّي وأنا من حسين أحبّ الله من أحبّ حسيناً» علماً بأن الرسول قال: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً». فالسجود على الأرض وترابها سنة شريفة متبعة في سيرة النبي الأكرم.. ونحن عندما نسجد على قطعة من تراب كربلاء ونحتفظ بها في جيوبنا فإن ذلك يرمز إلى شيئين:

الأول: أننا نطبق سنة شريفة جارية، وهي السجود على الأرض وفقاً لتعاليم الحبيب المصطفى.

والثاني: أننا نتذكر الحسين دائماً الذي كان أقرب الناس إلى قلب جده رسول الله، والذي كان يوم عاشوراء يلبس جبة النبي، وعمامته.. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١).

وقد أتانا النبي بالحسين وأهل بيته، فقال: «حسين منّي وأنا من حسين أحبّ الله من أحبّ حسيناً».

(١) الحشر/ ٧.



فاطمة تصنع سبحة من تراب الشهداء

فكما أن الزهراء، تريد أن تجعل أهداف الشهداء نصب عينيها حين تصنع سبحة لها من تراب قبر الشهيد، كذلك نحن نريد أن نتذكر أهداف الإمام الحسين عليه السلام حين نصلي على قطعة من تراب أرض كربلاء المقدسة.

إذن ففاطمة الزهراء، بذهابها إلى قبر الحمزة، أعطت شعيرة التسبيح هذه دفقاً معنوياً، وحياة، وعطاءً تربوياً لا حدود له، هذا بالإضافة إلى أنها علمتنا كيف نتعامل مع شعائر الله، وكيف نحول الشعار إلى سلوك عملي نمشي به في الناس. على أن تسبيح الزهراء، قد صبّه النبي في إطار تربوي عميق حين جعله يبدأ بالله وينتهي بالله عز وجل كما بينا ذلك من قبل. إن نظرة فاحصة نلقيها على هيكل التسبيح المذكور، ترينا بوضوح، أن التسبيح مؤلف من أربع وثلاثين تكبيرة وثلاث وثلاثين تحميدة.. وثلاث وثلاثين تسبيحة وهذا يعني أنه بدأ بـ الله أكبر. فأول كلمة في التسبيح هي كلمة الله إذ أنه لو بدأ مثلاً في التحميد لكانت أول كلمة فيها كلمة الحمد وليس كلمة الله. وهكذا أراد النبي لهذا التسبيح أن يصب في قالب تربوي كما هو شأن كل الشعائر الإسلامية.. فجعله يبدأ بـ الله أكبر.. وينتهي بـ سبحان الله إنه بدأ بالله وختم بالله.. وهذا هو المراد من الإطار التربوي في منهج التسبيح.. وهو موافق لسلسلة الفكر الإسلامي في القرآن الكريم.. فنحن نعرف أن أول كلمة نزلت في القرآن هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ..﴾ والرب كلمة مشتقة من التربية، بمعنى أن القراءة

المطلوبة يجب أن تكون في إطار التربية الربانية.. وإلا لكان يقول: اقرأ باسم الله الذي خلق.. ولكنه لم يقل باسم الله الذي خلق، في هذه السورة بالذات، وإنما قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ..﴾ هذا بالإضافة إلى أن القراءة معناها تغذية العقل، لأن العقل يتغذى بالعلم، ومن دون علم تموت العقول، وحين يقول الحق سبحانه: اقرأ باسم ربك.. فإن ذلك يعني غذ عقلك بالتربية العلمية، حتى يصل عقلك إلى مرحلة الرشد الفكري.

إن لفاطمة الزهراء -سلام الله عليها- قدرةً عجيبة، ومدهشة على تصوير المعاني الجافة وإعطائها صوراً حية، ثم منحها ريشاً رقيقاً تحلق فيه المعاني في أرفع درجات الفهم، والاستيعاب.. وإن قدرتها -كما قلت آنفاً- على تصوير قضايا الإسلام تصويراً دقيقاً، لمدهشة جداً. فما من كلمة تقولها فاطمة، وما من دمة تسكبها من عيناها، وما من خطوة تخطوها إلا صورت الإسلام بكل أبعاده تصويراً حقيقياً وواضحاً يبهر الأبواب ويأخذ بمجامع القلوب. وهذه ميزة في أهل البيت لا يشاركون فيها أحد من العالمين.. بخلاف غيرهم من الناس، أو بتعبير أكثر دقة بخلاف الآخرين.. فالإسلام الذي يعرضه الآخرون يبدو إسلاماً مزيفاً مرقعاً مهلهلاً يضرب بعضه بعضاً، في حين أن الإسلام الذي يعرضه أهل البيت عليه السلام، يبدو إسلاماً يشد بعضه بعضاً، وله نور وعليه حلاوة وجمال رشيق، له قوة جذب شديدة. وبكلمة: الحديث الذي يأتينا من النبي وأهل بيته، وهم فاطمة وعلي والحسن والحسين، والتسعة المعصومون من ذرية الحسين عليه السلام، أقول: الحديث الذي يأتينا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، يأتي حديثاً له نور هو نور القرآن، بل إننا نجد حديثهم يتعاقب



مع القرآن عناقاً طويلاً في مودة وإخلاص.. فليس هناك حديث عن أهل البيت يخالف القرآن أبداً.. ومن هنا جاء حديث الثقلين الشهير الذي تذكره كل كتب الصحاح والحديث بدءاً من صحيح البخاري ومسلم، مروراً بصحيح الترمذي والنسائي وابن ماجه وأبي داود، وانتهاءً بمسند أحمد بن حنبل والصواعق المحرقة لابن حجر العسقلاني.. كل هذه الكتب قد أجمعت واتفقت على كلمة واحدة وهي: أن النبي ﷺ قال: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي، وقد نبأني اللطيف الخبير أنهما -أي الكتاب والعترة- لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

من هذا المنطلق نحن نعتقد بأن كل كلمة وكل حديث صحيح جاء عن النبي أو عن الإمام علي أو فاطمة والحسن والحسين.. أقول: كل كلمة من هؤلاء تعادل آية في القرآن، وكل حديث عن النبي يساوي آية في الحكم.. إن كلمة يقولها الإمام علي، لتساوي آية من القرآن بلا منازع.. وإن آية كلمة قالها الحسن، أو الحسين لتوازي آية في الوزن والثقل والحكم.. بل أكثر من ذلك، إن أي حديث جاءنا عن أحد الأئمة المعصومين من الإمام السجاد علي بن الحسين، أو الإمام الباقر محمد بن علي، أو عن الإمام جعفر بن محمد الصادق، أو الإمام موسى بن جعفر الكاظم.. أو عن الإمام علي بن موسى الرضا أو الإمام محمد بن علي الجواد، أو الإمام علي بن محمد الهادي، أو الإمام الحسن العسكري، أو الإمام الحجة المهدي المنتظر -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام- كل كلمة أو حديث يأتي من هؤلاء الأئمة المعصومين



إنما هو في مستوى القرآن، بل هو والقرآن في درجة واحدة، وذلك لسببين:

الأول: لحديث الثقلين الوارد عن النبي والمتفق على صحته لدى كافة المذاهب الإسلامية، فأهل البيت عدل للقرآن الكريم ومعنى ذلك أن كلامهم هو والقرآن من نور واحد.

الثاني: أن أهل البيت أنفسهم وضعوا ميزاناً لمعرفة فكرهم وحديثهم، والميزان هو القرآن الكريم، حيث قالوا: إذا جاءكم حديثنا فاعرضوه على القرآن فما وافق القرآن فخذوه وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط.

وإذا كانت المعادلة هي أن يكون القرآن هو الميزان، وهو المحك، وهو الحكم الذي لا يضل ولا ينسى.. فإنه من الصدق، والوفاء والإخلاص لله وللرسول أن نقول: إن كلامهم هو من نور القرآن الكريم.. لأنهم رفضوا أن نقبل حديثاً منهم ضد القرآن الكريم.

من هنا، فإذا قلنا إنهم عدل القرآن، فلا غرابة، ولا مغالاة.. لأنهم - أي أهل البيت والأئمة والهداة قالوا لنا: لا تقبلوا أي حديث تسمعوناه ضد القرآن.. بل كل حديث منسوب إليهم ضد القرآن، هو وحده يكشف عن الأيدي الخبيثة والأصابع التي تتحرك في الظلام لإنتاج مثل تلك الأحاديث التي ما أنزل الله بها من سلطان. والتي تشوه وجه الإسلام، وتسيء إلى منازل وحي الله خزان علمه.



مصانع تلفيق الحديث

* تلفيق الأحاديث: تعددت الأسباب والقصد واحد!

ودعوني أضرب لكم مثلاً على ذلك يدل على أن الإسلام الذي يأتي من غير أهل البيت، يأتي دائماً إسلاماً ممزقاً مشوهاً مرقعاً.. على عكس الإسلام الذي يطلع علينا من بيت رسول الله، من بيت فاطمة الزهراء، من بيت علي والحسن والحسين -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام-.

مثلاً، نقرأ حديثاً عن النبي يقول فيه: إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، وأن البكاء يضاعف العذاب على الميت في قبره!!.

هذا الحديث إذا أردنا أن نعرف صحة مصدره، وما إذا كان صحيحاً أم فاسداً، فما علينا أن نعرضه على القرآن الكريم، علماً بأن هذا الحديث بعيد عن أهل البيت بعد السماء عن الأرض.. ولكنه موجود في صحاح المسلمين، ولكن عندما نعرضه على القرآن ينطفئ هذا الحديث بالكامل، وذلك أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (١).

فندرك أن الحديث موضوع ومختلق ولا علاقة له بأحاديث الرسول. لأن الرسول لا يخالف القرآن أبداً. بالإضافة إلى أن السنة النبوية تؤكد ترجيح البكاء والقرآن كذلك يمتدح يعقوب.

(١) الأنعام / ١٦٤.

وبالمثل عندما نقرأ حديثاً مفاده أن الرسول قال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تتكسفان لموت أحد» وذلك يوم كسفت الشمس في وفاة إبراهيم ابن النبي ابن مارية القبطية أم المؤمنين.. أقول: حين نقرأ هذا الحديث ونعرضه على القرآن يسقط الحديث، وذلك أن القرآن يتحدث بصراحة عن أن السماء والأرض تشاركان في الحزن على موت المؤمن.. ففي موت الكفار وجماعة فرعون يقول القرآن: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (١).

فإذا كانت السماء لا تبكي لموت الكافر، فإنها تبكي لموت المؤمن، لأن لكل منطوق مفهوماً فإذا كان المنطوق هو عدم بكاء السماء في موت الكفار، فإن المفهوم يكون إثبات بكاء السماء والأرض لموت المؤمن.. ولهذا يقول الإمام علي عليه السلام: «إذا مات المؤمن بكاه موضعان: موضع في الأرض، وآخر في السماء أما الذي في الأرض فمصلاه - أي مكان دعائه وصلاته وعبادته - وأما الذي في السماء فموضع عمله الصالح..» وذلك قول الله سبحانه: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

ومعلوم أن مشاركة السماء والأرض في الحزن معناه أنهما تشاركان في الحزن على طريقتهما الخاصة، مثل هياج العواصف والرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وكسوف الشمس، وخسوف القمر وغير ذلك من الأمور التي تشارك السماء فيها بني البشر في الأحزان والأفراح.. ففي مولد الرسول ﷺ حدثت إرهابات كونية مثل سقوط شرفات طاق كسرى، أو قصر ملك الفرس، وانطفاء نار

(١) الدخان / ٢٩.



المجوس، وأيضاً فقد غارت بحيرة ساوة وأمثال ذلك أشياء كثيرة مثل
النور الذي انطلق من مكة وغطى الآفاق وأشرقَت الأرض بنور مولد
الحبيب المصطفى محمد ﷺ.

إذن: فالسماء والأرض تشتركان في الأفراح والأحزان.. والشمس
تتكسف لموت المؤمن.. كما أشارت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء
في خطابها أن الشمس كسفت في موت أبيها رسول الله ﷺ حيث
قالت: «أتقولون مات محمد ﷺ فخطب جليل استوسع وهنه، واستتهر
فتقه، وأنفق رفته، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت النجوم لمصيبته».

على أن الشيء الملفت للنظر هنا في كلمة الزهراء هذه، هو أن
فاطمة تؤكد أنه ليست الشمس وحدها التي كُسفت لموت النبي، بل
وأيضاً بقية النجوم والشموس هي الأخرى انكسفت لموت رسول الله..
وواضح أن الشمس نجم، وحين تقول: كسفت النجوم فإن ذلك يعني أن
الشموس كلها في هذا الكون الفسيح انكسفت وحزنت وبكت لموت
النبي ﷺ.

أما لماذا جاء هذا الحديث الذي ينفي كسوف الشمس لموت أحد؟
فذلك واضح وضوح الشمس في رابعة النهار. القصد كله، والهدف
وراء هذا الحديث هو ضرب شعائر الحسين في يوم عاشوراء.. وذلك
أن الشمس كسفت يوم عاشوراء، وغارت النجوم في السماء، ومطرت
السماء دماً عبيطاً، وهذه حقيقة لا غبار عليها، قد جاء ذكرها في أهم
كتب الحديث والتاريخ الإسلامي، وذكرتها كافة المذاهب الإسلامية،
ومفادها: أن الدنيا مطرت يوم عاشوراء دماً، وأنه ما رفع حجر عن
حجر، إلا ووجد تحته دم عبيط.. وحتى أبو العلاء المعري يصف



الحمرة المغربية والمشرقية في السماء بأنها من جراء مقتل علي
والحسين -عليهما السلام- فيقول:

وعلى الأفق من دماء الشهيدين علي ونجله شـاهـدان
فهما في أواخر الليل فجران.. وفي أولياته شفـقان

وقد ذكرت ذلك وأشارت إليه بطلة كربلاء السيدة المجاهدة زينب
ابنة علي بن أبي طالب. تلكم المرأة الشجاعة التي أصبحت مواقفها
بطولات تتغنى بها الأجيال كافة. قالت في خطبتها في الكوفة:
«أفـعـجـبـتـم إن مطرت السماء دماً.. ولعذاب الله أخـزى وأنتم لا
تتصرون».

إذن: فحديث أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تتكسفان
لموت أحد، أقول هذا الحديث إنما هو من نسيج الأمويين في محاولة
لضرب شعائر يوم الطف يوم عاشوراء. وهو يشبه إلى حدٍ بعيد
الأحاديث التي صنعتها السياسة الأموية الحاكمة، والتي تقول: إن النبي
يأمرنا بصيام يوم عاشوراء.. وكل ذلك فرحاً بمقتل الحسين عليه السلام!!.

واعجباً أيقـتـل الحسين ربحانة رسول الله، وبنو أمية يفرحون؟! ولكن
إذا عرفت من هم بنو أمية يزول العجب، وتطفئ الغيرة. أو نسمع
حديثاً مثل: «إن الرب يوم القيامة يضع رجله في نار جهنم ليست
نداءها: هل من مزيد.. هل من مزيد..» فإذا عرضنا هذا الحديث على
القرآن الكريم نجد القرآن يقول: ﴿ليس كمثله شيء﴾.

وإذا كان ليس كمثله شيء، فكيف تكون لله رجل يضعها في نار
جهنم.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؟



والأمثلة موجودة وكلها تدل على أن الفكر الصحيح الذي يوافق القرآن هو فكر أهل البيت وليس فكر غيرهم من الآخرين الذين لا علاقة لهم بالإسلام ولا بمعرفة القرآن.. والله سبحانه يأمرنا بأن نرجع إلى أهل البيت عليهم السلام حيث يقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١).

وأهل الذكر هم محمد وأهل بيته.. أصحاب الكساء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وفاطمة هي خامسة أصحاب الكساء.

(١) النحل / ٤٣.



الكتابة تبدأ من فاطمة عليها السلام

الكتابة تبدأ من فاطمة وليس من غيرها، لأن فاطمة هي النبع الأصل في الفكر الإسلامي، وهي أول كاتبة في الإسلام ولها في الكتابة منهج علمي دقيق، يستحق الوقوف عنده للتأمل وأخذ العبرة والفكرة. فما من كتابة لفاطمة إلا وفيها طلعات فكرية رائعة وصائبة، فمثلاً في قضية التسبيح الذي مر ذكره نجد فاطمة قد حولت هذا الشعار - كما قلنا - إلى برنامج عملي وتربوي وأخلاقي، وذلك عندما ذهبت إلى قبر الحمزة، وصنعت من ترابه حبات لمسبحتها. وهدفها من وراء ذلك، أن تعطي الشعائر الدينية بعداً أخلاقياً، وتربوياً، ومنهجياً بشكل يؤتي ثماره ونتائجه الجميلة يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة.

وأما كيف كانت فاطمة تعامل فضة الفتاة الأفريقية التي كانت تعمل في بيتها، فقصتها من أروع ما قرأناه في سجل التواضع العظيم وقد تحدثنا كثيراً عن هذا الموضوع في هذا الكتاب إن بيت فاطمة، هو بيت النبي المصطفى، والوصي المرتضى، وهو بيت السبطين الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، وهو بالتالي البيت الذي تشرف جبرائيل بالخدمة فيه.. فما بال الناس لا يأتون لهذا البيت يتبركون فيه، وفي أعتابه. إنه بيت عظيم بقدر ما هو متواضع كما يقول

الشاعر في وصفه موجهاً خطابه للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً:
وبيـتـك وهو بسـيـط بما حوته جوانبه الأربع
فزواية منه فيها الحـصـيرُ إلى جنبه جرةٌ توضعُ
وأخرى بها من جريد النخيل سرير قوائمه ترفع
وأنية الطين وهي الكؤوس وفي كف مالهـا تصنعُ
وتلك رحي مَجَلَّتْ راحةُ لطحن الشعير بها تسرعُ^(١)
ويقول آخر:

كوخٌ وجبةٌ صوفٍ ثم في طبق قرصاً شعير بكف الظهر مطحون
وقد شاء الله لذلك الكوخ أن يتحول إلى منائر وقباب يجللها الذهب
الإبريز تلمع في أشعة الشمس تخطف أبصار الناظرين، وتتعش قلوب
المؤمنين.. وهي من السمو والارتفاع، بحيث تزاحم الجوزاء، وتعانق
السحاب في الفضاء، يقول شاعر هادف:

لعل بـباب علي أيها الذهب واخطف بأبصار من سرُّوا ومن غضبوا
وقل لمن كان قد أقصاك ناحية عفواً إذا جئت منك اليوم أقرب
لعل بادرة تبدو لحيدة أن ترتضيك لها الأبواب والعتب
ما قيمة الذهب الوهاج عند يد على السواء لديها التبر والترب
فأين الثرى وأين الثريا وأين معاوية من علي..؟ معاوية كان قد بنى

(١) الشاعر هو المرحوم الشيخ عبدالمنعم الفرطوسي.

قصرًا في الشام أطلق عليه اسم قصر الخضراء وكان البناء قد كلفه ملايين الدراهم والدنانير.. في حين أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كان يجلس في كوخ متواضع بناه من جريد النخل وسعفات الهجير.. ولكن الله سبحانه شاء لقصر معاوية أن يصبح أثراً بعد عين، عبرة لمن اعتبر، وشاء الله سبحانه لكوخ علي أن يتحول إلى أسمى وأعظم مكان مقدس يمكن أن يزوره إنسان.

وإني لأتذكر قصيدتين بهذه المناسبة الأولى قالها محمد مجذوب وهو من علماء السنة، والثانية قالها المرحوم الشيخ الفرطوسي وهو من علماء الشيعة، وكلتا القصيدتين تصبان في رافد واحد، وتجريان إلى غاية واحدة، وهي أن الدار الآخرة يجعلها الله سبحانه وتعالى للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١).

وليس فقط الدار الآخرة بل وأيضاً دار الدنيا فإنها تميل كفتها إلى الأتقياء الأبرار، وليس إلى الطغاة المفسدين، وإن بدت الصورة خلاف ذلك. يقول محمد مجذوب حين وقف على قبر معاوية في الشام:

أين القصور أبا يزيد ولهوها	والصافنات وزهوها والسؤدد
أين الدهاء نحرت عزته على	أعتاب دنيا سحرها لا ينفد
هذا ضريحك لو بصرت ببأسه	لأسال مدمعك المصير الأسود
كتل من التراب المهين بخربة	سكر الذباب بها فراح يعريد..

(١) القصص/٨٣.



خفيت معالمها على سكانها
ومشى بها ركب البلى فجدارها
أبا يزيد وتلك حكمة خالق
قُمْ وارمق النجف الأغرب بنظرة
تلك العظام أعز ربك شأنها
أبدأ تباكرها الوفود يحثها
نازعتها الدنيا ففزت بوردها
ثم انطوى كالحلم ذاك المورد

تلك كانت قصيدة الشيخ المجذوب.. وأما قصيدة المرحوم الشيخ
عبد المنعم الفرطوسي التي أنشدها في كربلاء المقدسة في المهرجان
الكبير الذي انعقد بمناسبة ذكرى مولد الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام
فيقول في مطلعها:

هنا الرذيلة من هند وميسون
هنا رمامٌ من الآثام لو وزنت
هنا صحائف بغي لا تحيط بها
هنا ابن هند نمت بالغدر بذرقه
هنا معاوية في قعر مزيلة
يا قبر أخبث خلق الله أين ثوتُ
وأيّن أنت فلا عين ولا أثر
ورحت أنشد في الحانات تائهة

تعري فتكسى بأبراد الشياطين
بها السماوات خفت بالموازين
من المظالم آلاف الدواوين
على الخبيثين من ماء ومن طين
تغص بالخزي من لعن الملايين
سود الفضائح من حمر الكوانين
لشر لؤم بقلب الغدر مدفون
ضاعت بملقط خزي غير مأمون

فلم أجد غير أكوام مبعثرة من التراب اكتست بالذل والهون
راح الذباب يغنيها فيطريها من الطنين بترنيم وتلحين
وللخنافس جيش بات يحرسها كأنما هنَّ من جند السلاطين
ولم تزل تحتفي في حان روضتها مواكب الفار من حين إلى حين
إلى أن يقول:

وهذه زينب بالأمس تحسبها في غوطة الشام من أسرى فلسطين
وهذه القبة النوراء مرقدتها..

إلى آخر القصيدة التي تكشف عن حقيقة: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ
فَيَمَكُّهُ فِي الْأَرْضِ﴾.



رؤية جديدة

للسباحة والتسبيح

هناك ترابط وثيق بين السباحة، والتسبيح، فالتسبيح مأخوذ من السباحة، والسباحة معناها أن تعوم فوق الماء أي تستعلي بجسمك فوق أمواج الماء، وإذا عرفنا ذلك، فإن مفهوم التسبيح يعني العوم فوق الحياة الدنيا.. بمعنى عمّ بنفسك فوق الدنيا، ولا تنزل إلى الحياة، بل ارفع نفسك فوق كل المغريات، وفوق كل الشهوات، فإن للإنسان المؤمن كرامة لا تعادلها الدنيا برمتها.

وعلى الواحد منا أن يرفع نفسه عن كل دنية وإن ساقته إلى الرغائب.. فالرسول الأعظم ﷺ يقول ما معناه: أقبح شيء في المؤمن أن تكون له رغبة تذله. ويقول: إن الله قد فوض للمؤمن كل شيء ولم يفوض له أن يذل نفسه. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ (١).

إن تسبيح الزهراء، مدرسة تربية كبرى، تعلمنا كيف نكون أحراراً، وكيف يعلو الواحد منا على شهواته، وسقطاته. فالإنسان ليس وحده الذي يسبح الله ويقدسه، وإنما كل الأشياء وكل الكائنات الحية وغير الحية، كلها تشترك في موكب صلاة وتسبيح واحد، لا يكاد يفلت منه

(١) التوبة / ٣٨.



أحد، ولا يتخلف عنه مخلوق، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١).

فالنجوم العملاقة في مداراتها الغارقة في أعماق الفضاء، تسبح الله وتقده..

والشجر، والنبات والحيوانات بكل صنوفها تشترك في هذا الموكب الرهيب الذي يثير الدهشة، ويجتذب القلوب.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (٢).

وفي قصة الهدد مع سليمان، في حديثه عن بلقيس ملكة سبأ، نجد أن الهدد كان في قمة الدهشة عندما وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله!! وذلك أن الهدد بفطرته يعرف أن السجود لا يكون إلا لله وحده، وأن العبادة والتسبيح كلها لله عز وجل.. فكيف يسجد هؤلاء القوم للشمس من دون الله؟ .. وهل أرسلت الشمس إليهم رسولها؟ وهل أعطتهم الشمس منهجاً في الحياة وطلبت منهم أن يطبقوه؟ وإذا كان الجواب سلبياً فلماذا إذن يعبدونها، ويتركون عبادة الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى.

وهكذا كان نبع الفطرة يتدفق على لسان الهدد أمام النبي العظيم سليمان بن داود عليه السلام.

(١) الإسراء / ٤٤.

(٢) النور / ٤١.



يقول الإمام علي عليه السلام لولده: واعلم يا بني أنه لو كان لريك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه» وفي القرآن الكريم نقراً ﴿وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿ (١)

إذن فالهدد إنما كان مدهوشاً بفعل سجود بلقيس وقومها للشمس، وذلك أن الطير كلها صافات في صلاة وتسبيح لله وحده لا شريك له.



وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾^(١).. أي نزه الله سبحانه عن السوء، والشرك، وعظمه بحسن الثناء عليه، ومعناه أيضاً: نزه اسمه عما لا يليق به.. فلا تُضِفْ إليه صفة نقص أو عملاً قبيحاً.. ومعناه أيضاً: قولوا سبحان ربي العظيم.. والعظيم في صفة الله تعالى معناه كل شيء سواه يقصر عنه فإنه القادر العالم الغني الذي لا يساويه شيء، ولا يخفى عليه شيء، جلت آلاؤه، وتقدّست أسماؤه. من تفسير آية سورة الواقعة.

ويقول في معنى قوله تعالى: فسبح في معنى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، أي فبريء الله تعالى مما يقولون في وصفه، ونزهه عما لا يليق بصفاته، وقيل معناه قلّ سبحان (الله) ربي العظيم، فقد صح عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية قال: «اجعلوها في ركوعكم». تفسير مجمع البيان في سورة الواقعة.

وقد جاء التسبيح بكل الصيغ، الماضي، والحاضر، والأمر، والمصدر سَبَّحَ.. ويسبِّح... وسبِّح.. وسبحان الله. ومعنى ذلك أن التسبيح له صفة الاستمرارية في كل شيء في هذا الكون، فما من شيء إلا وهو يسبح الله ويقدسه، ابتداءً من الذرة والخلية، ومروراً بالنبات والشجر، وانتهاءً بالنجوم العملاقة التي تسبح في أعماق الكون.

يقول القرآن الكريم: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

(١) الواقعة / ٧٤.

(٢) الحديد / ١.



ويقول: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِي الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

ويقول: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢).

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «تقول حين تصبح وحين تمسي عشر مرات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير». (٣)

وفي آية أخرى يقول: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِي الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤).

وتعالوا معي، نمشي في ظلال رحلة التسبيح في القرآن الكريم لنقرأ آيات التسبيح في القرآن الكريم لنقرأ آيات مباركات، وذلك حتى نتوجه أكثر فأكثر لاستيعاب تسبيح الزهراء -سلام الله عليها- وواضح جداً، أن قراءة القرآن تفتح آفاق النفس الإنسانية وتحيي القلوب، وتفجر الطاقات، وهي فوق هذا كله، لها ثواب عظيم وجزاء كبير لا يعرف مداه وحجمه إلا الله سبحانه وتعالى.

* ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥).

(١) الحشر/ ٢٤.

(٢) ق/ ٣٩-٤٠.

(٣) بحار ١٣٤/٦٥.

(٤) الحشر/ ٢٤.

(٥) الحديد/ ١.

* ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (١).

* ويقول في سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (٢).

* ويقول في آية رابعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

* وفي سورة الأعلى وفي أول آية من السورة يقول: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ (٤).

وفي أول سورة الإسراء يطالعنا القرآن بمصدر التسبيح فيقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٥).

ولمن يريد أن يلم برحلة التسبيح في القرآن، أقدم هذه السلسلة الرائعة من الآيات الكريمة في القرآن، التي تتحدث عن رحلة التسبيح في كتاب الله العزيز:

(١) الحشر والصف / ١ .

(٢) الجمعة / ١ .

(٣) التغابن / ١ .

(٤) الأعلى / ١ - ٥ .

(٥) الإسراء / ١ .

- ١ - سورة الإسراء، رقم الآية ١ .
- ٢ - سورة الحديد، رقم الآية ١ .
- ٣ - سورة الحشر، رقم الآية ١ .
- ٤ - سورة الجمعة، رقم الآية ١ .
- ٥ - سورة الصف، رقم الآية ١ .
- ٦ - سورة الأعلى، رقم الآية ١ .
- ٧ - سورة التغابن، رقم الآية ١ .
- ٨ - سورة الحاقة، رقم الآية ٥٢ .
- ٩ - سورة الفتح، رقم الآية ٩ .
- ١٠ - سورة النور، رقم الآية ٤١ .
- ١١ - سورة الصافات، رقم الآية ١٦٦ .
- ١٢ - سورة الحشر، رقم الآية ٢٤ .
- ١٣ - سورة الإنسان، رقم الآية ٣٦ .
- ١٤ - سورة النور، رقم الآية ٣٦ .
- ١٥ - سورة الإسراء، رقم الآية ٢٤ .
- ١٦ - سورة الأحزاب، رقم الآية ٤١-٤٢ .
- ١٧ - سورة الرعد، رقم الآية ١٣-١٥ .
- ١٨ - سورة الأنبياء، رقم الآية ٢٠-٧٩ .

- ١٩ - سورة الزمر، رقم الآية ٧٥ .
٢٠ - سورة غافر، رقم الآية ٧ .
٢١ - سورة فصلت، رقم الآية ٣٨ .
٢٢ - سورة الشورى، رقم الآية ٥ .
٢٣ - سورة ق، رقم الآية ٤٠-٤٩ .
٢٤ - سورة الصافات، رقم الآية ٤٣-١٤٤ .
٢٥ - سورة ص، رقم الآية ١٨ .
٢٦ - سورة القلم، رقم الآية ٣٨-٦٨ .
٢٧ - سورة طه، رقم الآية ٣٣-١٣٠ .
٢٨ - سورة آل عمران، رقم الآية ٤٢ .
٢٩ - سورة الفرقان، رقم الآية ٥٨ .
٣٠ - سورة نصر الله والفتح .
٣١ - سورة غافر، رقم الآية ٥٥ .
٣٢ - سورة الطور، رقم الآية ٤٨ - ٤٩ .

فهذا الموكب النوراني من الآيات الكريمة يصور لنا حقيقة رحلة التسبيح في القرآن، وإن الكل يشترك في هذا التسبيح سواء عرفنا ذلك أو لم نعرفه.. لأن الملاك في ذلك ليس معرفتنا لنوع اللغة التي تسبح الله بها الكائنات.. فاللغات ليست واحدة، وليس معنى اللغة طريقة النطق التي نمارسها نحن أبناء آدم، وإنما هناك لغات خارجة



عن حدود معرفتنا وليس في الإمكان معرفة هويتها وكنّها..
فالإشارات اللاسلكية -مثلاً- هذه تعتبر لغة لدى كافة شعوب الأرض،
ومع ذلك فهي ليست لغة لها تراكيب اللغة البشرية. وإشارات المرور
هي الأخرى لغة يتقنها أغلب سكان الأرض، فالكُل يعرف أن اللون
الأحمر أو الضوء الأحمر معناه قف، بينما اللون الأخضر معناه انطلق
ويبقى اللون الأصفر الذي يعطي معنى التريث وأخذ الحذر.

والطير له لغة أيضاً، فالقرآن الكريم يقول: ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ (١).
ويقول: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ
وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ (٢).

ولو كان سليمان لا يعرف لغة النمل، لما تبسم ضاحكاً من قولها.
إذن: فكل شيء في هذا الكون له لغة وله منطق، ولكننا لا نفقه لغته
ولا نعرف منطقته.

ويقول: ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (٣).
وفي آية أخرى يقول: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ
الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (٤).

فكل شيء له لغة وله منطق غير أننا لا نفقه تلكم اللغات اللهم إلا أن
يكون نبياً أو وصي نبي أو أحد الأئمة الهداة الذين علمهم الله منطق

(١) النمل / ١٦.

(٢) النمل / ١٨-١٩.

(٣) الإسراء / ٤٤.

(٤) فصلت / ٢١.

كل شيء.. أما نحن فلا حظاً لنا من ذلك على الإطلاق. وفي حديث أن
الحصى كانت تسبح في كف النبي ^(١) والصحيح هو أن النبي كان
يسمع صوت الحصى حينما تسبح الله وتقديسه.. وإلا فالحصى هي
مسبحة لله في يد النبي وفي يد غيره من البشر، غاية ما في الأمر أن
الأنبياء لهم قدرة على سماع هذا التسبيح بشكل واضح وملموس.

(١) دلائل الصدق ص ٥ فاطمة بهجة قلب المصطفى ١/٣٠١.



الطريق إلى تسبيح فاطمة عليها السلام

* معالم تسبيح الزهراء:

والآن وبعد هذه الجولة السريعة في رحاب التسبيح، وبعد هذه السباحة في شاطئ تسبيح الصديقة فاطمة الزهراء -صلوات الله وسلامه عليها- فإنه يجدر بنا أن نرجع إلى معالم هذا التسبيح الذي أصبح شعاراً يرفعه المناضلون، والمجاهدون في وجوه الطفلة والجلادين.. بل إن هذا التسبيح -أعني تسبيح الزهراء- قد جمع كل مناهج الإنسان المؤمن في الحياة، فهو يبدأ ب الله أكبر.. ثم الحمد لله وينتهي ب سبحان الله. وهذه هي مناهج المؤمن ومعالم الإيمان في الأرض.

أن تبدأ بسم الله.. وتعتقد أن الله أكبر من كل شيء في هذا الوجود، إنه أكبر من المال، وأكبر من السلطان، وأكبر من الأهل، والنفس، والحياة، وإذا كان الله أكبر من كل هذه الأشياء، فمعنى ذلك أنك تكون على أهبة الاستعداد لأن تضحي بنفسك وأهلك، ومالك وكل غالٍ ونفيس في سبيل كلمة «الله أكبر».. ومن ندرك السرّ المكنون الذي جعل الصديقة فاطمة تذهب إلى قبر الحمزة سيّد الشهداء وتصنع من تراب قبره حبات لمسبحتها، وكأنها بهذا العمل تلقّنا درساً لا ننساه أبداً، وهو أن كلمة الله أكبر التي جاءت في أول تسبيح الزهراء، هذه الكلمة لا يحفظها إلا الشهداء، ولا يحصنها من غائلة العوادي إلا دماء الشهداء..



إن كلمة الله أكبر.. تعني الصدق والوفاء، والإخلاص، والشجاعة،
والعفة، والزهد والشرف الرفيع، وهذه لا تسلم أبداً من أيدي العابثين
إلا بسفك المهج، وإراقة الدماء. على أن هناك ملاحظة يبدوها الإمام
الصادق عليه السلام في تفسيره لكلمة التوحيد: (الله أكبر) يقول فيها: الله
أكبر من أن يوصف.

وصدق الشاعر حين قال:

لا يسلمُ الشرفُ الرفيقُ من الأذى حتى يراقُ على جوانبه الدّمُ
ويقول أبو القاسم الشابي:

إذا الشعبُ يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدرُ
ولا بدّ ليل أن ينجلي ولا بدّ للقيد أن ينكسرُ

أجل.. إن فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- لتدرك جيداً أن هذا
الشعار الذي أخذته من النبي لا يمكن حفظه إلا بالتضحية، والشهادة،
ولذلك قامت بخطوة تكريمة للشهداء، وهي أنها جعلت من تراب قبر
الشهيد حبات لمسبحتها، لتدير عليها هذا المنهج الملائكي النوراني
الذي سُمّي: تسبيح الزهراء.

ونفس الشيء يقال بالنسبة للحمد، فالحمد هو أعلى قمة يمكن أن
يصل إليها إنسان. من هنا كانت سورة الحمد أم الكتاب، لأنها جمعت
التعبير كله ولخصت مسيرة الأنبياء جميعاً في مضمونها. وسيأتي
الكلام حول سورة الحمد بشيء من التفصيل في مكان آخر من هذا
الكتاب إن شاء الله.



وكما في التكبير والتحميد كذلك في التسبيح؛ هو سبحان الله وكما قلت سابقاً إن هذا التسبيح جاء مصبوحاً في قالب أدبي وأخلاقي وتربوي، وذلك أنه بدأ «بإسم الله»، وانتهى «بإسم الله»، فهو يبدأ بـ «الله أكبر».. وينتهي بـ «سبحان الله»، فنجد كلمة الله في أوله، والله في آخره، ولو بدأ بـ «الحمد لله» مثلاً لما حصل هذا المعنى وهذا الإطار التربوي الجميل. وهو مشتق ونابع من قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.



ساعة الدعاء عند فاطمة عليها السلام

إن هناك ساعات خاصة في استجابة الدعاء، وعلى المؤمن أن يبحث عنها ويفتش عن وقتها، ومن تلکم الساعات التي يستجاب بها الدعاء، رغم أن كل الساعات، مهياة لاستجابة الدعاء، هي الساعة التي ورد ذكرها في يوم الجمعة، ولكن من دون أن نعرف أي ساعة هي، وهنا نجد الزهراء -سلام الله عليها-، قد حددت الساعة المذكورة، وعينت وقتها عند هبوط الشمس إلى المغيب، فكانت تقول: سمعت النبي ﷺ يقول: إن في الجمعة لساعة، لا يوافقها رجل مسلم، يسأل الله عز وجل، فيها خيراً إلا أعطاه، قالت فاطمة: فقلت: يا رسول الله، أي ساعة هي؟

قال: إذا تدلى نصف عين الشمس للغروب.

وكانت فاطمة تقول لغلامها: اصعد على السطح، فإن رأيت عين الشمس قد تدلى للغروب، فاعملني حتى أدعو. ^(١)

الإيمان قبل الهداية

نعم، الإيمان قبل الهداية فالإيمان منك، والهداية من الله.. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ ^(٢).

ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ

(١) فاطمة الزهراء ص ٦٨ لمحمد علي دخیل.

(٢) التغابن / ١١



تَحْتَهُمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَ دَعَوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾.

أي أن الإيمان هو الذي يهدي الناس إلى الخير.. يهديهم ربهم بإيمانهم، مثل قولك: إن الفلاح الذي يحرق الأرض، ويزرعها، يطعمه الله بزرعه. وهذا مثال للتقريب، والله المثل الأعلى.

ومن هذا المنطلق فإن حركة الإيمان تبدأ من الإنسان، لأن الله سبحانه قد زود الإنسان بكل آلات الإيمان، وأدوات الفطرة التي بمجرد تحريكها يكفي لإضاءة النفس بنور الإيمان ولكي تأتي الصورة أكثر وضوحاً، نقرأ الآية التالية التي تصور هذا المعنى بشكل واضح جداً. يقول القرآن الكريم:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢).

والذي يقرأ هذه الآية بشكل سطحي وسريع دون أن يحاول التعمق في معناها فإنه يتبادر إلى ذهنه أنه ما دام الإيمان لا يتم إلا بإذن الله، فمعنى ذلك أن الذين كفروا لم يأذن الله لهم بالإيمان!! ولا شك أن هذا اللون من التفكير هو خطأ في فهم هذه الآية الكريمة.. إذ أن الفكرة واضحة جداً في الآية، ويمكن اكتشافها بشيء قليل من التأمل والتدبر في التسلسل الفكري في الآية،.. وللتوضيح نقول: إن الآية قالت: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

(١) يونس/ ٩-١٠.

(٢) يونس/ ١٠٠.



فلو أنها أنهت الكلام عند هذا الحد، لكان الإشكال وارداً، ولكنها تابعت تقول: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

فقد أوضحت الآية معنى ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وذلك في الجملة الأخيرة وهي قوله: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي أن العقل، هو إذن الله بالإيمان، فإذا أردت أن تؤمن بالله فما عليك إلا أن تحرك عقلك وتنفكر في ما خلق الله في هذا الكون من روائع وإبداع وجمال. ولذا نجد الآية تتابع مسيرها في الآية التالية لها مباشرة فتقول: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

إذن فالإيمان قبل الهداية، ولذلك يقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.. فالهداية من الله ولكن الإيمان منك أنت أيها الإنسان لأن أدوات الإيمان وبذوره موجودة وقابعة في أعماقك، وفقط تحتاج إلى إثارة وتحريك. وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾.

ولكن من يتذكر؟ ويجيء الجواب: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَبْلَاءُ...﴾

إن أهل العقول هم وحدهم الذين تتفعهم الذكرى.. لأنهم أصحاب عقول، وحملة فكر ورشد وأدب، وأرباب قضايا مقدسة.. هؤلاء وحدهم هم الذين تتفعهم الذكرى لأنهم مؤمنون، والذكرى تتفع المؤمنين. وهذا دليل على أن التذكير إنما هو محاولة من النبي لإثارة دفائن العقول التي تمثل الإذن الرباني بالإيمان.

(١) يونس/ ١٠١.

يقول الإمام علي عليه السلام في فلسفة بعثة الإيمان للبشر، يقول: «ليثيروا لهم دفائن العقول». والموضوع يصبح أكثر وضوحاً إذا عرفنا أن درجة الهداية تتفاوت بحسب درجة الإيمان عند الإنسان، فعلى قدر إيمان الشخص بالله تكون هدايته إلى طريق الحق. صحيح أننا نقرأ في القرآن الكريم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (١).

ولكن الصحيح أيضاً هو أن الله لا يضل المؤمن، وإنما يضل الكافر. أما المؤمن فيزيده هدىً وتقوى.. ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (٢).

ويقول: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (٣).

أما بالنسبة للكفار، والظالمين والفساقين فيقول القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

إذن فالكافر والفساق، والظالم هؤلاء ثلاث طوائف لا تتألم هداية الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم لأنهم فضلوا العمى على الهدى، ولأنهم اختاروا طريق الشيطان في طواعية وساروا في ركاب الباطل دون أن يجبرهم عليه أحد.. لذلك استحقوا العذاب بما كانوا يكسبون. في حين أن الذين آمنوا زادهم الله هداية ونوراً وعطاءً كبيراً. ويجب أن نعلم أن بذور الإيمان موجودة في أعماق كل إنسان،

(١) فاطر/ ٨.

(٢) محمد/ ١٧.

(٣) الكهف/ ١٣.

وغاية ما في الأمر أن بعضنا ينتفع بهذه البذور، وبعضنا الآخر لا يريد أن ينتفع بها على الإطلاق.. فالذي يستفيد منها وينتفع بها يصير مؤمناً، والذي يدسّها في تراب الغفلة وحمأة الشيطان يصبح منافقاً، وتكون النتيجة هي البعد عن الله سبحانه وتعالى.

ولأن الله نور السموات والأرض، فإن معنى ذلك أن الذي يقترب من الله يزداد نوراً، في حين أن الذي يبتعد عن الله يفرق في ظلام الباطل والشر وتلتف حوله الشياطين التفاف الأخطبوط بنجمة البحر.

«وللأئمة عليهم السلام عناية كبيرة بهذا التسبيح، وهو المقدم عندهم في التعقيب بعد كل فريضة، بل وحتى بعد الصلاة المستحبة»^(١).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام لأبي هارون المكفوف: «يا أبا هارون إنا نأمر صبياننا بتسبيح الزهراء عليها السلام كما نأمرهم بالصلاة فالزمه فإنه لا يلزمه عبد فيشقى»^(٢).

ولذلك نجد الأئمة -سلام الله عليهم أجمعين- كانوا قد أكدوا على هذا التسبيح بشكل جدي في أعقاب كل صلاة.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: «من سبّح تسبيح الزهراء -سلام الله عليها- ثم استغفر غفر له، وهي مائة باللسان وألف في الميزان، وتطرد الشيطان وترضي الرحمان»^(٣).

وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق، -عليه أفضل الصلاة وأزكى

(١) فاطمة الزهراء لمحمد علي دخیل ص ٧٢.

(٢) فاطمة الزهراء لمحمد علي دخیل ص ٧٢.

(٣) فاطمة الزهراء لمحمد علي دخیل ص ٧٢.

السلام-: «تسبيح فاطمة عليها السلام، في كل يوم في دبر كل صلاة» أي في أعقاب كل صلاة» أحب إلي من صلاة ألف ركعة في كل يوم». ^(١)

ويقول في حديث آخر: «من سبح تسبيح فاطمة عليها السلام، قبل أن يثني عليه من صلاة الفريضة غفر الله له، ويبدأ بالتكبير» ^(٢).

وفي حديث ثالث يقول الصادق: في قوله تعالى: ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾.

قال: «من بات على تسبيح فاطمة عليها السلام كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». ^(٣)

وفي رواية عن أهل البيت: «من سبح الله في دبر الفريضة، قبل أن يثني عليه، تسبيح فاطمة عليها السلام المائة، وأتبعها بـ لا إله إلا الله مرة واحدة غفر له». ^(٤)

ويقول الصادق عليه السلام: «من سبح تسبيح فاطمة -عليها السلام-، في دبر المكتوبة (أي في أعقاب الصلاة الواجبة) قبل أن ييسط عليه أوجب الله له الجنة». ^(٥)

وزبدة المخض التي تلخص كل التعبير هي أن العبادة عند فاطمة، ليست طقوساً جامدة، ولا شعائر راکدة.. ولكن العبادة عند فاطمة سلوك يومي يتدفق حباً، وعطاءً وحرارة.. ويتفجر العلم من جوانبه. إن

(١) فاطمة الزهراء لمحمد علي دخیل ص ٧٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) فاطمة الزهراء ص ٧٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

العبادة التي حولتها الزهراء، إلى سلوك يومي، وسيرة ذاتية، لهي الطريق الحق الذي لا ظلام فيه، ولا ضباب، ولا غبار.

والآن.. هل كانت شعائر الله فارغة من المحتوى لدى الزهراء؟ أم أنها أعطتها حركة ومعنى، ومنحتها القيمة والحرارة؟..

أجل.. إن فاطمة ما وضعت يدها على شعيرة من شعائر الإسلام، إلا وأطلقتها تلمع في أشعة الشمس، وفي الهواء الطلق. فما من منهج إسلامي مغمور، إلا وكانت فاطمة الزهراء قد نفضت الغبار عنه، وأمدته بطاقة جذب هائلة، بحيث لا يراه أحد من الناس إلا وانجذب إليه في شوق بالغ ورغبة ملحة. ولهذا فإننا نلمس في سيرتها، كيف حولت التسبيح إلى نداء للشهداء، وصرخة بوجه الطفاة والظالمين.. وكيف كانت تدعو للناس قبل أن تدعو لنفسها في المحراب، وهي بهذه الخطوة تعطي صورة للعبادة، معناها انتزاع النفس من حمأة الأنانية، والذوبان في خدمة الآخرين من أجل رضى الله سبحانه وتعالى، لأنه جعل الخلق كلهم عياله، وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله. فهي -أي الزهراء- سلام الله عليها- لم تأخذ القشور في العبادة دون اللباب، ولم تكتفي بالكلام فقط دون الغوص إلى الأعماق وإنما كانت تشفع قولها بالعمل، لأن الإيمان بلا عمل لا يساوي عند الله شيئاً، هذا بالنسبة لنا بالطبع، أما الزهراء، فقد كانت أنصع صورة للإيمان والعمل الصالح، بل كانت قمة عالية ينحدر عنها السيل ولا يرقى إليها الطير. قمة في الإيمان.. قمة في العمل الصالح. وكانت قمة ربانية يشع الخير من جوانبها.. تضيء الدروب أمام الأجيال وتمنح عطاءها للقريب والبعيد.. أليست هي الكوثر في العطاء؟ ألم يتحدث القرآن الكريم عن فاطمة كأعظم هدية وأكبر منحة من الله قدمها إلى حبيبه المصطفى ليلة الإسراء والمعراج، حيث تشكلت نطفة فاطمة عند سدرة المنتهى وفي جنة المأوى؟.

فاطمة العلياء هي الكوثر

ألم يقل القرآن في خطابه للنبي: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾ (١).

فكانت فاطمة الزهراء- سلام الله عليها- هي الكوثر الذي أعطاه الله رسوله الكريم محمد بن عبدالله ﷺ.

وبالفعل فقد كانت الزهراء بحق الكوثر الذي يملأ الدنيا عطاءً، بل يملأ الكون عطاءً، ويمنح الناس الرحمة والأمن والطمأنينة والسلام. ففاطمة هي التي بلغت بها رقة القلب والحنان على الناس، أن تتزغ ثوبها الجديد ليلة الزفاف وتعطيه لفتاة فقيرة، كانت تبدو عليها آثار الفقر، ورقة الحال. وفاطمة هي التي أطعمت المسكين واليتيم والأسير في ثلاثة أيام متتالية دون أن تذوق من الطعام شيئاً، وكانت يومها تؤدي صوماً بالنذر، هي وزوجها علي وابناها الحسن والحسين- عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام-.

إن السيرة الذاتية لفاطمة، تطالعنا بصور من العطاء تثير الدهشة في النفوس. فالزهراء، هي التي كانت تحمل أطباق الطعام فوق رأسها توزعه على الفقراء والمساكين. وهي التي كانت تبحث عن اليتامى لتمسح الدموع من عيونهم.. وتتفرض التعب عن أجسادهم النحيفة المرهقة.

(١) سورة الكوثر.

إن معرفة فاطمة، ودراسة حياتها، تعني معرفة الإسلام بالكامل، ودراسة فقه القرآن والسنة.. بل إن معرفة الزهراء هي معرفة الأنبياء كافة.. لأنها بضعة المصطفى، وهو أشرف الأنبياء والمرسلين.

ولعلني لا أعدو الحقيقة، ولا أتجاوز الواقع إذا قلت: إن الذي يكتشف الزهراء، يكتشف معنى الوجود، ويدرك لماذا خلق الله الكون والحياة والإنسان، ولماذا أرسل الأنبياء والمرسلين إلى الأمم والشعوب. وفاطمة إنما سميت بالزهراء لأن نورها مشتق من نور الله عز وجل كأبيها محمد المصطفى.. فأول من خلق الله، خلق نور محمد وأهل بيته الطاهرين الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وهم: الخمسة أصحاب الكساء: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين - عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام-. وهذا القول هو من الأخبار والأحاديث المتفق عليها بإجماع الأمة الإسلامية، كما جاء ذلك في صحاح المسلمين، وكتب الحديث والتفسير، والأدب والتاريخ وكافة، بحيث لا يكاد يخلو من ذلك كتاب واحد.. ومن أراد المزيد من الاطلاع فما عليه إلا العودة إلى أمهات الكتب، وصحاح المسلمين، أمثال: البخاري، ومسلم والترمذي، إلى آخر القائمة. إنهم كما صورهم كثير من الشعراء والأدباء النور، نور الله جلّ جلاله، وهم التين والزيتون والشفع والوتر. ومن أجل هذه الأهمية البالغة التي استحقوها من الجميع فإننا نقرأ في الزيارة: «السلام عليكم يا أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعدن العلم، والحلم.. والسماحة والفصاحة والشجاعة، والمحبة في قلوب المؤمنين.. جعل الله أفئدة من الناس تهوي إليكم.. رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت.. أشهد أنكم



كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة، لم تتجسكم
الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسكم من مدلهمات ثيابها. وأشهد أنكم من
دعائم الدين وأركان المؤمنين...».

ويقول الإمام جعفر بن محمد الصادق -عليه أفضل الصلاة وأزكى
السلام-: «سميت الزهراء، لأن نورها اشتق من نور عظمة الله
سبحانه، ولما أشرق نورها، غشي أبصار الملائكة، فخرجوا إلى الله
سجداً». (١) حتى مدحتها إحدى أزواج النبي بقولها: فاطمة خير نساء
البشر، ومن لها وجه كوجه القمر.

كانت تشبه أباه رسول الله ﷺ في النور، والجمال، والفصاحة،
حتى كان الإمام علي عليه السلام يقول: كانت لفاطمة عزاء وسلوة عن رسول
الله ﷺ كانت إذا مشت حكّت كريم قوامه، وإذا نطقت ملأت سمعي
بكلامه، كنت إذا رأيته انجلت عني الهموم والأحزان.

وإني لأرى الدهشة تطل من عينيك -أيها القارئ- وأنت تقرأ هذا
الحديث.. وكأني بالغرابة تتسع في حدقات وجهك، حينما تسمع: أن
نور فاطمة اشتق من نور عظمة الله!.. ولكن لماذا تستكثر على بضعة
النبي وأم الحسن والحسين أن تكون نوراً من الله العلي العظيم؟ ألم
يقول رسول الله ﷺ اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، ثم تلا
قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٢).

(١) فاطمة الزهراء للمقرم ص ٢٠.

(٢) الحجر / ٧٥.

فإذا كان المؤمن مليئاً بالنور وله قدرة على استيعاب نور الله سبحانه وتعالى، فما بالكم بالزهراء؟ وهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين؟ ما بالكم بمن تكونت نطفتها في أعلى عليين؟...

أقول: إذا كان الرجل العادي منا نحن المؤمنين، ينظر بنور الله، فما بالكم بأم أبيها، ومن باهلَ النبي بها نصارى نجران؟ إن الغرابة والدهشة سببهما الابتعاد عن سيرة هؤلاء الطاهرين.. وإلا فإن الغرابة تذوب، والدهشة تتطفيء في أول نظرة يلقيها الواحد منا على حياة فاطمة الزهراء -صلوات الله وسلامه عليها-.

ولا يخفى عليكم أن كلامي هذا موجه إلى الذين لا يعرفون من هي فاطمة.. أما الذين يعرفونها ويؤمنون بها فلا شك أنهم يعتبرون ما أسطره هنا لا يعدو كونه قطرة واحدة من بحر فاطمة الزهراء، الذي لا ساحل له ولا حدود. فما عساني أن أقول بفاطمة؟ وهل في إمكان القلم أن يجري على الورق جواداً مهذباً؟.. وهل في وسع اللسان أن يقول شيئاً عن فاطمة الزهراء؟.. لا أظن ذلك.

إن القلم ليجف فوق الورق، وإن اللسان ليتكأ ولا يقوى على البيان.. بل إن الكلمات لتموت على شفتي قبل أن أنطقها في فاطمة..! إن فاطمة لأكبر وأعظم من أن يحيط بها قلم كاتب متعثر، وهي أعلى وأرفع من أن يصل إلى شأوها لسان خطيب مثلي. ولكنها جادت علينا بكرمها، وغمرتنا بلطفها، حينما سمحت لنا أن نمسك القلم، ونحركه في سيرتها الذاتية، وحياتها المقدسة.

إن أكبر الكتاب والعباقرة ليعجزون عن التعبير عما تكنه حياة فاطمة الزهراء، من إجلال وإكبار وإعظام لدى الله العلي العظيم..



وذلك أن حياة الزهراء، أو سيرتها الذاتية لا تقاس بأيام عمرها، بل تمتد عبر الزمان والمكان، حتى تغمر كل الأجيال، وكل الأمم والشعوب بنورها، وأدبها، وأخلاقها، لتصبح المثل الأعلى لكل فتاة في الأرض، لكل فتاة تبحث عن وجودها، وعن رسالتها في الحياة، وكيف تحمل تلك الرسالة في صدق وأمانة وإخلاص.

ومن هنا، كانت فاطمة الزهراء، سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين. وفي ضوء هذا الحديث الشريف الوارد عن النبي الكريم، تكون فاطمة الزهراء سيدة كل فتاة أو امرأة تمشي فوق البسيطة في شرق الأرض أو في غربها، لا فرق في ذلك، سواء أعرفت النساء هذه الحقيقة أم لا. فعدم معرفة الناس بالحق لا يغير من الحق شيئاً. وعدم معرفة البدوي بطاقة النور، وكيف تعمل في الكون، لا يلغي دور هذه الطاقة في الحياة.



كلمة أقولها

وهنا أقول كلمة.. والله يشهد على ما أقول، إنني ما رأيت فتاة، ولا امرأة في العالم خلال رحلاتي من أجل التبليغ والتبشير الإسلامي، أقول: ما رأيت امرأة تمشي في أحد شوارع المدن الكبرى في العالم، إلا وملأت الغصة نفسي، ألا تكون تلکم المرأة قد تعرفت على سيدتها، وأن لها سيدة اسمها فاطمة الزهراء تحمل لها كل خير وعطاء!.

إذن، فتسبيح فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- إنما جاء ليزرع في أعماقنا شتائل النور، وبيادر الحب والعطاء.. لقد جاء هذا التسبيح الجامعي العظيم، ليشعل في قلوبنا قناديل الأمل والرجاء، ويمنحنا الطمأنينة والسلام. ولكي نتذوق حلاوة هذا التسبيح، فإنه لا بد لنا من المواظبة على قراءته في أعقاب كل صلاة نصليها وذلك لأنه يدفع البلاء عنا، ويجلب الرزق والنعمة ويعمّننا بسحاب البركة والخير الكثير، والله وليّ التوفيق.



يسعى نورهم

المؤمن نور، والنور يؤثر في الأشياء ولا يتأثر بها، فلو أوقدنا شمعة وسط طوفان من الظلام، فإن ذلك الظلام مهما كان كثيفاً وثقيلاً، فإنه لا يستطيع إطفاء تلكم الشمعة.

النور له صفة التأثير وليس التأثر أي أن النور يفعل بالظلام ولا ينفع به.. يؤثر ولا يتأثر.. فإذا تأثر المؤمن بالآخرين فغيروه، ولم يؤثر بهم فيغيرهم، فإن معنى ذلك أنه مؤمن بالاسم، وليس بالواقع والحقيقة. ويجب أن نعلم أن الذي يجعل الإنسان سعيداً في الحياة، هو أن تلتقي حركته مع هدفه، فإذا التقت الحركة مع الهدف جاءت النتيجة موافقة للمقدمة التي انطلق الإنسان منها.. ودائماً تأتي النتيجة مصبوغة بلون المقدمة، فإذا كانت المقدمة جيدة، كانت النتيجة جيدة أيضاً من هذا المنطلق نستطيع أن نستوعب رسالة المؤمن، وهدفه في الحياة.. فرسالته أن يحمل النور إلى الناس، أن يخرجهم من الظلمات إلى النور.. أن يمنحهم الأمن والطمأنينة. ولذلك يقول الرسول الأعظم محمد ﷺ: «ألا أنبئكم لِمَ سمي المؤمن مؤمناً؟.. لإيمانه الناس على أنفسهم وأموالهم.. ألا أنبئكم من المسلم؟ من سلم الناس من يده ولسانه»^(١) وفي الحديث رؤية وهي أن الشرط الأساسي في الإيمان، أن يأمن الناس منك على أموالهم، وأنفسهم، ولذا قيل: المسلم من سلم الناس من يده ولسانه.

(١) بحار الأنوار ٦٤/٦٠.



على أن المؤمن ليس فقط أنه ينفع الناس في الحياة الدنيا، بل وأيضاً في الآخرة، وفي ساحة الحساب يوم القيامة، وذلك أن في المؤمن خيراً كثيراً، وعطاءً جماً.

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: إنما سمي المؤمن مؤمناً، لأنه يؤمن على الله فيجيز أمانة أي أنه يدعو ويشفع لغيره في الدنيا والآخرة، فيستجاب له، وتقبل شفاعته فيه. (١)

ومن هنا أطلق الله سبحانه على نفسه اسم المؤمن لأنه يؤمن الناس، ويمنحهم الطمأنينة والأمان والسلام. ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢).

إذن: فالمؤمن نور.. والنور فيه منافع للناس كثيرة حين يضيء الطريق أمامهم.. ومن صفة النور أنه يكشف الحقائق للناس.. والمؤمن هاجسه كشف الحقائق أمام الجماهير لئلا يتعثروا في طريقهم. والناس صنفان: صنف أخذ النور ومشى مشية رابحة، وصنف ترك النور ومشى متعثراً في الحياة. ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣).

ولكن ما هي منابع هذا النور؟ وكيف نستضيء بها، ونرتوي من معينها؟

(١) بحار الأنوار ٦٤/٦٠.

(٢) الحشر/ ٢٣.

(٣) الملك/ ٢٢.



إن المسلم يعيش في فيض نوراني غامر طوال الحياة.. وذلك أن الله سبحانه هو نور السموات والأرض.. والقرآن نور، والنبي محمد نور أيضاً.. وأهل البيت نور، والعجب كل العجب ممن يعيش بين صهاريج النور هذه كيف يتسرب إليه الظلام؟.. والعجب كل العجب، من أمة ربها نور، وكتابها نور، ونبيها نور، وأئمتها نور، كيف تعيش هذه الأمة في ظلمات الأرض؟، كيف تعيش في الظلام وهي تحمل مشاعل النور في داخلها؟!!!

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن المؤمن ليزهر نوره لأهل السماء، كما تزهر نجوم السماء لأهل الأرض».

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «فبالإيمان يُستدلُّ على الصالحات وبالصالحات يُستدل على الإيمان» لأن العمل الصالح هو ثمرة الإيمان وهي النتيجة الطبيعية للإيمان، يضاف إلى ذلك أن العمل الصالح يؤدي إلى توفيق الفرد لأن يؤمن بالله سبحانه وتعالى.

على أن نور الواحد منا يرافقه إلى الآخرة، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾.

ولتوضيح هذه الفكرة، أضرب لكم المثال التالي:

النور في الدنيا من الشمس، أعني النور الظاهر الذي ينير الأرض. وحتى نور القمر مصدره الشمس لأن القمر يستمد أشعته من الشمس؛ أشبه بالمرآة التي توضع قبالة الشمس فإنها تعكس ضوء الشمس على ما يقابلها من أشجار وجدران وأشياء. ونحن نعرف -علمياً- أن كل ضوى في الأرض مصدره الشمس حتى الطاقة الكهربائية. إذن: فكل



نور منبعه من الشمس- والقمر... وكل طاقة تبعثها الشمس إنما تبعثها
وفق حساب دقيق: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾^(١).

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٢).

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾^(٣).

هذا في الدنيا.. فمن أين يأتي النور في الآخرة، ونحن نعرف
الشمس والقمر والنجوم والكواكب كلها تتعرض لانفجار عنيف، ولعملية
نسف كاملة؟:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾^(٤).

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(٥).

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾^(٦).

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرتْ﴾^(٧).

كل شيء يتمزق في هذا الكون.. فمن أين يأتي النور في ساحة
المحشر؟

(١) الرحمن / ٥.

(٢) يس / ٣٨.

(٣) يس / ٣٩.

(٤) التكوير / ١-٢.

(٥) القمر / ١.

(٦) الحاقة / ١٤.

(٧) الإنفطار / ١-٢.



الإيمان نور

النور يأتي من الإيمان، لأن الإيمان نور، ويحشر المؤمن وله نور يضيء ساحات المحشر وعرصات القيامة. في حين أن الكفار والمنافقين لا نور لهم، ولا بصيرة.

يقول القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشَرَاكِهِمَ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١).

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ (٢).

يقول الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: فمن كان له نور يومئذ نجا، وكل مؤمن له نور، يقولون إذا انطفأت أنوار المنافقين ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ (٣).

وقيل تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم، فيسألون إتمامها تفضلاً. ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤).

يقال: كببته فأكب وهو من الغرائب أي يعثر كل ساعة ويخر على وجهه لوعورة الطريق واختلاف أجزائه، ولذلك قابله بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(١) الحديد / ١٢.

(٢) الحديد / ١٣.

(٣) التحريم / ٨.

(٤) الملك / ٢٢.



أي قائماً سالماً من العثار على صراط، أي مستوي الأجزاء. ولقد فسّرها الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: بمن يمشي على ولاية علي أمير المؤمنين.. ومن يتركها. والنتيجة واحدة، فولاية علي هي الصراط المستقيم، لأن معناها أنك تمشي على سيرة النبي وسنته المقدسة.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (١).

﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، بمعنى يهدي قلبه إلى الثبات، أي يصدق الله في قلبه فإذا بين له اختار الهدى، ويزيده الله كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (٢).

وقد مر علينا هذا الموضوع في باب أن الإيمان يسبق الهداية، فالإيمان من الإنسان وذلك حينما يحرك بذوره، وإذا أضاء الإيمان قلبك، حلت الهداية من الله سبحانه في أعماقك. وكأن الهداية لا تحط إلا في القلوب المضيئة بالإيمان والنفوس المشرقة بالتقوى، أما القلوب المظلمة فلا تنزل فيها هداية ولا رحمة.. وتلك سنة ثابتة من سنن الله في هذا الكون، ولا تتبدل، ولا تتحول أبداً. ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (٣).

ولأنهم نور، فإن الذكرى تنفعهم: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤). أي إن المؤمن يزداد بصيرة فوق بصيرته.

(١) التغابن / ١١.

(٢) محمد / ١٧.

(٣) فاطر / ٤٣.

(٤) الذاريات / ٥٥.



ويطلق القرآن الكريم صفة الصديقين والشهداء على المؤمنين ﴿أولئك هم الصديقون والشهداء﴾.

وفي تفسير هذه الآية جاء عن الإمام السجاد زين العابدين علي بن الحسين قوله: «إنه ما من شيعتنا إلا صديق شهيد» وجاء أيضاً عن الإمام جعفر بن محمد الصادق قوله: «ما من شيعتنا إلا صديق شهيد» فقل: أنى يكون ذلك، وعامتهم يموتون على فرشهم؟ فقال الإمام: أما تتلو كتاب الله في الحديد، -أي في سورة الحديد-: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ (١).

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢).

فالمؤمن دائماً بعيد عن الظلام.. بينما الكافر دائماً بعيد عن النور. والنور لا يأتي إلا بمتابعة النبي وأهل بيته، تطبيقاً لسيرتهم الوضاعة، وسنتهم العظيمة. ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ (٣).

أي أن أقربهم إليه وأخصهم زلفة لديه هم الذين ساروا على هديه، ومشوا على طريقه.

(١) الحديد / ١٩.

(٢) البقرة / ٢٥٧.

(٣) آل عمران / ٦٨.



يقول الإمام علي عليه السلام: «إن ولي محمد من أطاع الله، وإن بعدت لحمته، وإن عدو محمد من عصى الله وإن قرئت قرابته» أفلا نقرأ القرآن، كيف يصب جام غضبه على واحد من أعمام النبي وهو أبو لهب لأنه انحرف عن خط الرسول، وصار عدواً له: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ (١).

بينما نرى صهيب الرومي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، هؤلاء جميعاً يسبحون في فلك النبي، ويستضيئون بنور علمه. فالإيمان حياة، والكفر موت.

يقول القرآن الكريم: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

وفي الآية الميت هم الكفار.. وإنما سمي الكافر ميتاً لأنه لا ينتفع بحياته، ولا ينفع غيره بحياته، فهو أسوأ حالاً من الميت، وهو لم يعرف قدر نفسه، فضيع نفسه، وضيع الأمانة التي حمَّله الله سبحانه إياها. والذي لا يعرف قدر نفسه يهلك «هلك امرؤ لم يعرف قدر نفسه» (٣) بينما نرى أن القرآن قد أطلق على المؤمن صفة الحياة في هذه الآية وفي غيرها من الآيات: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾.

(١) سورة المسد.

(٢) الأنعام/ ١٢٢.

(٣) من أقوال علي أمير المؤمنين عليه السلام.



وإنما سمي المؤمن حياً لأن له ولغيره المصلحة، والمنفعة.. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (١).

معناها الإيمان، والعلم والحكمة، والرشاد إذن: فلا بد للمؤمن من السير والمتابعة للحبيب المصطفى محمد وأهل بيته الطاهرين، -صلوات الله عليهم أجمعين-. إن متابعة النبي دليل على حبنا لله عز وجل. ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٢).

ويقول الحق في آية ثانية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (٣).

والمودة تعني الحب + الطاعة.. فالحب وحده لا يكفي لأنه لا يعبر عن المودة، والطاعة وحدها لا تكفي لأنها لا تعبر عن الحب، فمن الممكن أن الواحد منا يطيع رئيس أعماله وهو لا يحبه،.. ويمكن أنك تطيع مدير دائرتك وأنت لا تكن له حياً، ولا حناناً.. في حين أن المودة معناها، الحب العميق، والطاعة الكاملة، وهذا هو معنى المتابعة والشيعية.

يقول القرآن: ﴿وَإِنْ مِنْ شِيعَةٍ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ (٤).

بمعنى أن إبراهيم هو من شيعة نوح، أي من الذين اتبعوه، وساروا على طريقه المضيء.

(١) الأنعام / ١٢٢.

(٢) آل عمران / ٣١.

(٣) الشورى / ٢٣.

(٤) الصافات / ٨٣.



وللفائدة هنا أقول: إن كلمة الشيعة مأخوذة من المشايعة وهي المتابعة، ودائماً شيعة الرجل أتباعه وفي القرآن الكريم حينما نقل قصة موسى قال: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ (١).

فاستعمل القرآن كلمة الشيعة بمعنى المتابعة، فإذا عرفنا ذلك أدركنا أن كل مسلم يعتبر من شيعة النبي وأهل بيته.

ولأن مودة النبي وأهل بيته فريضة واجبة في أعناقنا، والله سبحانه سيسألنا عنها غداً، فإن ذلك يعني أنه ما من مسلم إلا وهو من شيعة محمد، وشيعة علي، وشيعة فاطمة، وشيعة الحسن، وشيعة الحسين. ونفس الشيء يقال بالنسبة للسنة النبوية، فما من مسلم إلا وهو سني لأنه يمشي على سنة النبي، والسني الذي يمشي على سنة النبي هو شيعي لمحمد وأهل بيته لأن الشيعة مأخوذة من المشايعة، والمشايعة هي المتابعة، فشيعه الرجل أتباعه، فكلنا إذن من شيعة محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، والذي يشط عن هذا الخط فهو ليس من شيعة النبي، وإنما هو من شيعة آل أبي سفيان الذين داسوا تعاليم النبي وقتلوا أهل بيته شر قتلة. ولذلك نسمع الإمام الحسين عليه السلام، يوم عاشوراء يخاطب القوم الذين خرجوا لقتاله بأمر يزيد بن معاوية يقول لهم: يا شيعة آل أبي سفيان أي يا من تبعتم آل أبي سفيان ولم تتبعوا سنة جدي رسول الله ﷺ.

(١) القصص / ١٥.

وبهذا المعنى، وهذا المضمار نجد الرسول الأعظم، يوجه الناس إلى أهل بيته، وخصوصاً ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام. فيقول: «من أحب أن يستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، فليمسك بولاية أخي ووصي علي بن أبي طالب، فإنه لا يهلك من أحبه وتولاه، ولا ينجو من أبغضه، وعاداه».

إن الذي أوصلنا إلى هذا الموضوع من البحث هو السؤال الذي طرحناه آنفاً: ما هي منابع هذا النور؟ وكيف نستضيء بها، ونرتوي من معينها؟ أقول: إن هذا السؤال بالذات هو الذي أوصلنا إلى هنا فلا بد إذن من الإجابة عنه بشكل أوضح لاستيعاب الموضوع الذي نحن بصدد.

عندما تغضب السماء لغضب فاطمة عليها السلام

إن فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- هي منبع النور، وهي الكوثر المتدفق بالعطاء.. وإذا أردنا الارتواء من هذا النبع الصافي، فلا بد لنا من الدخول في رحاب الزهراء لنهتدي بها، ونستضيء بنور علمها، وإنها لتعرف شيعتها في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنظرة واحدة من فاطمة تكفي لنزول الرحمة علينا، لأن الله يرضى لرضا فاطمة ويغضب لغضبها.. فإذا رضيت الزهراء عنا، فإن معنى ذلك أن الله قد رضي أيضاً عنا.. ففاطمة هي المرآة الصافية الناصعة التي ينعكس من خلالها غضب السماء، ورضاها.

هذا في الدنيا.. أما في الآخرة، فإنها تلتقط شيعتها -من ساحة القيامة- كما يلتقط الطير الحب الجيد من الحب الرديء. وقد مر علينا قول النبي: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(١) وكذلك قوله: «إياكم وفراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(٢) وقوله مرة ثالثة: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾»^(٣) أقول: فإذا كان المؤمن له هذا الزخم الكبير من النور، فما بالكم بمحمد وأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

(١) بحار الأنوار ٦٤/٦١.

(٢) المصدر نفسه ص ٧٥.

(٣) بحار الأنوار ٦٤/٧٤.



أجل.. إن نورهم لا حدود له، ولا يحصيه أحد إلا الله سبحانه، فهم النور، نور الله جل جلاله، وهم التين والزيتون والشفع والوتر. والذي يقرأ تاريخهم، وسيرتهم يلمس منابع النور ويستضيء بها أثناء رحلته في القراءة. فالخمسة أصحاب الكساء، يلخصون نور الحق سبحانه وتعالى.. بل إن الله أودع نوره في أهل بيت النبوة وموضع الرسالة، حتى قال: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت.

ولكي تبدو الصورة واضحة أكثر، نأخذ سيرة واحد من أصحاب الكساء عليه السلام وهو الإمام الحسين الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً». أقول، نأخذ حياة الإمام الحسين الذي لم يكن فقط يلخص مسيرة كل الأنبياء ونورهم، بل وأيضاً كان يلخص مسيرة جدّه وأبيه وأمه وأخيه.. بل هو المجمع لأنوارهم جميعاً. حتى ورد في الزيارة، حينما نزور الحسين عليه السلام نخاطبه بهذه العبارة: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة.. لم تتجسك الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها.. وأشهد أنك من دعائم الدين، وأركان المؤمنين..».

فالحسين كان نوراً في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة.. ويوم ولادته زهر وجهه بالنور.. وجاء في سيرته الذاتية، ومواصفاته الشخصية أنه كان له نور يتلأأ في الليلة الظلماء. وقد اتفق أعداؤه، وأحباؤه على وصفه بهذا النور. ولتأكيد ذلك، يكفي أن نصغي لصوت صبيّ في سن الحادية عشرة من العمر وقد برز ذلكم الغلام يريد أن يدافع عن الحسين يوم عاشوراء.. انظروا إليه جيداً، إنه صبي لم يراهق أي لم يبلغ الحلم، وكان قد أقبل إلى الحسين بعد أن قتل أبوه



في الحملة الأولى.. وألبسته أمه لامة حريه فأقبل يتعثر بحبال الخيام، يتلفت يميناً وشمالاً تحسباً لأي شخص يمنعه من الالتحاق بالحسين.. فما زال يركض، ويعدو نحو الحسين، حتى وقف بين يديه، فسلم عليه طالباً منه الإذن بالنزول إلى المعركة، ولكن الحسين صاحب القلب الرحيم، ما أراد أن يجمع على أمه مصيبتين في وقت واحد، فأبوه قتل قبل لحظات، والحسين لا يريد أن يفجع الأم بمقتل هذا الشاب الطاهر، لأنه وحيدها وليس لها أحد سواه، فقال له الحسين: بني عُدْ إلى أمك لعلها تأنس بك.. قال: سيدي إن أمي هي التي أمرتني بذلك.. وهي التي أرسلتني إليك.. أبا عبدالله أتوسل إليك ألا تردني إلى أمي، إن شوقي أن أقتل بين يديك وإن غايتي أن أرزق الشهادة بين يديك.. فقال الحسين لأصحابه: هذا غلام قتل أبوه في الحملة الأولى ولعل أمه لا ترغب بقتاله،.. فارجعوه إلى أمه، ولكنه ما لبث أن عاد مهرولاً إلى الحسين ومعه أمه تقول: أبا عبدالله أتتكل أمك الزهراء بولدها، ولا أأكل بولدي؟! أبا عبدالله دع ولدي يقاتل بين يديك.. فما زالت به.. وما زال الصبي يتوسل بالحسين حتى أذن له بالمبارزة، فبرز وهو يقول:

أميري حسين ونعم الأمير	سرور فؤاد البشير النذير
علي وفاطمة والداه	فهل تعلمون له من نضير
له طلعة مثل شمس الضحى	له غرة مثل بدر منير

لاحظوا أيها الأحبة، كلمة هذا المجاهد البريء.. إنه يصف نور الحسين فيقول: له طلعة مثل شمس الضحى.. له غرة مثل بدر منير أي أن وجه الحسين مشرق بالنور كما تشرق الشمس، وأن جبهة



الحسين لها نور كنور القمر.. وهذا هو أكبر تعبير يمكن أن يعبر به صبي في مثل سنه. فالشاهد هو قوله: إن للحسين نوراً كنور الشمس والقمر، هذا كان من أحبة الحسين.

والآن تعالوا إلى واحد من أعداء الحسين وانظروا إليه كيف يصف نور الحسين على الرغم من حقه الدفين ضد الإمام الحسين. فمن هو ذلكم العدو؟ إنه رجل من أصحاب عمر بن سعد، انتدبه قائد الجيش، وأمره أن يقطع رأس الحسين يوم عاشوراء، في آخر لحظات الحسين.. وكان الحسين يومها مطروحاً على رمال كربلاء واضعاً خده على تراب المعركة، وقد أضعفه نزف الدماء. جاء هذا الرجل.. فوقف أمام الحسين، وما إن وقع بصره عليه حتى بهت وعَلَّتْ الدهشة وجهه -وظل ينظر إلى الحسين دون أن يقوم بعمل ضده ودون أن يتكلم معه، وإنما بقي واقفاً ردهاً من الوقت ينظر إليه ثم رجع إلى معسكر ابن سعد، دون أن يأتيه برأس الحسين عليه السلام ولما سأله عمر بن سعد: ويلك وأين رأس الحسين؟ أجابه: وأي رأس هذا الذي تطالبني به..؟

ثم راح يصور لهم شخصية الإمام الحسين ونوره وجماله قائلاً: والله ما رأيت مكثوراً قط، قد قتل ولده، وأهل بيته أربط جأشاً منه.. ولقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله..!

إن كل ما أرجوه منك -أيها القارئ الكريم- هو أن تتأمل في هذه العبارة: «ولقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله!».

الحسين مخرج بالدماء، وجهه مغمور بالتراب، ثغره يتلمظ عطشاً، جسمه الطاهر يحترق من أشعة الشمس يوم عاشوراء.. إن هذه كلها مجتمعة ما تمكنت أن تغطي نور الحسين، ولا استطاعت الشمس أن

تخفي نوره الساطع. فأى نور أعظم من نور الحسين الذي يطفى حتى على أشعة الشمس، وعلى الدم والتراب والماء؟...

واجبي أن أمنحك العذر أيها القارئ الكريم إذا لم تستوعب بعد هذا الجانب في حياة سيد الشهداء.. ولكن، بقليل من الصبر والتأمل تستطيع أن تدرك ما أقول... نعم، قليل من التأمل فقط فأنت مؤمن، وقليلك كثير. كما يقول الشاعر:

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل

إن رأس الإمام الحسين بعد مقتله كان له نور يصعد إلى عنان السماء.. وسيأتي الكلام على هذا الموضوع في مكانه من هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

وها هي الريباب زوجة الحسين الطاهرة وهي تتعاه وترثيه بقولها: أين الذي كان نوراً يستضاء به. والتاريخ يحدثنا أن زينب لما رأت رأس الحسين بنوره فوق الرمح بالكوفة خاطبته بأبيات بليغة من الشعر مجبولة بالعاطفة والإيمان مطلعها:

يا هلالاً لما استتم كمالاً.....

وخلاصة القول: إن الواحد منا لا يمكن أن يحصل على هذا النور، إلا بالصلاة، والدعاء، والتسبيح وصلاة الليل كما كانت تصنع فاطمة الزهراء، -صلوات الله وسلامه عليها-، فقد قامت تصلي في المحراب حتى تورمت قدمها من الصلاة والعبادة. فالعبادة نور، وقوة، والصلاة تعبء الإنسان بالطاقة التي تساعد على الانطلاق في الحياة الحرة، ولا عيش الكريم.



يقول القرآن: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (١).

أي أن القرآن جعل الصلاة طاقة تساعد على الانتشار في الأرض، وهذا هو التفسير الصحيح لشعائر الله، لأنها مدرسة تربوية توجهنا نحو البناء والتقدم، والازدهار، وهذا هو بالضبط ما تريد الزهراء أن تعلمنا إياه ففاطمة رائدة كبيرة من رواد مدرسة التربية والجهاد، والعقيدة في الإسلام. وأثر مدرسة الزهراء -سلام الله عليها- في سلوك المؤمنين واضح جداً. وهذه المدرسة تفتح أبوابها لكل الأحرار والشرفاء في العالم.

نعم، هذه هي الزهراء، المرأة الصافية التي ينعكس من خلالها غضب السماء، ورضا السماء.

(١) الجمعة / ١٠.



النبي ﷺ ليقبل فاطمة العليها السلام

كانت فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- إذا أقبلت على أبيها رسول الله ﷺ قام إجلالاً لها، وأخذ بيدها فقبلها، ثم أجلسها في مجلسه، ثم بشَّ لها مرحباً بها قائلاً: مرحباً بأم أبيها!

فماذا تعني هذه الكلمة؟.. هل كانت فاطمة حقاً أم النبي؟...

إن النبي كان يكشف عن مكانة فاطمة في الإسلام، في كل كلمة يقولها لفاطمة، وكل صنيع يصنعه لها. وهنا أراد النبي الكريم، أن يبين عظمة فاطمة الزهراء، وأنها تختلف عن نساءه اختلافاً كبيراً، أي أن مكانة الزهراء تفوق مكانة نساء النبي لأنها معصومة.. وهنَّ لسن بمعصومات.. ولأنها مطهرة من الرجس، وهنَّ لسن مطهرات من الرجس.. ففاطمة زعيمة آية التطهير، بينما لم تدخل واحدة من نساء النبي في آية التطهير، حتى أم سلمة على جلاله قدرها، لما اقتربت من الكساء والنبي يقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (١).

وكان تحت الكساء يومها محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام- أقول: لما اقتربت أم سلمة من طرف الكساء، وقالت: وأنا منهم يا رسول الله -روحي فداك-؟ قال: لا.. لست منهم، ولكنك على خير، أو إلى خير.

(١) الأحزاب / ٣٣.



وفي يوم المباهلة نجد النبي لم يخرج معه من النساء سوى فاطمة في حين أن آية المباهلة واضحة بقولها: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (١).

أقول: ولما خرج النبي إلى مباهلة النصارى، لم يخرج معه سوى الحسن والحسين وفاطمة وعلي عليه السلام فالحسن والحسين وفاطمة وعلي عليه السلام فالحسن والحسين يمثلان الأبناء، وفاطمة تمثل النساء، وعلي يمثل نفس النبي، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن فاطمة هي سيدة النساء، ولو كانت واحدة من نساء النبي في مستوى فاطمة لأخرجها معه، ولكنه -أي الرسول- لم يجد في نسائه، ولا في نساء بني هاشم ولا في نساء الخلفاء، واحدة تقوم مقام الزهراء، فاطمة بنت محمد -صلوات الله وسلامه عليه-. والذين يحاولون إدخال زوجات النبي في أهل البيت، عليهم أن يتفكروا في أمر المباهلة لتستبين لهم جادة الحق والصواب كالشمس الصافية المشرقة.

ولتأصيل هذا المعنى، وتزكيده اقرأوا معي إذا شئتم أول سورة التحريم، وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ (٢)، والتعبير واضح جداً.

فحينما يقول: تبتغي مرضاة أزواجك، فإن معنى ذلك أن رضى زوجات النبي لا قيمة له أمام رضا الله سبحانه وتعالى لأن رضا أزواج

(١) آل عمران/ ٦١.

(٢) التحريم/ ١.



النبي خاضع للهوي، وليس لموازين الإيمان، وهذا ليس انتقاصاً لنساء النبي وإنما هو الواقع، والحقيقة، فنساء النبي لسن معصومات وما فيهن واحدة يمكن أن تصل إلى مستوى فاطمة، لذلك يقول القرآن في استتكار شديد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾. على أن هذه السورة نزلت بعد وفاة خديجة الكبرى وهذا يدل أنها لم تدخل ضمن نساءه في هذه السورة.

علماً بأن النبي لا يحرم ما أحل الله له في التشريع الإسلامي الحنيف، وإنما كانت القضية، مسألة خاصة تتعلق بشيء من السمن والعسل أهدي إلي زوجة النبي زينب بنت جحش، وحدث أن كان النبي عندها، فقدمت له من ذلك الطعام شيئاً يسيراً فأكله النبي، غير أن غيرة عائشة وبعض نسائه أدت إلى أن تقوم اثنتان من نساء النبي -كما ورد في سورة التحريم- وهما عائشة وحفصة، أن تقوما بمظاهرة ضد الرسول الأعظم محمد ﷺ وبدأت المظاهرة بقول عائشة وحفصة للنبي إننا نشم من فمك رائحة كريهة، فتعجب النبي أن تكون رائحة فمه كريهة وهو الذي كانت حبات عرقه تتضوع عطراً، بل كان جسمه يفوح بعطر الجنة كما جاء ذلك في سيرته الذاتية، وأحواله الشخصية.. ولكن لا بأس، إذا كان هذا الطعام الذي أكلته -هكذا قال النبي- فيه رائحة غير جيدة فقد حرّمته على نفسي أي أن النبي حرّم ذلك الطعام الذي هو عند زوجته زينب بنت جحش ولم يحرم كل أنواع العسل.. ولذلك قلت لكم -آنفاً- إن التحريم كان خاصاً به ولم يكن عاماً وشاملاً، لأن النبي لا يحرم ما أحل الله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

ومحل الشاهد هنا، هو قول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾. ما عدا رضا خديجة الكبرى ولذلك فهي غير داخلة في هذه السورة كما قلت لكم وذلك أن هذه السورة نزلت بعد وفاة خديجة عليها السلام.

وهذا يدل بوضوح، على أن رضا أزواج النبي لا وزن له ولا قيمة له أمام رضا الله سبحانه وتعالى.

هذا بالنسبة لرضا أزواج النبي ونسائه.. أما بالنسبة لفاطمة الزهراء -سلام الله عليها- فالأمر يختلف اختلافاً جذرياً. يقول النبي: «إن الله ليرضى لرضا فاطمة ويفضب لغضبها».

ويقول: يا فاطمة إن الله ليرضى لرضاك ويفضب لغضبك.

ويقول في حديث ثالث: «رضا فاطمة من رضاي وسخطها من سخطي». والويل لمن غضبت عليه فاطمة فغضبها يعني غضب الله، وإذا غضب الله على أحد أحل به نقمته، وجنبه رحمته.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ (١).

ونحن نعرف أن فاطمة ماتت وهي غاضبة وواجدة على أبي بكر وعمر، كما جاء في صحيح البخاري. فما أدري كيف تكون المعادلة.. إذا كان غضب فاطمة، هو غضب الله، وأن الله ليرضى لرضا فاطمة، ويفضب لغضبها، ثم تموت الزهراء، وهي واجدة -غاضبة- على أبي بكر وعمر، فالقرآن يقول بصراحة: إن الذي يحلل عليه غضب الله يكون من الهالكين: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾.

(١) طه / ٨١.

والعجيب أن هذه الأحاديث كلها موجودة في صحيح البخاري وفي كتب الصحاح الأخرى، وكلها تؤكد أن الله ليرضى لرضا فاطمة ويفضب لغضبها.. وأن فاطمة ماتت وهي واجدة على أبي بكر وعمر.. ماتت ولم تكلمهما كلمة واحدة.. ماتت ودفنت في الليل ولم يحضر أبو بكر ولا عمر تجهيزها ولا الصلاة عليها.. وهذه قضية معروفة لدى المسلمين كافة. أما لماذا يرضى الله لرضا فاطمة ويفضب لغضبها، فواضح جداً وذلك أنها طاهرة نقية، معصومة لا تتعامل مع الخطأ في قول ولا فعل وهي التي كانت تقول: «أيها الناس اعلموا أني فاطمة، وأبي محمد ﷺ أقول: حقاً عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً..» فلا غلط في قولها.. ولا شطط في فعلها على الإطلاق.

علي عليه السلام أخو النبي ﷺ

في المدينة آخى النبي بين المهاجرين والأنصار ثم احتفظ بعلي لنفسه، فقال: وهذا أخي. فأصبح الإمام علي، أخاً للنبي من ذلك اليوم.. أصبح أخاه في موازين المؤاخاة وليس في موازين النسب.. ففي النسب هو ابن عمه، وصهره لأنه زوج الزهراء ومن أهل البيت الذين ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (١).

بعد المؤاخاة بفترة نزلت آيات الحجاب، وخصوصاً الآيات التي تطالب المسلمين ألا يتكلموا مع نساء النبي إلا من وراء حجاب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ (٢).

ونزل قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (٣).

وبعد هذه الآية أصبحت كل واحدة من أزواج النبي أمّاً للمؤمنين. فإذا كانت كل واحدة منهن أمّ المؤمنين.. وإذا كن كلهن أمهات المؤمنين.. ففاطمة أم من إذن؟

قال رسول الله: وأمّا فاطمة فأُمّ أبيها.. وطبعاً هذه مجرد فكرة، ولا شك أنها صائبة لأنها تكشف عن موقف النبي حيال علي وفاطمة.

(١) الأحزاب / ٣٣.

(٢) الأحزاب / ٥٣.

(٣) الأحزاب / ٦.

ففي المؤاخاة التي جرت بين المهاجرين والأنصار، قال النبي: وعلي أخي. وحينما أعلن القرآن أن أزواج النبي أمهات المؤمنين، أعلن النبي أن فاطمة أم أبيها فإذا أقبلت عليه قام إجلالاً لها، وقال: مرحباً بأم أبيها.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن الأم تعني -هنا- الأصل، كما نقول مكة أم القرى أي أن مكة هي الأصل في كل القرى.. ومن هذا المنطلق إنما سميت فاطمة بأم أبيها لأنها مصدر أبناء الرسول.. والوعاء الطاهر لذرية النبي، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾ (١) فكانت الزهراء، هي الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه الكريم.

وثالثاً، إن المراد بأم أبيها هو كون فاطمة بمثابة الأم لرسول الله، لأنه كان في حاجة بالغة للحب والحنان والعطف، وذلك بعد وفاة أمه آمنة، بالإضافة إلى أن النبي كان يتيماً واليتيم يكون في حالة ظمأ وعطش للحب والحنان، فكانت فاطمة تعوضه عن حنان الأم وعطفها. وهذا أيضاً مجرد فكرة لا أجزم بصحتها لأن النبي هو مصدر الرحمة، ولكن أليست فاطمة هي روحه وقلبه؟ إذن فالفكرة صحيحة وصائبة وتامة بإذن الله تعالى.

وأعود فأقول:

طبعاً هذا على الظاهر.. وإلا فالنبي الكريم هو مصدر الحب،

(١) سورة الكوثر.

والعطف، والحنان، وهو النبع الذي يتدفق بالحنان على كل الناس.. إنه رحمة للعالمين والذي هو رحمة للعالمين لا يعوزه شيء على الإطلاق. ولكننا نأخذ الأمور بموازين البشر، وليس وفق مقاييس الأنبياء.. علماً بأننا إذا قلنا إن فاطمة تعوّضه عن الحب والعطف والحنان الذي فقده النبي بسبب موت أمّه، فإن ذلك لا يُعدُّ خروجاً على حرم النبي، لأن فاطمة هي من نوره، وهي بضعة منه، ونحن نعرف أن الخمسة أصحاب الكساء هم من نور واحد، فإذا قلنا إن النبي كان يشكو فراغاً بفعل فقدان العطف والحنان، وأن الزهراء كانت تملأ هذا الفراغ، فإن هذا الكلام هو عين الحقيقة والواقع - كلا والله ليس هناك فراغ في حياة النبي وأهل بيته وإنما هو تعبير جرى على لساني لإظهار منزلة الزهراء عليها السلام - لأن فاطمة الزهراء ليست امرأة خارجة أو بعيدة عن النبي، وحينما نقول إنها تملأ هذا الفراغ فليس معنى ذلك، أن امرأة غريبة عن أهل البيت كانت تقوم بهذه المهمة - وإنما هي فاطمة.. وفاطمة هي مركز الثقل في هذا الوجود، وهي قطب الرحى في أهل بيت النبي.. وهي بضعة النبي، وهي التي كان يقبلها ويشمها في نحرها ويقول: إني أشم رائحة الجنة من ابنتي فاطمة.. فهي الحوراء الإنسانية.. فلا غرابة، إذن حينما نقول: إنها كانت تسدّ الفراغ في نفس النبي، لأنها بضعة منه وليست أجنبية عنه.

ومن هذا المنطلق، كانت فاطمة الزهراء، لأبيها الرسول، بمثابة الأم لولدها، أي أنها تعامله كما تعامل الأم ولدها، حين تغدق عليه الحب، والعطف والحنان.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كان النبي يعاملها معاملة



الأم، فكان إذا أراد السفر تكون فاطمة آخر من يودّعه الرسول، وإذا رجع من السفر تكون فاطمة أول من يسلم عليه النبي، وهذه حالة خاصة نلمسها بين الأم وولدها.

وهناك رأي لا يخلو من فائدة أنقله لكم كما هو:

«إن فاطمة الفتاة تحاول أن تشارك في جهاد أبيها، فتسعى مخلصاً لسد الفراغ العاطفي الذي كان يعيشه الرسول بعد أن فقد أبويه في أول حياته.. وهذا الفراغ كان يزعج النبي وينعكس على قلبه الرهيف المشتاق إلى الحب.

إن الرسول كان بحاجة إلى عطف الأم ورعايتها في حياته، وفي عمله الشاق المضني، وفي مواجهة بيئته القاسية بالنسبة إليه، وقد وجد هذا كله في فاطمة.

إن التاريخ لا يحدثنا إلاّ نتفاً عن هذه المواقف الأمومية التي كانت تصدر عن فاطمة بالنسبة للرسول ولكنه يؤكد نجاح فاطمة في هذه المحاولة التي أعادت إلى محمد ﷺ الاكتفاء العاطفي الذي ساعده دون شك في تحمل الأعباء الرسالية الكبرى.

إن التاريخ يؤكد هذا حينما ينقل تكراراً عن لسانه: «فاطمة أم أبيها» وحينما نرى أنه كان يعاملها معاملة الأم، فيقبل يدها ويبدأ بزيارتها عند عودته إلى المدينة، ويودّعها وينطلق من عندها إلى الأسفار والرحلات وكأنه يتزود من هذا النبع الصافي عاطفةً لسفره، يدل على ذلك أن النبي ﷺ عندما كان يجد ضعفاً في بدنه فإنه يسارع إلى بيت فاطمة عليها السلام كما في حديث الكساء.



ومن ناحية أخرى نجد أن إحساس النبي بالأبوة، كان يتجسد في صلاته مع فاطمة، وحينما أمر الناس بأن يخاطبوا محمداً برسول الله، ونفذت فاطمة هذا الأمر، منعها رسول الله وطلب منها أن تخاطبه «يا أبة».

ونلاحظ في سيرة الرسول الأكرم ﷺ كثرة دخوله عليها في حالات تعبها وآلامه أو حينما يجرح في الحروب أو حال جوعه أو فقره أو دخول ضيف عليه، ثم تقابله فاطمة الأم، ترعاه، وتحتضنه وتضمده جروحه وتخفف من آلامه وتقابله فاطمة البنت تخدمه وتطيعه، وتهيء له ما يحتاج إليه. وهكذا نجد دورها العظيم في حياة رسول الله ﷺ (١).

قال رسول الله: «إن الله ليرضى لرضا فاطمة ويفض لفضيلتها» إذن: فالمراد بأم أبيها، في مقابل أزواج النبي أمهات المؤمنين، فاطمة تكون أم أبيها..

وثانياً: أن النبي كان يعاملها معاملة الأم، في احترامه لها وتقديره إياها.

وثالثاً: أنها هي كانت تداري النبي مداراة الأم لولدها...

ورابعاً: أن النبي إنما أطلق عليها لقب أم أبيها، لأنها كانت الكوثر الطاهر الذي تدفقت منه ذرية النبي ﷺ وذلك أن الأم هنا بمعنى الأصل، كما نقول: مكة أم القرى، وسورة الفاتحة أم الكتاب.

(١) فاطمة الزهراء وتر في غمد ص ٢٧ من مقدمة كتبها الإمام موسى الصدر فرج الله كربته.

وعلى هذه المحاور الأربعة كانت فاطمة الزهراء، أم أبيها وكان يتلقاها النبي بالبشر وطلاقة الوجه مرحباً بها بكلمته الشهيرة: مرحباً بأم أبيها.

إذن فالرسول دخل المدينة في الهجرة، ومعه من أهل بيته علي وفاطمة، فلما آخى بين المهاجرين والأنصار قال: وهذا أخي وأشار إلى علي عليه السلام.

ومرة أخرى أقول: حينما أعلن القرآن أن أزواج النبي أمهات المؤمنين، أعلن الرسول أن فاطمة أم أبيها.

وإعلان الرسول هذا إنما هو من عند الله، لأنه ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.



غضب فاطمة عليها السلام !

عن محمد بن عمارة، عن أبيه قال: سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقلت له: يا ابن رسول الله أخبرني عن الله هل له رضى وسخط؟ فقال: نعم، وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين، ولكن غضب الله عقابه، ورضاه ثوابه.

وعن حمزة بن الربيع، عن ذكره قال: كنت في مجلس أبي جعفر عليه السلام إذ دخل عليه عمرو بن عبيد فقال له: جعلت فداك قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ ما ذلك الغضب؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: هو العقاب يا عمرو. إنه من زعم أن الله عز وجل قد زال من شيء إلى شيء فقد وصفه صفة مخلوق، إن الله عز وجل لا يستفزه شيء ولا يغيره.

وعن هشام بن الحكم أن رجلاً سأل أبا عبد الله عليه السلام عن الله تبارك وتعالى له رضى وسخط؟ قال: نعم وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين وذلك لأن الرضا والغضب دخال يدخل عليه فينقله من حال إلى حال، معتمل مركب للأشياء فيه مدخل، وخالقنا لا مدخل للأشياء فيه، واحد أحدي الذات وأحدي المعنى، فرضاه ثوابه، وسخطه عقابه، من غير شيء يتداخله فيهيجه وينقله من حال إلى حال فإن ذلك صفة المخلوقين.



صورة ناصعة للتوحيد

وروى بعض أصحابنا أن عمرو بن عبيد دخل على الباقر عليه السلام فقال له: جعلت فداك قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ ما ذالك الغضب؟ قال: العذاب يا عمرو إنما يغضب المخلوق الذي يأتيه الشيء فيستفزه ويغيره عن الحال التي هو بها إلى غيرها فمن زعم أن الله يغيره الغضب والرضا ويزول عنه من هذا فقد وصفه بصفة المخلوق.

وعن هشام بن الحكم قال: في حديث الزنديق الذي سأل أبا عبدالله عليه السلام أنه قال له: أتقول إنه سميع بصير؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: هو سميع بصير، سميع بغير جارحة، وبصير بغير آلة.

وعن هشام بن سالم قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام فقال لي: أتنت الله؟ قلت: نعم، قال: هات. فقلت: هو السميع البصير. قال: هذه صفة يشترك فيها المخلوقون. قلت: فكيف ننته؟ فقال: هو نورٌ لا ظلمة فيه، وحياةٌ لا موت فيه، وعلمٌ لا جهل فيه، وحقٌ لا باطل فيه؛ فخرجت من عنده وأنا أعلم الناس بالتوحيد. ^(١)

أقول: إن هذه الروايات والأحاديث التي وردت عن أئمة الهدى ومصابيح الدجى، تطرح أمامنا مسألة خطيرة من مسائل العقيدة الإسلامية، بل لعلها الأخطر في هذا الباب، وهي مسألة تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الصفات والأشكال والتجسيم، وبالتالي. فإنها -أي هذه الروايات- تؤكد مذهب الأئمة في هذا المجال الذي خاض فيه

(١) راجع بحار الأنوار ٦٣/٤ - ٧٠.

الخائفون على امتداد العصر العباسي بنوع خاص، وما نزال نجد له انعكاساً حتى يومنا هذا، ويترك آثاره وبصماته على مسائل كثيرة تتصل بمباحث في العقيدة الإسلامية.

فقد ورد في صحيح البخاري وصحيح مسلم كثير من الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ، يستفاد منها أن الله سبحانه يتجلى لخلقه ويرويه كما يرون القمر ليلة البدر^(١)، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا في كل ليلة^(٢)، ويضع قدمه في النار فتمتلىء^(٣)، وأنه يكشف عن ساقه لكي يعرفه المؤمنون^(٤)، إلى غير ذلك من الروايات التي تجعل من الله جسماً يتحرك ويتحول من حال إلى حال.

كما أنهم جعلوا له سبحانه وتعالى يدين ورجلين وأصابع خمسة يضع على الأولى منها السماوات وعلى الثانية الأرضين وعلى الثالثة الشجر، وعلى الرابعة يضع الماء، ويضع بقية الخلائق على الإصبع الخامسة^(٥)، وجعلوا له داراً يسكن فيها^(٦)، تعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً وساء ما يتقوّلون وما يزعمون، وجلت قدرته عن أن تدركه الأبصار.

إنهم يروون مثل هذه الأحاديث في الوقت الذي نجد القرآن الكريم

(١) صحيح البخاري ٢٠٥/٧، وصحيح مسلم ١١٢/١.

(٢) صحيح البخاري ٤٧/٢.

(٣) صحيح البخاري ١٧٨/٨، ١٨٧.

(٤) صحيح البخاري ١٨٢/٨، وصحيح مسلم ١١٥/١.

(٥) صحيح البخاري ٣٣/٦.

(٦) صحيح البخاري ١٨٣/٨، وصحيح مسلم ١٢٤/١.

يضج بالآيات الكريمة التي تنفي هذه الأباطيل جملة وتفصيلاً ونجد أئمة الهدى ومصابيح الدجى -سلام الله عليهم- جميعاً ينزهون بشكل كامل ومطلق الله سبحانه وتعالى عن مجانسة مخلوقاته ومشاكلتهم، وينفون عنه سبحانه التشبيه والتحديد والتصوير.

فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(١).
وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٢)..

وقوله لموسى عندما طلب رؤيته: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾^(٣).

أما أئمة الهدى -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام- فقد قرأت بنفسك أجوبتهم الواضحة التي تنفي عن الباري عز وجل أية مجانسة لمخلوقات، وتنزهه عن كل تجسيم ومشاكلة.

والإمام عليّ -سلام الله عليه- له خطب كثيرة وأقوال عديدة في هذا المجال تؤكد نفي التجسيم عن ذاته سبحانه وتعالى، وقد ورد منها الكثير في كتاب نهج البلاغة. يقول في خطبة له عليه السلام من روائع ما ورد له من خطب:

«الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود ولا نعت موجود ولا وقت معدود ولا أجل ممدود».

(١) الأنعام / ١٠٣.

(٢) الشورى / ١١.

(٣) الأعراف / ١٤٣.

ويتابع قائلاً:

«فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه.. كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم،... فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه». (١)

ويتضح مما تقدم البون الشاسع والفرق الواضح بين عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا المجال وبين ما ذهبت إليه الشيعة؛ فأهل السنة والجماعة واضح أنهم يقولون بالتجسيم إذ جعلوا لله سبحانه وتعالى جسماً وشكلاً، وكأنه إنسان فهو يمشي وينزل ويحوي جسمه مكان ودار، إلى غير ذلك مما ينكره النص والعقل، بينما نجد أن عقيدة الشيعة في هذا المجال تتزه الله سبحانه وتعالى عن أي مشاكلة ومجانسة وتجسيم، فهم يقولون باستحالة رؤيته في الدنيا فضلاً عن رؤيته في الآخرة.

إن تعليلنا لهذه الروايات التي يحتج بها أهل السنة والجماعة، هو أنها روايات مدسوسة من فعل اليهود، إذ أن كعب الأحبار وهو يهودي أسلم على زمن عمر بن الخطاب، قد أدخل هذه المعتقدات التي يقول بها اليهود فتلقفها البسطاء من أمثال أبي هريرة، لأن معظم هذه الروايات في صحيح البخاري وصحيح مسلم مروية عن أبي هريرة الذي ضربه عمر بن الخطاب ومنعه من رواية الحديث، كما نعتته

(١) نهج البلاغة (شرح محمد عبده) ج ١ الخطبة الأولى.

عائشة بالكذب على ما أورده الشيخ الأزهري محمود أبو رية في كتابه: «شيخ المضيرة أبو هريرة». على أننا لسنا معنيين الآن في تتبع الأحاديث التي أتحفنا بها أبو هريرة في كثير من مروياته.

والذي يدعو إلى العجب ويثير الاستغراب، كيف أن بعض المسلمين يتركون باب مدينة العلم الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وينصرفون عنه إلى بعض النوافذ والشبابيك، في محاولة التعرف إلى الإسلام وأحكامه، في الوقت الذي أمرنا رسول الله ﷺ بأن نأخذ علمه عن الإمام عليّ لأنه مع الحق يدور معه كيفما دار.

أعود الآن إلى الروايات التي انطلقنا منها في هذه العجالة، فهي بمجملها تتفق على أن غضب الله سبحانه وتعالى هو عذابه وعقابه، ورضاه هو ثوابه، وانتقل من غضب الله ورضاه إلى غضب الزهراء ورضاه.

فقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ وعن العترة الطاهرة أن الله سبحانه يرضى لرضا فاطمة ويفضب لغضبها، وبتعبير آخر، إن عذاب الله وعقابه سوف يحلان بمن أغضب الزهراء عليها السلام، بينما ثوابه سوف يكون من نصيب من أرضاها.

ونحن نعلم كل العلم أنها -سلام الله عليها- قد تركت هذه الدنيا وهي ساخطة غاضبة على أولئك الذين حرموها إرثها من أبيها ﷺ في فذك، والذين وثبوا على الخلافة وانتزعوها من بعها عليه السلام صاحب الحق فيها بنص القرآن وبموجب الحديث النبوي الشريف. وقد بالغوا في محاولة استرضائها لأن أحاديث رسول الله ﷺ طالما طرقت

أسماعهم، لذلك يقض مضاجعهم أن تغادر الزهراء هذه الدنيا وهي غاضبة عليهم، ساخطة لتصرفهم وفعلهم. فكيف نجد حلاً لهذه المسألة، بل لهذه العضلة وكيف نخرجها، بل كيف نلتمس لها مخرجاً؟

ليس هناك من مخرج وليس هناك من تخريج، إذ أن الحقيقة سوف تبقى ماثلة للأذهان، وهذه الحقيقة تصرخ في آذانهم جميعاً أن بضعة النبي غادرت الحياة الدنيا والغضب في قلبها وكل كيائها، ولا حل لذلك، بل لا مخرج له إلا أن تعود الزهراء إلى الحياة مرة أخرى ويتم استرضاؤها، وذلك محال.

ولنفرض أن أبا بكر قد رد عليها فذك وهذا ما فعله عندما كتب لها بذلك ولكن عمر تفل في الورقة ومزقها، أقول لنفرض أن فذك قد أعيدت إلى الزهراء، فهل كان ذلك مما يرضيها ويزيل غضبها؟ بالطبع لا.. إذ أنها سوف تبقى غاضبة لأجل حق بعلمها بالخلافة، إلا إذا ردوا الخلافة أيضاً، وذلك ما لم يحدث. على أن فذك والمطالبة بها ما كانت إلا مقدمة لمطلب آخر هو الخلافة بالذات، وهذا ما كان يعيه أبو بكر فضلاً عن عمر، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون، حيث توضع الأمور في مواضعها ويتم الانتصاف للمظلوم من الظالم.

فاطمة وأسرتها هم المراد بـ: «النعيم»

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (١).

أخرج العلامة الألوسي قال: ومن رواية العياشي أن أبا عبد الله - رضي الله تعالى عنه - قال لأبي حنيفة في الآية: ما النعيم عندك يا

(١) التكاثر / ٨.

نعمان؟ فقال: القوت من الطعام والماء البارد، فقال أبو عبدالله، لئن أوقفك الله تعالى بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها أو شربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه، فقال أبو حنيفة: فما النعيم؟ قال:

نحن أهل البيت النعيم، أنعم الله تعالى بنا على العباد وبنا ائترفوا بعد أن كانوا أعداء، وبنا هداهم إلى الإسلام، وهو النعمة التي لا تقطع والله تعالى سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم سبحانه به عليهم وهو محمد وعترته -عليه وعليهم السلام-^(١).

وكلمة (أهل البيت) شمولها لفاطمة الزهراء عليها السلام بالأولوية، والأولية كليهما، ثم لأولادها الأئمة الطاهرين عليهم السلام، فهي وأسرتهما هم المراد ب: (النعيم) في هذه الآية الكريمة^(٢).

(١) تفسير روح المعاني ٢٢٦/٣٠.

(٢) فاطمة الزهراء في القرآن ص ٢٤٦.

نقش خاتم الزهراء

في كتاب «اللمعة البيضاء» أن نقش خاتم فاطمة -عليها السلام- :
«الله ولي عصمتي».

وقيل: كان خاتمها من الفضة ونقشه: نعم القادر الله.

وقيل: أمن المتوكلون.

وقيل: نقش خاتمها -عليها السلام- نقش خاتم سليمان بن داود
وهو: سبحان من (أَلْجَمَ) الجن بكلماته.

وفي كتاب «عوامل المعارف» أن نقش خاتمها: أمن المتوكلون.



في فضل تسبيح فاطمة عليها السلام

«عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أتى أخوان رسول الله ﷺ فقالا: إنا نريد الشام في تجارة فعلمنا ما نقول. قال: نعم إذا أويتما إلى المنزل فصليتما العشاء الآخرة، فإذا وضع أحكما جنبه على فراشه بعد الصلاة، فليسبح تسبيح فاطمة عليها السلام ثم ليقرأ آية الكرسي، فإنه محفوظ من كل شيء حتى يصبح.

وإن لصوصاً تبعوهم حتى إذا نزلوا بعثوا غلاماً لهم لينظر كيف حالهما؟ ناما أم مستيقظين، فأنتهى الغلام إليهما وقد وضع أحدهما جنبه على فراشه وقرأ آية الكرسي وسبح تسبيح فاطمة عليها السلام قال: فإذا عليهما حائطان مبنيان فجاء الغلام فطاف بهما فكلما دار لم ير إلا حائطين مبنيين، فرجع إلى أصحابه فقال لا والله ما رأيت إلا حائطين مبنيين. فقالوا له: أخزأك الله لقد كذبت بل ضعفت وجبنت، فقاموا فنظروا فلم يجدوا إلا حائطين، فداروا بالحائطين فلم يسمعوا ولم يروا إنساناً، فانصرفوا إلى منازلهم فلما كان من الغد جاؤوا إليهم فقالوا: أين كنتم؟ فقالوا: ما كنا إلا ههنا وما برحنا، فقالوا: والله لقد جئنا وما رأينا إلا حائطين مبنيين، فحدثونا ما قصتكم؟ قالوا: إنا أتينا رسول الله ﷺ فسألناه أن يعلمنا فعلنا آية الكرسي وتسبيح فاطمة عليها السلام، فقلنا، فقالوا: انطلقوا لا والله ما نتبعكم أبداً ولا يقدر عليكم لص أبداً بعد هذا الكلام».

أقول: واضح جداً من الرواية أن لتسبيح الزهراء -سلام الله عليها-



فضلاً كبيراً ومنزلة رفيعة، إذ أنه يحفظ من يعمل به من كل شيء، فقد كان هذا التسبيح حاجزاً بين اللصوص وبين هذين الرجلين الأخوين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فعلمهما ما يحفظهما من كل سوء يرادان به، ألا وهو تسبيح الزهراء عليها السلام وآية الكرسي. فما هي حكاية هذا التسبيح؟

تعددت الرواية بطرق مختلفة، فوردت في كتاب البحار عن عل الشرائع، وفي مكارم الأخلاق، وعن الإمام الصادق -سلام الله عليه-. وقصة التسبيح باختصار، أن الزهراء -سلام الله عليها- كانت تتعب في عملها المنزلي، إذ كانت تستقي بالقربة حتى أثر ذلك في صدرها، وتطحن بالرحى حتى مجلت ^(١) يداها، وتكنس البيت حتى اغبرت ثيابها، وتوقد النار تحت القدر حتى دكنت ^(٢) ثيابها مما أصابها من ذلك ضرر شديد، فأنت النبي ﷺ تريد أن تسأله خادمة، فوجدت عنده حدثاً ^(٣) فاستحت، ثم انصرفت. فعلم النبي ﷺ أنها جاءت لحاجة. فغدا على بيتها فسألها: يا فاطمة ما كانت حاجتك أمس عند محمد؟

فأعلمه الإمام علي عليه السلام بسبب مجيئها إليه. فقال: أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم؟ إذا أخذتما منامكما فسيحاً ثلاثاً وثلاثين واحمداً ثلاثاً وثلاثين وكبيراً أربعاً وثلاثين. فقالت الزهراء عليها السلام رضيت عن الله ورسوله، وكررت قولها ثلاثاً.

وقد بدا واضحاً من الرواية أن الرسول ﷺ جعل منزلة التسبيح

(١) مجلت: ثخن والمجل هو الماء الذي بين الجلد واللحم.

(٢) دكنت: اغبرت واتسخت.

(٣) الحادث: الجماعة يتحدثون.

أعلى مكانة وخيراً من الخادم. وانطلاقاً من هذا «الخير الكامن» في التسبيح، نستطيع أن نفهم ونستوعب مدى الفضل الذي يكمن فيه، لا سيما أن الرسول قد وضّح هذا الفضل.

كيف لا، لا سيما أن الرسول ما ينطق عن الهوى فقد علمه شديد القوى. ففي طيات هذا التسبيح نجد ثلاثاً وثلاثين مرة «سبحان الله» وثلاثاً وثلاثين مرة «الحمد لله» وأربعاً وثلاثين مرة «الله أكبر». فالفضل كل الفضل يكمن في هذه الألفاظ، إذ أن من يسبح به يعترف أربعاً وثلاثين مرة أن الله سبحانه وتعالى أكبر من كل شيء يمكن أن يكون كبيراً بنظر الناس، ويحمد الله سبحانه ثلاثاً وثلاثين مرة على نعمه وآلائه التي لا حصر لها، ويسبح الله معترفاً بقدسيته ثلاثاً وثلاثين مرة، خاضعاً لربوبيته وسلطانه، مؤتمراً بأوامره منتهياً عن نواهيه. ملاحظة: أن الله أكبر من أن يوصف.

ونخلص إلى القول: إن تسبيح الزهراء لا شك ولا ريب في منزلته وفضله وكرامته مما يجعله يؤدي إلى مثل هذه النتائج حيث يشكل حصناً منيعاً يحمي كل من يعمل بموجبه. فضلاً عن الحكمة الكامنة فيه، إذ أن كل مؤمن أو مسلم يسبح بتسبيح الزهراء سوف تكون الزهراء عليها السلام حاضرة وماثلة في ذهنه بعصمتها ومنزلتها، لا سيما بعد أن أساء إليها من أساء، وحرّمها ميراثها من حرّمها، وآذاها في جسدها وجنينها الطاهر من آذاها.

وقد ورد عن الصادق عليه السلام أنه قال مخاطباً أحد أصحابه: «يا أبا هارون إنا نأمر صبياننا بتسبيح فاطمة عليها السلام كما نأمرهم بالصلاة فالزمه، فإنه لم يلزمه عبد فشقي».

فلا يعجب أحد، ولا يداخله الشك في ذلك الجدار الذي أحاط بالأخوين ووقف حاجزاً دونهما لئلا يسيء إليهما اللصوص.

توسّل بفاطمة عليها السلام يقضي الله حاجتك

«روى المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كانت لك حاجة إلى الله وضقت بها ذرعاً، فصلّ ركعتين فإذا سلّمت كبّر الله ثلاثاً، وسبّح تسبيح فاطمة عليها السلام، ثم اسجد وقل مائة مرة: يا مولاتي فاطمة أغيثيني، ثم ضع خدك الأيمن على الأرض، وقل مثل ذلك، ثم عد إلى السجود وقل ذلك مائة مرة وعشر مرات واذكر حاجتك فإن الله يقضيها.

وقال: تصلي ركعتين فإذا سلّمت فكبر الله ثلاثاً وسبّح تسبيح الزهراء -عليها السلام- واسجد وقل مائة مرة: يا مولاتي يا فاطمة أغيثيني، ثم ضع خدك الأيمن وقل كذلك، ثم عد إلى السجود وقل كذلك، ثم عد إلى السجود وقل كذلك مائة مرة وعشر مرات، واذكر حاجتك تقضى»^(١).

أقول: إن التوسل بالزهراء -سلام الله عليها- لقضاء الحاجات، الذي تؤكد هذه الرواية عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله الصادق -سلام الله عليه-، يضعنا وجهاً لوجه أمام جملة من الحقائق لا بد من عرضها وتفصيلها.

أولى هذه الحقائق المنزلة العظيمة والجليلة بل والفريدة التي كانت تتمتع بها بضعة النبي ، مما جعلها موئلاً لكل مستغيث، ومقصداً

(١) راجع بحار الأنوار ٢٥٤/٩٩.

لكل طالب حاجة ضاق بحاجته ذرعاً وهو لا يدري باب من يطرق حتى تقضى حاجته وتجاب استغاثته. فإذا بالصادق -سلام الله عليه- يقول لنا: عليكم بالزهراء استغيثوا باسمها ونادوا مولاتكم فاطمة، وحينئذٍ تقضى حاجاتكم فتتألون مطلبكم.

وسوف أعرض بعض الأحاديث التي تؤكد هذه المنزلة التي كانت لأُم أبيها. والأحاديث التي أنا بصدد عرضها لن أستقيها من المصادر الشيعية لئلا أتهم بالتعصب أو الاختلاق لهذه الأحاديث. بل سوف أعرضها من المصادر الإسلامية الأخرى، سواء في أسانيدِها أو في مظانها.

عن المسور بن مخرمة قال: قال رسول الله : «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني». أخرج هذا الحديث البخاري ومسلم في صحيحيهما، والترمذي في سننه، وأحمد في مسنده بألفظ متقاربة ولكنها متفقة على مضمونه^(١).

وعن عائشة، قالت: قال رسول الله : «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة». أخرجه البخاري في صحيحه^(٢).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: رسول الله : «إن هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة، استأذن ربه أن يسلم عليّ ويبشرنى بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة». أخرجه الترمذي في سننه والحاكم في المستدرک^(٣).

(١) راجع الرسالة الذهبية للدكتور محمد علي البار ص ٣٢ - دار المناهل.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

وعن عبدالله بن الزبير يرفعه: «إن فاطمة مني يؤذيني ما آذاها وينصبني ما أنصبها». رواه الترمذي (١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وآله دخل على فاطمة عليها السلام فقال: «إني وإياك وهذا النائم، يعني علياً، وهما، يعني الحسن والحسين عليهما السلام لفي مكان واحد يوم القيامة». أخرجه المستدرك (٢)، إلى ما هنالك من أحاديث يضيق المجال عن ذكرها.

أما الحقيقة الثانية التي تكشف عنها الرواية فهي الأهمية التي تحيط بتسبيح الزهراء -سلام الله عليها-، ذلك التسبيح المعروف الذي علمه الرسول صلى الله عليه وآله لابنته بأن تكبر الله سبحانه أربعاً وثلاثين وتحمده ثلاثاً وثلاثين وتسبحه ثلاثاً وثلاثين، عندما جاءته والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام تشكو له إجهادها ونصبها ومعاناتها في عمل البيت، فطلبت منه أن يعينها بخادمة تكون معاوناً لها، فكان أن علمها هذا التسبيح الذي عملت به -سلام الله عليها-، وعنهما أخذهُ المؤمنون يسبحون به ويتعبدون بعد كل صلاة.

وكأنه أراد أن تصبح الزهراء -سلام الله عليها- حاضرة في كل صلاة يؤديها مؤمن، إذ كلما تعبد بهذا التسبيح متعبد تذكّر الزهراء ومكانتها من الرسول صلى الله عليه وآله ومن الله سبحانه وتعالى.

أما الحقيقة الثالثة التي تثيرها الرواية التي بدأنا بها الحديث فهي مسألة الشفاعة في الإسلام. إذ أن الرواية تؤكد هذه المسألة التي

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

رفضها بعض المسلمين منكرين بذلك أمراً أكده القرآن الكريم في كثير من آياته حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ (١).

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (٢).

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٣).

فإذا كان الله سبحانه وتعالى يأذن لبعض عباده بأن يشفعوا لغيرهم من الناس، فمن أولى من بضعة الرسول الأعظم بهذه الخاصة؟

(١) طه / ١٠٩.

(٢) سبأ / ٢٣.

(٣) مريم / ٨٧.



إذا أطلت الحوراء على الدنيا

جاء في بحار الأنوار، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «لو أن حوراء من حور الجنة أشرفت على أهل الدنيا وأبدت ذؤابة من ذوائبها لمات أهل الدنيا - أو لأماتت أهل الدنيا- وإن المصلي ليصلي فإذا لم يسأل ربه أن يزوجه من الحور العين قلن: ما أزهد هذا فينا». ^(١)

أقول: مما لا شك فيه ولا ريب، أن الجنة دار البقاء ودار السلامة، لا موت فيها ولا مرض ولا آفة، ولا زمانة ولا غم ولا هم ولا حاجة ولا فقد، وأنها دار الغناء والسعادة، ودار المقامة والكرامة، لا يمس أهلها فيها نصب ولا لغوب، لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، وأنها دار، أهلها جيران الله وأولياؤه وأحباؤه وأهل كرامته.

وهم أنواع على مراتب: منهم المتعمون بتقديس الله وتسبيحه وتكبيره في جملة ملائكته، ومنهم المتعمون بأنواع المأكول والمشرب والفواكه والأرائك وحور العين، واستخدام الولدان المخلدين، والجلوس على النمارق والزرابي ولباس السندس والحرير، كل منهم إنما يتلذذ بما يشتهي ويريد حسب ما تعلق عليه همته، ويُعطى ما عبدالله من أجله. ^(٢)

(١) راجع بحار الأنوار ٨/١٩٩.

(٢) راجع البحار ٨/٢٠٠.

ومما يلفت النظر ويثير الانتباه في هذا الحديث الوارد عن الإمام الصادق -سلام الله عليه-، هو التأثير الذي تتركه الحوراء من حور الجنة فيما لو أشرفت على أهل الدنيا حيث تستولي عليهم الدهشة التي تؤدي بهم إلى الموت المحتم. لماذا؟

لقد تعود الناس في هذه الحياة الدنيا، وتواضعوا على بعض المقاييس الجمالية التي تأخذ بعقولهم وتثير في نفوسهم مكامن الإعجاب والافتتان. على أن هذه القيم والمقاييس الجمالية، إنما هي أمور نسبية تخضع لأهواء متباينة وأذواق مختلفة، كما تخضع لمعايير الزمان والمكان. فما هو جميل بالنسبة لفلان من الناس قد لا يكون كذلك بالنسبة لغيره، وما هو جميل في منطقة من العالم قد لا يكون كذلك في منطقة أخرى، وما هو حسن ومليح بالنسبة لمجتمع عاش منذ قرنين أو أكثر من الزمان قد لا يكون على هذه الصفة في مجتمع راهن.

أما المقاييس والمعايير في الجنة عالم الخلود، فهي مطلقة، ومما لم يألفه الناس، ومما لم يخطر لهم على بال، بسبب محدودية العقل والخيال والتصور. لذلك سوف يكون العقل البشري قاصراً عن استيعاب ما قد ينتظره في الآخرة من نعيم لم يحلم بشبيه له في يوم من الأيام، وسوف تبقى تصوراته الدنيوية أعجز من أن تبلغ تلك الحقيقة الإلهية الأزلية.

ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا يموت أهل الدنيا بسبب الدهشة التي تستولي على عقولهم الصغيرة المحدودة، تلك الدهشة الناتجة عن رؤيتهم لحوراء من الجنة فيما لو أطلت عليهم، لأن جمالها سوف يكون خارقاً ومعجزاً بالنسبة إليهم وبالنسبة لما تعارفوا عليه من مقاييس وقيم ومعايير.

ومما يؤكد هذه الحقيقة ويدعمها نبي الله موسى عليه السلام عندما ناداه الصوت من جانب الطور؛ إذ بقي أربعين يوماً لا يستسيغ صوتاً ولا تألف أذنه نغماً، نظراً لعدوبة الصوت الذي تنأهى إلى سمعه، ونظراً للسحر الكامن في ذلك الصوت مما لم يألفه النبي موسى عليه السلام.

إن الحور العين اللاتي ينتظرهن عباد الله المؤمنين، بل اللاتي هن ينتظرن أولئك المؤمنين المخلصين، إنهن نعمة من النعم الخالصة التي وعد الله سبحانه بها من أطاعه حق طاعته وآمن به مؤتمراً بأوامره منتهياً عن نواهيه. وقد وردت في ذلك آيات وأحاديث.

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم:

﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ ^(١).

﴿مُتَكِّينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ ^(٢).

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ^(٣).

ويقول الرسول من حديث له في فضل شهر رمضان: «فما من عبد يصوم شهر رمضان إلا زوج زوجة من الحور العين، في خيمة من درّ مجوف مما نعت الله عز وجل ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾» ^(٤).

على أن هذه الدهشة المميتة لأهل الدنيا عند رؤيتهم بعضاً من جمال حوراء الجنة، لن تكون مميتة لأهل الجنة، لأن ذلك محال، فهم خالدون فيها، وذلك وعد الله سبحانه.

(١) الدخان / ٥٤.

(٢) الطور / ٢٠.

(٣) الواقعة / ٢٢-٢٣.

(٤) الرحمن / ٧٢.

في قيام فاطمة عليها السلام بخدمة البيت

وتعليم النبي لها التسبيح

- (صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق) في باب مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، روى بسنده عن علي عليه السلام قال: إن فاطمة -سلام الله عليها-، شكت ما تلقى من أثر الرحي فأتى النبي صلى الله عليه وآله سبي فانطلقت فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي صلى الله عليه وآله أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبي صلى الله عليه وآله إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبت لأقوم، فقال: على مكانكما، فقمعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري وقال: ألا أعلمكما خيراً مما سألتمانِي؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبرا أربعاً وثلاثين، وتسبحا ثلاثاً وثلاثين، وتحمدا ثلاثاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم، (أقول) ورواه البخاري أيضاً في الخمس في باب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله صلى الله عليه وآله ورواه مسلم أيضاً في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء في باب التسبيح أول النهار وعند النوم، ورواه أبو داود أيضاً في صحيحه في (ج ٣٣) في باب التسبيح عند النوم.

- (صحيح أبي داود ج ٣٣) في باب التسبيح عند النوم، روى بسنده عن أبي الورد بن ثمامة قال: قال علي عليه السلام لابن أعبد: ألا أحدثك عني وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؟ وكانت أحب أهله إليه، وكانت عندي، فجرت بالرحى حتى أثرت بيدها، واستقت بالقربة حتى أثرت في



نحرها، وكسحت البيت حتى أغبرت ثيابها، وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها، وأصابها من ذلك ضرر فسمعنا أن رقيقاً أتى بهم النبي فقلت: لو أتيت أباك فسألتيه خادماً يكفيك فأنته فوجدت حداً فاستحييت فرجعت، ففدا علينا ونحن في لفاعنا فجلس عند رأسها فأدخلت رأسها في اللفاع حياءً من أبيها، فقال: ما كان حاجتك أمس إلى آل محمد؟ فسكتت مرتين، فقلت: أنا والله أحدثك يا رسول الله إن هذه جرّت عندي بالرحى حتى أثرت في يدها، واستقتت بالقربة حتى أثرت في نحرها، وكسحت البيت حتى أغبرت ثيابها، وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها، وبلغنا أنه أتاك رقيق أو خدّم فقلت لها: سليه خادماً (قال أبو داود) فذكر معنى حديث حكم، (أقول) ويعني بحديث حكم ما تقدم آنفاً عن البخاري ومسلم من قوله : ألا أعلمكما خيراً مما سألتُماني (إلى آخره) ورواه أبو نعيم أيضاً في حليته (٤١/٢) مختصراً.

- (حلية الأولياء لأبي نعيم ٤١/٢) روى بسنده عن الزهري قال: لقد طحنت فاطمة بنت رسول الله حتى مجلت يدها وربا وأثر قطب الرحى في يدها.

- (مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٥٠/٣) روى بسنده عن أنس بن مالك أن بلالاً أبطأ عن صلاة الصبح فقال له النبي : ما حبسك؟ فقال: مررت بفاطمة عليها السلام وهي تطحن والصبى يبكي فقلت لها: إن شئت كفيتك الرحى وكفيتني الصبي، وإن شئت كفيتك الصبي وكفيتني الرحى، فقالت: أنا أرفق بابني منك، فذاك حبسني قال: فرحمتها رحمتك الله.



- (كنز العمال ٢٩٥/٦) قال: عن جابر أن رسول الله رأى على فاطمة -سلام الله عليها- كساءً من أوبار الإبل وهي تطحن، فبكى وقال: يا فاطمة اصبري على مرارة الدنيا لنعيم الآخرة غداً ونزلت ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ قال: أخرجه ابن دلال وابن مردويه وابن النجار والديلمي، وذكره السيوطي أيضاً في الدر المنثور في تفسير سورة الضحى، وقال: أخرجه العسكري في المواعظ.

في إعطاء النبي

فدكاً لفاطمة عليها السلام

- (السيوطي في الدر المنثور) في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ في سورة الأسرى، قال: وأخرج البزار وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ دعا رسول الله فاطمة -سلام الله عليها- فأعطاهما فدكاً، قال: وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أقطع رسول الله فاطمة -سلام الله عليها- فدكاً. (الهيثمي في مجمعه ٤٩/٧) قال عن أبي سعيد قال لما نزلت ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ دعا رسول الله فاطمة عليها السلام فأعطاهما فدكاً (قال) رواه الطبراني (أقول) وذكره الذهبي أيضاً في ميزان الاعتدال ٢٢٨/٢ وصححه (المتقي في كنز العمال) ١٥٨/٢ عن أبي سعيد قال لما نزلت ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ قال النبي يا فاطمة لك فدك (قال) أخرجه الحاكم في تاريخه وابن النجار.

A decorative border with intricate floral and scrollwork patterns, featuring stylized leaves and swirling lines, framing the central text.

من هو الخطيب؟

من هو الخطيب ؟ ؟

قال أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام، في وصف الخطيب الداعي إلى الله بإيمان وإخلاص:

(قد لبس للحكمة جنته وأخذها بجميع أدبها ، من الإقبال عليها والمعرفة بها والتفرغ لها ...).

هذا هو الخطيب الناجح إذاً، الذي ينطلق نحو الهدف بجُنَّة واقية والجُنَّة هي العدة من أدوات وآلات وجوارح يستخدمها في نجاح وفوز وانتصار يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة، ويبدأ بالرغبة لطلب العلم، والفقه والفهم .

على أن الرغبة هي التي تجعلك مقبلاً على شأنك حافظاً للسانك عارفاً بزمانك ، وهذا معنى الإقبال عليها أي على الحكمة، وهي المعرفة الكاملة لرسالة المنبر الحسيني الذي يعتصم الناس به من الجهل والضلالة، كما ورد ذلك في زيارة الإمام الحسين عليه السلام في يوم الأربعين الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول :

(وبذل مهجة منك ليستنقذ عباد من الجهالة وحيرة الضلالة).

فالرغبة في السمو، وتطوير الذات، والمعرفة تعني روح الإقبال على

معرفة الحكمة... ثم بعد الإقبال يأتي دور المعرفة، فأنت مقبل على
شأن عظيم، وينبغي أن تعرف ما هي الحكمة ؟؟
ومن أين تأخذها ؟؟

وما هي المدرسة التي يجب أن تنتمي إليها وتتطلق فيها لتعرف
الحكمة ؟؟

وعندما تتطلق في الخط المستقيم نحو الحكمة، تدرك أن الحكمة
عند أهل البيت لا عند غيرهم، فمدرستهم وحدها هي المدرسة المقبولة
في السماء وفي الأرض، وحتى في عالم الملكوت، إذ لا توجد مدرسة
غيرها يمكن أن تقوم مقامها أو تحل محلها، فمحلها محل القطب من
الرحى، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (ينحدر منها السيل، ولا
يرقى إليها الطير ...) .

وقد أمر الله عز وجل بالتوجه لها والأخذ عنها والسؤال منها ...
﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) .

وبعد الإقبال والمعرفة يجيء دور التفرغ لا يستطيع الواحد منا أن
يحقق تقدماً أو يحرز فوزاً تظل الأعناق له خاضعة .

إذاً: فالتفرغ للخطابة شرط أساسي لا يستهان به أبداً، إذ من دون
هذا الشرط يظل الخطيب بارداً وباهتاً ومنطفئاً، لا يضيء درياً، ولا
يشير عقلاً، ولا يحرك جدلاً في الأوساط لا من قريب ولا من بعيد،
ومثل هذا الخطيب لا يقوم من تأخر حتى يقع في تأخر أشد منه
وأوجع وأبعد منه وأصعب .

(١) الأنبياء / ٧ .

ولتفادي هذه الحالة والخروج منها، فإنه يجب على الطالب والساعي في هذا الطريق، أن يستجمع كل قواه ويركز كل طاقاته على الغاية الواحدة، والهدف الواحد، مستمداً من الله عز وجل العون، والتسديد والتوفيق لبلوغ الهدف وإيصال القول للناس كافة...

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شَىْءٍ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

وكأن الآية تشير إلى حقيقة وحدة الموضوع الذي يطرق فوق المنبر دون أن يكون هناك تشتت في الأفكار وتوزيع في الأدوار للشيء الواحد، ومثالي على ذلك خطب النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، حيث يكون الموضوع واحداً والأمثلة متعددة وكثيرة، وهذا لا يضر بالخطبة ولا يحط من شأن الخطاب .

على أن البعض من رواد هذا الطريق تضيع أمامهم المعالم، فتراهم لا يفرقون بين وحدة الموضوع ، ووحدة الفكرة، في وحدة الفكرة لا يوجد منبر ناجح أبداً لأن الفكرة ماذا تعني؟

تعني أنك تأخذ مفردة واحدة في فكرة واحدة، وتتطلق في الحديث عنها وحولها ، وهذا يسبب السأم والملل ويقطع قدرة المستمع على المواصلة مع الخطيب ، فلو فرضنا أن إنساناً على المنبر يريد الحديث عن الخمر مثلاً ، فإن أمامه طريقين لتناول هذا الموضوع:

الأول: أن يتحدث عن الخمرة وأضرارها، وينطلق في هذا الاتجاه لا يخرج عن هذا المسار أبداً، وهذا هو الذي يسمى وحدة الفكرة وهو بحث أو مبحث يبعث على الملل والسأم والتعب، فلا يستطيع السامع أن

(١) سبأ/ ٤٦.

يتابع المتحدث أو يواصل الاستماع إلى الخطيب الناطق، لأن طبيعة الإنسان مجبولة على التنوع الفكري وتعدد الرؤى في الموضوع الواحد، هذا بالنسبة للطريقة الأولى أو الطريق الأول، وهي طريقة بعيدة عن النجاح كما رأينا ...

أما الطريقة الثانية، وهي أن يلتزم المتحدث الخطيب بموضوع واحد متعدد الأفكار، وتنوع الرؤى، فهي تبدأ بالحديث عن الحرام والحلال بدل أن يبدأ بالحديث عن الخمرة، فإذا جعل الخطيب موضع انطلاقه الحديث عن الحرام والحلال، ومن شرب الخمر فإنه لا شك سيسجل فوزاً ساحقاً، ونجاحاً مثيراً للاهتمام لأن الناس يظلون في انشداد لكلام هذا الخطيب حتى لو طال كلامه لأكثر من ساعة، كما هو المشاهد لدى الخطباء الكبار الذين ينطلقون من الموضوعات لا من الأفكار، بل يجعلون الأفكار أشبه بقناديل تضيء الموضوعات التي يطرحونها ويتناولون من خلالها القضايا ذات الأهمية في الدين والعقل والحقوق والحرية، وطريقة التعايش بين الناس .

على أننا حين نلقي نظرة عميقة على خطاب الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام، مثلاً نجد وحدة الموضوع في خطابها رغم تعدد الأفكار وتنوع الرؤى التي تناولتها الزهراء في خطابها العظيم الذي هز العروش والقلوب والجبال، حتى أجهش القوم لها بالبكاء واللوعة .

وما يقال في خطب الزهراء وكلامها، يقال في خطب أمير المؤمنين علي وكلامه عليها أفضل الصلاة والسلام، على أن نهج البلاغة يظل أروع مثال وأنصح قول لموضوع الحق والعدل والصدق والحرية، ومن أراد أن يصبح خطيباً كبيراً بارعاً قديراً، فما عليه إلا الرجوع إلى نهج

البلاغة والسعي للتفقه فيها لمعرفة وحفظها وإلقائها على أعواد
المنابر وفي القنوات الفضائية لسمعها العالم كله فيطلع على بحار من
المعاني والعلوم والمعارف.

إذن: فقول علي أمير المؤمنين عليه السلام، في وصف الخطيب الناجح
بأنه:

(قد لبس للحكمة جنتها، وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها
والمعرفة بها والتفرغ لها ...) .

هو عين الواقع وقلب الحقيقة ومن دون السير على هذا المنهج ليس
في الإمكان إحراز أي تقدم، وفوز وظفر في هذا المضمار .
﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ ^(١) .

فمن يريد الخروج بمنبر بليغ وفصيح إلى العالم، فيجب أن يعد له
عدة، والعدة هي الجنة التي تتألف من أدوات الخطابة وآلات الكلام،
وجوارح الحديث في الفقه واللغة والتفسير والآداب

وهذا يفتح أمامنا آفاقاً واسعة من المعرفة كلما ولجنا أفقاً، انفتح
أفق آخر جديد أمامنا، فألى الأمام أيها الأحبة، في مدرسة أهل
البيت عليهم السلام، والله ولي التوفيق ومنه العون والتسديد، فنعم المولى ونعم
النصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١) التوبة/ ٤٦.

والله أخرجكم

ينزل الإنسان من بطن أمه لا يعرف شيئاً غير أنه مزود بأدوات تمكنه من المعرفة وتجعله قادراً على طلب العلم والتفقه في الدين خصوصاً إذا سار الإنسان على درب الحق، وجادة الحقيقة آخذاً ما أتاه الله من فضل من سلامة في العقل والروح والجسم ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) وفي آية أخرى نجد الحق سبحانه يوجه ابن آدم إلى المصدر الذي يأخذ علمه منه فيقول: فلينظر الإنسان إلى طعامه، والطعام هنا في التأويل هو العلم الذي يأخذه عن يأخذه كما وردت الروايات الصحيحة بذلك من أهل البيت عليهم السلام ونقرأ آية تقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

إذا فقد بين القرآن لنا الطريق الذي نسلكه في طلب العلم وأخذ الحكمة والمعرفة وهم أهل الذكر عليهم السلام محمد وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣).

على أن الله عز وجل بيّن للإنسان أن هذه الجوارح والأعضاء التي

(١) النحل / ٧٨.

(٢) الأنبياء / ٧.

(٣) الحشر / ٧.

أوجدها الحق في البدن إنما هي لخدمة الحق ونشره والدفاع عن أهله ومحبيه وحامليه، لأنه قال في آخر آية ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

والشكر مرحلة عمل وفعل وتطبيق وممارسة وهي تختلف عن كلمة الحمد، لأن الحمد بالنية والقول، في حين أن الشكر لا يقع إلا بالعمل ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١).

فالحمد لاستتمام النعمة كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (الحمد لله استتماماً لنعمه..) وهذا يعني أن النعمة لا تكتمل إلا بالحمد، ولا تظهر على حقيقتها إلا بالشكر، وهو العمل ولذلك كان الذي يكتفي بالحمد دون الشكر معاتباً من قبل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢).

أما بالنسبة للمنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فقد فضحهم القرآن الكريم بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (٣) وفي آية أخرى ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (٤) كل ذلك تأكيداً على ارتباط اللسان بالقلب أي بالنية، فلا قول إلا بنية، ولا نية إلا بإصابة السنة، ولا قول ولا نية إلا بعمل أو بالعكس لا قول ولا عمل إلا بنية، ولا نية إلا بإصابة السنة، وإصابة السنة هنا معناها إصابة الواقع والحق.

(١) سبأ/ ١٣.

(٢) الصف/ ٢-٣.

(٣) الفتح/ ١١.

(٤) آل عمران/ ١٦٧.

من هذه المقدمة ندرك أن المعرفة وحدها لا تكفي أبداً لأن المعرفة تظل ناقصة من دون عمل وهو مرحلة الشكر.. ومثالي على ذلك أن إذا سمع الواحد منا طرقاتاً على الباب فإنه يدرك أن وراء الباب طارقاً ولكنه لا يعرف هوية هذا الطارق هل هو رجل أم امرأة عالم أم جاهل، كبير أم صغير، عدو أم صديق لا يدري ولكن حين يسمع صوت الطارق يتعرف عليه فتنتقل الحالة من مجال التصور الذهني إلى مجال التصديق العقلي، وهنا ينتقل الموضوع إلى حالة الوجدان حيث اثارة الحب أو البغض لهذا الطارق حسب حالته ووضعه فيما إذا كان صديقاً فإن الحب يتحرك في القلب، أو إذا كان عدواً يريد إيقاع الأذى بي أنا صاحب الدار وانزال الضرر بحياتي فإن البغض هو الذي يملأ قلبي هنا حتى أخذو صنعاً خاصاً يناسب الحالة التي نحن عليها أنا والطارق، وهنا يجب أن ننقل إلى مرحلة التصميم والإرادة في احتضانه أو نبذه ودفعه، في نصره أو في خذلانه، فإذا كان من أهل الحق تكون له مودة في قلبي ولا بد لهذه المودة أن تحرك عزمي لانطلق في نصره والذب عنه، والدفاع عن أفكاره وخطواته وطريقته في الحياة بخلاف ما إذا كان الشخص عدواً لي فإن روعي تجعلني كارهاً للقاءه مبغضاً لقدومه لا أحب رؤيته ولا أريد لقياء أبداً وإنما أريد الابتعاد عنه والانصراف عن طريقه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.. وخلاف هذا يعد نقصاً في تركيبة الإنسان الخلقية، ومن هذا المنطلق نذكر الذين عرفوا فاطمة الزهراء عليها السلام ولم ينصروها، بل خذلوها، في مقابل الذين عرفوها حق المعرفة وقاموا بنصرها والدفاع عنها في اليد واللسان والقلب.. على أنه سيأتي الكلام عن هذا الموضوع بالذات عندما نقرب منه أكثر فأكثر في خطابها العظيم

الذي فضحت فيه المهاجرين والأنصار الذين غضوا الطرف عن نصرتها ولم يستجيبوا لصرختها ودعوتها فراحت تخاطبهم بقولها: يا معشر النقيبه وأعضاء الملة وحضنة الإسلام، ما هذه الغميمة في حقي والسنة عن ظلامتي، أما كان رسول الله ﷺ أبي يقول: «المرء يحفظ في ولده» سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة ولكن طاقة بما أحاول وقوة على ما أطلب وأزاول، تقولون مات محمد ﷺ؟ فخطب جليل استوسع وهنه، واستتهر فتقه، وانفتق رتقه، واطلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر، وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في افئيتكم هتافاً وصراخاً وتلاوة والحناناً، ولقبه ما حل بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاء حتم:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١).

إيها بني قيلة أهضم تراث أبي؟ وأنتم بمرأى مني ومسمع ومنتدى ومجمع، تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة وعندكم السلاح والجنة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون..

وقد أكدت هذا المعنى أكثر عندما خاطبت أمير المؤمنين عليه السلام بقولها: خرجت كاظمة وعدت راغمة، فلا شافع ولا دافع، وغضت

(١) آل عمران/ ١٤٤.

الجماعة دوني طرفها.. الخ وهذا كله يبين أنها -سلام الله عليها- استتصرت الناس فلم ينصروها بل نجدهم خذلوها وتآلبوا ضدها في هتك حرمتها وحرق دارها وكسر ضلعها واسقاط جنينها المحسن برفسة عمر بن الخطاب وسياط قنفذ مولاه حتى وقعت بين الحائط والباب وقد أخذ الألم منها مأخذاً عظيماً بحيث رفعت صوتها تتادي فضة جاريتها: يا فضة إليك فاسنديني فقد والله أسقط ما في أحشائي!

وإني لأعجب أشد العجب هنا من سكوت الأمة على هذا الظلم العظيم الذي وقع على أظهر وأقدس امرأة في الوجود، وأتساءل - بالمناسبة- وأقول: حينما وقعت الزهراء كان بينها وبين علي خطوات وهو الذي لم يمنع نجدته عن أي إنسان فما مروعة تستغيث به إلا لباهها وكشف عنها روعها حتى خاطبه الشيخ الأزري بقصيدته التي يقول فيها:

أين من لودعته بالثريا مروعة لبابهـا..

وسؤالي هو لماذا لم تستغث الزهراء به واستغاثت بفضة في تلك الحال؟ والجواب: إنها ما أرادت احراج أمير المؤمنين عليه السلام لأنها تعلم أنه مربوط بالعهد، ومقيد بالوصية، ولو أنها نادته واستغاثت به لقلب الجبال على السهل، ولسقى آخرها بكأس أولها ولألفيناه لا يبقى ولا يذر أحداً من المنافقين وأصحاب الفتنة الذين أحدثوا في الدين، وانقلبوا على أعقابهم غير شاكرين ولا حامدين.

إذن: فالمعرفة تؤدي إلى النصر والانتصار بخلاف الجهل الذي يؤدي إلى عدم المعرفة، وإلى التفريط بالحق وأصحاب الحق.. فهؤلاء

مجموعة من أهل الكتاب يحملون الصليب ولكنهم لما عرفوا الحق فاضت أعينهم بالدمع وتحركت قلوبهم بالخشوع فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يتركوا النبي إلا وهم في أعلى درجات الإيمان واليقين بالنسبة لدرجات الإيمان عند الناس الآخرين، ﴿ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ (١).

إذاً: فالمعرفة وحدها لا تكفي بل لا بد لها من التفاعل واطهار المودة والاستعداد للدفاع عن الحق وأهله، وهذا ما سنراه من خلال السيرة الذاتية للزهراء عليها السلام، ومن خلال فكرها الذي سنقدمه لكم أيها الأحبة في هذه الأوراق التي تعبق بحب فاطمة ورائحتها الزكية التي هي أزكى وأطيب من رائحة الجنة لأن الجنة خلقت من نورها صلوات الله وسلامه عليها.

والآن اسمعوها وهي تعدد نعم الله وآلاءه أمام حشد من المهاجرين والأنصار خرجت إليهم نذيرة بين يدي عذاب شديد فهي ابنة نذير لهم وللعالم كله.

على أنها خرجت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ أذيالها ما تخرم مشيتها مشية أبيها رسول الله ﷺ وفي هذا بلاغ لقوم عابدين، حتى إنك تستطيع أن تقرأ السيرة النبوية من خلال ابنته الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليه الصلاة وأزكى السلام وفي هذا أيضاً دعوة صريحة إلى الأمة الإسلامية التي تركت أهل البيت وراحت تتعثر في الظلمات تجمع من هنا وهناك صوراً مشوهة ومبتورة عن سيرة

(١) المائدة / ٨٣.

النبي وحياته لأن الآخرين لا يمكن لهم أن يعكسوا صورة حقيقية عن حياة النبي ﷺ وإنما صورة النبي بل هو في شخصه ونوره وعلمه وخلقه موجود في أهل البيت لأن الله عز وجل الذي أنزل العلم والوصي والنور على رسوله المصطفى لحاجة الناس إلى كل ذلك لا يمكن أن يرفعه إلى السماء برحيل المصطفى بل لا بد من إبقاء هذا العلم المحمدي والنور الرباني عند أهل البيت لأن البشرية لم تستغن عنه وإنما ما زالت الحاجة قائمة لعلم النبي ونوره وخلقه وسيرته فكان كل ذلك في أهل البيت الذين ورثوا من النبي ليس فقط العلم وإنما حتى خصاله وفضائله وصفاته بل حتى شمائله وملامح وجهه كانت كلها عند أهله فقد ورثت الزهراء من أبيها كل خصاله حتى مشية النبي كانت تظهر واضحة في مشية فاطمة فلم يعرف الناظر إلى مشية فاطمة هي تمشي أم رسول الله يمشي أمامهم، وكان جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: إذا رأيت فاطمة تمشي تذكرت مشية رسول الله ﷺ وورد في الأثر أنها يوم خرجت لالقاء خطابها هذا خرجت ماشية مع ثلة من النساء ما تحرم مشيتها مشية أبيها رسول الله وكانت إحدى أزواج النبي تقول: ما رأيت فاطمة تمشي إلا ذكرت بها مشية النبي ﷺ وهل في ذلك غرابة واستغراب؟

إنها هي روح النبي وقلبه ومهجته وبضعته فلا غرو إذا كانت مشيتها مشية أبيها، ومنطقها كذلك منطقها وهذا هو الحق الذي ظهر على أبناء فاطمة عليها وعليهم السلام، فهذا الإمام الحسن عليه السلام وكيف كان ورث من جده النبي صفات النور والحسن والجمال، وكذلك الإمام الحسين عليه السلام الذي كان يشبه المصطفى محمداً ﷺ بشكل يصعب

وصفه بالكلمات، ولكن يكفي دليلاً على ذلك وصف ولده علي الأكبر حيث كان شبيهاً بجده رسول الله ﷺ خلقاً وخلقاً ومنطقاً كما قال الإمام الحسين عليه السلام: اللهم اشهد على هؤلاء القوم أنه قد برز إليهم غلام أشبه الناس برسول المصطفى محمد خلقاً وخلقاً ومنطقاً وكنا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيك نظرنا إليه.

اشبههم برسولك خلقاً وخلقاً ومنطقاً، وهذا شيء يثير الدهشة والعجب، خصوصاً إذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) وهذا الخلق العظيم تركه النبي عند الحسن والحسين وعند الزهراء وقبل ذلك هو موجود في أمير المؤمنين الذي هو نفس النبي بنص القرآن، ولكن هذا الخلق العظيم يمتد، ويمتد ويمتد حتى يتحول إلى وجود كامل لرسول الله في ولده علي الأكبر صلوات الله على الحبيب المصطفى وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

إذاً: فقد خرجت الزهراء الطاهرة تطأ أذيالها، إشارة إلى شدة الحجاب عندها وأن الحجاب لا يمنع المرأة من مواصلة عملها، وممارسة شغلها بهذا الشكل بل إن الزهراء بخروجها هذا إلى المسجد مطالبة بحقوقها وحقوق الأمة لتعطي أكبر دليل وأعظم برهان على أن للمرأة دوراً عظيماً في الإسلام والدفاع عنه وهي بهذا تطفئ النائرة التي ترى المرأة لا قيمة لها ولا تستطيع أن تبني مجتمعات ولا أسرة ولا حياة ولا نشوراً.. إنها روعي فداها، تعلن أن كل حديث يسمعه الناس في انتقاص كرامة المرأة وضعفها وعدم قدرتها على النهوض بآعباء الحياة وحمل الأمانة، إنما هو حديث موضوع لا وزن له ولا قيمة، فإننا

(١) القلم / ٤.

عندما نضع مثل هذه الأحاديث على طاولة البحث ونسلط عليها مزيداً من الضوء فإنها سرعان ما تتهار ولا تصمد لحظة واحدة، خذوا على ذلك مثلاً الحديث الذي يقول: ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، يقول: إن الأمة التي تمنح المرأة حق القيادة وتعطيها زمام الأمور هذه أمة لن تفلح قط ولا ترى فلاحاً ولا نجاحاً في الحياة، هذا الحديث إذا أخذناه أخذ تأمل وتدبر وتفقه، فإننا نجد منهاراً بين أيدينا لا قدرة له على القيام والنهوض وذلك للنقاط التالية التي أدرجها لكم في عجالة سريعة وهي:

أ - إذا نظرنا في القرآن فإننا لا نجد فرقاً بين الرجال والنساء، إنما هم خلقوا من نفس واحدة فلا فرق في عقل الرجل ولا عقل المرأة. كما لا توجد فروق في روح النساء وروح الرجال بل هي أرواح واحدة تكاد تندمج من العذوبة والطهارة والشفافية حتى صارت أرواح المؤمنين والمؤمنات كأنها جنود مجندة، في الحق وفي كل شيء، هذا بالإضافة إلى بقية مجالات الحياة وأبعاد العيش بين الذكور والإناث.

صحيح نجد هناك فروقاً في الأبدان تفرز هذا عن هذا وذلك لاختلاف الوظيفة ليس أكثر، فقد جاء بدن الرجل مختلفاً عن بدن المرأة وذلك تبعاً للوظيفة التي يؤديها كل واحد من النوعين بما في ذلك وظيفة الحمل والرضاعة التي تتفرد بها المرأة دون الرجل، أما في سائر الأنحاء فلا يوجد فرق أبداً.

أما ما ورد من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة التي يوحى ظاهرها أن المرأة لا تقوم مقام الرجل ولا تساويه فضلاً وكرامة، فإنها خاصة بموطن معين، وكان خاص بها لأنه ذكرها يوم الجمل حين رأى



امرأة تركب الجمل وتقود الفتنة العمياء في البصرة في حرب حزيت
الأخضر واليابس يقودها الباطل والهوى والشياطين، حرب الناكثين
الذين نكثوا البيعة العلوية، وهذا معروف لدى من له إلمام في هذا
المجال حيث قال أمير المؤمنين عليه السلام أما بعد: فإن النساء نواقص
العقول نواقف الحضوض نواقص الإيمان، ثم راح يفسر كل فقرة من
هذه الفقرات: أما نقصان إيمانهم فقعودهن عن الصلاة والصيام أيام
حيضهن، وأما نقصان حظوظهن، فشهادة امرأتين كشهادة الرجل
الواحد، وأما نقصان حظوظهن.. الخ. على أنه -روحي فداها- قد
ضمن كل فقرة مسألة فقهية وشرعية وكل هذا لا يعد انتقاصاً للمرأة
فهل قعودها عن الصلاة والصيام أيام الحيض يعتبر انتقاصاً لها؟
كلا.. فلم يرد الإمام أن يقول ذلك وإنما هو تعريض بعائشة التي قادت
الجيوش وركبت جمل الفتنة في البصرة، وما يقال في هذه المسألة
يقال في اخواتها من نصف حقها في الميراث وكون شهادة الرجل تعادل
شهادتين للمرأة، كل ذلك أجاب عنه الإمام هو نفسه روعي فداها وبين
الحق أين هو.. هذا جانب وجانب آخر عندما نسمع حديثاً يصف المرأة
بالضلع المعوج، فهل هناك ضلع مستقيم؟ وهل الإعوجاج في الضلع إلا
كمالاً له وجمالاً عليه، وإلا فالضلع إذا استقام لم يعد ضلعاً أبداً وإنما
حلاوة الضلع باعوجاجه، كما أن حلاوة المنشار بخشونته، وحلاوة
الفرات بعدوبته، وحلاوة الحنظل بمرارته وحلاوة الطفل ببرائته
والأمثلة في ذلك تجري ولا تتقطع أبداً ففي الأسرة عندما ننظر إلى
هيئة طبيعية نجد فيها الجد وهو شيخ كبير يجلس على مصلاه في
وقار وخشوع وهدوء ودموع تجري من خشية الله في حين أن حفيده

الطفل الصبي الصغير نجده سريع الحركة في البيت يقفز هنا وهناك، يكسر بعض الأشياء يصنع نوعاً من الجلبة والضوضاء وهذا هو الجمال في الأسرة أن يكون الهدوء ظاهراً في لعب الطفل وبراءته، ولو أردنا أن نستبدل هذا بهذا لكانت ابشع صورة يمكن أن تظهر للأسرة وذلك عندما يأخذ الجد دور الطفل الصبي، ويأخذ الصبي دور الجد الكبير، فيقوم كل واحد منهما بدور الآخر!

إنها مصيبة، تصوروا فقط أنكم تدخلون في أسرة تجدون فيها الأطفال الصغار، صبايا وصبية جالسين على سجادات الصلاة يسبحون، أو فاتحين كتاباً يقرأون بكل هدوء وخشوع ووقار، بينما يكون الجد الشيخ الكبير سريع الحركة يقفز هنا مرة وهناك تارة أخرى، وأحياناً يزعق بصوته، ويصنع جلبة وضوضاء، إن أسرة مثل هذه تبعث الغثيان والقرف في القلب والضمير والوجدان والذوق.. وهكذا نجد أن لكل واحد من بني آدم وظيفة تناسب مقامه وموقعه.

هذا من جانب ومن جانب آخر فإن الحديث الذي يتلوه البعض مستفيدين منه عدم صلاحية المرأة للإدارة لهو حديث يدعوننا إلى إعادة قراءته من جديد خصوصاً وهو من الأحاديث التي وردت في السيرة النبوية الشريفة (ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) وفي القراءة الجديدة لهذا الحديث نجد أنه حديث خاص ببلاد فارس وأهلها، ثم له مناسبة خاصة به أيضاً، والمناسبة موت ملك الفرس كسرى وتولي ابنته مكانه، وكانت فارس آنذاك تظهر العداء للإسلام وتكيل له المكر والخديعة، فلذلك قال النبي ﷺ مثل هذا القول، الذي يخص فارس دون غيرها، ويختص ببنت كسرى دون غيرها من النساء، يدل على

ذلك أن بلقيس كانت تحكم في سبأ وهي ملكة واستطاعت أن تفلح هي وتقود شعبها إلى الفلاح يوم أسلمت مع سليمان بن داود لله رب العالمين، وانقطعت إلى الله عز وجل، فهذه امرأة وكانت مفلحة منجحة قادت قومها إلى الأمن والخير والعطاء.. وما يقال في بلقيس ملكة سبأ، يقال في آسية بنت مزاحم زوجة فرعون حيث أعطت وجودها لله رب العالمين، وطلبت منه عز وجل أن يختار لها داراً تجاوره فيها وكان ذلك كذلك فأصبحت بنعمة الله مثلاً أعلى للمرأة التي تعيش أجواء الكفر والفسق والفجور والشر، كيف تقدر على انقاذ نفسها، وخلص روحها من كل هذه الأجواء اللزجة الدبقة التي تفوح منها رائحة النصب والتعب والاضطهاد، فصبرت على حر الحديد ولغة العذاب حتى ارتحلت إلى الله ربها في جواره ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

على أننا هنا يمكن أن نواجه مسألة فقهية تحتاج إلى وقفة تأمل وتدبر حتى نعرف ما نريد أن نقول في هذا الصدد، والمسألة هي: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة واجبة على المؤمنين والمؤمنات، وهي مثلها في ذلك مثل الصلاة والصيام والحج والزكاة.. الخ فإذا كان الأمر كذلك فإن المرأة لا بد لها أن تعلم كل المعروف لتأمر به، وتعلم كل الشر لتنهى عنه، وهذا هو العلم بعينه فإذا كان الأمر بهذا الشكل وهذا الترتيب فإنه لا بد للمرأة من دخول رياض العلم ومدارس الفقه لتعرف هذه العلوم الإجتماعية وعلى أساس وجوب هذه الفريضة، ثم أن القيام بها يعتمد على معرفتها، ومقدمة الواجب

(١) التحريم/ ١١.

واجبة، فهذا دليل ليس فوقه دليل على وجوب انطلاقة المرأة في هذا المجال حتى ولو كان من باب ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١) أقول: إن هذه المقدمة تبين أن الذهاب لطلب العلم بالنسبة للمرأة شيء واجب ومقدس ولا يحتاج إلى أخذ الإذن من أحد، لأن الروايات التي تتحدث عن استئذان المرأة وأخذ الإذن لها، إنما هي روايات خاصة بالزوجة لا بغيرها، وفي مجال المستحبات والمندوبات لا في مجال الواجب والفرائض، فإن هذا لا يحتاج إلى أخذ الإذن من أحد، هذا بالنسبة إلى الزوجة أما الأم والأخت والبنت فإنها لا تحتاج إلى أن تستأذن أحداً في ذلك بل هو أمر واجب وملزم لها أن تتفرغ لطلب العلم حتى تستطيع أن تقوم بهذه الوظيفة أحسن قيام ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢) ومن هنا كان خروج العقيلة زينب عليها السلام مع أخيها ریحانة رسول الله الإمام الحسين إلى كربلاء حيث وقفت إلى جانبه إلى آخر لحظة من حياته وحتى بعد مقتله الشريف استمرت الحوراء زينب في تحمل المسؤولية وحمل أعباء الرسالة، فكانت تفضح كل الظلمة والحكام والخونة والشجرة الملعونة - بني أمية ومن سار في ركابهم - كانت تفضحهم وتبين خططهم لضرب الإسلام فتقول ليزيد بن معاوية: «فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحيناً وهل رأيك إلا قنء، وجمعك إلا بدء، وأيامك إلا عدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين»...

(١) آل عمران/ ١٠٤.

(٢) التوبة/ ٧١.

فتظهر أن هناك مؤامرة لاطفاء الوحي، ونور الإسلام ولكن أن لهم ذلك والله يقول: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. (١)

(١) الصف / ٨-٩.



ملحق

تأملات في الخطابة

من وحي مدرسة فاطمة الزهراء عليها السلام

لكي فقهاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١).

- ١ - ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (٢).
- ٢ - ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ (٣).
- ٣ - ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (٤).
- ٤ - ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٥).
- ٥ - ﴿انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (٦).
- ٦ - ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٧).

(١) التوبة / ١٢٢.

(٢) الإسراء / ٤٤.

(٣) هود / ٩١.

(٤) طه / ٢٧-٢٨.

(٥) النساء / ٧٨.

(٦) الأنعام / ٦٥.

(٧) الأنعام / ٩٨.

- ٧ - ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ^(١).
- ٨ - ﴿غَلِبُوا أَكْثَرًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ^(٢).
- ٩ - ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ^(٣).
- ١٠ - ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ^(٤).
- ١١ - ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ^(٥).
- ١٢ - ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ^(٦).
- ١٣ - ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ^(٧).
- ١٤ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ^(٨).
- ١٥ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ^(٩).

ملاحظة: أرى أن يحكى الاستفادة من كل الآيات في واقعة الطف وفي كل مجالات حياة أهل البيت عليهم السلام لأنهم هم القرآن الناطق، فإذا أردت أيها العزيز أن تحيط معرفة وعلماً بهذه الحقيقة

(١) الأعراف / ١٧٩.

(٢) الأنفال / ٦٥.

(٣) التوبة / ٨١.

(٤) التوبة / ٨٧.

(٥) التوبة / ١٢٧.

(٦) الكهف / ٩٣.

(٧) الفتح / ١٥.

(٨) الحشر / ١٣.

(٩) المنافقون / ٣.

فما عليك إلا أن تسلط الضوء على الآية التي تقرأها في محاولة لفهمها وفك أقفالها، لأن التدبر في القرآن هو الذي يفك الأقفال عن القلوب، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ وهذه الآية التي وردت قبل قليل وفيها أن الذين آمنوا ثم كفروا يطبع على قلوبهم (المنافقون/٣) وهي بالحرف التالي: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ تجد صورة هذه الآية يوم عاشوراء عندما خاطبهم سيد الشهداء بقولهم: «هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين».

ولاحظوا دقة التعبير عند سيد شباب أهل الجنة عليه السلام، أنه أولاً يشير إلى (أن هؤلاء آمنوا ثم كفروا) وماذا يعني ذلك؟ أنه يعني أن هؤلاء منافقون لأن هذه الآية مأخوذة من سورة المنافقون: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وانظروا إلى دقة التعبير هنا من عدة زوايا:

أولاً: أن هؤلاء منافقون بالنص والحقيقة والواقع، لأنهم آمنوا بالإسلام حسب ما يزعمون ثم كفروا عندما خرجوا لقتل عترة النبي وريحانتي رسول الله صلى الله عليه وآله فهم آمنوا ثم كفروا، والذي يكفر بعد الإيمان فإنه منافق.

ثانياً: أن الذي يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين.

والإيمان هو الإيمان علي أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه خذ هذا الجانب بدقة متناهية، يوم قال الحبيب: برز الإيمان كله إلى الشرك كله.

ثالثاً: إن الإمام الحسين عليه السلام قال في وصف أعداء: (فقد ملئت بطونكم من الحرام فطبع على قلوبكم) وهذا معناه أن الحرام الذي أكلوه ومارسوه وخاضوا به هو الذي نقلهم إلى صفوف المنافقين الكفرة، يضاف إلى ذلك كلمة الإمام الحسين عليه السلام: إن هؤلاء أحلوا حرام الله وحرّموا حلاله..

وفي القرآن الكريم بالنسبة للرهبان والأخبار وكيف اتخذوهم أرباباً من دون الله، هو أنهم لم يعبدوهم وإنما أحلوا لهم الحرام، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم فعبدوهم.

رابعاً: أن كلمة الإمام الحسين عليه السلام هنا تبدأ في موضوع:

- أن الله عز وجل ما خلق الخلق إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، وإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ماسواه.

وهذه نقطة بالغة الأهمية، تشرح وتفسر كلمة الإمام الحسين عليه السلام التي يقول فيها: إن قوماً عبدوا الله رغبة... الخ.

خامساً: أن هؤلاء المنافقين الذين خرجوا لقتال الحسين عليه السلام يقول عنهم العباس عليه السلام: أريد أن أطلب بثأري من هؤلاء المنافقين.

سادساً: إذا كان هؤلاء منافقين فقاتلهم وزعمائهم أركان النفاق وأساطين الكفر.

سابعاً: أن الإمام الحسين عليه السلام يقول عنهم: لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم فتباً لكم ولما تريدون، إنا لله وإنا إليه راجعون.

هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فسحقاً للقوم الظالمين.

ثامناً: أن الذي يحشر أعمى يوم القيامة وينساه الله في النار هو الذي ينسى آيات الله، فما بالكم بمن ينسى آية الله الكبرى الإمام الحسين عليه السلام ينسى حقه؟ ما بالكم بهذا الإنسان؟.

تاسعاً: هنا يدخل فكر الإمام العسكري عليه السلام في رسالته التي بعث بها إلى شيعته في الأهواز والتي يقول فيها: إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.. الخ.

عاشراً: إذا عميت القلوب فهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

الحادي عشر: ومصداق لقول الإمام الحسين عليه السلام الذي يقول فيه واصفاً أعداءه: أنهم ملئت بطونهم من الحرام فطبع على قلوبهم.

ثاني عشر: كان أصحاب الحسين إذا خاطبوا رداً عليهم بقولهم: إنا لا ندري ما تقول. فيقول أحد أصحاب الحسين عليه السلام: الحمد لله الذي زادني بصيرة.. الخ.

ثالث عشر: أن الإمام الحسين عليه السلام كان إذا خاطبهم قالوا له: ما ندري ما تقول يا ابن فاطمة لأنهم لا يكادون يفقهون قوله.

رابع عشر: يقول الإمام الحسين عليه السلام: (الحمد لله الذي فقها في الدين. وهذه كلمة تحتوي على إشارة عظيمة إلى الأمة التي تتفقه في الدين وتنذر قومها إذا رجعت إليهم لعلم يحذرون) والإمام الحسين عليه السلام كان يخاطبهم ويحذرهم غضب الجبار.. الخ.

خامس عشر: كان أحد أصحاب الحسين عليه السلام يخاطب القوم، فيقول له الحسين عليه السلام: ارجع فقد أديت النصيحة لو نفع النصح والإبلاغ.

عندما يحضر الشيطان في المعركة

سادس عشر: كلام حول الشيطان ووجود الشيطان في المعركة من نقاط عدة:

أولاً: كلام الحسين عليه السلام الذي يقول فيه: لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم فتباً لكم ولما تريدون إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثانياً: وجود الشيطان في معركة بدر وفي كل المعارك التي شهدتها النبي صلى الله عليه وآله.

ثالثاً: قال الشيطان: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذا هو الواقع لأن موقف الحق ضد الباطل هو الصراط المستقيم.

رابعاً: يقول القرآن وينقل الحوار الذي جرى بين الحق سبحانه وبين الشيطان وقد أعطاه الله جواباً لسؤاله، وأجابه له عندما قال: ربي انظرني.. الخ قال إنك من المنظرين. والآيات في ذلك كثيرة وشاهدة على هذه الحقيقة.

خامساً: أن نهاية الشيطان سوف تكون على يد الإمام الحجة عليه السلام، وفي هذا شرح تفسير دقيقان لأنه هو الذي سوف يقتل الشيطان ويقضي على نائرات الفتن.

سادساً: أن الشيطان كان في أول قضية مع الإنسان هي قضية آدم ودخوله الجنة مع حواء وكيف أغواهما بأكل فاكهة الشجرة المحظورة.

سابعاً: أن الشيطان حسد آدم وأبغضه لأن في صلبه أنوار أصحاب الكساء فغضب الله عليه وطرده من رحمته وأخرجه من محراب العبادة

لأنه منافق حسود حقود، لا يحب الحق ولا يرتاح إلى أهله. والله لا يتقبل عملاً إلا من المتقين وعلامة التقوى حب محمد وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام.

ثامناً: أن المعركة وقف فيها جنود الحق وجنود الباطل، جنود الرحمن وجنود الشيطان، جنود الإيمان وجنود الكفر، وهؤلاء الذين وقفوا ضد الحسين عليه السلام كان الشيطان يقودهم لأنه قائد جبهة الشر.

تاسعاً: أن الإمام الحسين عليه السلام عندما يشير إلى هذه الحقائق فإنه إنما يريد أن يكشف عن خبث هؤلاء الأفراد والجماعات الذين يدعون الإسلام وهم ألد أعداء الإسلام والدين والعقيدة لذلك فإن كربلاء هي الفاصل بين الإيمان والكفر، وبين الحق والباطل، وبين التقوى والنفاق. وقد وصفهم الحق بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(١) وذلك أن هؤلاء جعلوا للناس رهبة في صدورهم ولم يجعلوا لله رهبة في قلوبهم ولا في أنفسهم وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة بقوله: لأنتم أشد رهبة في قلوبهم من الله.. الخ - فالعالم هو الذي يبلغ رسالات الله ويخشاه ولا يخشى أحداً سواه فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء.

- وكما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: وما أخذ الله على العلماء إلا يقاروا على كظة ظالم ولا سبغ مظلوم.. الخ. فإذا أقروا وقرروا على ذلك، جعل الله حجباً على قلوبهم وغشاوة على أبصارهم ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾^(٢).

- ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾^(٣).

(١) الحشر/ ١٣.

(٢) الأنعام/ ٢٥.

(٣) الإسراء/ ٤٦.

- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (١).
- ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (٢).
- وفي ملاحظة: وهي حول موضوع النفرة: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.
- وفيها: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَیْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.
- وفي ذلك: ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

- وفي ذلك: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾.
 - وفيها: ﴿وَلَوْ أَنَّ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.
 - ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾، وسبب ذلك كله الجهل.
- لأن عدم المعرفة بالأشياء يؤدي إلى إضاعتها والتفريط بها.. فنحن لا نعرف قيمة الوقت، فنضرب به ونهدر أيامنا وأعمارنا على غير نفع ولا ثمرة، في حين أن الله عز وجل يقسم بالوقت لعظمته وقدسيته وحرمته فيقول بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٣).

(١) الكهف/ ٥٧.

(٢) التوبة/ ١٢٢.

(٣) سورة العصر.

وسورة العصر هذه التي تعصر العقول والقلوب والأرواح في قوتها
وشدتها تبين أن كل ثقافة لا تتفع لا يمكن أن تمكث في الأرض فالبقاء
ثقافة الإيمان والعمل الصالح، ولذلك نجد أهل هذه الثقافة يوصي
بعضهم بعضاً بالحق والصبر، لأن الإيمان لا بد له من الحق حتى
يستقيم ويتغلغل في القلوب، وكذلك العمل الصالح لكي يستمر فانه لا
بد له من الصبر، ومن هنا كان الصبر من الإيمان يشبه الرأس من
الجسد فكما لا خير في جسد لا رأس معه، كذلك لا خير في إيمان لا
صبر معه.

إذاً: فالذي يجعلنا نضيع الحق هو عدم المعرفة به وبعظمته، ومن
هنا فإننا نفرط في الحق، ونفرط في أهل الحق الذين أمرنا الله عز
وجل باتباعهم ومودتهم وموالاتهم والبراءة من أعدائهم أعداء الحق
أصحاب الباطل.

الارتفاع والنور لرؤية الحق

على أنني أود أن أُشيد إلى نقطة بالغة الأهمية وهي: أن الإنسان في رؤية الحق يحتاج إلى شيئين:

الارتفاع والنور، لأن في داخل النفس وفي وجود الإنسان بصر، وبصيرة، البصر لرؤية الأشياء وهو يجمع على أبصار، والبصيرة لرؤية الحقائق وهي تجمع على بصائر، وكأن ثمة قاسماً مشتركاً بين البصر والبصيرة، في أن النور لا بد منه في الرؤية، فنجد البصر يرى الأشياء بنور الطبيعة، في حين أن البصيرة ترى الحقائق بنور الإيمان وهذا لعمري من أهم الركائز في معرفة الأشياء والحقائق، فأنت مثلاً تصعد برجاً عالياً أو بناية رفيعة فتري أشياء أكثر أي أنك حين ترتفع ببدنك ترى أشياء أكثر، ولكن حين ترتفع بروحك ترى حقائق أكثر ومن هنا جاء الحديث الشريف الذي يصف الصلاة بأنها معراج المؤمن، وأنها مثل النهر الجاري يكون على باب دار الرجل فهو يغتسل منه في الليل والنهار خمس مرات وما كانت الصلاة معراج المؤمن، إلا لأنها ترفع روحه وعقله وضميره ووجدانه، بسبب أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر لأن الذنوب والخطايا تحجب الرؤية أمام الإنسان، والصلاة تزح هذه الحجب لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر.

فاطمة تصنع الأمناء

على الحضارة والبلغاء إلى الأمم

تحدثت فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- عن عالمية الإسلام، وأنه دين للشعوب والأجيال كافة، لذلك دعت الأمة الإسلامية إلى تحمل مسؤولياتها، في إيصال صوت الإسلام، إلى كل الأمم والشعوب في الأرض، وهي تشير إلى أن نصنع أعداداً كبيرة من المبلغين الواعين، الذين يبلغون رسالات الله، ويخشونه، ولا يخشون أحداً إلا الله - فقالت: (أنتم عباد الله نصب أمره، ونهيه.. وحملة دينه، ووحيه، وأمناءه إلى الأمم، زعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم) ^(١).

وتوضيحاً، لهذه الفكرة الإسلامية الرائدة، التي تطرحها الزهراء، طرحاً حضارياً، يهدف إلى نشر الإسلام في الأرض، وإيصال صوت الحق، إلى الشعوب كافة، نقرأ هذه الآية المباركة مع شيء يسير، من الشرح والتفسير، والتعليق عليها بما يناسب المقام.

(١) مقطع من خطبة فاطمة عليها السلام.

الظمأله جزاء

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١).

ولكي تأتي الصورة واضحة، والفكرة مشرقة، فإنه لا بد من النظر إلى مكانة العلم والعلماء في الإسلام.. ولأن الحديث عن العلم والعلماء يتشعب ويتفرع، ويأخذ أبعاداً كثيرة، فلا بد لنا من إلقاء نظرة سريعة على كل ما يحوط بهذا البحث، ونبدأ بحديث مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء، وذلك لرفع الالتباس والتوهم من أن الشهداء أعظم درجة عند الله من العلماء.

(١) التوبة/ ١٢٠-١٢٢.



(البلغاء إلى الأمم)

فاطمة الزهراء عليها السلام

هنالك حديث شريف يقول: «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء»!!

وأعترف أمامكم أن هذا الحديث عندما قرأته -أول ما قرأته- أثار دهشتي وأرّقني وزرع الحيرة في داخلي.. وذلك أنني كنت أتساءل وأنا أقرأ هذا الحديث:

أنى يكون للقلم الملك والسلطان على دماء الشهداء؟.. علماً بأن القلم مكانه دائماً بين أوراق الكتب، في حين أن الشهيد يضحي بنفسه في أشد حالات البأس.

وأكرر السؤال بيني وبين نفسي كيف يكون للقلم فضل على دماء الشهداء، مع العلم أن الشهداء يخوضون المعارك، ويتساقطون تحت حوافر الخيل، في حين أن العالم يجلس وراء مكتبه يحرك القلم بيده ويكتب؟

ولكن سرعان ما انكشفت الحقائق أمام عيني، وأبصرت طريقي، والحقيقة هي أن مداد العلماء هو الذي أبقى على الشهداء أحياء، فلولاً أقلام العلماء لما بقي للشهداء رسم ولا أثر. إن القلم هو الذي يحرك قوافل الشهداء، وهو الذي يحفظها ساخنة متدفقة.. فلولاً قلم



الشيخ المفيد، والشريفيين الرضا والمرتضى، وأقلام العلامة الحلي والمجلسي لما بقي لأهداف الشهداء من أثر يمكن أن يذكر.

ولكن هذا لا يعني مطلقاً أن قلم المفيد أعظم من دم الحمزة بن عبدالمطلب، كما أنه لا يعني أبداً أن قلم المجلسي أعظم من دم مسلم بن عقيل... أبداً. وذلك أن المراد هنا من الأفضلية من حيث طبيعة هذا الشيء وليس من حيث وجوده الخارجي.. فمثلاً إذا قلنا: إن الرجل أفضل من المرأة، فهل معنى ذلك أن الرجل العادي أفضل من فاطمة وخديجة وزينب؟ كلا بالطبع.. فهناك شهداء أفضل من الشيخ المفيد، والمرتضى بأضعاف المراتب والدرجات.

إذن: فحين نقول: إن مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء، فإنما نقصد أن أقلام العلماء هي التي تمد الشهداء بالبقاء، وتحفظ أهدافهم وتحرك الأجيال للإلتفاف حولهم والسير على طريقهم وهكذا. وتصوروا دماء الشهداء من دون أقلام العلماء وحملة الفكر، فهل كانت الدماء تحرك الأجيال تحريكاً تصاعدياً وعلمياً وإقدامياً؟

ويوجد سؤال آخر يتحرك على الشفاه في هذا الموضوع يقول: إذا كان مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء لأن أقلام العلماء هي التي أبقت على الشهداء أحياء وحفظت أهدافهم، فإننا بالمقابل نقول: إنه لولا دماء الشهداء لما تمكن العلماء من نشر آرائهم، في حرية وسلام، وذلك أن الشهداء هم الذين أعطوا للحياة قيمة ومعنى وهدفاً، فهذا مستند إلى هذا، أي أن دماء الشهداء هي التي أعطت الحرية للأقلام بالانطلاق؟

والجواب واضح جداً. وهو: أن الشهيد يكون قبله قلم وبعده قلم، قبله مداد وبعده مداد، ففكر رسول الله ﷺ هو الذي حرك حمزة للشهادة، وفكر علي بن أبي طالب عليه السلام هو الذي أبقي على دماء الحمزة -سلام الله عليه- ساخنة هادرة..

على أن الحديث لم يقل: إن مداد العالم أفضل من دم مسلم بن عقيل، وإنما قال: مداد العلماء أفضل من دم الشهداء، فجعلها قضية طبيعية عامة لا تختص بأحد دون آخر، وإنما يأتي التخصيص فيخصص العموم. ولكن مع ذلك فإننا نجد أن مسلم بن عقيل، حركه للشهادة مداد الحسين وأبقاه مداد المفيد.

ولهذا نجد الإمام الحسين عليه السلام كان قد أخرج معه أطفاله وعائلته وأهل بيته إلى كربلاء، وذلك حتى تقوم عائلة الحسين بدور مداد العلماء في حفظ أهداف واقعة الطف ومصرع سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- ولولا زينب وعائلة الحسين لما بقي ليوم عاشوراء ذكر، ولا بيان.

ومن هنا نسمع الإمام الحسين حين يجيب على سؤال عباس الذي سأله قائلاً: فما معنى حملك هؤلاء النسوة والأطفال معك؟ فأجابه الحسين قائلاً: «شاء الله أن يراني قتيلاً، وأن يراهن سبايا..».

إذن: فلولا الكتب التي كتبها العلماء بأقلامهم، والتي تفسر لنا أهداف الشهداء وتضع في تصورنا صورة حقيقية لمعنى الشهادة، وأهداف الشهداء، أقول: لولا تلكم الكتب لما استوعبنا مفهوم الشهادة.

أما الشعر الذي يقول:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فهذا كلام لا يقوم على أساس فكري، وليس له جذور في أرض الحقيقة والواقع، وإنما هو منطق عاطفة وشعراء، والشعراء دائماً يقولون ما لا يفعلون، ويغيرون الحقائق على الأغلب والأعم، إلا من عصم الله، وهم المؤمنون. ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾.

وبعدهما يستثنى منهم فيقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(١)...

وذلك أن المؤمن ينظر بنور الله سبحانه وتعالى، فتجري الحقيقة على لسانه، وتشع الحكمة من جوانبه، كما هو حال الشعراء المخلصين من حملة القضايا المقدسة أمثال: الكميت، ودعبل الخزاعي وأضرابهما من الذين ركبوا الطريق، ومضوا على الحق، ومن الذين تعاقدوا على المنية، وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة.

وبالمثل، حتى الأنبياء عندما يقتلون في ساحات الحرب ويصبحون شهداء، فإنهم في حاجة إلى أقلام تخلدهم وتتشرف أفكارهم وأهدافهم، ولذلك يأتي القرآن الكريم والكتب السماوية، فتذكرهم وتخلدهم على مدى الأجيال رغم أننا لم نعرف حتى أسماءهم، ولكن القرآن الكريم يشير إليهم بقوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبُّونَ كَثِيرٌ﴾^(٢).

(١) الشعراء / ٢٢٧.

(٢) آل عمران / ١٤٦.

والخلاصة كما يقول الشاعر:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدمُ

ولكن الدم هذا قبل إراقته فإنه يحتاج إلى قلم يحركه ويوجهه إلى الشهادة، ويحتاج إلى قلم يخلده ويحفظه بعد الشهادة. ومن هنا كان الحديث الشريف يقول: «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء...».

على أن الحديث لا يعني -بالضرورة- أن يكون قلم الشيخ المفيد أفضل من دم الحمزة ولا مداد العلامة الحلي أفضل من دماء يوم عاشوراء. وإنما يعني أن هذا المداد من حيث طبيعته أفضل من دماء الشهداء، لأنه هو الذي يحرك قوافل الشهداء وهو الذي يُبقي عليها حية ساخنة متدفقة بالعطاء.

ونظرة واحدة نلقيها على الإعلام اليوم، وما يصنع بالحقائق وكيف يتمكن الإعلام من نشر الحقائق، وفي الوقت نفسه يستطيع تزييف الحقائق، أقول: نظرة واحدة نلقيها على الإعلام اليوم، تكفي لإعطائنا ألف دليل ودليل على أن للكلمة دوراً مهماً يؤثر ليس فقط على الأجيال والشعوب، وإنما يغير مجرى التاريخ بالكامل.

فهل نفقه هذا المعنى أم لا؟... وإذا فقها فهل نستوعب القضية أم لا؟.. ثم إلى متى نحن غافلون عن قوة الكلمة وعن سلاح القلم؟ إن القلم هو أعظم سلاح في المعركة.. بل يكفي فخراً أن يقسم الحق سبحانه وتعالى بالقلم والكتابة أي أنه أقسم بمداد العلماء عندما يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْكُم مَّا كُنْتُمْ تَسْخَرُونَ مِنْهُم قَدْ ضَلَّ السَّبِيلُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَمْ يُحِصُوا بِأَعْيُنِنَا جُزْءٌ مِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١).

(١) القلم / ١-٢.

وجاء في التفسير أن كلمة نون هذه تعني مداد العلماء، فالقسم جاء
بالحبر والقلم والكتابة وأدواتها، لأن القلم الذي يسقط في أمةٍ لا
يمكن لتلك الأمة أن تقف على قدميها أبداً.

ومن هنا كانت أول كلمة نزلت في القرآن الكريم هي كلمة تمجد
العلم والعلماء. أول كلمة افتتح الله سبحانه بها كتابه الكريم، هي كلمة:
«اقرأ» أي غذِّ عقلك لأن العقل يتغذى بالعلم...

وكما أن البدن من دون غذاء يذبل ويموت، كذلك العقل من دون
قراءة وعلم يذبل ويموت.

الناس على شفا جرف هار

وأعود بكم الآن إلى الآيات المباركة التي تقول: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ (١).

وفي هذه اللوحة القرآنية عتاب خفي، وفيها إشارة تطوق أعناق المبلغين بطوق المسؤولية.. في كل جيل، وفي كل زمان... فما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله في سبيل الله. فلا ينبغي لأحد منا أن يبحث عن الراحة والدعة بينما النبي يعاني الصعاب، ويخوض الغمار... كما أنه لا ينبغي للمؤمن أن يفتش عن رفاهية العيش في الوقت الذي يعيش فيه رسول الله ﷺ حياة قاسية وظروفاً صعبة، في سبيل تبليغ رسالة الله إلى الناس كافة.

إنه الواجب الذي يوجبه الحياء من النبي، وقد أشارت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء -صلوات الله وسلامه عليها-، أشارت إلى ذلك في خطبتها عندما قالت: «وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطىء الأقدام وكنتم تشربون الطرق، وتقتاتون القد. والورق، أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فانقذكُم الله بأبي محمد ﷺ بعد اللتيا والتي وبعد أن مُنيَّ بِبُهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب

(١) التوبة/ ١٢٠.

كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله أو نجّم قرن للشيطان أو فغرت
فاغرة من المشركين، قذف أخاه -أي الإمام علي عليه السلام- في لهواتها
فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه مكدوداً
في ذات الله مجتهداً في أمر الله قريباً من رسول الله سيداً في أولياء
الله مشمراً ناصحاً مجداً كادحاً، وأنتم في رفاهية من العيش وادعون،
آمنون فاكهون، تتريصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار، وتتكصون عند
النزال وتفرون من القتال..»

أجل، بهذه الكلمات الرائعة خطبت فاطمة الزهراء في مسجد أبيها
رسول الله في حشد من المهاجرين والأنصار، وهي تشير بهذا الكلام
إلى تلکم الحقيقة التي كنا بصددھا، حيث إنه لا ينبغي لمسلم يؤمن
بالله وباليوم الآخر أن يرغب بنفسه عن نفس رسول الله، ولا يتخلف
عن منهج الحق، وسيرة النبي الأعظم محمد ﷺ فالواجب يلقي علينا
مسؤولية ثقيلة، والحياء من رسول الله يأخذ بأعناقنا إلى متابعة النبي
في طريق الحق والعدل والحرية. ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ
اللَّهُ﴾ (١).

ويقول في آية ثانية: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ (٢).

إذاً: فانتماؤنا إلى رسول الله، يوجب علينا ألا نتخلف عن ركب
النبي، ولا نرغب بأنفسنا عن نفسه، فما قيمة نفوسنا أمام نفس
الرسول الأعظم؟ وما قيمة وجودنا أمام وجود الحبيب المصطفى؟ إن

(١) آل عمران/ ٣١.

(٢) آل عمران/ ٦٨.



العالم كله لا يساوي ذرات من تراب أقدام النبي محمد ﷺ فهو أشرف موجود، وأعظم إنسان مشى فوق التراب، ومع ذلك ضحى في سبيل الله بكل ما يملك حتى قال: «ما أودى نبي مثل ما أوديت».

ومع هذا، أعني مع أن الواجب يحتم علينا أن ننهض بأعباء المسؤولية فالجزاء ما أسخاه، وما أعظمه. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ (١).

ما أسخى هذا العطاء، إنه على الظمأ جزاء وعطاء. وعلى التعب جزاء وعطاء، وعلى الجوع جزاء وعطاء، وعلى كل موطئ قدم يغيظ الكفار جزاء وعطاء، وعلى كل نيل من العدو، جزاء وعطاء يُكْتَبُ للمجاهد عمل صالح. وإنه على النفقة الصغيرة، والكبيرة أجر وعطاء، وعلى الخطوات في السفر لقطع الوادي والطريق أجر وعطاء.

وبهذا المنهج التربوي الإسلامي، يوقظ القرآن الكريم في داخلنا العزائم والهمم، ويفجر الطاقات الكامنة في أعماقنا. إن القرآن الكريم، في هذه الآيات المباركة، يحركنا تحريكاً عنيفاً، لكي نتطلق في رحاب الحق، وإيصال صوت الإسلام إلى الشعوب والأجيال كافة.

إن الفقه الإسلامي لا ينبت إلا في بيادر الجهاد والنضال.. بل إن التفقه في الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة، إن الحركة هي قوام هذا الدين ومن ثم لا يفقه إلا الذين يتحركون به. أما القابعون وراء

(١) التوبة / ١٢٠.

المكتبات فهؤلاء لا يفقهون الإسلام، ما داموا يتعاملون مع الأوراق الباردة، وليس مع حرارة الفقه الإسلامي.

أجل، ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾^(١).

نفي معناه النهي، ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾.

بأن يطلبوا لها الدعة والراحة والرسول يكابد المشاق والآلام.
﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾^(٢).

أي فهلا نفر، لأن لولا إذا دخلت على الفعل أعطت معنى الطلب والأمر، وإذا دخلت على الاسم فهي -أي لولا- حرف امتناع شيء لوجود شيء آخر.

ثم يستمر السياق القرآني فيقول: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾^(٣).

وذلك أنه بعد نزول الآية المتقدمة، تدفقت القبائل على رسول الله، وكل قبيلة تريد الخروج مع النبي إلى أرض المعركة والجهاد فقال القرآن: لا ينبغي أن تنفروا كافة وإنما تنفر طائفة أي تخرج إلى الجهاد، والتبليغ، وتبقى طائفة أخرى مقيمة تؤدي وظائفها الاجتماعية لأن المجتمع لا يعتمد على نوع واحد من العمل. فالمجتمع لا يريد الكل فقهاء ولا يريد الكل محامين، ولا يريد الكل شعراء، وإنما لا بد

(١) التوبة/ ١٢٠.

(٢) التوبة/ ١٢٢.

(٣) التوبة/ ١٢٢.



للمجتمع أن تتوزع كفاءاته وحاجاته بين الناس، لأن أشواق الناس مختلفة ومتوزعة، أما هنا أي في هذا المجال الذي نحن بصدد فلا ينبغي للمؤمنين أن ينفروا كافة، وإنما تتفر طائفة وتظل أخرى.

والطائفة النافرة هي التي تستوعب الدين، وهي التي تستطيع أن تتفقه في الدين. وأعظم شيء يجعلك تفقه الدين، وتتفقه في الإسلام هو الورع والتقوى والخوف من الله ثم أخذ العلم من بيت فاطمة الزهراء عليها السلام ثم تعاملك مع الناس، فهو أعظم محك وأكبر نبع للتفقه في الدين.

لأن مخالطة الناس، والنزول مع الجماهير هي التي تصنع الفقهاء والعلماء، ونستطيع أن نلمس هذا بشكل واضح من خلال قراءة سريعة لحياة علمائنا الأبرار، فسرعان ما نكتشف الحقيقة التالية، وهي: أن العالم الذي كان كثير السفر، وله رحلات حول العالم، نجد هذا العالم أكثر الناس شهرة، وأعمقهم فهماً للإسلام، واستيعاباً للواقع.

وأقرأوا معي إن شئتم، رحلة السيد الأمين، ورحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن جبير.. ورحلات الشيخ الزنجاني، والشيخ كاشف الغطاء الكبير، وأمثال هؤلاء العلماء الذين غيروا وجه الدنيا.

هذا في الماضي القريب... أما في العصور الغابرة فالعلماء لهم سجل كبير في السفر، والترحال، ولذلك جاء الترغيب والتشويق للسفر لأن في السفر يكتشف الإنسان نفسه، ويعرف أهمية وجوده بالإضافة إلى أن السفر يشحذ طاقات الشخص ويجعله على مقربة من الواقع، وعلى بعد أمتار من الحقيقة وكلما زادت رحلاته زادت معرفته، وتعمق فقهه للدين.



* ما معنى: اختلاف الأمة رحمة

قيل إنه دخل رجل على الإمام جعفر بن محمد الصادق -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- فقال له: سيدي ما معنى قول رسول الله: اختلاف أمتي رحمة؟

فقال الإمام الصادق -عليه السلام: «ليس المراد بالاختلاف النزاع، وإلا كان اتفاقهم عذاباً، وإنما المراد به التردد في الأرض لطلب العلم».

ثم استدلل الإمام الصادق على قوله هذا بالآية المباركة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١).

واستدل الإمام الصادق بهذه الآية في هذا المجال، يدل على أن التفقه صفة ملازمة للطائفة النافرة وليس للطائفة المقيمة، بمعنى أن الإمام الصادق يؤكد أن التفقه إنما يتم الحصول عليه نتيجة السفر في الأرض، من أجل إعلاء كلمة التوحيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

يقول الإمام علي أمير المؤمنين -عليه السلام: «وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم» أي أن الله كان قد ألقى مسؤولية ثقيلة على العلماء، والمسؤولية توجب عليهم ألا يركنوا إلى

(١) التوبة/ ١٢٢.

رفاهية العيش والدعة في الوقت الذي يشبع فيها الظالمون، ويجوع الضعفاء، والمظلومون. ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (١).

لا شك أن المسؤولية أمام العلماء وحملة الفكر، وأصحاب العقول النيرة، وذوي البصائر النافذة من المؤمنين والمؤمنات أقول: لا شك أن المسؤولية أمام هؤلاء جميعاً، مسؤولية ثقيلة.. ثقيلة.. لا بد من حملها بصدق وإخلاص وأمانة. يقول الإمام علي: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا».

ولكي تجيء الصورة أكثر وضوحاً وأعمق استيعاباً، تعالوا معي نعيش في ظلال هذا النبع الأصيل من الفكر الإسلامي العظيم. من خلال النبي وأهل بيته الطاهرين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-.. واللعنة على أعدائهم أجمعين وكما قلنا سلفاً إن مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء، وذلك أن العلم هو الذي يحفظ أهداف الشهداء ساخنة متدفقة بالعطاء.

(١) المزمّل/٥.

حين يتواضع العلماء

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (١).

قيل هو الرجل يمشي على سجيته.. وهي صفة ملازمة للعلماء الخاشعين الذي إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً.

ودائماً العالم المليء بالعلم والحلم والسماحة والفصاحة والأخلاق، أقول: دائماً نجد العالم المليء بالعلم متواضعاً أشبه شيء بالشجرة المحملة بالثمر، فالشجرة المثمرة قريبة من الأرض أو كما يقول الشاعر:

ملأى السنابل تنحني بتواضع
والفارغات رؤوسهن شوامخُ
ويقول الشاعر:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه
على صفحات الماء وهو رفيع
على صفحات الجو وهو ضيعُ

ويقول آخر في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

(١) الفرقان/ ٦٣.



يقول الشاعر:

جَازَ الْإِسَاءَةَ بِالْإِحْسَانِ إِنْ صَدَرَتْ مِنْ أَمْرٍ زَلَّةٌ تَدْعُو إِلَى الْغَضَبِ
سَجِيَّةَ النَّخْلِ مَنْ يَرْمِيهِ فِي حَجَرٍ كَافَاهُ عَنْ ضَرْبِهِ بِالْبَسْرِ وَالرُّطْبِ
يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (١).

(١) فصلت / ٣٤.



نداء إلى حضنة الإسلام

يقول الله سبحانه وتعالى، في خطابه للرسول الكريم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (١).

والسؤال: ولكن من يتذكر؟ هل كل إنسان يتذكر، ويتأثر بالذكر الحكيم؟.. كلا بالطبع. إذن: فمن يتذكر؟

يجيء القرآن هنا ليقول: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢).

إن أصحاب العقول هم وحدهم الذين يتذكرون. وإن أصحاب القضايا المقدسة، وحملة الفكر، والأدب، ورواد الفضيلة هؤلاء وحدهم هم الذين ينتفعون بالذكرى، وذلك أنهم مؤمنون، والذكرى تنفع المؤمنين.

إن الذي يأخذ الحق هو دائماً يتذكر ويخشى الله. ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ (٣).

ثم يقول القرآن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٤).

(١) الغاشية / ٢١.

(٢) الزمر / ٩.

(٣) الأعلى / ١٠.

(٤) فاطر / ٢٨.



فأكد أن العلماء هم الذين يخشون الله لأنهم على موعد دائم مع الذكرى التي تتفعهم لأصالة إيمانهم وعمق تقواهم، وصفاء نفوسهم، وخشوع قلوبهم، فقد أثبت التجارب أن العلماء يتمتعون بقلوب رقيقة ترافقها دموع غزيرة.

ويكفي العالم الإسلامي فخراً أن يكون رسوله محمد بن عبد الله ﷺ موصوفاً بركة القلب، والرحمة، فهو صاحب القلب الرقيق، والنفس الرحيمة. ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (١).

إذاً: فالعالم الذي هو أشرف الكائنات، إنما هو العالم الذي يخشى الله سبحانه، فنذر نفسه لله ثم لخدمة الآخرين، طبعاً هذا في مجال الناس لا في مجال الأنبياء والرسل والمعصومين من أهل البيت عليهم السلام لأن هؤلاء لا يقاس بهم أحد من العالمين.

إن الله سبحانه وتعالى، كان قد بشر أهل العقل والفهم، في كتابه فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (٢).

ثم بين أن العقل مع العلم، لأن العقل يتغذى بالعلم فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٣).

ثم ذم الذين لا يعقلون، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤).

(١) آل عمران / ١٥٩.

(٢) الزمر / ١٨٠١٧.

(٣) العنكبوت / ٤٣.

(٤) الأنفال / ٢٢.

يقول أبو ذر الغفاري رضي الله عنه «باب من العلم نتعلمه، أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً...».

ويقول الرسول الأعظم محمد ﷺ: «إذا مررتم في رياض الجنة فارتعوا» قيل: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر- أي حلقات العلم..

الطريق إلى الخطاب الناجح

من خلال ممارستي، للتبليغ الإسلامي ونشر فكر أهل البيت في المجتمعات الغربية والشرقية، وقبل ذلك في المجتمعات الإسلامية، تكونت لديّ قناعة كاملة عن أجمل طريقة لنشر الإسلام، وهي أن تلتقط صوراً مشرقة من حياة محمد وأهل بيته، وفي حياة الأئمة المعصومين -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام- ثم تعرضها على الناس. فإنها أجمل طريقة لعرض الإسلام، وأنجح طريقة لاستقطاب الناس، وشد قلوبهم إلى الدين الإسلامي العظيم.

وهذه الطريقة تعتمد على السيرة الذاتية لمحمد وأهل بيته عليهم السلام... وذلك أن الناس -اليوم- مصابون بداء قاتل اسمه: ضعف العقيدة، والأجيال التي تصاب بضعف العقيدة، يكون مصيرها إلى الزوال والتحطم الكامل. ولهذا إذا أردنا أن نجنب أنفسنا مغبة السقوط ثانية في أودية التمزق والضياع، فإنه لا بد لنا من التعرف إلى الإسلام الحقيقي الثابت من خلال سيرة الرسول الأعظم وأهل بيته، فإنها سيرة نابضة بالحياة، متدفقة بالعطاء، وكل الناس في ظمأ وجوع لهذه السيرة العطرة الطيبة..

فنحن في أشد حالات العطش والظمأ، ولا يمكن أن نرتوي إلا بالسيرة السمحاء للنبي وآله -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام-.



داعية في بلاد الشرك

يقول حماد السمندي، وهو داعية إسلامي كبير كان يرتحل إلى كل قارات العالم من أجل نشر الدين الإسلامي وتركيز دعائم الحضارة الإسلامية في الشعوب، وقبل كل شيء كان حريصاً على نشر فكر أهل البيت عليهم السلام وهو واحد من المئات الذين كانوا ينطلقون من جامعة الإمام جعفر بن محمد الصادق -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- إلى العالم أجمع يحملون النور، والعلم، والحضارة، إنه واحد من أولئك الذين كانوا -بحق- رواد حضارة وحملة فكر، وأصحاب أدب وذوق وأخلاق. وكان ينقل فكر فاطمة الزهراء إلى كل من يلقاه فقد كان من المخلصين لبيت فاطمة عليها السلام.

وذات مرة قال له بعض أصدقائه: إنك يا حماد إذا كنت في بلاد الكفر، وهجم عليك الموت، فإنك إنما تموت وتدفن عندهم، أي عند الكفار، ومعنى ذلك أنك تحشر يوم القيامة مع الكفار والمشركين، كانت هذه الكلمة أو هذه الشبهة التي أثارها بعض أصدقاء حماد قد أزعجته، وحولت نهاره إلى ليل، وفرحه إلى حزن واضطراب، فدخل على الإمام الصادق، يستوضحه ويستكشف الحقيقة منه ليرى مدى صحة هذا الكلام. فلنصغ معاً إلى هذا الداعية الكبير، لنقتبس منه دروساً نتفعنا في رحلة التبليغ التي نقوم بها، وإذا لم نقم بها فإنه يتوجب علينا أن ننهض وتنفض غبار الشيطان عن أكتافنا وننطلق في



العالم لنوصل صوت النبي ﷺ وأهل بيته إلى كل شعوب الأرض. ولماذا العجب؟ أليس النبي هو نبي للعالم أجمع؟ ألم يبعثه الله عز وجل ليكون رحمة للعالمين؟ لاحظوا الدقة في عالمية الإسلام. إن الحضارة الإسلامية هي حضارة لكل الأجيال، وللشعوب كافة، ونحن المسؤولون عن إيصالها إلى الناس كافة.

إن نظرة واحدة نلقيها على مناهج الإسلام، وشعائر الدين ترىنا بوضوح كم هي عظيمة رسالة الإسلام، وكم نحن مسؤولون أمام الله سبحانه عن تبليغ الإسلام، وإيصال صوت فاطمة الزهراء وأبنائها إلى كل شعوب الأرض. إن أول شيء نقرأه في صلاتنا هو سورة الحمد، وإن سورة الحمد لتربطنا في كل شعوب العالم. فأول ما نقرأ نقرأ قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

وهذا يكفي لأن يشدنا برباط قوي مع كل أفراد النوع الإنساني، بل وحتى غير الإنساني فإننا مسؤولون أمام الله -كما يقول النبي- حتى عن البقاع والبهائم. فهذا هو القرآن الكريم صريح في عالميته... والرسول محمد ﷺ هو رسول العالم أجمع- إنه رحمة للعالمين.. وفاطمة الزهراء هي سيدة نساء العالمين، والإمام علي هو نفس النبي بنص القرآن كما جاء في تفسير آية المباهلة، والحسن والحسين هما ريحانتاه من الدنيا إلى آخر ما يدور في هذا المسعى. إذن: فرسالتنا هي رسالة الحضارة، رسالة حضارية رسالة ليس لأمة دون أمة، ولا لشعب دون شعب، ولكن لكل الناس، ولجميع الأمم، بل وللشعوب كافة.

(١) الفاتحة/ ١.



والآن أرجع بكم إلى هذا الرجل العظيم، والداعية الكبير حماد السمندي، لنصغي إليه وهو الآن يدخل على الإمام الصادق لي طرح عليه هذا السؤال ثم يسمع الجواب منه ومن ثم ينقله إلى كل الأجيال الذين مشوا فوق الأرض من أيام الصادق إلى اليوم.

يقول حماد السمندي: دخلت على الإمام الصادق، -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- فقلت له: «إني أدخل بلاد الشرك... وإن عندنا من يقولون: إن مُتَّ ثُمَّ حُشِرَتْ معهم... قال: فقال لي أبو عبدالله الصادق عليه السلام: يا حمّاد: إذا كنتَ ثُمَّ -أي هناك في بلاد الشرك- تذكر أمرنا وتدعو إليه؟»

قلت: نعم.

قال: فإذا كنت في هذه المدن -أي بلاد العالم الإسلامي مدن الإسلام تذكر أمرنا وتدعو إليه؟

قلت: لا.

فقال لي: «إنك إن مُتَّ ثُمَّ -أي هناك في بلاد الشرك- حُشِرَتْ أمة وحدك، وسعى نور بين يديك»^(١). إذن: فهنيئاً للمبلغين، وللرجال الذين شدّوا الرحال إلى بلاد الغربة ليوصلوا صوت محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، إلى أسماء الشعوب المحرومة التي تعيش في غطاء عن ذكر الله.

أقول: هنيئاً لكم جميعاً أيها المبلغون والخطباء، والعلماء. يا حملة الفكر والأدب، يا حملة كلمة الحق، ورسالة الإسلام يا من خاطبتكم الزهراء بقوله: أنتم البلغاء إلى الأمم. أزفٌ إليكم هذه البشرية، وهذه

(١) بحار الأنوار ١٢٦/٦٥.



العطية والمنحة التي نثرها الإمام الصادق فوق رؤوسكم، فأهلاً ومرحباً بهذا العطاء الذي لا يعرف الانقطاع ولا الحدود. إنه تشويق من الإمام الصادق. للمبلغين ورواد حضارة الإسلام. إنه تشويق لأحبة أهل البيت في أن ينطلقوا في العالم اليوم، لأن الشعوب في انتظاركم منذ زمن طويل.. أجل.. إن هذا الرجل كان خائفاً أن يموت في بلاد الغرب فيحشر مع الكفار والمشركين.. وإذا بالإمام أبي عبدالله يبشره بأنه إذا مات هناك فإنه سيحشر على هيئة أمة كاملة. وليس أمة من سائر الأمم، وإنما أمة يمثلها هو رجل واحد، كما كان إبراهيم أمة.. يا للروعة، والتشويق. يا سلام عليك يا سيدي لهذا المنطق الرائع الذي يتفجر نوراً، ويفيض طيباً وحسناً. اذهب وحدك إلى بلاد الدنيا، وانقل لهم شتائل الإسلام الفكرية، احمل معك هذه القمم المضيئة، انطلق - أخي المبلغ إلى العالم، احمل معك الخير، والنور، والعلم. فلقد كانت الدنيا تؤم بالإسلام، وكان الناس يرحلون إلى مدارس الإسلام في المدينة المنورة، وفي مصر الفاطمية وفي قرطبة، كانوا يرحلون ويسافرون إلى بلاد المسلمين لأخذ العلم، كما اليوم يسافر أبناؤنا إلى الغرب لطلب العلم.

اذهب إلى بلادهم، وانقل لهم صوراً مضيئة من حضارة الإسلام واعلمهم أن حضارة الغرب الكافرة مدينة بما يضيئها من تطور تكنولوجي، وطفرات عريضة حققتها في عالم الصناعة والحريات. أجل... يقول الصادق لهذا الداعية: اذهب إلى بلاد الشرك، فإن متَّ هناك، فإنك ستحشر أمة واحدة يسعى نورك بين يديك. فما دام الهدف تبليغ فكر أهل البيت، فإن موتك عندهم يجعلك كإبراهيم الخليل. لأن إبراهيم كان أمة.

لا تؤذوا الداعية

يقول طارق المحاربي:

بينما أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا بشاب يقول: قولوا لا إله إلا الله
تفلحوا وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا
أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه.

.. فقلت: من هذا؟

فقالوا: هذا محمد.. وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب!!

ودائماً الذي يدعو إلى الصلاح تقف بوجهه القوى الكافرة، قوة
السلطان، وقوة العلم، وقوة المال، يعني الاقتصاد والسياسة، والثقافة
تحاربه، ففي المقابل يجب أن يكون معك جبهة اقتصادية، وجبهة
سياسية، وجبهة ثقافية تحارب معك حتى تتمكن من إرساء قواعد
الحضارة الإسلامية.

ودائماً هناك أبو لهب يرميك بالحجارة، وهناك حمالة الحطب تضع
الأشواك، في طريقك، وهناك أبو سفيان يجمع الحطب ويضرم فيه
النار في بابك كما فعل عمر بباب فاطمة -سلام الله عليها-.

وهذا الواقع لا بد من وجوده حتى يكون هناك احتكاك بين الإنسان
وصدقه، حتى يتبين الخبيث من الطيب.



انطلق في مدرسة فاطمة عليها السلام

يقول الله سبحانه في سورتي التوبة والصف: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (١).

ويقول في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢).

ويقول في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (٣).

وفاطمة سيدة نساء العالمين...

ومعلوم أن الرسول ﷺ أرسل كتبه ورساله إلى كسرى وقيصر، وإلى ملوك الأرض، وشيوخها... وعلى هذا فلا بد من طرح فكرة عالمية الإسلام، وأنه جاء لخلاص العالم.. لأن المؤمن هو الداعية إلى الله، وهو المبشر الذي يبشر بالإسلام في كل أنحاء العالم... وخصوصاً اليوم بواسطة التطور التكنولوجي يستطيع هذا المبشر أن ينقل الفكر الإسلامي عبر الأقمار الصناعية إلى كل بقاع الأرض. اليوم فكرة التبليغ، فكرة انتشار الإسلام أصبحت فكرة مقبولة. ولكن الإسلام لا ينشر من خلال حزب أو منظمة أو أشخاص معينين...

(١) التوبة/ ٣٣ - الصف/ ٩.

(٢) الأنبياء/ ١٠٧.

(٣) سبأ/ ٢٨.

بل ينشر الإسلام من خلال رسول الله... من خلال خط النبي ﷺ من خلال خط الإمام علي، من خلال خط فاطمة الزهراء، من خلال خط الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، وهؤلاء كلهم في خط واحد.

وبالمناسبة فأنا عندي تجربة خاصة في هذا المجال، أنقل لكم خلاصة تجربتي خلال هذه السنوات العشرة الأخيرة حيث كنت أطوف في بعض بلاد العالم لحمل صوت الحق، وصوت الإسلام إلى كل بقاع الدنيا حتى تكونت لديّ قناعة كاملة بأننا نستطيع أن نعمل في أفريقيا مثلاً، إذ المسؤولون هناك من الرؤساء، والوزراء والشخصيات كانوا يطلبون منا أن نكثف التبليغ الإسلامي، ونرفع صوت القرآن إلى شعوب أفريقيا... كما حدث ذلك في نيجيريا، والزاير والكونغو البرازافيل، وجمهورية الكامبيا، وأمثالها من بقية الدول الأفريقية التي تمكنا من الوصول إليها حيث أسمعناهم صوت الحبيب المصطفى عالياً فوق ربوعهم الظمأى التي تطلب الارتواء من مناهل أهل البيت وتعاليم القرآن الكريم.

حتى نستطيع أن نرويه، هناك برأينا جانبان:

الأول: أننا بحاجة إلى خطباء وحملة فكر... وهذا لا يكون إلا بإنشاء مؤسسات ومعاهد تتكفل بتخريج الخطباء. وبالمناسبة فقد قمنا بإنشاء مؤسسة كبيرة لتخريج الخطباء والمبلغين في كربلاء المقدسة وهي كلية الإمام الحسين للخطابة وهي فرع من جامعة الإمام الحسين عليه السلام.



أما الجانب الثاني: فهو حاجتنا إلى دعم مادي ومعنوي لهذه المؤسسات التي يكون همها الوحيد محصوراً في إعداد الخطباء الملتزمين بنشر الدين الإسلامي في الخارج. وإذا أتيح للبعض أن يوصل صوته إلى أفريقيا مثلاً فعليه أن يعرف كيفية الحديث عنها فشعبها أصيل محبوب في شوق بالغ لمعرفة الإسلام ويستطيع المبلغ أن يتحدث إليهم بحرية تامة عن موضوعات شتى دون إحراج وهم يرحبون به ويطلبون منه المزيد خاصة فيما يتعلق بالإسلام ومبادئه السمحاء. فالشعوب التي ضلّلتها الاستعمار وأبعدها عن ديننا أشد ما تكون ظمأً للارتواء به وتقبله بسهولة إذا ما أتيحت لها فرص يمكن استغلالها من قبل مبلغين معدين أصلاً لمثل هذه الغاية وهذا ما يجب أن يحصل في المستقبل القريب فقد انطلقنا كما أشرت سالفاً بإنشاء جامعة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء المقدسة ولا زالت قيد التنفيذ وقد باشرنا بالفعل بافتتاح أول كلية من هذه الجامعة وهي كلية الإمام الحسين للخطابة وفيها أربعة أقسام قسم الشريعة الإسلامية، والسياسة الدينية، وعلوم القرآن واللغة، كما أن المنهج الدراسي يقوم على أساس الفقه واللغة والتفسير والآداب وأصول الالقاء العربي الخطابي وسوف نتحدث عن هذه الجامعة بتفصيل أكثر في مكان آخر من هذا الكتاب إن شاء الله.

كيف تلقي خطابك ؟

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (١).

هذه الآيات المباركة تطرح مسألة الحق في خلق الله تعالى. وهذه المسألة تدعونا في البداية إلى التأكيد على بعض النقاط التي نعتبرها مدخلاً ضرورياً لفهم أبعاد الموضوع.

* الحق في الخلق:

النقطة الأولى هي أن هذا الكون ليس فيه شيء من اللهو والعبثية. فكل شيء خلقه الله لحكمة وغاية. وقد قام كل ما في هذا الكون على الحق والعدل: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٢).

فالمسألة في غاية الجدية والإحكام، ليس فيها مكان للصدفة أو اللهو أو العبث.

* الإنسان محور الحياة:

والنقطة الثانية الأساسية تتعلق بنظرة الإسلام إلى الإنسان وموقعه في خارطة الخلق.

(١) الأنبياء / ١٦-١٨.

(٢) الرحمن / ٧.



إن الإسلام يعتبر الإنسان محور الحياة ومحور جميع الكائنات التي خلقها الله. وهذا الاعتبار يمثل الكرامة الكبرى التي اختص بها الله تعالى الإنسان. وهذا على عكس الفلسفات والمناهج الإلحادية من شرقية وغربية والتي تعتبر المادة أساس الكون ومحور الحياة فيه. ففي الإسلام كل شيء لا ينفع الناس ولا يكون في خدمتهم فهو مرفوض، ويذهب جفاءً: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّثُ فِي الْأَرْضِ﴾^(١).

* حقوق الإنسان في عالم اليوم:

إذا تأملنا في وضعية الإنسان في عالم اليوم المادي نجد أن هذا الإنسان لا قيمة له، بالرغم من شرعة حقوق الإنسان وسائر البيانات والإعلانات التي تتشدد بهذا الموضوع. فكرامة الإنسان مهدورة سواء في العالم الشرقي أو الغربي أو العالم الإسلامي التي تسيطر عليه حكومات وأنظمة وقوانين بعيدة كل البعد عن روح الإسلام.

إنك تجد في هذا العالم الذي يدعي الحضارة والرقى والتمدن آلاف الجمعيات التي تدعو إلى الرفق بالحيوان، وتلك التي تدعو إلى المحافظة على الطبيعة والبيئة، حتى أنه صدر في بعض الدول الغربية قانون يحرم مطاردة الفراشات وصيدها... هذا في حين نرى مئات وآلاف الناس يموتون جوعاً ومرضاً، وآلاف غيرهم يموتون في تجارة الحروب المتنقلة التي امتهنتها قوى الظلم والفساد والاستعباد في هذا العالم.

(١) الرعد / ١٧.



والسبب في كل ذلك أن الفلسفة والمناهج التي تقود العصر تضع الإنسان في آخر اهتماماتها. أما اهتمامها الأساسي فهو تحقيق المصالح عن طريق السيطرة والغلبة والحروب، وهذه المصالح هي غالباً مصالح فئة محددة احتكارية وطبقات معينة حاكمة. وأمام جشع تلك القوى وعمى أفكارها يكون الإنسان هو الضحية الكبرى. ثم يأتون بعد ذلك ليزينوا الأمور ويموهوها ببعض شعارات كاذبة وادعاءات زائفة يفضحها الواقع وتشير إليها مأساة الإنسان في هذا العصر.

وكما تتحدد قيمة أي شيء بنظر الإسلام بمدى خدمته للإنسان، فإن قيمة الإنسان تتحدد بمدى تقواه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١).

* الإنسان أشرف الخلق والإنسان ظلوم كفاراً:

وفي بعض آيات القرآن نجد وصفاً للإنسان بأنه خلق ظلوماً كفاراً جزوعاً هلوياً: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ (٢).

ونقرأ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣).

وفي نفس الوقت نجد أن الله وضع الإنسان في أعلى مرتبة من الخلق، وأمر الملائكة أن تسجد لأدم، واستخلف الإنسان في الأرض...

(١) الحجرات / ١٧.

(٢) المعارج / ١٩-٢١.

(٣) إبراهيم / ٣٤.



والى ما هنالك من الآيات العديدة التي كرمت الإنسان ورفعت من شأنه.

فهل في هذا تناقض؟.... الحقيقة أن القرآن عندما يتحدث عن الإنسان الظلوم الكفور الجزوع المنوع، إنما يتحدث عن ذلك الإنسان الذي انقطعت صلته بالله وانقطع رجاؤه وفرغ قلبه من الإيمان. أما المؤمن فهو بعيد عن هذه الصفات، وهو يستحق بإيمانه تلك المنزلة العظيمة التي وضعه الله فيها.. لذلك نرى مثلاً أن الآيات التي أشرنا إليها من سورة المعارج يعقبها مباشرة آيات توضح هذه المسألة: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ...﴾.

* جوانب متعددة في شخصية الإنسان:

وإذا نحن تأملنا في وضعية الإنسان وشخصيته نجد أنها شخصية مركبة تحتوي على جوانب متعددة.

فلا يمكننا أن نلخص الإنسان بمجموعة من الحواس والحاجات البيولوجية والغرائزية، فهذه جميعاً تمثل جانباً واحداً من جوانبه، وهي مشتركة بينه وبين سائر الحيوانات.

فالطفل يبكي إذا جاع أو عطش، وسبب البكاء واضح هنا، وهو سبب بيولوجي. وإذا خاف يبكي، والسبب أيضاً هنا غرائزي معروف يتعلق بغريزة المحافظة على الحياة، وهي مشتركة أيضاً بين جميع الحيوانات. ولكن نلاحظ مثلاً أن هذا الطفل يبكي إذا ابتعدت عنه أمه. فهل هذا موقف بيولوجي أو غريزي؟ إنه بالطبع يتعدى ذلك.



والمثال يتضح أمامنا أكثر إذا أخذنا علاقة الأم بطفلها، فإننا نلاحظ أن ارتباط الأم بطفلها يقوى ويشد إلى درجة يتغلب حتى على غريزة البقاء وحفظ الحياة لدى الأم. ومسألة علاقة الغزالة الأم بطفلها معروفة في كتب الفقه عندنا: يأتي الصياد ليصطاد الغزالة فتفر من أمامه، فيأخذ طفلها ويحتجزه. ثم يفرك أذن هذا الطفل فيبغم، أي يصدر صوت استغاثة. فما إن تسمع الأم صوت طفلها حتى تهرع وتلقي بنفسها عليه غير عابئة بخطر الصياد والموت المحدث بها!...

* الطفولة والأمومة ومشاكل الأسرة:

أمام هذا الواقع علينا أن نكون مدركين لطبيعة الإنسان التي فطر عليها، وللجوانب المتعددة في شخصيته، وخاصة في المسائل التي تتعلق بالأسرة ووضعية الأطفال فيها. ولعل أخطر ما يواجهنا هنا هو مسألة الطلاق وما يسببه من مشاكل ومآسٍ في حياة الطفل، ومن دمار وتفكك في وضع الأسرة بشكل عام. ومن هنا تبرز المسؤولية الكبيرة التي يتحملها القضاء والمحاكم الشرعية في الحكم بمسائل الطلاق.

لقد أراد الإسلام للأسرة أن تكون المناخ الملائم الذي تنمو فيه شخصية الإنسان بجوانبها المتعددة وعلى جميع المستويات البيولوجية والنفسية والعاطفية والفكرية. ولذلك نرى أن الزواج في الإسلام (بناء الأسرة) ميسر مبسّط. يكفي أن يتفق الرجل والمرأة على الزواج، على مهر معين، وبصيغة بسيطة واضحة: «زوجتك نفسي» فيقول: الرجل: «قبلت الزواج على المهر المعين» يكفي ذلك حتى يتم الزواج الشرعي الكامل الدائم. وهو لا يحتاج إلى واسطة من شيخ ولا إلى شهود.



في نفس الوقت نجد الإسلام يتشدد في أمر الطلاق الذي يحتاج إلى شهود عدول. وهذا التشريع لحكمة واضحة وهي التشجيع على الزواج وبناء الأسرة، وعدم تشجيع الطلاق وهدم الأسرة.

والعجيب في أمر بعض المسلمين أنهم يعتمدون عكس هذه القاعدة الشرعية. فالزواج عندهم يحتاج إلى شهود عدول، بينما الطلاق أمر سهل بسيط يحصل بمجرد التلفظ بعبارة «أنت طالق»!.. حتى وإن صدرت هذه العبارة عن رجل منفعل وفي حالات الغضب. والحقيقة أن هذا مخالف لروح الشرع، ولا يصح طلاق بهذا الأسلوب المتسرع الذي يستخف بكل ما ينتج عنه من مشاكل. وفي حياتنا اليومية نصادف كثيراً من المآسي الناجمة عن اعتماد هذا الأسلوب غير السليم، لأن الله يقول: ﴿واشهدوا ذوي عدل منكم﴾ الآية.

* كرامة الإنسان في ظل الإسلام:

إن ما تقدم هو نقاط تمهيدية للوصول إلى موضوعنا الأساسي وهو أن كرامة الإنسان وحقوقه وتكامل شخصيته تكون في ظل الإسلام وفي ظل الإيمان. وذلك لأن الإسلام ينظر إلى هذا الكون على أنه قائم على الحق، ليس فيه عبث ولهو، وإنما هو قائم على الميزان. فالحق أصيل، والباطل عارض زائل. ولا بد دائماً من التفريق بين الحق والباطل، بين الثابت والعارض، كما لا يجوز الخلط بينهما. وهذا التمييز نجده واضحاً في سيرة النبي ﷺ وفي سيرة أهل البيت والأئمة المعصومين. إذ من المستحيل أن تجد في سلوكهم تناقضاً، ومن المستحيل أن يختلط الحق بالباطل لديهم. فالمقياس واضح وثابت عندهم، وهو كرامة الإنسان.



يقول ابن عباس إنه دخل على أمير المؤمنين عليه السلام فوجده يخصف نعله (أي يخرزها ليصلحها)، فقال له أمير المؤمنين: يا ابن عباس، هل تعلم كم تساوي هذه النعل؟ قال: إنها لا تساوي شيئاً. قال عليه السلام: «والله يا ابن عباس، إن هذه لأفضل عندي من خلافتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً».

إذن نجد أن محور الحكم في الإسلام هو إقامة الحق ودفع الباطل، أي تحقيق كرامة الإنسان في المجتمع. وخارج هذا الاعتبار لا قيمة للرئاسة والسلطة. فما السلطة إلا وسيلة لتحقيق تلك الغاية التي أرادها الإسلام. لذلك نرى أن يوسف الصديق عليه السلام لما صار ملكاً وبيده خزائن الأرض اندفع بكل ما يملك من قوة لإقامة العدل وتحقيق كرامة الإنسان.

* العدل والتواضع:

وعندما يكون العدل هو رائد الحاكم، فإن هذا الحاكم لا بد أن يكون متواضعاً. فهو عندما يرى نفسه حاكماً بيده السلطات ينظر في نفس الوقت إلى عبوديته لله وإلى أن موقعه إنما هو لخدمة الناس، عندئذ يتواضع ويقترب من الناس ويألفهم ويألفونه. وإلى هذا المعنى يشير الحديث الشريف: «أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة الموطأون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون».

فالتواضع يصاحب دائماً العدل، ويصاحب الإيمان والعلم والمعرفة. فالشجرة المثمرة تدنو من الأرض، أما الشجرة الفارغة العقيمة فإنها



تشمخ باتجاه السماء والسنبلة المليئة بالحب تتحني، والسنبلة الفارغة تشمخ:

ملأى السنبال تنحني بتواضع والفارغات رؤوسهن شوامخ

* حقوق الإنسان في ظل الإسلام:

إن ما يميز الإسلام عن سائر الفلسفات والمناهج هو أنه ينظر إلى هذا الكون نظرة متكاملة فيرى الحق في جميع مظاهره، وبالتالي فإن الرحمة والعدل هي التي توجه علاقة الإنسان المسلم بكل ما حوله.

فللإنسان الذي يعيش معك حقوق وكرامة عليك أن تحترمها، حتى وإن كان هذا الإنسان من غير دينك. فالخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله. والإنسان الذي بجانبك إما يكون أخاً لك في الدين أو نظيراً لك في الخلق، وفي الحالتين عليك أن تحترم حقوقه وتقديسه.

والحيوانات هي من مخلوقات الله، ومن حقها عليك أن تحترم حياتها ووجودها وحقوقها أيضاً! وهل للحيوانات حقوق؟ نعم إن لها حقوقاً عليك، وليس الأمر مجرد رفق بالحيوان. والدليل على أن لها حقوقاً هو أنك يمكن أن تدخل النار بظلمك لحيوان!.

يقول رسول الله ﷺ: «ليلة أسري بي إلى السماء مررت على النار فرأيت صاحبة الهرة تنهشها مقبلة مدبرة، ودخلت الجنة فرأيت صاحب الكلب الذي أرواه من الظمأ». ولكن ما قصة صاحبة الهرة وصاحب الكلب؟

تلك المرأة كانت عابدة زاهدة مصلية، وكان لها هرة تعيش معها في البيت. ذات يوم أكلت الهرة قطعة لحم لتلك المرأة، فثارت ثأرتها، وأخذت القطة فأوثقتها وحبستها في غرفة ومنعت عنها الطعام والشراب حتى ماتت القطة من الجوع والعطش.

أما الرجل صاحب الكلب فقد كان رجلاً بعيداً عن شعائر الدين، لا يصلي ولا يصوم ولا يتعبد. وذات يوم بينما كان يسير في الصحراء وجد كلباً يلهث من التعب والعطش. وكان الكلب يحوم حول بئر عميق قد غارت مياهه فلا يستطيع أن ينزل فيه. كان الكلب يقترب من البئر فينظر في الماء ثم يتراجع يائساً. نزع ذلك الرجل عباءته ثم أنزلها في البئر حتى تشبعت أطرافها بالماء ثم أخرجها. نام الكلب على الأرض وفتح فمه، فصار الرجل يعتصر الماء في فمه، ثم كرر العملية مرات عدة حتى ارتوى الكلب.

ولذلك في ليلة الإسراء رأى النبي ذلك الرجل في الجنة ورأى صاحبة الهرة في النار.

فإذا كان ظلم الحيوان يمكن أن يؤدي بالإنسان إلى جهنم، فكيف بالذي يظلم الناس؟! وما بالك بالذي يرحم الناس؟ ... إن جزاءه عند الله عظيم. ولذلك ليس هناك من رحمة تنزل على الناس أعظم من حاكم عادل.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر يوصيه: «يا مالك، أشعر قلبك الرحمة للرعية واللفظ بهم والمحبة لهم. ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تفتنهم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق».



وكما أشرنا فإن حقوق الإنسان في الإسلام لا تقتصر على المسلمين
والمؤمنين. إن الإسلام يحفظ حقوق البشر جميعاً حتى الكفار
والمشركين منهم.. يروى عن الإمام جعفر الصادق أنه سأل أحد
أصحابه يوماً: أين صاحبك فلان؟ قال صاحب الإمام غاضباً: هذا
الخبيث اللئيم، ابن الفاعلة.. واسترسل في شتمه وسبه والتشنيع عليه.
التفت الإمام إليه وقد تغير لونه: ويلك، لماذا تسبه؟ قال: سيدي إنه
مجوسي، وهؤلاء المجوس الملاحين يتزوجون أمهاتهم وبناتهم
وأخواتهم!.. قال الإمام: «أليس ذلك نكاحهم وعقيدتهم؟»... وقد أراد
الإمام أن يقول له بأن لكل واحد عقيدته ودينه، وأنه لا إكراه في الدين،
فيجب ألا نحاسب الناس على أساس عقيدتهم وإنما على أساس
أعمالهم ونفعهم أو إساءتهم للآخرين.

إن الإسلام يترك عقائد الآخرين ولا يرفع السلاح بوجه أحد من
أجل عقيدته، اللهم إلا المرتد عن الإسلام، فإن حكمه القتل.

دروس من حياة الإمام علي عليه السلام

وقصة درع أمير المؤمنين تظهر العمق في نظرة الإسلام لحقوق الإنسان واحترام هذه الحقوق.

كان الإمام علي عليه الصلاة والسلام يصلي في مسجد الكوفة، وقد نزع درعه ووضعها بجانبه. وجاء رجل يهودي فأخذ تلك الدرع. قال له الإمام: يا هذا، الدرع لي، فلماذا تأخذها؟! قال الرجل: إنما هي درعي!...

وتحاججا طويلاً في الكلام، ولكن الرجل لم يقتنع بإعادة الدرع، ولم يكن في المسجد شهود. عندها قال له الإمام: فلنذهب إلى القاضي نحتكم عنده.

وذهبوا إلى شريح قاضي الكوفة ودخلا عليه والدرع بيد اليهودي. واليد حجة في الفقه الإسلامي. بمعنى أنني إذا جئت إليك ووجدتك تلبس عباأتي فليس من حقي أن أطلب منك شهوداً لتثبت أنها لك، وإنما علي أنا أن أجد شهوداً يثبتون أنها لي. لأن البيئة على من ادعى، وطبعاً هذا لا ينطبق على أمير المؤمنين عليه السلام ولكنه أراد أن يظهر عظمة الحكم في الإسلام.

إذاً دخلا على القاضي وجلسا. نادى القاضي اليهودي باسمه واستمع إلى قوله. ثم بعد ذلك قال: وأنت يا أبا الحسن يا أمير المؤمنين، فماذا تقول؟

قال أمير المؤمنين: أيها القاضي، والله ما انصفت الرجل! لقد سميته باسمه وكنيتي بكنيتي!.. والإمام هنا يريد أن يقول له: أمام القضاء يجب أن لا يراعى خصم على الآخر، فكما ناديت باسمه كان عليك أن تناديني باسمي: يا علي، دون كنية أو لقب.

ومن سيرته عليه السلام أنه أرسل إلى عامله في اليمن أبي الأسود الدؤلي، فلما حضر أبو الأسود قال له الإمام: أنت معزول عن اليمن!... استغرب الرجل الأمر، فهو لم يظلم أحداً ولا صدر عنه خطأ طيلة أيام ولايته، وسأل الإمام: سيدي لماذا؟ هل صدرت مني ظلامة؟.. قال الإمام: لا يا أبا الأسود، فأنت نعم الرجل. ولكن بلغني أن صوتك يعلو صوت الخصم.

وكان -سلام الله عليه- إذا أراد أن يبعث والياً على جهة من الجهات، يحمله كتاباً ويقول له: اذهب إلى تلك الجهة وأقرأ كتابي هذا على الناس، فإن رضوا بك والياً عليهم وليناك، وإلا عد إلينا.

هذا هو الحاكم العادل الذي يحاسب نفسه ويحاسب ولاته وأعوانه قبل أن يحاسب الناس. كان عليه السلام يقول: «ليس منا من لم يحاسب نفسه صبيحة كل يوم. حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم».

إن الإسلام يوجهنا إلى أن تكون الرحمة هي التي تقود علاقتنا بالآخرين. فما زال النبي يوصي بالجار حتى ظن أنه سيورثه.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «إن لجارك عليك حقوقاً. ومن حقوقه عليك ألا تؤذيه بقتار قدرك حتى تقدح له منها» والمراد بذلك أنه عليك أن تطعم جارك قبل أن تأكل طعامك.



ويقول الرسول ﷺ: إذا اشتريتم فاكهة لأطفالكم فاشتروا لأطفال جيرانكم.. قالوا: يا رسول الله، ليس كلنا يملك ذلك! قال: إذا لا تدعوا أطفالكم يخرجون إلى الشارع فيراهم أطفال جيرانكم ويذهبون إلى آبائهم وأمهاتهم يقولون: اشتروا لنا كما اشترى فلان لأطفاله. فإن كان جارك غير قادر على ذلك سببت الأذى له ولك ولأطفاله ولأطفالك.

* غذاء البدن وغذاء العقل والروح:

يقول الإمام الحسن عليه السلام: «عجبت لمن يتفكر في مأكوله ولا يتفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه ويودع عقله ما يرديه!».

فنحن نرى الكثير من الناس يهتمون بمأكلهم ومشربهم، فيتمعنون كثيراً في الخضار أو اللحم التي يشترونها ولا يقبلونها إلا طازجة نافعة، في حين نرى أكثرهم لا يهتمون بما يدخل عقولهم وعقول أطفالهم. فإذا رأى الوالد ابنه يأكل ثمرة ذابلة أو فاسدة ينتزعها من يده ويضربه على يده. أما إذا رآه ينظر إلى فيلم فيديو يعرض صور الخلاعة ويروج لمفاهيم الاستهتار أو الحرب أو الجريمة فإنه لا يعاب بذلك!... والحال أن سموم الفكر أشد ضرراً وفتكاً من سموم الجسم.

وإذا نحن تأملنا في جميع المفاسد ومفاهيم التحلل والجريمة والاستهتار وتعاطي المخدرات وما إلى ذلك، نجد أيدٍ خبيثة صهيونية وراءها. هناك شبكات وأجهزة وهيئات كاملة على علاقة بالصهيونية العالمية تصرف ملايين وملايين الدولارات لترويج المفاسد على اختلاف أنواعها بين الشباب... هذا في حين نرى حكوماتنا الإسلامية تتشدد



إلى درجة غير محتملة في مراقبة الوافدين إليها وتفتيش حقائبهم وجيوبهم وحتى رؤوسهم، فإذا عثروا معك على نسخة من القرآن أو نسخة من كتاب يدعو إلى مكارم الأخلاق توقفوا طويلاً يقلبون الصفحات ويستجوبونك لعلمهم يعثرون على كلمة تنافي أنظمتهم أو مزاجهم. إنهم يفعلون ذلك ويسمحون لكل أفلام الدعارة وكتب ومجلات الإباحة الجنسية أن تدخل إلى بلادهم دون رقيب أو حسيب!... فهل هذه هي أخلاق الإسلام؟! هل هذه هي حقوق الإنسان التي صانها الإسلام!؟.

إن حقوق الإنسان وحرية حسب المفاهيم الغربية الفاسدة وحسب المفاهيم التي يطبقها كثير من أنظمة الحكم التي تدعي الإسلام إنما هي حق الإنسان في الفساد والإفساد وحرية في تدمير ذاته وتدمير الآخرين. أما حقوق الإنسان في الإسلام فهي تعني حقه بالمحافظة على نفسه ومحيطه وكرامته وحرية في صون كرامته ومصيره.

الحاجة إلى المثل الأعلى

* حاجة الإنسان إلى المثل الأعلى:

إن الإنسان في حياته بحاجة دائمة إلى مثل أعلى يضعه نصب عينيه ليكون له بمثابة منارة تساعد على السير في ظلمات الحياة وسبيلاً يترسمه للوصول إلى غاياته المنشودة.

وإذا نظرنا إلى المثل الأعلى الذي تقدمه حضارة المادية الفاسدة والمفسدة نرى أن هذا المثل الأعلى هو عبارة عن مجموعة من القيم المدمرة لشخصية الإنسان وإنسانيته. فهي المال والسلطة والجريمة والاستهلاك والجنس.. الخ. والمثل الأعلى للشباب في هذه الحال يكون ذلك الحاكم الظالم أو ذاك الثري الذي يتربع على عرش الدولار، أو تلك الراقصة أو المغنية.. إلى آخر هذه السلسلة الجهنمية.

أما الإسلام فإنه يقدم لنا المثل العليا التي تسمو بالإنسان وتؤكد شخصيته وتفتح عقله وحواسه وتحفظ كرامته. فلماذا البحث عن مثل عليا من خارج حضارة الإسلام وقيم الإسلام ومفاهيمه؟..!

إن الحضارة والثقافة والعلم انطلقت من عندنا. وإن جامعاتنا الإسلامية كانت منذ القدم قبلة طالبي العلم والمعرفة. فالإمام الصادق عليه السلام كان حجة أهل زمانه، يقصده العلماء من جميع أقطار الدنيا ليأخذوا عنه العلم والمعرفة.



وفي جميع العصور كانت مدننا وحضاراتنا الإسلامية عواصم العلم والثقافة والحضارة في العالم. فمن المدينة المنورة إلى الكوفة إلى بغداد إلى حلب إلى القاهرة إلى قرطبة تمتد طريق العلم والثقافة عبر التاريخ لتؤكد أن الإسلام كان دائماً منارة الهدى ومنبع القيم العليا.

ومن هنا يأتي تعلقنا نحن المسلمين بمثلنا العليا ورموز هذه المثل من الرسول الأعظم إلى سلسلة الأئمة الأطهار المعصومين وسائر الأولياء والصالحين. ولذلك نحن نتمسك بإحياء ذكرهم وزيارة قبورهم والاقتباس من نورهم ونيل بركتهم.. ولا تلتفتوا إلى أولئك الذين ينهاونكم عن زيارة الأولياء الصالحين والتبرك بمشاهدتهم وقبورهم.

فهل زيارة قبر النبي ﷺ هي من الشرك؟ هل إذا وقفت أمام قبر النبي وقلت: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك وعلى أهل بيتك والأئمة المعصومين من ذريتك.. هل هذا نوع من الشرك؟... إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يكررون السلام على رسول الله وأهل بيته يومياً خمس مرات على الأقل في صلواتهم، فهل هؤلاء مشركون؟.

إن الرسول الأعظم كان يزور قبور الشهداء ويزور قبر الحمزة بن عبدالمطلب. وفاطمة كانت تزور قبر الحمزة كل خميس وجمعة. وكانت -سلام الله عليها- لا تتخلف عن زيارة قبر أبيها -صلوات الله عليه-.

عظماء العالم كانوا يزورون قبور الصالحين ليستمدوا القوة منهم. جواهر لآل نهرو كان يزور ضريح غاندي، وكان يقول؛ كلما شعرت باضطراب وضعف أذهب إلى ضريح غاندي فاستمد منه القوة المعنوية والقدرة على مواجهة الصعاب.



جميع بلاد العالم اليوم تقيم نصباً للجندي المجهول وتزوره في مناسبات محددة، لماذا؟ لأنها تتخذ منه مثلاً أعلى للتضحية في سبيل الوطن والشعب.

ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ أمتنا الإسلامية، وإلى تاريخ أهل البيت على وجه الخصوص نجد ثروة هائلة ونعمة عظيمة من الله علينا بها بوجود هذه المثل العليا التي لا يمتلك أي شعب من شعوب العالم عشر معشارها.

فلنتوجه إلى أهل البيت، ولنتوجه إلى سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام بالدعاء:

السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كلیم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله، السلام عليك يا وارث علي أمير المؤمنين ولي الله.. السلام عليك يا ابن محمد المصطفى، السلام عليك يا ابن علي المرتضى، السلام عليك يا ابن فاطمة الزهراء، السلام عليك يا ابن خديجة الكبرى، أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة.

سؤال الفتاة عن الزهراء عليها السلام

الحقيقة التي لا يرقى إليها الشك هي أن الله سبحانه وتعالى خلق محمداً عليه السلام وأهل بيته الطيبين قبل أن يخلق البشرية بآلاف السنين وجعلهم أنواراً محدقين بالعرش والملائكة تسبح من حولهم، ثم أنزلهم إلى الأرض بعد أن اصطفاهم واجتباهم وطهرهم من الرجس تطهيراً ليكونوا مشاعل نور على دروب الأجيال، وليحملوا راية الحق والعدل والحرية ومناهج السماء إلى البشرية كافة. ومن هنا كانوا سادة البشر.. وكانت رسالة الإسلام رسالة عالمية، والرسول محمد، جاء رحمة للعالمين، وفاطمة الزهراء، سيدة نساء العالمين، وكذلك الأمر في الإمام علي والحسن والحسين، حيث إنهم امتداد لرسول الله عليه السلام.

على أن عالمية الإسلام نلمسها في أول صلاة نصليها، ففي الصلاة نقرأ سورة الحمد، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهنا نجد هذه السورة تربطنا وتشدنا ليس فقط في العالم وفي البشرية كافة، بل وأيضاً تربطنا بكل العوالم التي تحيط بنا في هذا الكون، لأن كلمة «العالمين» جمع الجمع، فجمع العالم: عوالم، وجمع عوالم: عالمون، فالحمد لله رب العالمين، فيها إشارة إلى عالمية الإسلام، وأن قلب المؤمن أكبر من هذا الكون الذي نعيش فيه.

ولعل كلمة الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام التي يقول فيها: «اتزعم أنك جرم صغير، وفيك انطوى العالم الأكبر» أقول: لعله يشير إلى هذه الحقيقة، ويؤكد هذا المعنى.

وبمناسبة حديث عالمية الإسلام خطر بذهني أن أكتب لكم قصة الفتاة الزنجية التي أسلمت على يديّ في أفريقيا وهي واحدة من العشرات بل المئات اللواتي دخلن في الإسلام في القارة الإفريقية.. وعلى فكرة فإن القارة الإفريقية هي قارة عذراء أي إنها لم تفتح عينيها على الإسلام بشكل كامل، رغم أنها قارة الإسلام، ورغم أن أول بعثة إسلامية أرسلها الرسول الأعظم محمد ﷺ كانت إلى أفريقيا بقيادة جعفر بن أبي طالب وهو أول سفير للإسلام في أفريقيا إذا صح هذا التعبير؛ حين ذهب إلى الحبشة مع المسلمين الذين هاجروا معه، حيث قال لهم الرسول: «اذهبوا إلى الحبشة فإن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد».

وبالفعل فقد ذهب جعفر مهاجراً إلى الحبشة وهنا استطاع بقوة إيمانه وعقيدته، وقوة بيانه وفصاحته أن يدخل الإسلام إلى كل بيت في الحبشة حتى أن ملك الحبشة النجاشي قد أعلن إسلامه وإيمانه وجرت دموعه من الإيمان ومن شدة التأثر بالإسلام.

أقول: على رغم ذلك، فإن القارة الأفريقية اليوم، هي في أمس الحاجة إلى دعاة الإسلام، وحملة القرآن لأن الناس هناك في أفريقيا، في ظمأ وفي جوع للإسلام. ويعلم الله أنني لو أردت أن أحدثكم عن رحلاتي التي جبت فيها أفريقيا الوسطى، وجنوب شمال أفريقيا، وقرابة عشرين دولة أفريقية خلال خمس سنوات وما زلت أواصل رحلاتي كلما سنحت لي الفرصة.. أقول: لو أردت أن أكتب عن ملاحظاتي وتجاربي وتأملاتي في القارة الأفريقية، لاحتجت إلى مجلد ضخمة من الذكريات، ولكن يكفي أن أقول: إن القارة الأفريقية هي قارة

المستقبل وإنها لا خلاص لها إلا بالإسلام فالإسلام وحده هو الذي سيحرر أهل هذه القارة الراضحة تحت استبداد الظالمين ونيران الاستعمار. وإنه لقريب جداً إن شاء الله.

والآن أعود إلى كلامي السابق، فانقل لكم قصة قصيرة تحكي إسلام فتاة أفريقية هناك، جاءت وأبدت رغبتها في أن تدخل الإسلام، وتصبح فتاة مسلمة، ثم سألتني عن المثل الأعلى للمرأة في الإسلام فأجبت: إنها فاطمة الزهراء -سلام الله عليها-. فقالت: من هي فاطمة؟ وكانت قد طرحت السؤال بشكل يثير الحزن في القلب، ويجلب الهم على النفس رغم أنها ما كانت تقصد الإساءة، ولكنها فقط طرحت السؤال على النحو الذي ذكرت.. فتركت أثراً حزيناً في نفسي إذ رحت أفكر بيني وبين نفسي فأقول: ترى، لماذا نحن المسلمين أصبحنا عاجزين حتى عن نشر الإسلام ونشر فكر أهل البيت، وأسمائهم وحياتهم؟... لماذا نحن هكذا؟ ولماذا بلغ بنا التدهور والانحطاط إلى درجة أصبحنا معها غير قادرين على رفع أسماء محمد وأهل بيته إلى شعوب الأرض، في الوقت الذي نرى فيه وسائل الإعلام تنقل حياة الرجال، وسير الناس إلى كل بقاع الأرض، عن طريق الأقمار الصناعية التي ما تفتأ تجوب الفضاء وتسابق الكواكب والنجوم في الآفاق؟ أجل.. لقد بلغ الأمر أن البابا يوحنا بولس الثاني -وهو البابا السابق، للمسيحيين، كان قد اشترى -قبل فترة من الزمن- عشرة أقمار صناعية في الفضاء ليربط فيها أو ليركب عليها محطة تلفزيون تطلق من الفاتيكان مهمتها تصوير العالم، ونشر تعاليم المسيحية على كل قارات الأرض!

ولقد أخذت هذه الأفكار مأخذها مني، ورحت أفكر وألوم نفسي، وألوم كل المسؤولين في بلادي، وكل رجال الدين وأهل العلم في أرضي

وفي بلاد الإسلام، صرت ألومهم على تقاعسهم، وتكاسلهم، صرت ألومهم على عدم اهتمامهم بهذا الأمر.. كان البابا يوحنا بولس الثاني يجوب القارات كلها، إنه يذهب إلى أفريقيا فيلتقي الشعوب الأفريقية ويفتح الكنائس ويوزع الكتب، ويرسل المبشرين، يرسل مئات المبشرين، بل آلاف المبشرين يرسلهم البابا بعد أن يزودهم بطائرات خاصة تقلهم إلى كل القرى والأرياف والمدن الأفريقية، وذلك حتى يتمكنوا من نشر تعاليم الكنيسة المسيحية، في حين أننا لم نهتز ولم نتحرك لهذا الجانب التبليغي.. فلا التجار يبدون اهتماماً ولا العلماء يملكون مალأً ليساهموا في حملة تبليغ واسعة تشمل قارات العالم الخمس.. هذا الشريط من الأفكار مرّ في خاطري، كما يمر السهم في الأفق، وقد كان سؤال هذه الفتاة قد حرك الدموع في عيني، فأبدت استغراباً من دموعي، ثم سألتني لماذا هذا التأثير؟

أجبت: إني حزين لأنك تسألين عن فاطمة وهي سيدتك، وأنت لا تعرفين حتى اسم سيدتك!.

قالت: لم أفهم أوضح أكثر إذا تكلمت.

قلت: إن فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- هي سيدة نساء العالمين -وإنت واحدة من نساء العالمين، إذن ففاطمة سيدتك ولكنك لا تعرفين من هي سيدتك؟ وهذا مما يحزنني وذلك أن كل امرأة في هذه الدنيا يجب أن تعرف أن لها سيدة لا بد لها من الاقتداء بها، وهي فاطمة الزهراء، سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين. وبعد توضيح شامل ومعمق لمبادئ الإسلام وتعاليمه أبدت الفتاة رقة وتواضعاً للحق وأعلنت إسلامها هي وأبوها الذي كان في صحبتها يوم جاءت تبحث عن نور الإسلام.



كلام فاطمة في مدرسة الخطابة

قال الباقر عليه السلام: «الروح عماد الدين، والعلم عماد الروح والبيان عماد العلم». (١)

وإنما صار البيان عماد العلم، لأنه الطبق الشهى الذي يقدم فيه غذاء العقل وهو العلم، فإذا قدمت طعاماً لذيذاً ولكن في طبق وسخ لا جمال فيه ولا نظافة، فإن النفس تأبى ذلك الطعام.. فلكي تغري الناس بالأكل لا بد من إيجاد أطباق جميلة حلوة رقيقة، وكذلك الأمر في العلم، لأن العلم يحتاج إلى ثوب جميل، وطبق أنيق وهو البيان وسحره القادر على شدّ القلوب، والأسماع.

وهذه طريقة القرآن، والرسول، وكل أهل البيت، حيث نجد الفكرة لا تقدم إلا بكلام جميل يستحسنه السامعون، ويستولي على مشاعرهم. على أن القرآن يذكرنا دائماً بجمال الكلام، ورقة الأسلوب مع الناس، حيث يقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (٢).

ويقول في آية ثانية: ﴿وَعَظَّمْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (٣). وفي مكان ثالث: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٤).

أي خالياً من التعقيد، وإن كان المعروف هو ضد المنكر..

(١) بحار الأنوار: ١/ ١٨١.

(٢) البقرة/ ٨٣.

(٣) النساء/ ٦٣.

(٤) النساء/ ٨.

وفي آية رابعة يقول الحق: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا﴾^(١).

وقال الرسول ﷺ إن من البيان لسحراً بمعنى أنه يسحر السامعين ويستولي عليهم إلى عشرات الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تأمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم، واستيعابهم للكلام، في أسلوب شيق ميسر بعيداً عن التعقيد والالتواء.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «يفوص العقل على الكلام، فيستخرجه، من مكنون الصدر، كما يفوص الفأص على اللؤلؤة المستكنة في البحر»^(٢).

ما أروع هذا الكلام، وما أعمق معناه.. ولكن لا غرابة في الأمر، فهو كلام أهل البيت الذي يحمل عمق الفكرة، وحلاوة التعبير.. يقول الإمام الرضا -صلوات الله وسلامه عليه: «وإن لكلامنا نوراً وإن عليه لحلاوة»^(٣). ففي كلامهم نور الفكرة، وحلاوة التعبير الأدبي الأسر. وعمق التعبير الذي تقدم في حديث الإمام الصادق يكمن في أن العقل لا يفوص إلا من أجل كلام تتغذى به العقيدة الصحيحة، ويتقوى به الإيمان.. وهذا هو ما يريده الإمام الصادق بالضبط من هذا الحديث. فاللؤلؤ المكنون هو العقيدة الصحيحة لفلائها وعظمتها.. وكما أن اللؤلؤة الثمينة لا يمكن الحصول عليها بغير الغوص، كذلك العقيدة السليمة لا يمكن الحصول عليها من دون الغوص في الإيمان والعلم والمعرفة.

(١) الإسراء / ٢٨.

(٢) بحار الأنوار: ٩٤/١.

(٣) كتاب الحقائق الجزء الأول.



والتعامل مع العقيدة، يشبه التعامل مع اللؤلؤ، فلكي تحصل على اللؤلؤ، لا بد لك من الغوص في البحر، فإذا حصلت عليه، فلا بد من حفظه تحسباً من أيدي اللصوص.. ثم تجيء المرحلة الثالثة وهي كيفية التعاطي مع اللؤلؤ، والانتفاع به.

والشيء نفسه يقال بالنسبة للعقيدة، فلكي تحصل على عقيدة ثابتة راسخة قوية، فإنه لا بد لك من اللجوء إلى بحار العلم والمعرفة، وبحار العلم هم محمد وأهل بيته بل هم العلم كله. ثم لا بد لنا من حفظ العقيدة من اللصوص وهم كل من يحمل فكراً هداماً ومنحرفاً يريد القضاء على عقيدتك وإضعافها.. وفي المرحلة الرابعة لا بدّ من تخطيط دقيق للانتفاع الكامل من العقيدة والإيمان، وذلك لا يكون إلا عن طريق التطبيق الكامل لمناهج العقيدة، والالتزام الشديد بدين الله وقرآنه.

وكما أن التعامل مع الأشياء المادية كاللؤلؤ مثلاً، يرفعك مادياً، كذلك التعامل مع دين الحق يرفعك إلى أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه الإنسان. فالتعامل مع رصيد البنك، يرفع الإنسان مادياً، والتعامل مع رصيد الإيمان والعقيدة يرفع الإنسان مادياً ومعنوياً في الدنيا والآخرة. إنها مجرد فكرة أوحاها حديث الإمام الصادق الذي هو واحد من أبناء فاطمة الزهراء، ولا شك أن أبناء فاطمة يحملون فكرها وعلمها ويبثونه في أرجاء الدنيا ليعطي أكبر فائدة في النفع.

على أن نظرة واحدة نلقيها على خطاب فاطمة الزهراء عليها السلام تكفي لاعطائنا ألف دليل ودليل على قوة الإسلام وعمق الإيمان ومودة الصديقة فاطمة في قلوب المؤمنين والمؤمنات في العالم كله.



نموذج آخر لخطبة سريعة ذات تأثير كبير

النبي ﷺ وفاطمة وعلي المثل الأعلى لكل أسرة

في الخبر: إن النبي ﷺ كان قد دخل، ذات يوم، على علي، فوجده هو وفاطمة يطحنان في الجاروش، فقال النبي ﷺ: أيكما أعياء؟ أي من منكما أحس بالتعب- فقال علي: فاطمة يا رسول الله فقال لها: قومي يا بنية، فقامت، وجلس النبي مكانها، مع علي عليه السلام وراح يدير الجاروش معه، فواساه في طحن الحب.^(١)

ولا شك أنه حديث، يقطر ذوقاً، ويفيض بالعطف، والحنان، والإنسانية، إذ إننا نجد رحمة الزوج، بزوجته، وحنانه عليها، ولطفه بها، من خلال جواب علي، عندما أشار إلى أن فاطمة هي التي تعبت.

إن هذه اللفتة المهدبة، من الرجل تجاه زوجته، وأنه يقدر أتعابها، ويشعر بشعورها، ويحس كم هي متعبة إدارة البيت وكم هي مرهقة أعمال الأسرة، أقول: إن هذا الشعور من الرجل تجاه الزوجة في البيت، كفيل بأن يمسح عنها كل غبار التعب.. ويزرع في نفسها، قناديل السعادة، والمودة، بروح الحب التي يحملها بين جنبيه...

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن اشتراك الإمام علي مع الزهراء، في طحن الطعام، يدل على مناقب الرجل المؤمن الذي يساعد

(١) بحار الأنوار: ٥٠/٤٣.

أهله في البيت، ويرفع عنهم بعضاً من الأعمال، والواجبات المنزلية، على أن في هذا العمل نداءً مخلصاً، لكل النساء والرجال، أن يحفظوا أجواء الأسرة، طيبة، ساخنة، تفيض حباً، ونوراً، وحناناً، وعطاءً.. لأن الحياة الزوجية، شراكة، وصداقة، وليس استبداداً وتجبراً.. أبداً.. ومن ناحية أخرى، نجد أن مشاركة الحبيب المصطفى لابنته الزهراء، وصنوه علي في أعمال البيت، تدل -على الأهمية العظيمة التي أعطتها الإسلام لدور الأسرة في الحضارة الإسلامية.

كما أننا نقرأ في الأخبار، دخول النبي ﷺ، على علي وفاطمة عليهما السلام، وهما ينقيان العدس، حيث كانت فاطمة توقد النار تحت القدر، وعلي ينقي العدس، ففرح النبي الكريم بهذا المنظر، وهذه الظاهرة، ثم أخبر علياً بأنه ما من رجل يساعد أهله على عمل البيت، إلا كتب الله له بعدد الشعر الذي في بدنه، من الأجر والثواب.



بين القول والفعل : حق أو باطل

أكبر فادحة تنزل بالمرء، أن يكون موزعاً بين فعله، وقوله، فيقول أشياء، ويفعل أشياء أخرى تخالف قوله بالكامل!. أجل إنه أكبر خطب يحل بالإنسان، أن يرفع شعاراً معيناً أمام الناس، ولكنه يعمل بخلاف ذلك الشعار!.

إنها حالة بغیضة، لا يرحب بها الله عز وجل، ولا يستطيعها بل يمقتها مقتاً شديداً: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (١).

ولذلك يشن القرآن الكريم هجوماً عنيفاً ضد الشعراء التائهيين، لأنهم يقولون ما لا يفعلون، ولأنهم أرباب الشياطين، بل أكثر من ذلك حيث يصبح الواحد منهم آلة طيعة بيد الحكام الخونة، وأشياء الظلم والجور، وهنا تتساقط هذه النماذج من الشعراء في أحضان الشيطان، فيسوقهم أمامه كما يسوق الراعي غنمه دون أن يجد منها أي غلظة أو مقاومة!. وذلك أن الذي ينسلخ من آيات الله، ومن الإيمان، يصبح ضعيفاً فيطارده الشيطان. وتتبعه كالذي ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٢).

ويقول القرآن: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَأَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣).

(١) الصف / ٣.

(٢) الأعراف / ١٧٥.

(٣) الشعراء / ٢٢٤-٢٢٦.

وهو تصرف ممقوت، ومبغوض.. أن يكون السلوك خلاف الشعار.. وأن يكون القول بعكس العمل.. والعمل ضد القول. وهذا نفاق، وهو مرض قاتل بل هو أخطر أمراض العصر الحديث الذي نعيشه.. وقد انتقلت عدوى هذا الداء الوبيل إلى القادة الظالمين، والحكام المستبدين، حتى صار الواحد منهم يفرق شعبه بالشعارات التي تخالف الحقيقة في الشكل والأساس.. كما هو واضح لدى الطبقة المثقفة الواعية، أما سائر الناس من الذين لا إيمان لهم، ولا نور في قلوبهم ولا رشد في رؤوسهم، فهم همج رعاع أتباع كل ناعق على حد تعبير الإمام علي عليه السلام وكما وصفهم في نهج البلاغة بأنهم يميلون مع كل ريح لم يلجأوا إلى ركن وثيق، ولم يستضيئوا بنور علم.

وهؤلاء -أعني الهمج الرعاع- ما أكثرهم في كل زمان ومكان.. هم الذين يهتفون بحياة القتلة الفجرة الغدرة من الحكام الخونة.. وفي العادة، عندما يكون الشعب غيباً لا يعرف أي طرفيه أطول، فإنه يرفع هؤلاء الحكام الخونة فوق رأسه إلى أعلى عليين، إلى درجة العبادة، وعندئذ تصير الشعوب الغبية تحت أقدام هؤلاء الحكام الغدرة الفجرة، فيسحقون بأقدامهم على رقاب الشعب، ويضعون الأغلال والقيود في أعناق الناس وفي أيديهم، وبالتالي يزرعون الأرض بالظلم، والفساد، وحمامات الدم..

وليس للشعب المظلوم المقهور طريق ينفعه، إلا طريق الانتفاضة والثورة.. فإذا انتفض، وهب ثائراً ومنفجراً كالبركان بوجه الطغاة، فإن الطغاة سينتهون لا محالة لأن التجارب والأيام علمتنا كيف يتحول الطاغية أمام غضبة الشعب إلى فأر مذعور.. ولكن شريطة أن يكون

هذا الشعب في مستوى المسؤولية، فيتخذ قراراً بالتحريض، وتحطيم الأغلال وسحق الظالمين والجلادين.. فإذا قرر الشعب أن يكون حراً، تقع المعجزة ويفوز بالنصر والظفر ولهذا فقد قال الشاعر:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد ليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

ولكي لا يشط بنا القلم، الذي سرح في طريق الثورة والانتفاضة حيث الموضوع يقتضي هذا التتويه ولفت النظر، أقول: لكي لا نذهب أكثر من هذا أرجع إلى أصل الفكرة التي يطرحها علينا القرآن الكريم من خلال الشعراء التائهين الضائعين الذين يقولون ما لا يفعلون.. وعندما نقول الشعراء، لا بد من استثناء المؤمنين منهم أصحاب القضايا المقدسة، وذوي الألباب والعقول النيرة أمثال دعبل بن علي الخزاعي، والكميت، والفرزدق ممن حملوا كلمة الحق وطاقوا بها البلاد، بل قالوها أمام كل حاكم ظالم جائر، وأفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر أي عند حاكم جائر..

لقد كان الواحد من هؤلاء الشعراء يحمل قلباً أقوى من الجبال الرواسي، بإيمانه، وبصموده أمام الباطل ووقوفه إلى جانب الحق دوماً، وأبداً. والذي يقرأ التاريخ، يلتقي بقائمة طويلة من شعراء الإيمان والعقيدة.. شعراء الحق والعدالة.. شعراء الاستقلال والحرية.. شعراء الصلاة والنور.. فالأرض لا تخلو أبداً منهم لأنهم ما زالوا يتناسلون، ويتكاثرون يوماً بعد يوم، بوجه الطفافة والظالمين.. وبالرغم من السجون

والأغلال، فإنهم يواصلون المسيرة، ويستمدون قوتهم من الله عز وجل.. حيث يثني عليهم القرآن الكريم، أروع الثناء.. فيقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (١).

ولأنهم يريدون أن يسجلوا انتصاراً ضد الظالمين، فإنهم يحتاجون إلى قوة أكثر، وقوتهم إنما يستمدونها من الله سبحانه لذا وصفهم القرآن بقوله: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا﴾

فكثرة التوجه إلى الله تؤدي إلى النصر لا محالة.

على أن المسألة هنا لا تخص الشعراء وحدهم، بل تخص كل ناطق يقف على قدميه أمام الناس فيقول قول الحق نثراً أو شعراً، لا فرق بين النثر والشعر.. فالخطباء والشعراء في مستوى واحد أمام المسؤولية.. لا فرق بين الفريقين مطلقاً.. فكما أن الشاعر المنحرف تتبعه الشياطين فكذلك الخطيب المنحرف فإنه يضل الجماهير ويتركهم في ظلمات لا يبصرون طريقهم.. ومن هنا صار الناطق الضال أشد عذاباً وأبقى في الجحيم.

وتعالوا معي نقرأ هذا الحديث الشريف الذي رواه أعظم إنسان في العالم كله، وسيد الأولين والآخرين، الحبيب المصطفى محمد ﷺ حيث يقول: «... رأيت ليلة أسري بي، قوماً تقرض شفاههم، وكلما قرضت وَفَّتْ، فقال لي جبرائيل: هؤلاء خطباء أمتك تقرض من شفاههم لأنهم يقولون ما لا يفعلون».

(١) الشعراء / ٢٢٧.

قال مسامة بن عبد الملك للحسن، وكان خطيباً، قال له: عِظْني، فقال: «إذا نزلت عن المنبر، فاعمل بما تكلمت به».^(١) هذا بالنسبة للخطباء الضائعين غير الملتزمين، أما بالنسبة للخطباء المؤمنين المتقين، وهم الأكثرية ببركات الإمام أبي عبدالله الحسين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- أقول: أما هؤلاء الخطباء المؤمنون، فلا شك في أنهم من أهل الجنة كما شهد لهم بذلك أهل البيت وخصوصاً الإمام جعفر ابن محمد الصادق، والباقر وعلي بن موسى الرضا -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام-. ونسأل الله أن يكتبنا منهم بحق محمد وآله الطيبين الطاهرين.

(١) أمالي المرتضى ٦/١.

لون آخر من ألوان الخطاب

في مدرسة فاطمة الزهراء عليها السلام

عندما نستمع بانصات عميق إلى خطبة الزهراء نجد أنها ركزت وأكدت على قوة الأنبياء أولي العزم وخصوصاً عندما ذكرت أباهما النبي محمد ﷺ. ولمعرفة حديث فاطمة نقرأ هذه القطعة الفكرية الأدبية في هذا المضمار.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

«الأشدُّ» إشارة إلى قوته الجسمانية، و«الاستواء» إشارة إلى قوته العقلية.. فقد زوده الله بقوة جسمانية وقوة عقلية.. والسنّ التي بلغها هي سنّ الأربعين.. ففي الروايات، أنه ما بعث الله نبياً إلا بعد الأربعين، وقد شدّ عن هذه القاعدة بعض الأنبياء، ومن بينهم عيسى عليه السلام، حيث جعله الله نبياً وهو في المهد، ثم يوم رفعه إلى السماء -إليه- كان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة.. إذن: فقضية الأربعين بالنسبة لعموم الأنبياء لا صحّة لها، ولكنها موجودة لدى كثير من الأنبياء، ولعل أكبر دليل على ذلك، النبي الأعظم محمد ﷺ حيث أرسله الله رحمة للعالمين، بعد أن بلغ الأربعين..

(١) القصص / ١٤.



على أن هناك نقطة بالغة الأهمية في هذا الباب، وهي أن الأنبياء أولي العزم، كلهم قد بعثهم الله، وهم في سنّ الأربعين، باستثناء عيسى. إذن: «فالأشدُّ» عبارة عن كمال القوة الجسمانية البدنية، و«الاستواء» عبارة عن كمال القوة العقلية.

إضافة إلى ذلك، فإن الآية توحى إلى أن الأشد إشارة إلى القوة العامة في الإنسان أي كل قواه الفكرية والعقلية والبدنية، في حين أن الاستواء، إشارة إلى كمال البنية والهيئة، والخلقة -بفتح الخاء.

وهناك لفظة علمية لا تخفى على اللبيب الفطن وهي أن الإنسان يبدأ، من أول بلوغه إلى سن الأربعين، يتمتع من قواه الجسمانية، من شهوة وغضب وحسّ، بقوة واندفاع لأن هذه القوة كلها متألقة نشطة في هذا السن إلى أبعد الحدود، فتكون من أيام البلوغ إلى سن الأربعين قوية مستكملة، ويكون الإنسان منجذباً إليها بشكل كبير... -فإذا انتهى إلى الأربعين -يقول الرازي في تفسيره- «أخذت القوى الجسمانية في الانتقاص، والقوة العقلية في الازدياد، وهناك يكون الرجل أكمل ما يكون، وهذا هو السر الذي اختار الله تعالى من أجله هذا السن للوحي».

على أن ذكر الإحسان في الآية يشير إلى أن إتيان العلم والحكمة أو الحكم -ولعل الحكم المذكور هنا أيضاً له علاقة بحكومة القلوب قبل الأبدان، وهي أكبر حكومة وأعمق من أي حكومة أخرى، ولا ينالها إلا ذو حظٍ عظيم- أقول: إن مجيء الإحسان في الآية يكشف عن حقيقة بالغة الأهمية، ألا وهي أن الحصول على العلم، والحكم، أو الحكمة، لا بد له من أرضية صالحة، وأرضيته الإحسان. إذن: فلا بد من أن يكون



العلم والحكم مسبوقين بالإحسان... وكل حالة طيبة تقرب المرء من الله عز وجل، لا بد لها أن تكون مسبوقة بالإحسان، فالإحسان هو المقدمة لهذه الثمرة والنتيجة..

يقول الحق: واتقوا الله، ويعلمكم الله.

قطب: وبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية، والاستواء اكتمال النضوج العضوي، والعقلي... وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين.

الميزان: بلوغ الأشد أن يعمر الإنسان ما تشتد عند ذلك قواه، ويكون في الغالب في الثمانية عشرة، والاستواء، الاعتدال والاستقرار، فالاستواء في الحياة استقرار الإنسان في أمر حياته، ويختلف في الأفراد، وهو على الأغلب بعد بلوغ الأشد.

توجد ملاحظة لا بد من متابعتها وكشفها، هي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

والسؤال هو: ما هو الإحسان؟ ومن هو المحسن؟ وكيف يكون الإنسان محسناً. وذلك أن معرفة الإحسان هي الوقود لهذه الرحلة التي بدأناها من اليوم بعد مشيئة الله سبحانه وتعالى.

فاطمة عليها السلام سيدة النساء وأفضلهن

* روايات المصادر:

● (صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق) في باب علامات النبوة في الإسلام روى بسنده عن عائشة قالت: أقبلت فاطمة -سلام الله عليها- تمشي مشيتها مشية النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: مرحباً بابنتي ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسر إليها حديثاً فبكت فقلت لها: لم تبكين؟ ثم أسر إليها حديثاً فضحكت فقلت: ما رأيت كالיום فرحاً أقرب من حزن، فسألتها عما قال، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ حتى قبض النبي ﷺ فسألتها، فقالت: أسر إلي: أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي فبكيت، فقال: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين؟ فضحكت لذلك.

هذا ورواه أحمد بن حنبل أيضاً في مسنده (٢٨٢/٦) وقال: سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين، ورواه ابن سعد أيضاً في طبقاته (٤٠/٢) وقال: سيدة نساء هذه الأمة أو نساء العالمين ورواه ابن الأثير أيضاً في أسد الغابة (٥٢٢/٥) وقال: سيدة نساء العالمين، ورواه النسائي أيضاً في خصائصه (ص ٣٤) وقال: سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين.

● (صحيح البخاري في كتاب الاستئذان) في باب من ناجى بين يدي الناس، روى بسنده عن عائشة قالت: إنا كنا أزواج النبي ﷺ عنده جميعاً لم تغادر منا واحدة، فاقبلت فاطمة -سلام الله عليها- تمشي ما تخطى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ فلما رآها رحب بها وقال: مرحباً بابنتي، ثم اجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم سارها فبكت بكاء شديداً، فلما رأى حزنها سارها الثانية فإذا هي تضحك فقلت لها: أنا من بين نسائه خصك رسول الله ﷺ بالسر من بيننا ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها عما سارها قالت:

ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره، فلما توفي قلت لها: عزمت عليك لما أخبرتني؟ قالت: أما الآن فنعم، فاخبرتني قالت: أما حين سارني في الأمر الأول فإنه أخبرني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة وأنه قد عارضني به العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري فإني نعم السلف أنا لك قال: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارني الثانية قال: يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة؟

هذا ورواه مسلم أيضاً في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة في باب فضائل فاطمة عليها السلام، وزاد: إنك أول أهلي لحوقاً بي، ورواه ثانياً في الباب المذكور بطريق آخر بغير زيادة، ورواه ابن ماجه أيضاً في صحيحه في باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ، وذكر الزيادة ورواه أبو داود الطيالسي أيضاً في مسنده (ج ٦) في أحاديث النساء وقال: سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة، ورواه أبو نعيم أيضاً في حليته (٢٩/٢) وقال أيضاً: سيدة نساء العالمين أو نساء هذه

الأمة، ثم ذكر طرقاتاً أخر عديدة لهذا الحديث، ورواه الطحاوي أيضاً في مشكل الآثار (٤٨/١-٤٩) بطريقين، ورواه النسائي أيضاً في خصائصه (ص ٣٤) وقال: سيدة نساء هذه الأمة وسيدة نساء العالمين.

● (صحيح الترمذي ٣٠٦/٢) في باب مناقب الحسن والحسين - عليهما السلام-، روى بسنده عن حذيفة قال: سألتني أمي متى عهدك؟ -تعني بالنبي ﷺ- فقلت: ما لي به عهد منذ كذا وكذا فقالت: متى فقلت لها: دعيني آتي النبي ﷺ فأصلي معه المغرب وأسأله أن يستغفر لي ولك، فأتيت النبي ﷺ فصليت معه المغرب فصلى حتى صلى العشاء ثم انفلت فتبعته فسمع صوتي فقال: من هذا حذيفة؟ قلت: نعم، وقال: وما حاجتك غفر الله لك ولأمك؟ قال: إن هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة استأذن ربه أن يسلم علي ويبشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة.

هذا ورواه الحاكم أيضاً في مستدرك الصحيحين (١٥١/٣) بطريقين مختصراً واقتصر فيهما على ذكر فاطمة عليها السلام، وقال في الثاني منهما: هذا حديث صحيح الإسناد، ورواه أحمد بن حنبل أيضاً في مسنده (٣٩١/٥) وأبو نعيم أيضاً في حليته (١٩٠/٤) وابن الأثير أيضاً في أسد الغابة (٥٧٤/٥)، والمتقي أيضاً في كنز العمال (٢١٧/٦) وقال: أخرجه الروياني وابن حبان في صحيحه عن حذيفة (وفي ص ٢١٨) وقال: أخرجه ابن عساكر عن حذيفة (وفي ١٠٢/٧) وقال: أخرجه ابن جرير عن حذيفة (وفي ص ١١١) واقتصر فيه على ذلك فاطمة عليها السلام وقال: أخرجه ابن أبي شيبه.



● (مستدرک الصحيحين ١٥٦/٣) روى بسنده عن عائشة أن النبي ﷺ قال: وهو في مرضه الذي توفي فيه: يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين وسيدة نساء هذه الأمة وسيدة نساء المؤمنين؟ قال: هذا اسناد صحيح.

● (حلية الأولياء لأبي نعيم ٤٢/٢) روى بسنده عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: فانطلقنا حتى إذا انتهينا إلى بابها فسلم واستأذن فقال: ادخل أنا ومن معي؟ قالت نعم ومن معك يا أبتاه، فوالله ما علي إلا عبادة فقال لها: اصنعي بها كذا واصنعي بها كذا فعلمها كيف تستتر، فقالت: والله ما على رأسي من خمار، قال: فأخذ ملاءة كانت عليه فقال: اختمري بها، ثم أذنت لهما فدخلتا، فقال: كيف تجدينك يا بنية؟ قالت: إني لوجعة وإنه ليزيدني أنه مالي طعام آكله، قال: يا بنية أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين؟ قالت: يا ابت فأين مريم ابنة عمران؟ قال: تلك سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك، أما والله زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة. هذا ورواه الطحاوي أيضاً في مشكل الآثار (٥٠/١) وزاد في آخره: ولا يبغضه إلا منافق، وذكره المحب الطبري أيضاً في ذخائره (ص ٤٣) وقال: خرجه الحافظ أبو القاسم الدمشقي وذكر الزيادة.

● (حلية الأولياء أيضاً ٤٢/٢) روى بسنده عن جابر بن سمرة قال: جاءني نبي الله ﷺ فقال: إن فاطمة وجعة فقال: القوم لو عدناها، فقام فمشى حتى انتهى إلى الباب والباب عليها مصفوق قال: فنادى شدي عليك ثيابك فإن القوم جاءوا يعودونك، فقالت: يا نبي الله ما عليّ عبادة، قال: فاخذ رداءه فرمى به إليها من وراء الباب فقال: شدي

بهذا رأسك، فدخل ودخل القوم فقعد ساعة فخرجوا، فقال القوم:
تالله بنت نبينا ﷺ على هذا الحال، قال: فالتفت فقال: أما إنها سيدة
النساء يوم القيامة.

● (خصائص النسائي ص ٣٤) روى بسنده عن أبي هريرة قال: ابطأ
علينا رسول الله ﷺ يوماً صبور النهار، فلما كان العشي قال له قائلنا:
يا رسول الله قد شق علينا لم نرك اليوم، قال: إن ملكاً من السماء لم
يكن زارني فاستأذن الله في زيارتي فأخبرني وبشرني أن فاطمة بنتي
سيدة نساء أمتي وأن حسناً وحسيناً سيّدا شباب أهل الجنة.

هذا وذكره المتقي أيضاً في كنز العمال (٢٢١/٦) وقال: أخرجه
الطبراني وابن النجار عن أبي هريرة.

● (كنز العمال ١١١/٧) قال: عن عائشة إن رسول الله ﷺ في
مرضه الذي قبض فيه قال: يا فاطمة يا بنتي أحني علي فأحنت عليه
فناجاها ساعة ثم انكشفت عنه تبكي وعائشة حاضرة، ثم قال رسول
الله ﷺ بعد ذلك ساعة أحني علي فأحنت عليه فناجاها ساعة ثم
انكشفت عنه تضحك فقالت عائشة: يا بنت رسول الله أخبريني بماذا
ناجاك أبوك؟ قالت: أوشكت رأيتُه ناجاني على حال سر ثم ظننت أنني
أخبر بسرّه وهو حي، فشق ذلك على عائشة أن يكون سرّ دونها فلما
قبضه الله إليه قالت عائشة لفاطمة -سلام الله عليها-: ألا تخبريني
ذلك الخبر؟ قالت: أما الآن فتعم، ناجاني في المرة الأولى فأخبرني أن
جبريل كان يعارضه القرآن في كل عام مرة وأنه عارضه القرآن العام
مرتين وأنه أخبره أنه لم يكن نبي بعد نبي إلا عاش نصف عمر الذي
كان قبله وأنه أخبرني أن عيسى عاش عشرين ومائة سنة ولا أراني إلا

ذاهب على رأس الستين، فأبكاني ذلك، وقال: يا بنية إنه ليس من نساء المؤمنين أعظم ذرية منك فلا تكوني أدنى من أمريء صبراً، ثم ناجاني في المرة الأخرى فأخبرني أنني أول أهله لحوقاً به، وقال: إنك سيدة نساء أهل الجنة، قال: أخرجه ابن عساكر.

● (مستدرك الصحيحين ١٨٥/٣) روى بسنده عن عائشة قالت لفاطمة بنت رسول الله ﷺ: ألا أبشرك أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيدات أهل الجنة أربع مريم بنت عمران، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وخديجة بنت خويلد وآسية.

● (كنز العمال ١١١/٧) قال: عن علي عليه السلام إن النبي ﷺ قال لفاطمة -سلام الله عليها-: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة وابنيك سيداً شباب أهل الجنة؟ قال: أخرجه البزار.

● (كنز العمال أيضاً ١٥٣/٦) ولفظه: أما ترضين أنني زوجتك أول المسلمين إسلاماً، وأعلمهم علماً، فإنك سيدة نساء أمتي كما سادت مريم قومها، أما ترضين يا فاطمة؟ أن الله اطلع على أهل الأرض فاختار منهم رجلين فجعل أحدهما أباك والآخر بعلك، قال: أخرجه الحاكم والطبراني والخطيب.

● (ذخائر العقبى ص ٤٤) قال: وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: أربع نسوة سيدات سادات عالمهن، مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وأفضلهن عالماً فاطمة -سلام الله عليها-، قال: أخرجه الحافظه الثقي الاصبهاني.

هذا وذكره السيوطي أيضاً في الدر المنثور في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

وقال: أخرجه ابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ.

● (مستدرك الصحيحين ٤٩٧/٢) روى بسنده عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ أربعة خطوط، ثم قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم (الحديث) قال: هذا حديث صحيح الإسناد.

هذا ورواه في موضع آخر أيضاً من مستدركه بطرق أخرى صحيحة عن ابن عباس، ورواه أحمد بن حنبل أيضاً في مسنده (٢٩٣/١) - ١٦- (٣٢٢) بطرق عديدة عن ابن عباس، ورواه ابن عبد البر أيضاً في استيعابه (٧٢٠/٢) بطريقين، وذكره السيوطي أيضاً في الدر المنثور في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ (٢).

وقال: أخرجه الطبراني، ورواه ابن الأثير أيضاً في أسد الغابة (٤٣٧/٥)، وذكره المحب الطبري أيضاً في ذخائره (ص ٤٢) وقال: أخرجه أحمد وأبو حاتم، وذكره ابن حجر أيضاً في إصابته (١٥٨/٨) وذكر في هذه الصفحة حديثاً عن عائشة ما رأيت قط أحداً أفضل من

(١) آل عمران/ ٤٢.

(٢) آل عمران/ ٤٢.

فاطمة -سلام الله عليها- غير أبيها وقال: أخرجه الطبراني، (انتهى) ورواه أبو عمرو أيضاً في استيعابه (٧٥٠/٢)، وذكره الهيثمي أيضاً في مجمعه (٢٢٣/٩) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ورجالهم رجال الصحيح، ورواه الطحاوي أيضاً في مشكل الآثار (٥٠/١) (وذكره العسقلاني) أيضاً في فتح الباري (٢٥٨/٧) وقال أخرجه ابن حبان وأحمد وأبو يعلى والطبراني وأبو داود في كتاب الزهد والحاكم (قال) وله شاهد من حديث أبي هريرة في الأوسط للطبراني ولأحمد في حديث أبي سعيد (وقال) في ص ٢٨٢ ما لفظه وعند النسائي بإسناد صحيح عن ابن عباس أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية.

● (الاستيعاب لابن عبد البر ٧٣٠/٢ و ٧٥٠) روى بطريقين عن أبي هريرة -واللفظ يطابق الموضع الأخير- قال: قال رسول الله ﷺ: خير نساء العالمين أربع، مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ (أقول) وذكره الهيثمي أيضاً في مجمعه (٢٢٣/٩) والثعلبي أيضاً في قصص الأنبياء (ص ٥١١) وقالوا: حسبك من نساء العالمين (إلى آخره).

● (كنز العمل ٢١٧/٦) ولفظه: خير رجالكم علي وخير شبابكم الحسن والحسين وخير نسائكم فاطمة، قال: أخرجه ابن عساكر عن ابن مسعود، (أقول) ورواه البغدادى أيضاً في تاريخه (٣٩١/٤).

● (فيض القدير للمناوي ٤٣٢/٣) في المتن: خديجة خير نساء عالمها، ومريم خير نساء عالمها، وفاطمة خير نساء عالمها، قال: أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن عروة بن الزبير، على أن روايات أهل البيت تؤكد أن فاطمة الزهراء عليها السلام إنما هي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.

● (تفسير ابن جرير ١٨٠/٣) روى بسنده عن ثابت البناني يحدث عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: خير نساء العالمين أربع، مريم بنت عمران. وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ.

● (صحيح الترمذي ص ٣١) في فضل خديجة، روى بسنده عن أنس أن النبي ﷺ قال: حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وآسية امرأة فرعون.

(أقول) ورواه الحاكم أيضاً في مستدرك الصحيحين (١٥٧/٣) بطريقين، قال في ثانيهما، هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، أحمد بن حنبل أيضاً في مسنده (١٣٥/٣)، وأبو نعيم أيضاً في حليته (٣٤٤/٢)، والطحاوي أيضاً في مشكل الآثار (٥٠/١)، ورواه الخطيب البغدادي أيضاً في تاريخه (١٨٤/٧ و ٤٠٤/٩) بطريقين وقال فيهما: خير نساء العالمين أربع (إلى آخره)، وابن الأثير أيضاً في أسد الغابة (٤٣٧/٥) وقال أيضاً: خير نساء العالمين (إلى آخره) وذكره ابن حجر أيضاً في تهذيب التهذيب (٤٤١/١٢) عن الشعبي عن جابر مرفوعاً، وابن عبد البر أيضاً في استيعابه (٧٢٠/٢) بطريقين قال في أحدهما: خير نساء العالمين، وذكره المتقي أيضاً في كنز العمال (٢٢٧/٦) وقال: أخرجه ابن حبان عن أنس، وذكره الفخر الرازي أيضاً في تفسيره الكبير في ذيل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

(١) ال عمران/ ٤٢.

ذكره بتقديم وتأخير، وذكره السيوطي أيضاً في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾

إلى آخره وقال: أخرجه ابن المنذر وابن حبان.

● (تفسير ابن جرير الطبري ١٨٠/٣) روى بسنده عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله كان يقول: حسبك بمريم بنت عمران، وامرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ من نساء العالمين.

● (تفسير ابن جرير أيضاً ١٨٠/٣) روى بسنده عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، (أقول) وذكره الزمخشري أيضاً في الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ (١).

(وذكره العسقلاني) أيضاً في فتح الباري ٢٥٨/٧ وقال أخرجه الطبراني وأخرجه الثعلبي في تفسيره.

● (السيوطي في الدر المنثور) في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٢).

قال: وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله اصطفى على نساء العالمين أربعاً، آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ.

(١) التحريم/ ١٢.

(٢) آل عمران/ ٤٢.

فاطمة عليها السلام في المحراب

● (الثعلبي في قصص الأنبياء ص ٥١٣) والزمخشري في الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ (١).

والسيوطي في الدر المنثور في ذيل تفسير الآية المذكورة نقلاً عن أبي يعلى أنه أخرج عن جابر واللفظ للثعلبي (قال) أخبرنا عبدالله بن حامد بإسناده عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يصب في بيت واحدة منهن شيئاً فأتى فاطمة -سلام الله عليها- فقال: يا بنية هل عندك شيء آكل فإني جائع؟ فقالت: لا والله بأبي أنت وأمي.

فلما خرج رسول الله ﷺ من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وبضعة لحم فأخذته منها ووضعته في جفنة وغطت عليه وقالت: لأوثرن بها رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبة من طعام فبعثت حسناً وحسيناً إلى جدهما رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله قد أتانا الله بشيء فخبأته لك قال: فهلمي به فأتى به فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً فلما نظرت إليه بهتت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله تعالى وصلت على نبيه فقال ﷺ: من أين لك هذا يا بنية؟ قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فحمد

(١) آل عمران/ ٣٧.

الله رسول الله ﷺ ، وقال: الحمد لله جعلك شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله رزقاً حسناً فسئلت عنه قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فبعث رسول الله ﷺ إلى علي عليه السلام فأتى فأكل الرسول ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين الطيبين وجميع أزواج النبي ﷺ حتى شبعوا وبقيت الجفنة كما هي، قالت فاطمة السجدة: وأوسعت منها على جميع جيراني وجعل الله فيها بركة وخيراً طويلاً، وكان أصل الجفنة رغيفين وبضعة لحم والباقي بركة من الله تعالى.

هذا وقد تم نظير هذا الحديث بل هو أبسط من هذا في فضائل علي عليه السلام في باب بعض كرامات علي عليه السلام وفيه قول النبي ﷺ لعلي وفاطمة (عليهما السلام): الحمد لله كما لم يخرجكما من الدنيا حتى يجريك في المجرى الذي أجرى فيه زكريا ويجريك يا فاطمة في المجرى الذي أجرى فيه مريم ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ إلى آخره.

● (الرياضة النضرة ٢٠٢/٢) قال: روى أبو سعيد في شرف النبوة أن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: أوتيت ثلاثاً لم يؤتهن أحد ولا أنا، صهراً مثلي ولم أوت أنا مثلي، وأوتيت زوجة صديقة مثل ابنتي ولم أوت مثلها زوجة، وأوتيت الحسن والحسين من صلبك ولم أوت من صلبي مثلهما، ولكنكم مني وأنا منكم.



الأمير الطاوي

كانت فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- تستعرض خصال وفضائل الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام حتى أنها -أي فاطمة- كانت تصور للعالم لون حكومة الإمام علي وطريقته في إدارة البلاد والعباد، في الحكومة والنظام ولهذا نستعرض هذه الكلمة كنموذج ومثال على ذلك حيث يقف أحد أصحاب الإمام ليصوره إلى العالم كله.

المعروف أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، له هيبة تساعده في التغلب على أعدائه، فهو فارس الفرسان وبطل عملاق، إذا ركب الفرس العالية فرجلاله تخطان في الأرض، وله سيماء الأنبياء، ونور المجاهدين.

يصفه أحد أصحابه لمعاوية: قال: «كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يتفجر العلم من جوانبه، وتتطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا، وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته. كان يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، وكان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفيه ويبكي. وكان يعظم أهل الدين، ويقرب الفقراء والمساكين.. لا يطمع فيه القوي، ولا ييأس منه الضعيف. وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استبأناه؛ ونحن مع تقريبه إيانا، وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له».

ثم يمضي ضرار في وصفه لخصال علي أمير المؤمنين، فيقول: «وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغلقت نجومه، يتململ تملل السليم ويبكي بكاء الحزين، ويقول: «يادنيا غري غيري، أليّ تشوفت أم بي تعرضت لا حان حينك، قد طلقك ثلاثاً لا

رجعة لي فيها، فعيشك قصير، وخطرک حقير، آه آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق...».

هذه هي صورة الإمام علي، كان إذا جن عليه الليل يتحول إلى دمة حارة، يطرق أبواب السماء باباً فباباً، يقول:

ما لي سوى قرعي بابك حيلة فإذا رددت فأني باب أقرع

ثم يقول: «آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها، وأنت محصيها، فتقول: «خذوه» فيا له من مأخوذ لا تتجي عشيرته» ثم يقع على الأرض مغمى عليه. وكأنه الخشبة اليابسة.

تلكم كانت صفات علي عليه السلام أما ما نقرأه في التاريخ من صفات علي، أنه كان قصيراً دحداً، ذا بطن كبير، في رأسه صلع، فإنها محض اختلاق، ليست من صفات علي في شيء. وذلك للأسباب التالية:

أولاً: لم يكن الإمام علي، قصيراً، ولا دحداً على الإطلاق فهو من بني هاشم، وبني هاشم ليس فيهم من هو قصير، ولا دحداً.

على أن كون الإنسان قصيراً ليس انتقاصاً له، ولا الطول مدحاً أو مكرمة للمرء، ولكن فقد أردت أن أدل على الحق الأملى الدفين الذي كانوا يضمرونه لعلي، بحيث لم يكتفوا بسبه وشتمه على المنابر علناً وعلى رؤوس الأشهاد، ولم يكتفوا بمنع الرواية عن علي وعدم ذكر اسمه، وإنما راحوا يشوهون حتى صورته الجسدية.

ولهذا أردت أن أثبت هنا بعض الشواهد، والأدلة التي تدل على أن

علياً كان بطلاً عملاقاً يركب الفرس المطهم حيث تخط رجلاه الأرض،
كما كان ولده أبو الفضل العباس كذلك.

ثانياً: أثبت الوراثة بالأرقام العلمية، أن أحسن حالات الطفل
الوراثية هو أن يأتي شبيهاً بأبويه. وعلي ولد بأحسن حالاته وكان
شبيهاً بأمه فاطمة بنت أسد، وأبيه أبي طالب، ونحن نعرف من التاريخ
أن أمه فاطمة بنت أسد، كانت امرأة طويلة لها هيبة وجلال، وأما أبوه
أبو طالب، فما مشى مع أحد إلا كان أطول منه؛ هكذا جاء في سيرة
أبي طالب، وحياته إذ كان شيخاً شريفاً في قومه، مطاعاً كريماً
مجرباً، له نور الأنبياء وسيماء الصالحين ولذلك لما مات أبو طالب
انهد ركن كبير من أركان الإسلام وقال جبرائيل للنبي ﷺ: يا رسول
الله العلي الأعلى يقرئك السلام ويقول لك: اخرج من مكة فلقد مات
فيها ناصرك، فخرج إلى المدينة، وكان يقول: ما نالت مني قريش إلا
بعد موت عمي أبي طالب.. شيخ الإيمان، وزعيم البطحاء.

أجل فقد أكدت كتب التاريخ، وكل ما كتب في شخصية أبي طالب
أنه كان عملاقاً طويلاً ذا مهابة وجلال. وهذا هو شأن أعمام النبي
ﷺ حيث كانوا جميعاً طوال القامة، عمالقة، أبطالاً بدءاً بالعباس بن
عبدالمطلب، ومروراً بالحمزة أسد الله، وأسد رسوله، وانتهاءً بأبي
طالب حامي الرسول وناصره بيده ولسانه وقلبه.

إذاً: فوفقاً للمألوف، وحسب ما جرت عليه عادة قانون الوراثة، وما
دلت عليه التجارب، فإن علياً كان طويلاً عملاقاً، وليس قصيراً
دحداحاً، كما يحلو لبعض الكتاب أن يصوروه.

ثالثاً: كل أبناء الإمام علي، كانوا يتمتعون بطول القامة، والأبدان الفارعة الطويلة، فهذا الإمام الحسن عليه السلام كان طويلاً مهيباً، وكذلك كان الإمام الحسين عليه السلام فقد ذكر المؤرخون أنه كان طويلاً وسيماً وجميلاً، له نور يتلألأ في الليلة الظلماء في جبهته. والشئ نفسه يقال بالنسبة للعباس وإخوته الذين هم من فاطمة أم البنين، فقد ذكر التاريخ الصحيح، أن العباس، كان يركب الفرس المطهم فتخط رجلاه الأرض، تماماً كأبيه علي.

وما يقال في العباس وإخوته يقال في محمد بن الحنفية، وإخوته أيضاً. وما ينطبق على الحسن والحسين، والعباس، ينطبق على الحوراء زينب، فكل المؤرخين ذكروا في أحوال السيدة زينب -سلام الله عليها- أنها كانت طويلة ذات هيبة وسلطان، إذا تكلمت فكأنما تفرغ عن لسان أبيها أمير المؤمنين.

رابعاً: في حرب صفين، كان الإمام علي يحمل على الميمنة، وكان مالك الأشتر يحمل على الميسرة، فإذا غاص علي في أوساط الحرب قلب اليمين على الشمال على القلب، حتى حار أهل الشام، واشتبه عليهم الأمر، فلم يعد الواحد منهم يفرق بين الإمام علي، وبين مالك الأشتر، فكانوا لا يميزون بينهما، لأنهما -أي الإمام علي ومالك- كانا يتشابهان في الطول - وهذا التشابه بين أمير المؤمنين، ومالك الأشتر، الذي كان يحير أهل الشام ويدوخهم، لهو أكبر دليل على أن أمير المؤمنين علياً، ما كان قصيراً، ولا دحداحاً، وذلك أن مالكاً الأشتر كان طويلاً وعملاقاً وحين يشتبه الأمر على الناس بين علي ومالك فإن ذلك يعني تكذيب افتراءات الأمويين ورواياتهم المختلقة التي تصف علياً بالقصير الدحداح.

خامساً: في حرب صفين نفسها كان علي يرتدي ملابس أبطال آخرين وينزل للحرب، حتى يقابله أهل الشام لأنهم كانوا يهريون منه في ساحات القتال. وارتداؤه للملابس الأبطال الذي كانوا في معسكره يدل بوضوح على طول جسمه الشريف وأنه كان عملاقاً يقتلع الأقران الشجعان من على صهوات خيولهم، ويجلد بهم الأرض، فيتركهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

سادساً: كما جاء في صفات علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان أقرأ الظهر، عريض الصدر، والمقروء الطويل الظهر، فظهر طويل، وصدر عريض وعنق كأنه إبريق فضة في طوله وجماله، ثم جاء في صفاته أنه كان محض المتن، لا يبين عضده من ساعده، قد أدمجت إدماجاً، عبل الذراعين، عريض المنكبين، (وأقرأ الظهر، معناها طويل الظهر كما جاء في تاج العروس، والمحيط للفيروز آبادي). فرجل هذه صفاته، لحق، أن تهابه الفرسان، وتفر من بين يديه الشجعان.

سابعاً: أما مسألة البطن، وأنه كان كبير البطن، فلا نصيب لها من الصحة، إذ كيف يكون ذا بطن كبير، من كان يطوي الليالي والأيام جائعاً، وينام طاوياً ليس في جوفه شيء من الطعام، خشية أن يكون في الحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع؟.

وتعالوا نسمع بطل الإنسانية الخالد ماذا يقول في طعامه، وحياته: يقول: «وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران، ومنازلة الشجعان، ألا وإن الشجرة البرية أقوى عوداً، والروائح الخضرة أرق جلوداً، والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً، وأنا من أحمد كالضوء من الضوء، أو الذراع من العضد، والله لو تظاهرت العرب على قتالي ما وليت عنها».



ويقول في مكان آخر: «ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة، من لا طمع له بالقرص، ولا عهد له بالشبع».

ثم يقول: «أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داءً أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد

فأين من هذا العظيم، كبر البطن، والبطنة؟.. علي ذلك العظيم الذي كان يأكل كسرة خبز يابسة، ثم يشفعها بشيء من حشائش الأرض، ويقول: تعساً لمن أدخله بطنه النار، ثم يقول:

«وأيم الله لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص مطعوماً، وتقبل بالملح مأدوماً، ولادعن مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها؛ أتمتلىء السائمة من عشبها فتبرك، وتشبع الريضة من رعيها فتهجع، ويأكل علي من زاده فيهجع، قرت إذا عينه».

هذه هي مواصفات علي عليه السلام حتى المغيرة عندما يصف علياً، يقول: «كان علي على هيئة الأسد» أما هذا التشويه الذي ورد في التاريخ حول صفاته البدنية فمصدره بنو أمية، وبالتحديد عمرو بن العاص ومعاوية.

يقول العلامة المجلسي في البحار: «كتب أحد المؤرخين كتاباً يصف فيه علياً أمير المؤمنين عليه السلام، وكان ذلك أيام حكم عمرو بن العاص في مصر، وكان ذلك الكاتب قد وضع تلك المواصفات في حلية، فأخذها

عمرو بن العاص، -فزَمَ بأنفه وقطعه، ثم أخذ ورقة وقلماً وكتب: «إن أبا تراب كان شديد الأدمة، عظيم البطن. حمش الساقين، أصلع، قصيراً دحداحاً».

هكذا أراد عمرو بن العاص أن يصور علياً، ولكن الحقيقة هي الحقيقة، وعلي هو علي ليس في إمكان عمرو بن العاص، ولا في إمكان أحد سواه أن يغير من صفات علي وسيرته ذرة واحدة.

ولعلك تسأل: كيف ذلك والإمام علي، كان قد اشتهر بالأنزع البطين. فكيف نوفق بين هذا الوصف وما سبقه من بحث؟. وهذا صحيح، ولكن ماذا تعني كلمة الأنزع البطين بالنسبة لعلي أمير المؤمنين؟

إن الأنزع. هو يَبِينُ النزع، أي واضح النزع، وهو الذي انحسر الشعر قليلاً عن جانبي جبهته. أما البطين فهو كبير البطن، ولكن الكلمة تأتي هنا بالمعنى المفاير لمعناها تماماً كما نقول للأعمى بصيراً، وفي الحقيقة ليس الأعمى كالבصير، غير أننا نطلق كلمة البصير على الأعمى لتعطي معناها المعاكس، وهكذا عندما نقول: الأنزع البطين، فإننا نشير إلى ضمور بطنه وجوعه الدائم أسوة للفقراء والمعذبين في الأرض، وقد أشار إلى ذلك في نهج البلاغة حيث يقول: «أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، وما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها».

وما أروع الجواهري، الشاعر الكبير، عندما التفت إلى هذا الجانب في حياة علي فصوره تصويراً دقيقاً، من خلال خطابه لأبي عبد الله الحسين عليه السلام في قصيدته العينية إذ يقول فيها:



فيا ابن البتول وحسبي بها ضماناً على كل ما أدعي
ويا ابن التي لم يضع مثلها كمثلك حملاً ولا يرضع
ويا ابن البطيين بلا بطنة ويا ابن الفتى الحاسر الأنزع

ألا ما أروع الشعر بهذا المستوى، وكيف استطاع الشاعر أن يتناول هذه الخصلة، ويصورها تصويراً دقيقاً بحيث يبدو الشاعر هنا، وكأنه اختار الكلمات التي تعبر عن الفكرة، بعناية فائقة.. هذا وقد تألق الشاعر هنا تألقاً رائعاً في وصفه للإمام علي بأنه بطين بلا بطنة، وأنه حاسر أنزع:

فيا ابن البطيين بلا بطنة ويا ابن الفتى الحاسر الأنزع

ثامناً: على هذه الصفة أو هذه الكلمة بالأحرى، تشير إلى صفة من صفات الإمام علي النفسية، وليس الجسدية.. ألا وهي كلمة الأنزع البطين. إنها تكشف عن حقيقة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بشكل واضح وجلي. فماذا يعني الأنزع هنا؟ الأنزع معناه الذي نزعته نفسه نزوعاً إلى الحسنات والمكرمات، ونزعته نفسه نزوعاً عن السيئات، وطرق الشيطان، وامتلاً علماً فلقب بالبطين، وأظهر بعضاً وأبطن بعضاً.^(١)

أما ما ظهر من علومه، فأشهر من الصباح وأما ما بطن فقد قال: «بل اندمجت على مكنون علم لو بحث به، لاضطربت اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة» أي اضطراب الحبل في البئر العميقة.

(١) البحار ٢/٣٥.

وكان يقول: «يا كميل إن ها هنا لعلماً جمماً لو أصبت له حمله...»..

وكان يقول: «لو تثيت لي الوسادة لافتيت أهل الزبور بزيورهم، وأهل التوراة بتوراتهم، وأهل الإنجيل، بإنجيلهم وأهل القرآن بقرآنهم، ولقال كل منهم: «لقد أفتاكم علي بن أبي طالب».

وقد وصفه أصحابه وأحبته، فأبدعوا في الوصف، فقالوا: «كان حسن الوجه، كأنه القمر ليلة البدر، حسناً، وكان عريض المنكبين، أغيد، كأن عنقه إبريق فضة (لطوله وجماله). لمنكبه مشاش كمشاش السبع الضاري لا يبين عضده من ساعده، وقد أدمجت إدماجاً، إن أمسك بذراع رجل أو فارس، أمسك بنفسه، فلم يستطع أن يتنفس...» كان شديد الساعد واليد إذا مشى إلى الحرب هرول، ثبت الجنان، قوي شجاع منصور على من لاقاه».

ويقول الشاعر:

من كان في حرم الرحمن مولده وحاطه الله من بأس وعدوان

ومن تصدق في حال الركوع ولم يسجد كما سجدت قوم لأوثان^(١)

ملاحظة: على أن هناك كلمة مذورة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في تفسير قوله تعالى: وزاده الله بسطة في الجسم والعلم اقرءوا الآية بالنص في سورة البقرة حول طالوت الذي قاتل الجبابرة أقول هناك كلمة لعلني تفيد أنه كان طويلاً لأنه كان يقول ما معناه: هل زاد الله معاوية بسطة في الجسم أكثر مني.. الخ. أقول نقلت معنى الحديث وليس النص.

(١) بحار الأنوار ٤/٣٥.

بين علي وفاطمة قاسم مشترك

قال الحاكم في المستدرک ٤٨٣/٣: «وقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في جوف الكعبة».

وحكى الحافظ الكنجي الشافعي في (الكفاية) من طريق ابن النجار عن الحاكم النيسابوري أنه قال: «ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بمكة في بيت الله الحرام، ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله الحرام، سواء، إكراماً له بذلك، وإجلالاً لمحلّه، في التعظيم، .. وأجمع المؤرخون في كلمة واحدة: أن فاطمة بنت أسد، ولدت أمير المؤمنين في جوف الكعبة، فإنه ولد يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب، بعد عام الفيل، بثلاثين سنة في الكعبة، ولم يولد فيها أحد سواء، قبله ولا بعده»^(١). على أن هناك قاسماً مشتركاً بين ولادة الإمام علي وولادة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام بل حتى في طريقة الدفن بعد الوفاة نجد أمير المؤمنين قد شارك الزهراء في كونه أوصى باخفاء قبره كما هي أوصت باخفاء قبرها.

(١) البحار ٥/٣٥.

فزت ورب الكعبة

«فزت ورب الكعبة».. هي أول كلمة قالها عند نزول السيف على رأسه وهو في حال السجود، فلم يعهد من علي أنه استعمل هذا القسم، إلا في هذا المورد وبهذه اللحظة التي تلقي فيها الضربة من عدو الله ابن ملجم المرادي..

وبشيء من التأمل ندرك العلاقة الوثيقة التي يكشفها علي عليه السلام بين هذه الكلمة وبين ولادته في الكعبة، فكأنه يريد أن يقول: إن حياته التي انطلقت من الكعبة، لم تخالف رب الكعبة، حتى ولا بقدر طرفة عين، ولهذا يقول: «فزت ورب الكعبة»، وهي إشارة رائعة إلى بداية حياته، وختامها، فقد بدأت بالمحراب، وانتهت بالمحراب...

ولكن هل الشهادة بهذا الشكل تعتبر نهاية؟ كلا وألف كلا. إنها فوز عظيم، لأن فيها انتصاراً، وفوزاً، وظفراً وفلاحاً، وتلكم كانت حياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولهذا قال: «فزت ورب الكعبة».. فذكرنا قسمه هذا ببداية حياته ببطن الكعبة وبقصة مولده تلكم القصة المقدسة.

الطريق إلى بيت فاطمة عليها السلام

وذات مرة جاءته امرأة قالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي ظلمني، وأخافني وأخرجني من الدار.

فقال: «يا أمة الله اصبري حتى يبرد النهار، ثم أذهب معك».

فقالت: يشتد غضبه علي وأين أذهب؟

فقال الإمام: أين منزلك؟

فأشارت إليه.

فجاء بها إلى دارها، ثم طرق الباب، فخرج شاب من الدار في عنفوان الطيش والتكبر.. وهو لا يعرف أن هذا الرجل الذي جاء مع زوجته، هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وذلك أن الإمام كان حديث عهد بالكوفة، زد على ذلك أنه كان متواضعاً في ملبسه ومأكله وسيرته فلا يبدو عليه أي أثر يدل على السلطة والأبهة...

فقال علي للشاب: اتق الله يا عبدالله فإنك قد أخفتها، وأخرجتها.

فقال الشاب: وما أنت وذاك، والله لأضربنها ولأحرقنها بالنار!

فقال علي في غضب: أمرك بالمعروف وأنهاك عن المنكر، وتستقبلني بالمنكر، وتتكبر المعروف.

فاقبل الناس يلقون التحية على الإمام، فأسف الشاب وهو يقول: «يا أمير المؤمنين أقلني عثرتي فوالله لأكونن لها أرضاً تطأني».



فقال لها: «يا أمة الله ادخلي منزلك، ولا تلجئي زوجك إلى مثل هذا».

وكأنه ينقل هدوء بيت فاطمة إلى هذه البيوت التي تضج بالمشكلات وتعصف بها التيارات.



في بيت فاطمة

احلال الأمن واطعام الطعام

وهذه تأملات في كلام أمير المؤمنين علي -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام-، وفي قوله: «آه.. آه.. من قلة الزاد..». لنرى من خلالها بيت فاطمة وبعد فماذا تعني هذه الكلمة؟.. وهل علي هو في الحقيقة قليل الزاد في الآخرة؟.. وبشيء من التأمل، والتفكر بهذه الكلمة نصل إلى الحقائق التالية:

أولاً: أن الإمام أمير المؤمنين، يريد أن يقول: إن زاد الدنيا مهما عظم وكبر، فإنه يظل قليلاً بالنسبة لعطاء الله للإنسان في الآخرة.

ثانياً: أن مساحة العمر في الدنيا، لا تقي بكل العطاء هناك أعني في الآخرة، بل إن مساحة العمر في الدنيا لا توازي الخلود في الآخرة، وإنما الخلود هناك والنعيم إنما هو رحمة من الله للإنسان، وليس باستحقاق الإنسان.

ثالثاً: أن هذه الكلمة تشير إلى عظمة الإمام المعصوم، فإنه مهما عمل، فإن عمله حسب موازين الحياة يعتبر قليلاً، بالنسبة لمقام الإمام المعصوم، ولذلك نجد الحق يزن عمل المعصوم بموازين السماء بموازينه هو، وليس بموازين الأرض؛ فمثلاً الضربة الواحدة من الإمام علي، في سبيل الله، حين يزنها الحق بموازين السماء، تصبح أفضل من أعمال الثقلين، وعبادة الإنس والجن إلى يوم القيامة، فيقول الرسول الأعظم

محمد ﷺ: ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين فيمد الله سبحانه في عمل المعصوم وذلك لعظم نفسه، وكبر روحه، وشموخ مقامه عند الله عز وجل. ويرتفع عمل المعصوم، حتى يصل رغبة الخبز الذي يعطيه للسائل، يصل إلى درجة تقتضي نزول سورة كاملة في القرآن الكريم، كما في سورة الدهر، وفي قوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ﴾.

وكذلك الخاتم الذي يتصدق به في الصلاة يتحول إلى مستمسك للولاية الربانية التي أودعها الله في المعصوم -سلام الله عليه-.

رابعاً: إن هذه الكلمة يريد بها الإمام من باب التوجيه، والتربية بمعنى أنه يريد أن يوجه الناس نحو العمل الصالح، والتربية الصحيحة، تربية للإنسان العامل، حتى لا يتسرب الغرور إلى رأسه ويتصور أنه فوق الناس جميعاً بكثرة العمل. إنه يحثنا على مزيد من التواضع، والنظر إلى العمل على أنه قليل مهما كبر وعظم.

تقبيل فاطمة يثير غضب عائشة

فهذا رسول الله ﷺ يقبل فاطمة ويقول: إني أشم منها رائحة الجنة، وذلك لأنها خلقت من الجنة، من شجرة طوبى وكذلك ابنائها الهداة، فقد جاء في بحار الأنوار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن نطفة الإمام من الجنة، وإذا وقع من بطن أمه إلى الأرض وقع وهو واضع يده إلى الأرض رافع رأسه إلى السماء، قلت جعلت فداك ولم ذاك قال عليه السلام: لأن منادياً يناديه من جو السماء من بطنان العرش من الأفق الأعلى: يا فلان بن فلان أثبت فإنك صفوتي من خلقي، وعيبة علمي ولك ولمن تولاك أوجبت رحمتي، ومنحت جناني، وأحلك جوارِي.

ثم وعزتي وجلالي لأصلين من عاداك أشد عذابي، وإن أوسعت عليهم في دنياي من سعة رزقي، قال: فإذا انقضى صوت المنادي، أجابه هو: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

فإذا قالها أعطاه الله العلم الأول والعلم الآخر واستحق زيادة الروح في ليلة القدر. (٢)

أقول: في هذا الحديث عن الإمام الصادق، إشارة لعدد من المسائل التي تحتاج إلى بعض التوضيح. منها:

(١) آل عمران/ ١٨.

(٢) راجع بحار الأنوار ٣٧/٢٥.

- ١ - إن نطفة المعصوم من الجنة.
- ٢ - إن الله سبحانه وتعالى يختار المعصوم دون الخلق جميعاً.
- ٣ - إن المعصوم هو أعلم أهل زمانه.
- ٤ - رحمة الله وجنته وجواره، وجبت للإمام ولمن تولاه.
- ٥ - العذاب من نصيب كل من يعادي الإمام المعصوم.
- ٦ - ما المقصود بالعلم الأول والعلم الآخر؟

إن كون نطفة المعصوم من الجنة، هو أمر يؤكد ما ورد من روايات وأحاديث نبوية شريفة. فعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «كان النبي صلى الله عليه وآله يكثر تقبيل فاطمة عليها السلام فعاتبته على ذلك عائشة. فقالت: يا رسول الله إنك لتكثر تقبيل فاطمة! فقال لها: إنه لما عرج بي إلى السماء مر بي جبرائيل على شجرة طوبى فتناولني من ثمرها فأكلته، فحول الله ذلك ماءً إلى ظهري فلما أن هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة، فما قبلتها إلا وجدت رائحة شجرة طوبى منها».

وإذا كانت نطفة المعصوم من الجنة، أصبح من السهل علينا أن نفهم معنى أن الله سبحانه وتعالى يختار المعصوم دون الخلق جميعاً فضلاً عن أن الإمام المعصوم أنيط به عمل رسالي فيه هداية الناس وتوضيح دينهم.

وعلى هذا يجب أن يكون المعصوم أعلم أهل زمانه، فمن لم يكن كذلك كيف يتأتى له تعليم الناس أمور دينهم وآخرتهم. ومن هنا كان المعصوم عيبة العلم الإلهي الذي يحتاجه في عملية هداية الناس إلى سواء السبيل.

وبناء على ذلك أصبح من الطبيعي أن يشمل الله سبحانه وتعالى برحمته الإمام المعصوم وأن تجب له جنته وأن يكون إلى جواره عز وجل، وهذه الرحمة والجنة والجوار، لم تجب للإمام فقط، وإنما لكل من تولاها من المؤمنين فسار على هديه وتعاليمه وفي ذلك نجاة له.

كما أصبح من الطبيعي أيضاً بل من البديهي أن يكون العذاب الإلهي من نصيب كل من يناصب الإمام المعصوم العداء. فقد أقسم الله عز وجل بعزته وجلاله بأن يصلي من عادى الإمام أشد عذابه وإن أوسع عليهم في الدنيا من سعة الرزق، فلا تعارض في ذلك لأن كثرة الرزق ليس دليلاً على الرحمة لأن الله سبحانه إنما يترك بعض الناس في ضلالهم يعمهون.

أما في بيان المقصود من العلم الأول والعلم الآخر فقد ورد في بحار الأنوار للمجلسي: «لعل المراد بالعلم الأول علوم الأنبياء والأوصياء السابقين، وبالعلم الآخر علوم خاتم الأنبياء، أو بالأول العلم بأحوال المبدأ وأسرار التوحيد وعلم ما مضى وما هو كائن في النشأة الأولى والشرائع والأحكام، وبالأخر العلم بأحوال المعاد والجنة والنار وما بعد الموت من أحوال البرزخ وغير ذلك، والأول أظهر»^(١).

(١) البحار ٣٨/٢٥.

في خصال زوج فاطمة

عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله أعطاني في علي سبع خصال:

* هو أول من ينشق عنه القبر معي.

* وهو أول من يقف معي على الصراط فيقول للنار خذي ذا وذري ذا.

* وأول من يكسى إذا كسيت.

* وأول من يقف معي على يمين العرش.

* وأول من يقرع معي باب الجنة.

* وأول من يسكن معي في عليين.

* وأول من يشرب معي من الرحيق المختوم «ختامه مسك وفي ذلك

فليتافس المتافسون».

يا فاطمة هذا ما أعطاه الله علياً في الآخرة وأعد له في الجنة إذا

كان في الدنيا لا مال له. ^(١)

(١) البحار ٤٣/١٠٠.

ملاح من زواج فاطمة عليها السلام

جاء في بحار الأنوار «أن رسول الله ﷺ كان يصلي في المريد بأصحابه، والمريد كان ليتيمين. فقال لأسعد بن زرارة: اشتر هذا المريد من أصحابه، فساوم اليتيمين عليه فقالا: هو لرسول الله، فقال رسول الله ﷺ: لا إلا بثمان، فاشتراه بعشرة دنانير، وكان فيه ماء مستقع، فأمر به رسول الله فسيل، وأمر باللبن فضرب، فبناه رسول الله ﷺ فحفره في الأرض، ثم أمر بالحجارة فنقلت من الحرة^(١)، فكان المسلمون ينقلونها، فأقبل رسول الله ﷺ يحمل حجراً على بطنه، فاستقبله أسيد بن حضير فقال: يا رسول الله أعطني أحمله عنك، قال: لا، إذهب فاحمل غيره، فنقلوا الحجارة ورفعوها من الحفرة حتى بلغ وجه الأرض، ثم بناه أولاً بالسعيدة: لبنة لبنة، ثم بناه بالسमित وهو لبنة ونصف، ثم بناه بالأنثى والذكر: لبنتين مخالفتين، ورفع حائطه قائمة، وكان مؤخره مائة ذراع، ثم اشتد عليهم الحر فقالوا يا رسول الله لو أظلمت عليه ظلاً، فرفع ﷺ أساطينه في مقدم المسجد إلى ما يلي الصحن بالخشب. ثم ظلله وألقى عليه سعف النخل فعاشوا فيه، فقالوا: يا رسول الله لو سقفت سقف، قال: لا عريش كعريش موسى الأمر أعجل من ذلك، وابتنى رسول الله ﷺ منازل ومنازل أصحابه حول المسجد، وخط لأصحابه خططاً، فبنوا فيه منازلهم، وكل شرع منه باباً إلى المسجد وخط لحمزة وشرع بابه إلى المسجد، وخط لعلي

(١) الحرة بالفتح: الأرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار.

بن أبي طالب ﷺ مثل ما خط لهم، وكانوا يخرجون من منازلهم فيدخلون المسجد، فنزل عليه جبرائيل فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تأمر كل من كان له باب إلى المسجد أن يسده، ولا يكون لأحد باب إلى المسجد إلا لك ولعلي ﷺ، ويحل لعلي فيه ما يحل لك، فغضب أصحابه وغضب حمزة وقال: أنا عمه يأمر بسد بابي، ويترك باب ابن أخي وهو أصغر مني، فجاءه فقال: يا عم لا تغضب من سد بابك وترك باب علي فوالله ما أنا أمرت بذلك ولكن الله أمر بسد أبوابكم وترك باب علي، فقال: يا رسول الله رضيت وسلمت لله ولرسوله.

قال: وكان رسول الله ﷺ حيث بنى منزله كانت فاطمة عليها السلام عنده، فخطبها أبو بكر فقال رسول الله: انتظر أمر الله، ثم خطبها عمر فقال: مثل ذلك، فقل لعلي ﷺ: لم لا تخطب فاطمة؟ فقال: والله ما عندي شيء، فقل له: إن رسول الله ﷺ لا يسألك شيئاً، فجاء إلى رسول الله ﷺ فاستحى أن يسأله، فرجع ثم جاء في اليوم الثاني فاستحى فرجع، ثم جاء في اليوم الثالث فقال له رسول الله ﷺ يا علي ألك حاجة؟ قال: بلى يا رسول الله، فقال: لعلك جئت خاطباً؟ قال: نعم يا رسول الله، قال له رسول الله: هل عندك شيء يا علي؟ قال: ما عندي يا رسول الله شيء إلا درعي، فزوجه رسول الله اثنتي عشرة أوقية ونش^(١) ودفع إليه درعه، فقال له رسول الله ﷺ: هب من منزلاً حتى تحول فاطمة إليه، فقال علي ﷺ: يا رسول الله ما هنا منزل إلا منزل حارثة بن النعمان وكان لفاطمة عليها السلام يوم بنى بها أمير المؤمنين ﷺ تسع سنين، فقال رسول الله ﷺ: والله لقد استحينا من

(١) النش بالفتح: النصف.

حارثة بن النعمان قد أخذنا عامة منازلها، فبلغ ذلك حارثة فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنا ومالي لله ولرسوله، والله ما شيء أحب إلي مما تأخذه والذي تأخذه أحب إلي مما تتركه، فجزاه رسول الله ﷺ خيراً، فحولت فاطمة إلى علي عليه السلام في منزل حارثة، وكان فراشهما إهاب^(١) كبش جعلاً صوفه تحت جنوبهما.

قال: وكان رسول الله ﷺ يصلي إلى بيت المقدس مدة مقامه بمكة، وفي هجرته حتى أتى له سبعة أشهر^(٢)، فلما أتى له سبعة أشهر عيرته اليهود وقالوا له: أنت تابع لنا تصلي إلى قبلتنا، ونحن أقدم منك في الصلاة، فاغتم رسول الله ﷺ من ذلك، وأحب أن يحول الله قبلته إلى الكعبة، فخرج في جوف الليل ونظر إلى آفاق السماء ينتظر أمر الله، وخرج في ذلك اليوم إلى مسجد بني سالم الذي جمع فيه أول جمعة كانت بالمدينة، وصلى بهم الظهر هناك بركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة، ونزل عليه ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ الآيات^(٣).

(١) الإهاب، الجلد. أو ما لم يدبغ به.

(٢) اختلف في تاريخ تحويل القبلة إلى الكعبة، روى علي بن إبراهيم: سبعة أشهر بعد مهاجرة النبي ﷺ، وقال ابن إسحاق: صرف في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمة المدينة، وهو المروي عن ابن عباس، واختاره اليعقوبي في تاريخه، ثم قال: وقيل: بسنة ونصف. وروي عن أنس بن مالك تسعة أشهر أو عشرة أشهر، وعن معاذ بن جبل ثلاثة عشر شهراً. راجع مجمع البيان ٢٢٣/١ وسيرة ابن هشام ١٧٦/٢ وتاريخ اليعقوبي ٣١/٢.

(٣) راجع بحار الأنوار ١١/١٩-١١٤.

أقول:

في هذه الرواية مجموعة من الأبحاث والمسائل. هي على التوالي:

- ١ - بناء المسجد النبوي في المدينة المنورة.
- ٢ - إغلاق الأبواب على المسجد جميعاً باستثناء باب الإمام علي عليه السلام.
- ٣ - زواج علي من الزهراء -عليهما السلام- إنما كان بأمر إلهي.
- ٤ - التحول بالقبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة -حرسها الله تعالى-.

ولكن ما يعنينا من هذه الأبحاث بالدرجة الأولى هو تزويج الزهراء -سلام الله عليها- من الإمام علي عليه السلام. فقد تواترت الأحاديث الشريفة والروايات عن أهل البيت عليهم السلام وعن صحابة رسول الله الأبرار، تؤكد هذه الحقيقة التي لا يرقى إليها الشك.

فقد ورد في البحار عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عن أبيه، عن آبائه، عن علي عليه السلام، قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا علي لقد عاتبني رجال من قريش في أمر فاطمة وقالوا: خطبناها إليك فمنعتنا وزوجت علياً؟ فقلت لهم: والله ما أنا منعتكم وزوجته، بل الله منعكم وزوجه؛ فهبط عليٌّ جبرائيل فقال يا محمد إن الله جل جلاله يقول: لو لم أخلق علياً لما كان لفاطمة ابنتك كفو على وجه الأرض، آدم فمن دونه^(١).

(١) البحار ٩٢/٤٣.

والجدير ذكره أنه كان ممن خطب الزهراء عليها السلام إلى النبي ﷺ، أبو بكر وعمر، فقال رسول الله ﷺ لكل منهما: انتظرا أمر الله.

وإذا كان هذا الحدث الهام قد أقيمت لمناسبته احتفالات اتسمت بالبساطة على الأرض، فقد كان له في السماء وقع آخر. فقد روي عن علي بن موسى، عن آبائه، عن علي عليه السلام قال: لما زوجني النبي ﷺ فاطمة قال لي: أبشر، فإن الله قد كفاني ما همني من أمر تزويجك. قلت: وما ذاك؟ قال: أتاني جبرائيل بسنبلة من سنابل الجنة وقرنفلة من قرنفلها، فأخذتهما وشممتهما وقلت: يا جبرائيل ما شأنهما؟ فقال: إن الله أمر ملائكة الجنة وسكانها أن يزينوا الجنة بأشجارها وأنهارها وقصورها ودورها وبيوتها ومنازلها وغرفها، وأمر الحور العين أن يقرأن (حمسق) و (يس)، ونادى مناد يقول: إن الله يقول: إني قد زوجت فاطمة بنت محمد من علي بن أبي طالب. ثم بعث الله سبحانه فأمطرت عليهم الدرّ والياقوت واللؤلؤ والجوهر، ونثرت السنبيل والقرنفل. فهذا مما نثر على الملائكة ^(١).

وفي «ينابيع المودة» عن أبي أيوب الأنصاري قال: إن النبي ﷺ مرض، فأتته فاطمة -سلام الله عليها- وبكت، فقال: يا فاطمة إن لكرامة الله إياك زوجك من هو أقدمهم سلماً، وأكثرهم علماً، إن الله تعالى أطلع إلى أهل الأرض اطلاعة فاخترني منهم، فجعلني نبياً مرسلاً، ثم أطلع اطلاعة ثانية فاختر منهم بعلك، فأوحى إلي أن أزوجه إياك واتخذه وصياً. يا فاطمة، منا خير الأنبياء وهو أبوك، ومنا خير الأوصياء، وهو بعلك، ومنا خير الشهداء وهو حمزة عم أبيك،

(١) راجع «دلائل الإمامة» للطبري ص ١٩-٢٠.



ومنا من له جناحان يطير بهما في الجنة حيث شاء وهو جعفر ابن عم أبيك، ومنا سبطا هذه الأمة وسيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين وهما إبناك. والذي نفسي بيده منا مهدي هذه الأمة وهو من ولدك^(١).

أو يسأل بعد ذلك سائل، لماذا زوج النبي ﷺ علياً من ابنته الزهراء -عليهما السلام-، ولماذا كانت المشيئة الإلهية والتدبير السماوي بشأن هذا الزواج، ولماذا أمر النبي ﷺ بسد الأبواب جميعاً على المسجد النبوي إلا باب علي عليه السلام؟.

فإذا كان الله سبحانه يدبر أمراً من هذا القبيل، أفتبقى حاجة لتدبير بشري بعده؟ لقد سد النبي سائر الأبواب بما فيها باب خير الشهداء حمزة، لأن علياً هو باب مدينة العلم التي لا تؤتى إلا منه، ومنه فقط. لا من أي باب آخر أو أي نافذة من النوافذ.

(١) راجع «ينابيع المودة» ص ٤٣٦.

فاطمة تؤثر على نفسها

ولو كان بها خصاصة

في بحار الأنوار «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فشكا إليه الجوع، فبعث رسول الله إلى بيوت أزواجه فقلن: ما عندنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: من لهذا الرجل الليلة؟ فقال علي بن أبي طالب ﷺ: أنا له يا رسول الله، وأتى فاطمة عليها السلام فقال لها: ما عندك يا بنت رسول الله؟ فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية نؤثر ضيفنا، فقال علي ﷺ: يا ابنته محمد نومي الصبية واطفئي المصباح فلما أصبح علي ﷺ غدا على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فلم يبرح حتى أنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

وعن أحمد بن أبي المقدام العجلي قال: يروى أن رجلاً جاء إلى علي بن أبي طالب ﷺ فقال له: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة، فقال: اكتبها في الأرض فإني أرى الضر فيك بيننا، فكتب في الأرض: أنا فقير محتاج، فقال علي ﷺ: يا قنبر اكسه حلتين، فأنشأ الرجل يقول:

(١) الحشر / ٩.

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حلالا
إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة ولست تبغي بما قد نلت به بدلا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداء السهل والجبال
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به فكل عبد سيجزى بالذي فعلا

فقال عليه السلام: أعطوه مائة دينار، فقبل له: يا أمير المؤمنين لقد أغنيته.
فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنزل الناس منازلهم، ثم قال
علي عليه السلام: «إني لأعجب من أقوام يشترون الممالك بأموالهم ولا
يشترون الأحرار بمعروفهم».

وعن عبد الله بن علي بن الحسين يرفعه أن النبي ﷺ أتى من
جماعة من أصحابه إلى علي عليه السلام فلم يجد علي شيئا يقربه إليهم،
فخرج ليحصل لهم شيئا، فإذا هو بدينار على الأرض، فتأوله وعرف
به فلم يجد له طالبا، فقومه على نفسه واشترى به طعاما، وأتى به
إليهم، وأصاب (به) عوضه، وجعل ينشد صاحبه فلم يجده فأتى به
النبي ﷺ وأخبره بالخبر، فقال: يا علي إنه شيء أعطاكه الله لما اطلع
على نيتك وما أردته، وليس هو شيء للناس، ودعا له بخير.

وروت الخاصة والعامة منهم ابن شاهين المروزي وشيروه الديلمي
عن الخدري وأبي هريرة أن عليا أصبح ساغبا، فسأل فاطمة طعاما،
فقال: ما كانت إلا ما أطعمتك منذ يومين، آثرت به على نفسي وعلى
الحسن والحسين، فقال: ألا أعلمتي فأتيكم بشيء؟ فقالت: يا أبا
الحسن إني لأستحيي من إلهي أن أكلفك ما لا تقدر عليه، فخرج
واستقرض عن النبي ﷺ دينارا، فخرج يشتري به شيئا، فاستقبله

المقداد قائلاً ما شاء الله، فناوله علي عليه السلام الدينار، ثم دخل المسجد فوضع رأسه فنام، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به، فحركه وقال: ما صنعت؟ فأخبره، فقام وصلى معه، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته قال: يا أبا الحسن هل عندك شيء نفطر عليه فتميل معك؟ فأطرق لا يحير جواباً حياءً منه، وكان الله أوحى إليه أن يتعشى تلك الليلة عند علي، فانطلقا حتى دخلا على فاطمة وهي في مصلاها وخلفها جفنة تفور دخاناً، فأخرجت فاطمة الجفنة فوضعتها بين أيديهما، فسأل علي: أنى لك هذا؟ قالت: هو من فضل الله ورزقه «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» قال: فوضع النبي صلى الله عليه وسلم كفه المبارك بين كتفي علي ثم قال: يا علي هذا بدل دينارك، ثم استعبر النبي صلى الله عليه وسلم باكياً وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى رأيت في ابنتي ما رأى زكريا لمريم.

وفي رواية الصادق عليه السلام أنه أنزل الله فيهم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾

وفي رواية حذيفة أن جعفرأ أعطى النبي صلى الله عليه وسلم الفرع من العالية والقطيفة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأدفعن هذه القطيفة إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، وأعطاهما علياً عليه السلام، ففصل علي القطيفة سلكاً سلكاً فباع بالذهب، فكان ألف مثقال، ففرقه في فقراء المهاجرين كلها، فلقية النبي صلى الله عليه وسلم ومعه حذيفة وعمار وسلمان وأبو ذر والمقداد، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم الغداء، فقال حياءً منه: نعم فدخلوا عليه فوجدوا الجفنة.

وفي حديث ابن عباس: أن المقداد قال له: أنا منذ ثلاثة أيام ما طعمت شيئاً فخرج أمير المؤمنين عليه السلام وباع درعه بخمس مائة، ودفع إليه بعضها، وانصرف متحيراً، فتاداه أعرابي: اشتر مني هذه الناقة

مؤجلاً، فاشتراها بمائة، ومضى الأعرابي، فاستقبله آخر وقال بعني هذه بمائة وخمسين درهم، فباع وصاح: يا حسن ويا حسين امضيا في طلب الأعرابي وهو على الباب، فرآه النبي ﷺ وهو يبتسم ويقول: يا علي الأعرابي صاحب الناقة جبرائيل والمشتري ميكائيل، يا علي المائة عن الناقة والخمسين بالخمس التي دفعتها إلى المقداد، ثم تلا ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ الآية.

وأنه ﷺ طلبت منه صدقة فأعطى خاتماً، فنزل: ﴿إنما وليكم الله﴾.

وفيه يضرب المثل في الصدقات، يقال في الدعاء: تقبل الله منه كما تقبل توبة آدم وقربان إبراهيم وحج المصطفى وصدقة أمير المؤمنين. وكان يأخذ من الغنائم لنفسه وفرسه ومن سهم ذي القربى وينفق جميع ذلك في سبيل الله، وتوفي ولم يترك إلا ثمان مائة درهم.

وسأله أعرابي شيئاً فأمر له بألف، فقال الوكيل: من ذهب أو فضة؟ فقال: كلاهما عندي حجران، فأعطى الأعرابي أنفعهما له، وقال له ابن الزبير: إني وجدت في حساب أبي: أن له على أبيك ثمانين ألف درهم، فقال له: إن أباك صادق، فقضى ذلك، ثم جاءه فقال: غلطت فيما قلت، إنما كان لوالدك على والدي ما ذكرته لك فقال: والدك في حل والذي قبضته مني هو لك.

الصادق ﷺ: إنه ﷺ أعتق ألف نسمة من كد يده جماعة لا يحصون كثرة، وقال له رجل -ورأى عنده وسق نوى-: ما هذا يا أبا الحسن؟ قال: مائة ألف نخل إن شاء الله، ففرسه فلم يغادر منه نواة واحدة، فهو من أوقافه ووقف مالاً بخيبر وبوادي القرى، ووقف مال

أبي نيرز والبغيبغة وأرباحاً وأرينة ورغد ورزينا ورياحاً على المؤمنين، وأمر بذلك أكثر ولد فاطمة من ذوي الأمانة والصلاح، وأخرج مائة عين بينبع وجعلها للحجيج، وهو باق إلى يومنا هذا، وحفر آباراً في طريق مكة والكوفة، وهي مسجد الفتح في المدينة وعند مقابل قبر حمزة وفي الميقات وفي الكوفة وجامع البصرة وفي عبّادان وغير ذلك^(١).

أقول: إن من يتناول كرم الإمام علي وجوده وإيثاره -سلام الله عليه- كمن يخوض في بحر من بعده سبعة أبحر، بل قل كمن يحاول أن ينقل هذه الأبحر قطرة فقطرة من مكانها إلى مكان آخر، فهو بحر لجيٍّ زاخر بالفضائل والمكرّمات، وحديثنا عنه في هذا المجال كناقل التمر إلى هجر، لأن الكلام حول كرمه قد يبدأ ولكنه لا ينتهي، فهو كالنبع الذي تتدفق أمواهه، والسلسبيل الذي يتسلسل نميره في كل أرض وفي كل زمن.

على أن الجود واحدة من مزاياه وفضائله التي شهد له به رب العالمين في قرآنه الكريم، ورسول رب العالمين في حديثه النبوي الشريف، فأصبحت هذه المزايا حكاية على كل لسان، تتناقلها الركبان وتتطق بها الحدثان.

ولم يكن كرمه -سلام الله عليه- بدافع دنيوي يقوم على طلب الشهرة أو حب الظهور، وهو الذي زهد بهذه الدنيا فطلقها ثلاثاً، وإنما كان حالة تعبدية، يعبد الله سبحانه وتعالى ويتقرب إليه امتثالاً لأوامره، وقد تجلّى ذلك بتصدقته بالخاتم في أثناء الصلاة، فقد كان يعبد الله بالصدقة كما يعبد بأداء الصلاة.

(١) راجع بحار الأنوار ٣٢/٤١ - ٣٤.

هذا من جهة ومن جهة أخرى، كان إذا أعطى أو تصدق على سائل أو مسكين، يحاول أن يحفظ لهذا الإنسان كرامته وإنسانيته كيلا يذله. وذلك واضح في هذه الرواية عندما جاء ذلك الرجل قائلاً له: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة، فقال: «اكتبها في الأرض فإني أرى الضر فيك بيتاً»، فهو -سلام الله عليه- شاء أن ينقذه من ذل الطلب والسؤال.

وهنا تحضرني تلك الرواية التي نقلها ورواها عنه العلامة الجليل والأديب الكبير الشيخ عبدالله العلايلي، وقد جاء في هذه الرواية، أن رجلاً من الكوفة خرج من بيته تاركاً زوجته وأطفاله يتضورون جوعاً وليس في البيت شيء يؤكل. وفي تلك الأثناء كان الإمام علي -سلام الله عليه- خليفة على المسلمين، يتجول في دروب الكوفة وأزقتها، فالتقى به وقد ظهرت على وجهه إمارات الحاجة والفقر واليأس.

- قال له الإمام: ما بك يا رجل؟

- قال الرجل: دعني وشأني (وهو يعرفه).

- قال: ما بك يا رجل؟

- قال: قلت لك دعني وشأني.

- قال مصراً: سألتك ما بك؟ أجب.

- قال: عندي بقية من كرامة وبقية من ماء الوجه فهل تشتري؟

فأخذ الإمام علي عليه السلام بيده إلى بيت مال المسلمين وأعطاه ما يكفيه ثم قال له: خذ يا هذا، فقد أعطيناك من مال الله، فكأنك لم تبع، وكأننا لم نشتر.



فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمر نبيه ﷺ بقوله: «وأما السائل فلا تنهر»، فإن الإمام -سلام الله عليه-، قد بذل جهده في أن يحفظ له كرامته وإنسانيته، وأن يبعد عنه كل مظهر من مظاهر الذل الذي يتأتى عن الحاجة والفقر.

فليس غريباً أو مستغرباً أن تنزل الآيات الكريمة، الآية تلو الآية وهي تشير جميعاً إلى كل فعل كان يصدر عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال. وإليك بعض هذه الآيات:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

﴿الَّذِينَ يَنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ (٢).

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يَنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ (٣).

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٤).

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٥).

سلام الله عليك يا سيدي يا أمير المؤمنين، كم يحاولون أن ينالوا منك بأفواههم، ويأبى الله لك ذلك ورسوله والمؤمنون.

(١) الحشر / ٩.

(٢) البقرة / ٢٧٤.

(٣) البقرة / ٢٦٥.

(٤) المائدة / ٥٥.

(٥) الإنسان / ٨.

الشفاعة في مدرسة فاطمة الزهراء عليها السلام

في بحار الأنوار عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: إن الله لا يستحيي أن يعذب أمة دانت بإمام ليس من الله، وإن كانت في أعمالها برة تقية، وإن الله يستحيي أن يعذب أمة دانت بإمام من الله، وإن كانت في أعمالها ظالمة مسيئة.

وعن أبي بصير قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام فقال: ما فعل أبو حمزة الثمالي؟ قلت: خلفته عليلاً قال: إذا رجعت إليه فأقرئه مني السلام وأعلمه أنه يموت في شهر كذا في يوم كذا، قال أبو بصير: فقلت: جعلت فداك والله لقد كان (لكم) فيه أنس وكان لكم شيعة، قال: صدقت ما عندنا خير لكم قلت: شيعتكم معكم؟ قال: إن هو خاف الله وراقب نبيه، وتوقى الذنوب، فإذا هو فعل كان معنا في درجاتنا قال علي ^(١): فرجعنا تلك السنة فما لبث أبو حمزة إلا يسيراً حتى توفي.

وعن عبيد بن زرارة قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام وعنده البقباق ^(٢) فقلت له: جعلت فداك رجل أحب بني أمية أهو معهم؟

قال: نعم قلت: رجل أحبكم أهو معكم؟ قال: نعم، قلت: وإن زني وإن سرق؟ قال: فنظر إلى البقباق فوجد منه غفلة ثم أوماً برأسه نعم.

(١) هو علي بن أبي حمزة المعروف بالبطائي، الراوي عن أبي بصير.

(٢) هو أبو العباس فضل بن عبد الملك البقباق مولى كوفي ثقة، ولعله كان مذياعاً للحديث فأخفى أبو عبدالله عليه السلام حديثه ذلك عنه لئلا يذيعه في جهلة الشيعة.

وعن زيد الشحام قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي: يا زيد! جدد التوبة وأحدث عبادة، قال: قلت: نُعيت إليّ نفسي، قال: فقال لي: يا زيد ما عندنا لك خير وأنت من شيعتنا، إلينا الصراط، وإلينا الميزان، وإلينا حساب شيعتنا، والله لأننا لكم أرحم من أحدكم بنفسه يا زيد كأنني أنظر إليك في درجتك من الجنة ورفيقك فيها الحارث بن المغيرة النضري.

وعن عمرو بن إلياس قال: دخلت أنا وأبي إلياس بن عمرو على أبي بكر الحضرمي وهو يجود بنفسه، فقال: يا عمرو ليست ساعة الكذب أشهد على جعفر بن محمد أني سمعته يقول: لا يمس النار من مات وهو يقول بهذا الأمر.

وعن عمرو بن إلياس قال: دخلت على أبي بكر الحضرمي وهو يجود بنفسه فقال لي: أشهد على جعفر بن محمد أنه قال: لا يدخل النار منكم أحد.

وعن صفوان الجمال قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت: جعلت فداك سمعتك تقول: شيعتنا في الجنة وفيهم أقوام مذنبون، يركبون الفواحش، ويأكلون أموال الناس، ويشربون الخمر ويتمتعون في دنياهم، فقال عليه السلام: هم في الجنة اعلم أن المؤمن من شيعتنا لا يخرج من الدنيا حتى يبتلي بدين أو بسقم أو بفقر، فإن عفي عن هذا كله شدد الله عليه في النزع عند خروج روحه حتى يخرج من الدنيا ولا ذنب عليه، قلت: فداك أبي وأمي فمن يرد المظالم؟ قال: الله عز وجل يجعل حساب الخلق إلى محمد وعلي -عليهما السلام- فكل ما كان على شيعتنا حاسبناهم مما كان لنا من الحق في أموالهم وكل ما بينه



وبين خالقه استوهبناه منه، ولم نزل به حتى ندخله الجنة برحمة من الله، وشفاعة من محمد وعلي -عليهما السلام-.

وعن أبي مريم السلولي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا علي إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب إلى الله منها، الزهد في الدنيا، وجعلك لا تتال من الدنيا شيئاً ولا تنال الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين، فرضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعاً، فطوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك، فأما الذين أحبوكم وصدقوا فيكم فهم جيرانك في دارك، ورفقاؤك في قصرك، وأما الذين بغضوك وكذبوا عليك فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين يوم القيامة، قال: وذكره ابن مردويه في مناقبه.

وعن الحسن بن علي ابن بنت إلياس روى عن جده إلياس قال: لما حضرته الوفاة قال لنا: اشهدوا علي وليست ساعة الكذب هذه الساعة، لسمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: والله لا يموت عبد يحب الله ورسوله ويتولى الأئمة فتمسه النار، ثم أعاد الثانية والثالثة من غير أن أسأله.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ما من شيعتنا أحد يقارف أمراً نهيناه عنه فيموت حتى يبتليه الله ببليّة تمحص بها ذنوبه، إما في ماله أو ولده، وإما في نفسه حتى يلقي الله محبنا وما له ذنب، وإنه ليبقى عليه شيء من ذنوبه فيشدد عليه عند موته فتمحص ذنوبه.

وعن علي بن الحسين -عليهما السلام- أنه قال: من أحبنا لله نفعه حبنا، ولو كان في جبل الديلم، ومن أحبنا لغير ذلك فإن الله يفعل ما يشاء، إن حبنا أهل البيت يساقط عن العباد الذنوب كما تساقط الريح الورق من الشجر.



وعن الصادق، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: أتاني جبرائيل من قبل ربي جل جلاله فقال: يا محمد إن الله عز وجل يقرئك السلام، ويقول لك: بشر أخاك علياً بأني لا أعذب من تولاه، ولا أرحم من عاداه.

وعن أبي بكر الحضرمي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لو أن كافراً وصف ما تصفون عند خروج نفسه، ما طعمت النار من جسده شيئاً.

عن شجرة قال: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «يا شجرة بحبنا تغفر لكم الذنوب». (١)

أقول:

إن هذه الروايات والأحاديث تؤكد بما لا يقبل الشك، أن من تولى أهل البيت، كانوا شفعاء يوم القيامة. ومثل هذه الأحاديث بلغت حد التواتر عن الأئمة الأطهار -سلام الله عليهم- أجمعين.

وهي -أي هذه الأحاديث والروايات- تضعنا مرة أخرى أمام مسألة الشفاعة وجهاً لوجه، لا سيما أن بعض المسلمين ينفون الشفاعة إطلاقاً، يوم القيامة، بينما تواترت فيها -أي الشفاعة- الأحاديث عن أئمة الهدى ومصابيح الدجى، -سلام الله تعالى عليهم أجمعين-.

وأنا لا أدري كيف سمحوا لأنفسهم أولئك القائلون بعدمها -أي الشفاعة- وكيف تركوا أقلامهم وأفواههم تسترسل في مثل هذه الترهات والأباطيل، في الوقت الذي نجد القرآن الكريم يؤكد في مجموعة من الآيات الواضحات من غير لبس أو غموض أو إبهام.

(١) راجع بحار الأنوار ١١٣/٦٥ - ١١٦.

وإليك أيها القارئ الكريم بعض هذه الآيات حيث يقول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين.

- ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (١).
- ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ (٢).
- ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ (٣).
- ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٤).
- ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ (٥).
- ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (٦).
- ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٧).

إن هذه الآيات واضحة كل الوضوح، لا تقبل النقاش والجدل في مسألة الشفاعة، سواء كان الله سبحانه وتعالى مصدر الشفاعة، أو كان غيره من عباده ممن أذن لهم بهذه الشفاعة. فهي تؤكد أن الشفاعة تكون على نوعين، شفاعة الله عز وجل وشفاعة من أذن له الرحمن بذلك.

(١) البقرة / ٢٥٥.

(٢) الأنبياء / ٢٨.

(٣) يونس / ٣.

(٤) مريم / ٨٧.

(٥) طه / ١٠٩.

(٦) سبأ / ٢٣.

(٧) الزمر / ٤٤.

لا شك أن الله سبحانه وتعالى عادل لا يظلم أحداً، فالعدل أصل من أصول الإسلام، وهو -أي العدل- يدين به جميع المسلمين. ولكن أين نذهب بإحسان الباري عز وجل، وهو المحسن الذي يغمر بإحسانه من يشاء، وأين نذهب بمسألة الغفران وهو الغفور الرحيم.

وإذا كنا نقول بالغفران والإحسان، فمن البديهي أن يكون الغفران عن العبد عن ذنب ارتكبه. أوليست الشفاعة هذه هي المغفرة بأبهى صورها وتجلياتها، وكثيراً ما نقرأ في أدعيتنا ونحن نخاطب رب العالمين: إذا كان لا يغفر إلا للمطيعين ولا يعفو إلا عنهم، فمن للمذنبين؟ إذ ليس لهؤلاء إلا شفاعاة الله سبحانه ورحمته وعفوه غفرانه، إلى جانب شفاعاة من أذن لهم الرحمن.

على أن الشفاعاة لها شروطها التي تقوم على الخوف من الله سبحانه، ورسوله ﷺ، وتوقي الذنوب، والتزام جانب أهل البيت عليه السلام وتوليهم.

وأنا أعتقد أن الذين منعوا مبدأ الشفاعاة، إنما قالوا بذلك في مواجهة أهل البيت -سلام الله عليهم- حيث ناصبواهم العداء وانحرفوا عنهم إلى غيرهم ممن قالوا بإمامتهم، علماً أن القرآن الكريم يقول في آية من آياته الكريمة: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ﴾^(١).

فمن كان إمامه معاوية أو يزيد، فهو سوف يدعى بإمامه ويحشر معه أينما كان، أما الذين قالوا بإمامة المعصومين الهادين المهديين، فلا شك أنهم سوف يحشرون معهم لأنهم ساروا على هديهم وعبدوا الله

(١) الإسراء / ٧١.

على مذهبهم وطريقتهم. وفي ذلك منتهى العدل الإلهي حيث يحشر من تولى الظالمين معهم، ويحشر من تولى الصادقين معهم.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد وضع في قرآنه الكريم أنه سوف يأذن لبعض المؤمنين بأن تكون لهم الشفاعة بإذن ممن اتخذ عن الرحمن عهداً، فمن أولى بهذه الشفاعة من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً؟

إنهم -سلام الله عليهم جميعاً- الصراط المستقيم والميزان والحد الفاصل بين الجنة والنار، فمن أحبهم وتولاهم فاز ونجا ومن أبغضهم وتولى عنهم وحاربهم، ليس له إلا الخسران المبين.

اللهم، إننا نتوسل إليك بهم، فاجعلهم شفعاءنا يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، واحشرنا معهم، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين، إنك سميع مجيب يا رب العالمين.

الإيمان درجات

الناس درجات في إيمانهم وعقيدتهم وطاقاتهم، فكما أنهم يتفاوتون في طاقاتهم الجسدية، كذلك يتفاوتون في طاقاتهم النفسية.. في الوعي، والذكاء والرشد والإيمان.

إن فهم الناس للحياة يعتمد على درجة وعيهم للأمور، ومعرفتهم بالأحداث الجارية.. ونفس الشيء يقال بالنسبة لخشوعهم ودرجة إيمانهم.. فبمقدار ما يكون الإيمان بالله لديهم عميقاً ومؤثراً، بمقدار ما يكون قربهم من الله وتمسكهم بمبادئ الحق، واستعدادهم للتضحية من أجل طاعة الله عز وجل ورضوانه.

إن المطر ينزل من السماء فيغطي بقاع الأرض كافة من دون أن يفرق بين هذه الأرض وغيرها، ولكن الارتفاع يعتمد على مدى استعداد الأرض.. فالأرض الطيبة تثبت الزرع والزيتون والأعناب بينما الأرض السبخة لا تثبت إلا الشوك والحنظل.

إن قطرة الماء تنزل من السماء، فإذا وقعت في فم المحارة تحولت إلى درة ثمينة ولؤلؤة غالية بينما إذا نزلت في فم الأفعى صارت سماً قاتلاً.. والماء واحد.. يقول الشاعر:

أرى الإحسان عند الحرديناً وعند العبد منقصة وذماً
كقطر صار في الأصداف دراً وفي بطن الأفاعي صار سماً
كل ذلك يحصل لأن المتلقي يختلف، وهذه هي النقطة البالغة

الأهمية في البحث، فحيث أن المتلقي يختلف في الحالتين، وجدنا النتيجة مختلفة هي الأخرى في الحالتين أيضاً.

إن النفخة على الشمعة تطفئها.. بينما على الجمرة تشعلها وتؤججها.. والسبب يعود إلى اختلاف المتلقي، فالنفخة هي واحدة.. ولكن المتلقي يختلف.. وهكذا بالنسبة للنفوس التي تتلقى الموعظة والفكر، والعلم والتوجيه، فبعضها يتأثر بالفكر تأثراً طيباً وإيجابياً بفضل صفاء نفسه، وطيب مولده وجمال أصالته ومنبته، في حين أن البعض الآخر لا ينتفع بالموعظة والفكر لأن منبته منبت سوء.

إن النبي محمداً ﷺ يتحدث فيسمع حديثه أبو ذر وأبو جهل فأما أبو ذر فإنه يزداد نوراً وضياءً من كلام النبي.. في حين أن أبا جهل لا يزداد إلا بعداً عن رحمة الله واقتراباً من النار والشيطان، والسبب في ذلك كله يعود إلى المتلقي، فالقلب السليم يختلف عن القلب المريض.

* حاجتنا الآن لفهم مبادئ الإمام علي:

والأمثلة كثيرة في هذا المجال ولكن فقط أردت أن أشير إلى نقطة بالغة الأهمية في هذا البحث وهي أننا حين نتكلم عن شخصية مثل شخصية الإمام علي أمير المؤمنين ﷺ فإننا يجب أن ننصت خاضعين لصوته الدافئ الحق.. وأن نهى أنفسنا لنكون أروع من تلقى من إمامه لأنه يقول: «ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة

وسداد وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً».

نحن اليوم وفي هذا العصر المتلاطم بالأحداث والمشحون بالفتن، أحوج ما نكون لمعرفة علي بن أبي طالب من أي وقت مضى، لأننا في أمس الحاجة إليه، وإلى حبه وحنانه ومبادئه الإنسانية التي عمت الورى وشملت الناس جميعاً بخيرها وعطائها.

ولأهمية الأمر فإنه ينبغي على الواحد منا أن يكون يقظاً متحفزاً لعمل الخير، فطناً إلى كل كلمة يسمعها ولكل حديث يمر عليه فلا يكتفي بالرواية دون الدراية، بل لا بد لمن يريد الحقيقة أن يصل إلى مستوى الدراية للرواية لأن الأهم من الرواية هي الدراية لها، والدراية تعني الفهم الكامل للحديث، وتعني استيعاب المرء للحديث استيعاباً كاملاً وإلا فإنه لن يفتن إلى عمق ومدى اتساع رؤية الحديث الذي يسمعه أو قطعة التاريخ التي يقرأها.

يقول الإمام علي عليه السلام: «حديث تدريه خير من ألف حديث ترويه».

ونقرأ كلمة للإمام علي بن الحسين عليه السلام في هذا المضمار يقول فيها: «... وبالدرايات للروايات يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان...». وأقصى درجات الإيمان إنما تتمثل بالوعي الكامل للحياة ومناهج السماء.

* سر ولادة الإمام علي في الكعبة:

ومن هذا المنطلق نأخذ بعرض صورة حقيقية لولادة الإمام علي عليه السلام في الكعبة ثم علينا أن نلتقط الأجواء المحيطة بهذه الصورة



لندرك لماذا اختار الله سبحانه لوليه علي بن أبي طالب الكعبة البيت الحرام مكاناً لولادته وقدمه للحياة؟

إن ثمة سرّاً عظيماً من أسرار الكون والحياة والإنسان يكمن في هذا المشوار الملائكي الذي تقطعه الآن فاطمة بنت أسد وهي حامل بالإمام علي عليه السلام.

إنها تقف الآن أمام الكعبة ثم ت قلب وجهها في السماء تدعو ربها بهذه الكلمات التي تفيض رقة وعذوبة وحناناً وإيماناً، فتقول: «اللهم إني مؤمنة بك ومصدقة بما جاء من عندك من كتب ورسل ومؤمنة بنبوة نبيك إبراهيم الخليل وإنه هو الذي بنى بيتك العتيق.. اللهم بحق هذا البيت ومن بناه إلا ما يسرت علي ولادتي».

وهنا يقول من كان حاضراً عند الكعبة ساعة مجيئها وهو العباس بن عبدالمطلب وجماعة معه قالوا: كانت الكعبة مغلقة، وكان المفتاح عند سادن الكعبة وكأن الله أراد أن يبين لنا كرامة هذا المولود العظيم. يقول: نظرنا إلى جدار الكعبة وقد انفرج لها كأنه باب فتح على مصراعيه حتى دخلت داخل الكعبة وقد أطبق الجدار وعاد إلى حالته السابقة.. أما نحن -والكلام ما زال للعباس بن عبدالمطلب- فقد حاولنا أن نوصل إليها بعض نساءنا بشيء من الغذاء والعون فلم نتمكن من ذلك، وقد لبثت فاطمة بنت أسد ثلاثة أيام داخل الكعبة ثم خرجت في اليوم الثالث وبيدها علي تحمله ووجهه يطفح بالبشرى والنور والعطاء، فجاءت به حتى وضعت بين يدي النبي محمد وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب في العام الثلاثين بعد واقعة الفيل.



وهنا يقف العقل مدهوشاً أمام هذا الحدث العظيم.. وإنه -لعمري- حدث يفوق سره إدراك العقل البشري.. على أننا لا نواجه اختلافاً في هذه الرواية على الإطلاق فقد أقربها الجميع ونقلها الأقربون والأبعدون وقالوا بكلمة واحدة: إنه ما ولد مولود قبله -أي قبل علي- ولا بعده في الكعبة قط.

يقول عبد الباقي العمري مسجلاً هذه القمة المضيئة التي انبثقت من باطن الكعبة، يقول فيها مخاطباً علياً أمير المؤمنين عليه السلام:

«أنت العلي الذي فوق العلى رفعا ببطن مكة وسط البيت إذ وضعنا
وأنت أنت الذي حطت له قدم في موضع يده الرحمن قد وضعنا
سمتك أمك بنت الليث حيدرة أكرم بلبوة ليث أنجبت سبعا»
ويقول السيد الحميري:

«ولدتَه في حرم الإله وأمنه والبيت حيث فناؤه والمسجد
بيضاء طاهرة الثياب نقية طابت وطاب وليدها والمولد
في ليلة غابت نحوس نجومها وبدا مع القمر المنير الأسعد
ما لُفَّ في خرق القوابل مثله إلا ابن آمنة النبي محمد»

لقد أخذ النبي وجعل مهده إلى جانبه وراح يرعاه بفيض عطائه الغامر حتى نبت لحمه واشتد ساعده واستوى فآتاه النبي علماً وفهماً وكان من المحسنين.

على أن الإمام علياً عليه السلام يصف هذه الفترة من حياته فيقول: «ولقد علمت موضعي من رسول الله بالقراية، والمنزلة الخصيصة» وهذا هو



الواقع فقد وضعه النبي في حجره وهو وليد يضمه إلى صدره ويكفئه في فراشه ويمسه جسده، ويشمه عرقه.. ولقد كان رسول الله يجاور في كل سنة بحراء فيراه علي ولا يراه سواه، ولم يسجل التاريخ لأحدٍ من الفضائل والمكارم بعد النبي كما سجل لعلي أمير المؤمنين عليه السلام فقد كان يرى نور الوحي والرسالة، ويشم رائحة النبوة.

ونحن لا يمكن أن نسجل ولادته في الكعبة من فضائله أبداً. إن ولادة علي في الكعبة هي فضيلة من فضائل الكعبة وليست من فضائل الإمام علي لأن علياً نفس النبي بنص آية المباهلة التي تقول: «وأنفسنا وأنفسكم». والنبي أشرف وأفضل الموجودات والكعبة واحدة من الموجودات.

أما لماذا اختار الله له هذا المكان بالذات؟ فذلك ما نجيب عليه في عجالة سريعة، وهي استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام.

إن إبراهيم دعا الله أن تكون الإمامة منطلقة من هذا البيت الطاهر حيث قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (١).

إنه دعاء انطلق من رجل أمرنا الله أن نتخذ من موضع أقدامه مسجداً ومصلًى لنا، حيث يقول: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

ثم انظروا مكان الإمامة أين هو في دعاء إبراهيم؟ إنه في الأفئدة والقلوب.. يقول: «واجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم» وهذه هي الزعامة الصحيحة، الزعامة، التي تجتذب القلوب وتستقطب النفوس وليس الزعامة التي تعيش بالحرب والسيوف والحديد والنار.

(١) إبراهيم / ٣٧.

إن الله سبحانه قد خلق الناس أحراراً ولم ينزل عليهم ديناً بالإكراه
والسيف والسياط، وإنما أنزل عليهم ديناً يوافق فطرتهم والفطرة
البشرية ترفض الإكراه، فجعل الله مكان الدين في القلب لأن القلب
منطقة حرة ترفض الإكراه ولا تعرف لغة السياط وقد كشف الإمام
عليه السلام عن هذه الحقيقة بقوله: «إن القلب إذا أكره على شيء عمي»
فإذا أخذنا هذا الحديث ووضعناه أمام الآية الكريمة التي تقول: ﴿لَا
إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

فإنه ينكشف أمامنا الحق يتلأل في أشعة الشمس، وهو أنه ما دام
الدين والإيمان في القلب، وما دام الإنسان يولد على الفطرة، فإن
القيادة والإمامة والزعامة يجب أن تحكم القلوب لا الأجساد لأن حكم
الأجساد والسيطرة على أبدان الناس أمر يستطيع أن يطبقه كل
الظلمة وكل الفراعنة والطفافة في العالم وليس خاصاً بأحد دون أحد،
بل كل جلاد وسفاح وسفاك يمكنه أن يحكم الناس بالحديد والنار..
ولكن هل هذه هي العظمة؟

أبداً.. إن العظمة لا تكون في السيطرة على جسد الإنسان، بل
العظمة تكون في السيطرة على العقول والقلوب والأفئدة.. وهذه
الأخيرة لا يدخلها أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح فإذا كان الحاكم
مؤمناً يعمل الصالحات ويسارع في الخيرات فإنه يعيش في القلوب أي
أن القلوب تميل إليه بحبها.. وطبعاً هذا يكون بالنسبة للقلوب السليمة
التي لا يدخلها شيء من رذاذ الشيطان ومكره وخداعه.. ولذلك، ولهذا
السبب أيضاً كان حب علي بن أبي طالب عليه السلام ميزاناً للإيمان وللنفاق
والكفر.

ومن هنا أيضاً صار الإمام علي قسيم النار والجنة، وذلك لسبب بسيط جداً وهو إذا كان إيمان الشخص العادي وعمله الصالح يجعل القلوب تهواه بحيث يكون ميل القلوب لأهل الإيمان والعمل الصالح دليلاً على سلامتها وصدقها فما بالكم بمن هو الإيمان كله والعمل الصالح كله؟

ولتوضيح الفكرة أقول: إذا كان إيمان الرجل وعمله الصالح سبباً قوياً في اجتذاب القلوب السليمة ورمزاً لاستقامة القلوب وانحرافها.. إذا كان الأمر هكذا فما بالكم بالإمام علي الذي هو الإيمان كله والعمل الصالح كله.. فيوم برز في الخندق قال النبي «برز الإيمان كله إلى الشرك كله».

هذا من ناحية إيمان علي.. أما بالنسبة لعمله الصالح فيكفي أن نعرف أن ضربة واحدة من يده تعادل، لا بل أفضل من أعمال الثقلين إلى يوم القيامة. قال رسول الله : «ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين» وهذه حقيقة، وقد أشار إليها القرآن في العديد من آياته، ومفادها: أن القلب السليم يميل إلى أهل الإيمان والصالح، ولا تنفر القلوب من أهل الإيمان إلا إذا كانت مريضة، لأن الفطرة السليمة تحب الإيمان والصالح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾

وإذا عرفنا هذه الحقيقة أدركنا السر العظيم الكامن وراء الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد أن حب علي إيمان وبغضه كفر ونفاق، وإنه قسيم النار والجنة.



أقول: إذا عرفنا ذلك أدركنا حقيقة هذه الأحاديث وأنها صادقة من دون أن نسأل عن سندها ورجال روايتها لأنها مطابقة للحقيقة وموافقة للواقع الإسلامي والفطري والحضاري، إذ ليس هناك إنسان سليم الفطرة يبغض علي بن أبي طالب. أبداً لا يمكن أن يكون مثل ذلك، لأن بغض الإمام علي يدخل على مرض القلب وانحراف الفطرة، وهذا هو الكفر والنفاق وليس له علاج إلا النار والعذاب، ولذلك صار الإمام علي قسيم النار والجنة.

إن الخصال والفضائل التي تجمعت في شخصية الإمام علي لا يمكن لأي إنسان أن يقرأها أو يعرضها إلا ويتدفق حب هذا البطل العظيم في نفس القارئ أو السامع فيصير محباً لعلي وموالياً له سائراً على طريقه طريق الحق والعدل والمساواة والحرية.. طريق عبادة الله رب العالمين.

إن قراءة السيرة الذاتية للإمام علي تترك نوراً في النفوس، واجتذاباً في القلوب إلى رحاب هذا البطل العابد الزاهد العظيم الذي أحبه كل الشرفاء، والأحرار في العالم.. لا بل أحبته شعوب الأرض قاطبة لأنه حبيب الله وحبيب رسوله المصطفى.. ولأنه هو الرجل الذي يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله كرّار غير فرّار لا يرجع من الحرب حتى يفتح الله على يديه.

خصال الإمام علي عليه السلام

إن المحارب في العادة يفتقد الرقة ويعوزه الحنان، وهذه طبيعة البشر فالذي يمارس مهنة ويزاول وظيفة مهما يكن نوعها فإنها لا بد وأن تترك أثراً في نفسية صاحبها.. وهذه حقيقة معروفة لدى الجميع حتى أنك تلمسها في صاحب المهنة الخشنة، ولدى ذوي الحرفة الرقيقة أو الجامدة.. بحيث لا يمكن أن نجد في سجل تاريخ العالم مقاتلاً من طراز الإمام علي ولكنه في منتهى الرقة واللياقة والتهذيب، لا يمكن أن نجد مثل هذا الشخص.. غير أننا حين نقرأ سيرة الإمام علي عليه السلام فإننا نجد هذه الصفة الطيبة والمزية العظيمة في هذا الرجل العظيم. فهو البكاء في المحراب ليلاً وهو الضحك إذا اشتد الضراب إنه ينزل إلى ساحات الحرب فتهتز له الأقران والشجعان.. ولكنه ما إن يجن عليه الليل؛ حتى يتحول إلى دمة ساخنة وأنة موجعة يطرق أبواب السماء باباً باباً وتسمعه في مناجاته يقول في عبرة:

مالي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددت فأني باب أقرع

ولذلك يخاطبه الشاعر صفي الدين الحلي بقوله:

جمعت في صفاتك الأضداد فلماذا عزت لك الأنداد

خلق يخجل النسيم من اللطف وبأس يذوب منه الجماد

صور ما تجمعن في أحد قط ولا حاز مثلهن العباد

وقد أشار الشريف الرضي إلى هذه الميزة الفريدة في أمير المؤمنين في أول كتاب نهج البلاغة في المقدمة حيث يقول فيها:

«ومن عجائبه ﷺ التي انفرد بها، وأمن المشاركة فيها، أن كلامه الوارد في الزهد والمواعظ والتذكير والزواج، إذا تأمله المتأمل، وفكر فيه المتفكر، وخلع من قلبه أنه كلام مثله ممن عظم قدره ونفذ أمره.. وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك في أنه كلام من لاحظ له في غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة قد قبع في كسر بيت أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلا حسه ولا يرى إلا نفسه، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس في الحرب مصلاً سيفه، فيقط الرقاب، ويجدل الأبطال ويعود به ينطف دماً، ويقطر مهجاً، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، وبدل الأبدال، وهذه من فضائله العجيبة، وخصائصه اللطيفة التي جمع بها بين الأضداد، وألف بين الأشتات وكثيراً ما أذاكر الأخوان بها واستخرج عجبهم منها، وهي موضع للعبرة بها، والفكرة فيها».

تلكم كانت كلمة السيد الشريف الرضي في هذا المجال وقد رأينا كيف يطرحها طرحاً حضارياً يلفت بها الأنظار إلى عظمة علي أمير المؤمنين ﷺ وإن هذه الصفة هي صفة خاصة به لم يشاركه فيها أحد من الناس.

رؤية للنعم والآلاء

في نظرة فاحصة نلقيها على الكون والحياة وما يحيط بنا من آثار رحمة الله عز وجل، يظهر لنا عظمة النعم والآلاء التي أفاض الله بها على العباد.. على أن هذه النعم ليس في وسع أحد منا أن يعدّها، أو يحيط بها علماً ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

ولكن ذلك لا يعني بالضرورة فقدان الرؤية الكاملة لهذه النعم لأن الله طلب منا أن نشكره مقابل عطائه النعم لنا وإذا لم نعرفها فكيف نشكره؟.. إذا فإنه في الإمكان ضبط النعم الكبرى التي تتطوي بقيتها تحت أفلاكها ونستطيع أن نحصر النعم الكبرى بأربع وهي على الشكل التالي:

أولاً: نعمة الوجود.

ثانياً: نعمة العقل.

ثالثاً: نعمة العلم.

رابعاً: نعمة الإيمان.

وهذه النعم مترابطة بعضها مع بعض بشكل لا يمكن فصل واحدة منها عن الأخرى فإذا بدأنا بالأولى فلا بد أن ننتهي بالرابعة لأن كل واحدة منهن جاءت اكتمالاً لأختها. فنعمة الوجود مرتبطة بنعمة العقل

لأنه لولا العقول لم يكن في الإمكان أن نستفيد من وجودنا في الحياة
وقديماً قال المتنبى:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان
فشرف الإنسان منوط بعقله وبالطريقة التي يتم فيها استخدام
وجوده في سبيل البناء الحضاري والعمل الصالح الذي يعود بدوره على
الناس بالخير والنفع والعطاء.

ونحن أمام نعمة الوجود لا يمكننا إلا أن نسلم بعظمة هذه النعمة
لأن الله سبحانه قد أعطى الإنسان هذا العمر وهو أكبر هدية وأعظم
عطية من الله عطية لا ثمن لها.. نحن نقول: إن الوقت من ذهب،
والحقيقة أن قيمة الذهب تذوب تحت تراب العمر.. الذهب لا قيمة له
أبداً بينما العمر هو الثمين إذا عرفت كيف تستغله ففي دقيقتين من
عمرك يمكنك أن تشتري جنة عرضها السموات والأرض ولكن في
عمل صالح تقوم به.. أو تصلي ركعتين في جوف الليل فإن قيمة هذه
الصلاة أكبر وأفضل من الدنيا وما فيها كما جاء على لسان الحبيب
المصطفى محمد : «صلاة ركعتين يصليهما المؤمن في جوف الليل
أفضل من الدنيا وما فيها» أي أفضل من كل آبار البترول ومناجم
الذهب ومعادن الفضة والألماس في العالم لأن الحديث هكذا يقول:
«أفضل من الدنيا وما فيها» وهذه الأشياء التي مرت هي أثمان ما في
الدنيا بينما لا قيمة لها أمام الخشوع الذي يضيء داخل النفس أثناء
الصلاة.

إذاً: فتعمة الوجود يستطيع الواحد منا أن يستثمرها استثماراً جيداً بواسطة عقله وبفضل رشده وتفكره في الأمور التي تجري في الحياة.. وهكذا نجد نعمة العقل مرتبطة بنعمة الوجود، ونعمة الوجود ملاكها نعمة العقل وهما كرافدين متعانقين لا يمكن فصلهما أبداً.. هذا ونأتي إلى نعمة العلم وهي النعمة الثالثة فنجد أنها مرتبطة بنعمة العقل أو قل: أن نعمة العقل تعتمد على نعمة العلم لأن العقل مصباح والعلم زيت، أو كما قال الإمام علي عليه السلام: إن العقل يتغذى بالعلم، والعقول بغير علم تذبل لأنها تتطلق وتتغش بالعلم.. إذاً: فإن العلم لا غنى عنه لمسيرة العقول في الحياة وقد جعل الله في الإنسان طريقين للغذاء: واحدة بالبدن، والثانية للعقل.

طريق غذاء البدن تتمثل في الأنف والفم.. بينما طريق غذاء العقل تتم عبر السمع والبصر، ولأن غذاء العقل لا حدود له فإننا نجد العين لا تشبع لا من القراءة ولا من النظر بينما البطن تشبع من الطعام لأن غذاء البدن محدود ولهذا كان النبي يقول: «رب زدني علماً» لأن العلم غذاء الروح والعقل وهو غذاء لا حدود له، فكلما أعطيت روحك وعقلك من العلم طلبت روحك المزيد من هذا العطاء.

* نعمة الإيمان هي الأهم:

على أن العلم وحده لا يكفي ولا يفي بالغرض بل لا بد له من الإيمان لأن العلم من دون إيمان يتحول إلى جريمة وهكذا نجد النعمة الرابعة وهي نعمة الإيمان متممة للنعم الثلاث التي تقدمتها.



والإيمان هو الإيمان الكامل، الإيمان بالله وباليوم الآخر.. وهذا الإيمان لا يتحقق بشكله الصحيح إلا بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام.

وسيأتي في كتاب آخر - إن شاء الله - حديث شيق حول هذا الموضوع بالذات غير أننا نكتفي هنا بهذا القدر ونوكل الأمر إلى إيمانك أيها القارئ وحبك لهذا البطل العظيم علي أمير المؤمنين - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام -.

إن القرآن الكريم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

ثم بعد ذلك مباشرة - وعندما بلغ الرسول الرسالة ورفع علياً أمام الملائكة وجعله خليفة من بعده حتى بان بياض إبطيهما وقال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه.

أقول: بعد ذلك كله، وبعد أن بايعه الناس، وأصبح الإمام علي هو إمام المتقين وخليفة رب العالمين على لسان الحبيب المصطفى محمد نزل قوله تعالى مبشراً بهذه النعمة التي هي كمال لكل نعم الله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وانظروا إلى التعبير الدقيق في قوله: وأتممت عليكم نعمتي، أي أن نعمة الولاية - ولاية علي بن أبي طالب - هي التي تكمل الدين وتتمم النعم كلها، إنها نعمة تكتمل بها نعم الله جميعاً: نعمة الوجود، ونعمة العقل، ونعمة العلم وأخيراً نعمة الإيمان. إن هذه النعم كلها لا تتم إلا بنعمة الولاية - ولاية علي بن أبي طالب - عليه أفضل الصلاة وأزكى



السلام- واقرأوا معي إذا شئتم الآية مرة ثانية لكي يتعمق مفهوماً في أذهاننا ونستوعب الفكر الحضاري التي تقدمه الآية التي بين أيدينا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وهنا نلفت الأنظار ونسترعي الانتباه إلى هذه النقطة بالذات وهي الاهتمام الكبير من قبل الحق سبحانه وتعالى بنعمة الولاية وأنه لولاها لما كانت هناك نعم تذكر لأن الولاية هي التي تحفظ الإيمان من الضياع والإيمان هو الذي يحفظ العلم من الانزلاق، والعلم هو الذي يحفظ العقل من الانطفاء لأنه زيت العقل، والعقول هي التي تجعلنا ننتفع من نعمة الوجود إذ نستخدم وجودنا في طاعة الله بدل معصيته، وفي البناء لا الهدم، وفي الصلاح لا الفساد.. وكل هذه النعم لا تأتي أكلها ولا ثمارها إلا إذا وجدت معها نعمة الولاية لعلي بن أبي طالب ولذلك صارت الولاية أمانة في أعناقنا ليس في الإمكان التوصل منها، أو الاستهانة بها.

يقول الواحدي وهو من كبار علماء السنة في كتابه: أسباب النزول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَضَوْهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾.

قال: يسألون عن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام.

وكان مما دار بين أبي حنيفة النعمان بن ثابت وبين الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حول تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (١).

فقال أبو حنيفة: النعيم هو التمر والماء البارد أيام الصيف.

(١) التكاثر / ٨.



غير أن الإمام الصادق رد عليه هذا القول ثم فسر الآية بقوله: يا أبا حنيفة إن النعيم ولايتنا أهل البيت.

وفي موضوع الولاية توجد أبيات منسوبة للإمام علي عليه السلام يقول فيها:

محمد النبي أخي وصنوي	وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يضحني ويمسي	يطير مع الملائكة ابن أُمي
وبنت محمد سكني وعرسي	منوط لحمها بدمي ولحمي
وسبطاً أحمد ولداي منها	فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طراً	صغيراً ما بلغت أوان حلمي
وأوجب لي ولايته عليكم	رسول الله يوم غدير خم
فويل ثم ويل ثم ويل	لمن يلقي الإله غداً بظلمي

رؤية من عبادة فاطمة عليها السلام

لكي ندرك عمق مفهوم العبادة عند الزهراء عليها السلام لا بد أن نلقي نظرة على هذه الآية الكريمة:

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١).

* الدين بالإيمان وليس باللسان:

إن العبادة التي تنجي الإنسان من العذاب وتتقذه من الحرمان من رحمة الله، هي العبادة الواعية المستوعبة لطبيعة الحياة. وأنا أقدم لحديثي بهذا القول ليكون الموضوع واضحاً للجميع.

الناس في الحياة قسمان: قسم عرف طبيعة الحياة وتركيبتها، فإذا مرت بهم مصيبة أو محنة ازدادوا صلابة وإيماناً بالله، لأنهم يعرفون أن الحياة قائمة أساساً على المحن واللواعج والأشجان. فريان السفينة مثلاً، لا ترهبه العواصف والأمواج، فمن طبيعة الأمور أن تتعرض السفينة لها. والعواصف والأمواج تزيد تعلقاً بسفينته وفهماً لأحوالها.

(١) آل عمران/ ٢٦- ٢٧.

بخلاف شخص لا يركب البحر ولا يفهم طبيعة العلاقة بين السفينة والبحر. فإذا ما تعرضت السفينة للعواصف والأمواج انخلع قلبه وانهارت قواه. وهذا يمثل القسم الآخر من الناس.

وهذا القسم يعيش في الحياة على طرف واحد، أي لا ينظر إليها إلا من زاوية واحدة، زاوية الدعة والرخاء واللقمة الطيبة، وعلاقته بالله وبالدين قائمة طالما توافرت له هذه الأشياء. فإذا كان تاجراً مثلاً، وربحت تجارته وطابت حياته، فאלله ممتاز، والدين عظيم. وهو يعبر عن رضاه بالقول: «نعم الرب ربنا ونعم الدين ديننا». فإذا تعرضت تجارته للخسارة وحياته للتفويض، تنكر لله وللدين. لماذا؟ لأن الدين كان على لسانه وليس في قلبه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١).

للحرف في هذه الآية معنيان؛ المعنى الأول، أن الإسلام قائم على حرفين اثنين، هما اللسان والقلب. فإذا وافق قلبك لسانك، ووافق لسانك قلبك، فهذا هو الإيمان. أما إذا كان على لسانك خلاف ما في قلبك، فأنت تعبد الله على حرف، أي تعبد بلسانك فقط. وهذا ما شرحه الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «الناس عبيد الدنيا. والدين لعق على أسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا مُحِصُوا بالبلاء قل الديانون».

أما المعنى الثاني للحرف في هذه الآية هو أن بعض الناس يعبدون

(١) الحج/ ١١.

الله على حرف، أي على جانب واحد، هو جانب الربح والخسارة، فهو يزين الإيمان والعقيدة بميزان واحد، هو ميزان الربح والخسارة. كأنما الأمر يتعلق بصفقة تجارية، فإذا كانت الصفقة رابحة فنعم الدين ونعم الإيمان، أما إذا خسرت الصفقة، فبئس الدين وبئس الإيمان. هكذا كانت عبادة بعض الذين هاجروا من مكة إلى المدينة. كانوا إذا ازدهرت أحوالهم وتوالدت خيولهم ووضعت نساؤهم ذكوراً، هلّوا للدين الجديد. أما إذا تعثرت أحوالهم وحالت خيولهم ووضعت نساؤهم إناثاً، تبرموا بالدين الجديد وتتكروا له. إنهم يذكرون الله ويعظمون الإسلام أيام الربح، وينسون الله ويتكرون للإسلام أيام الخسارة. هؤلاء هم الذين يعبدون الله على حرف واحد هو اللسان. إنهم لا يعرفون أن الحياة الدنيا ابتلاء واختبار. لذلك، ما أن تصيبهم محنة حتى يسقطوا ويتزعزع إيمانهم. لقد حسبوا الحياة الدنيا يسراً من دون عسر. أما الذين يعرفون أن الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان، فإن المحن تزيدهم ثباتاً على إيمانهم. إن محنة كربلاء وما نجم عنها من محن، لم تضعف من إيمان بطلة الإسلام العاقلة زينب عليها السلام. وها هي تقف أمام الطاغية يزيد وهي مريطة بالحبال، وتقول له: إني لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعتك. فمهلاً مهلاً، لا تطش جهلاً، أنسيت قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّنا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرًا لأنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١).

*** في المحن يتميز الخبيث من الطيب:**

عندما تتعرض الأمة لمحنة كالحرب أو الغزو. فإن هذه المحنة محك

(١) آل عمران / ١٧٨.

للناس، فهي تفرزهم إلى طيب وخبث. فالمؤمن يزداد في المحنة طهراً وإيماناً. أما ضعيف الإيمان أو عديمه فإن المحنة تصنع منه مجرماً بشعاً. وقد عشنا هذه التجربة أيام الحرب التي تعرضت لها الكويت. فقد رأينا بعض التجار يخرجون الأموال وسلعهم ويوزعونها على الناس بلا مقابل. وقد رأيت بأم عيني بعض الناس يطرقون الأبواب ليلاً على المحتاجين ويعطونهم المال والقمح واللحم. وقد عبر هؤلاء عن أروع صور التلاحم والوحدة بين أبناء الأمة. وما فعلوا ما فعلوه إلا لأنهم مؤمنون حق الإيمان.

وبالمقابل، فإن الحرب أفرزت وحوشاً كاسرة في ثياب بشر انقضوا على الناس يقتلون ويسلبون وينتهكون الأعراض. ويأتون الكبائر لأتفه الأسباب. وما فعل هؤلاء ما فعلوه إلا لأن قلوبهم مظلمة لم ينورها الإيمان. لقد قامت حياتهم على الحرام. فمسح الشيطان بيده على وجوههم قائلاً: «بوركت وجوه لم تعرف الخير قط».

لقد خاطب الإمام الحسين عليه السلام أولئك الذين جاؤوا لقتاله، قائلاً: «لقد ملئت بطونكم من الحرام». ولقمة الحرام تمسخ المرء وحشاً لا ضمير له ولا وجدان ولا إيمان.

رؤية القرآن للكون والحياة والإنسان

* حياة الإنسان كل لا يتجزأ:

إن القرآن الكريم، يربط كل أجزاء الكون ومظاهر الحياة في سبيكة واحدة. وهو يعلمنا أن طعامنا لا ينفصل عن صلاتنا. ولتكون صلاتك حلالاً يجب أن تكون لقمته حلالاً.

وفلس حرام واحد، إذا دخل طعامك أفسده. وهذا العلم لا تجده في أية جامعة لا تستوحي الإسلام في برامجها وتوجهاتها. ففي جامعات هارفرد وكمبردج والسوربون وموسكو وبكين ونيويورك، مثلاً، لا يعنيه أن يعرفوا هل اللحم الذي يأكلونه لحم خنزير أو خروف أو عجل أو حصان. ولا يعنيه أن يعرفوا الطريقة التي ذبح بها الحيوان الذي يأكلون لحمه.

أما نحن، فقد أنعم الله علينا بالإسلام، ومن كتاب الله وسنة الرسول وأهل البيت، نستمد إيماننا وعقيدتنا وعلومنا. إن القرآن يربط وجودك، بكل مظهره، بالله تعالى.

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

فالطعام الحلال الطيب يوفق للعمل الصالح الطيب: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٢).

(١) الأنعام/ ١٦٢.

(٢) المؤمنون/ ٥١.

وكأنما العمل الطيب الصالح مرتبط ارتباطاً مباشراً ووثيقاً بالأكل
الحلال الطيب.

أما الطعام الخبيث فمرتبط بالعمل الخبيث. ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ
نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَشْكُرُونَ﴾ (١).

وهذا ما قصد إليه الإمام الحسين عليه السلام عندما قال للذين احتشدوا
لقتاله يوم عاشوراء: لقد ملئت بطونكم من الحرام، والذي ملأ بطنه
من الحرام لا يجد حرجاً في قتل الإمام الحسين عليه السلام وإحراق بيوت
آل الرسول ، وسلب النساء وقتل الأطفال في حجور أمهاتهم.

* كيف تقاوم الظلم؟

عندما نرى ظلماً، كثيراً ما نتساءل قائلين: لماذا لا يتدخل الله ويضع
حداً لهذا الظلم؟! أي أننا لا نذكر الله إلا أيام الشدة، أما أيام الرخاء
فتحن عن ذكره غافلون. إن الله تعالى يطالبنا برفض الظلم، ويعلمنا أن
الذي يطمئن إلى الظالم يؤول إلى جهنم. ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (٢).

والإسلام يعلمنا أن من أعان ظالماً سلطه الله عليه. بعد ذلك، هل
يجوز أن نبقى مكتوفي الأيدي أمام الظلمة والطفافة؟ إن الإسلام يكلفنا

(١) الأعراف / ٥٨.

(٢) هود / ١١٢.

ويأمرنا بمقاومة الظلم. ويكون ذلك بطريقتين متلازمتين لا تغني إحداهما عن الأخرى.

أولى الطريقتين التوكل على الله والدعاء له والثقة به ثقة مطلقة. فאלله تعالى هو الذي أنعم علينا بالأمن والأمان والوحدة والحرية. فلا بد أن نقابل هذه النعمة بحمد الله وشكره. أما الذين يزعمون أن الغربيين هم الذين أنعموا علينا بالأمن والأمان والوحدة والحرية كما يناقشني في ذلك بعض الشباب مشافهة أو مكاتبة، فهؤلاء واهمون ومخطئون.

إن الغربيين لم يتحركوا من أجل سواد عيوننا، فقد قدموا الفواتير واستلموا الشيكات سلفاً. والمال الذي دفع لهم مصدره، كما هو معلوم لدى القاضي والداني، هو النفط، والنفط رزق من الله وعطاء منه. أما أن يأتي حاكم ظالم ويدمر مصادر النفط، فهذا أمر آخر. ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (١).

والتي قالت هذا القول هي بلقيس ملكة سبأ وقد شهد الله بصحة رأيها، ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. إلا أن لا يتناقض مع كون النفط رزقاً أنعم الله له. فالشكر كل الشكر يجب أن يتوجه إلى الله دون غيره.

أما الطريقة الثانية في مقاومة الظلم، ويجب أن تلازم الطريقة الأولى فهي التعاون والإصلاح، ولا يمكن لمجتمع أن يقاوم ظالماً إلا بالتعاون والوحدة والإصلاح. قال الإمام الحسين عليه السلام: "إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي".

(١) النمل / ٣٤.

فلنربط أنفسنا بالإمام الحسين عليه السلام ولنسرف في خطه، ولنعمل على إلغاء الظروف التي تحبل وتلد الظالم، قال الإمام علي عليه السلام: "لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيؤلّ عليكم شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم". إذن نحن مسؤولون عن السكوت على الظروف التي تؤدي إلى وجود الظالم المستبد. ولا بد لإلغاء الظلم، من إلغاء الظروف التي تولده.

* الرسائل السماوية لم تقم على لوي الأعناق:

من المعلوم أن السيطرة على الجوانب المادية من الحياة، تقوم على ركيزتين أساسيتين، هما المال والسلاح. وإذا استقرأنا تاريخ الأنبياء من أولهم آدم إلى خاتمهم محمد ، نجد أن الله تعالى لم يدعمهم بشكل كامل بهاتين الركيزتين. مع أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (١).

فالعصا هي القوة التي جابه بها موسى عليه السلام سلاح فرعون ومال قارون. ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (٢).

(١) الأنفال / ٦٠.

(٢) طه / ١٧-٨.



قد يقول قائل: لماذا لم يزود الله موسى بالمال والسلاح؟ لهذا نقول: إنها مشيئة الله في الانتصار على الكفر بغير المال والسلاح. فلو كان الرسول الأعظم يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويعتمد على الجيوش المدججة بالسلاح لما امتنع أحد عن الدخول في الإسلام، ولكان أبو لهب أول الداخلين، إما خوفاً على رأسه، وإما طمعاً في المال، وهو المعروف بحبه لجمع المال ومنعه. ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (١).

وقال ذلك بالنسبة لأبي سفيان وأبي جهل وأمية بن خلف ومن لف لفهم.

دخل أحد الحكام الظلمة في حرب مع حاكم آخر. فجمع الناس في مكان يتسع لهم. ثم قال لهم: الذي يحبني ويؤيدني يقف في الجهة التي أقف فيها. ومن يحب عدوي ويؤيده يقف في الجهة المقابلة. طبعاً لم يجرؤ أحد على الوقوف في الجهة المقابلة. فقال للناس: "أحسنتم، وكم هو رائع أن تحبوني وتؤيدوني جميعاً. فهيوا بنا إلى قتال العدو".

إن هذا الأسلوب غير موجود عند الأنبياء والرسل. لأن الله تعالى لا يريد أن يؤمن به الناس خوفاً من السيف أو طمعاً بالمال، يريد أن يدخلوا في دينه أفواجاً بطواعية وإرادة حرة. قال الإمام علي عليه السلام: إلهي، لم أعبدك طمعاً في جنتك ولا خوفاً من نارك وإنما وجدتكم أهلاً للعبادة فعبدتكم".

(١) المسد / ١-٢.

وحتى المعاجز لا يؤيد الله بها أنبياءه دائماً. فالقمر لم ينشق للرسول إلا مرة واحدة. والحصوة في كفه، لم تكلمه على مسمع من الناس، إلا مرة واحدة. ولم ينزل الله في بيت الزهراء مائدة من السماء إلا مرة واحدة، لماذا؟ لأن الله تعالى لا يريد أن يجعل حياة الأنبياء والأئمة عليهم السلام قائمة كلها على المعجزات. لأن المعجزة تلوي عنق من يراها. ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (١).

طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن ينزل لهم مائدة من السماء، فقال لهم عليه السلام: "اتقوا الله ولا تطلبوا نزول مائدة من السماء". قالوا: لماذا يا روح الله؟ قال عليه السلام: "لأن المائدة إذا نزلت عليكم من السماء، ورأيتم معجزة نزولها، فإن الله تعالى سيضاعف مسؤوليتكم عن الخطيئة التي يمكن أن تقعوا فيها".

وفيما عدا المعاجز وهي خوارق استثنائية، فإن الأنبياء والرسل بشر كسائر الناس: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (٢).

لقد كان الرسول يبيت على الطوى. وقد يمر الأسبوع والأسبوعان ولا توقد النار للطبخ في بيته. لأنه لا يملك شيئاً يطبخه. والإمام علي والزهراء وولداهما الحسن والحسين عليهم السلام يبيتون على الطوى بعد الصيام ثلاثة أيام متوالية. لأنهم أطعموا أفطارهم لمسكين يوماً وليتيم يوماً آخر ولأسير يوماً ثالثاً.

ألم يكن بإمكان الله تعالى أن ينزل من السماء على الرسول وعلى

(١) الشعراء/ ٤.

(٢) الكهف/ ١١٠.

أهل البيت مائدة، بل موائد؟. ولكن ذلك لو حدث لكان مخالفاً لطبيعة الحياة وحكمة الله فيها. نحن، إن لم ندرك هذه الحقيقة، تعرضت عقيدتنا للاختلال والاهتزاز. وإلا ما معنى أن يتربع يزيد على عرشه، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالؤلؤ. وبين يديه رأس الإمام الحسين عليه السلام في طشت من ذهب؟! هل هذا يعني أن الحق كان مع يزيد؟ استغفر الله، إنها مشيئة الله في أن تكون الحياة الدنيا دار اختبار وامتحان.

* من مظاهر الشمولية في القرآن:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١).

تحدث الآيتان الكريمتان عن ظاهرتين، أولاهما اجتماعية، وثانيتهما كونية طبيعية.

١- الظاهرة الاجتماعية:

أما الظاهرة الاجتماعية، فهي تداول الملك. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (٢).

(١) آل عمران / ٢٦-٢٧.

(٢) آل عمران / ١٤٠.



وهذا التداول غرضه الخير. "بيدك الخير". فتداول الحكم وتداول الملك وتداول الأيام إنما يتم بأمر الله ولخير الناس.

دخل عمار بن إسحاق علي الإمام الصادق عليه السلام وقال: يا بن رسول الله. ألا يعني قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ .

إن الله قد أتى بني أمية الملك؟ قال الإمام عليه السلام: "لا يا عمار إن الله آتانا نحن الملك، ولكن بني أمية غصبونا حقنا".

قال الإمام علي عليه السلام: "أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي. ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير".

إن تقصير الناس في طاعة الله وركونهم للظلم هو الذي يأتي بالظالم إلى الملك ويجعل منه فرعوناً. ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١).

فالظالم لا ينال عهد الله أبداً. لأن أول شرط فيمن يولى شؤون الناس، هو العدل. سواء كان إماماً أو خليفة أو ملكاً. وإذا كان العدل مطلوباً في الإنسان العادي، أليس من الأولى أن يكون مطلوباً ممن بيده السلطة على رقاب الناس وأرزاقهم. فهل من المقبول في العقل والمنطق أن يفوض هذه السلطة لظالم؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والملك في الآية الكريمة، وكما نعرف من أسباب نزولها، تعني الملك المطلق وليس الملك المقيد. فالنبوة والإمامة والعافية والرزق من الملك، ملك الله تبارك وتعالى وهو الذي يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء.

(١) البقرة/ ١٢٤.

لقد أخرج الله النبوة من بني إسرائيل وجعلها في الحبيب المصطفى ، وفي أهل البيت عليه السلام . لأن بني إسرائيل عصوا الله تعالى، بينما أطاعه الرسول وأهل البيت عليه السلام . والله تعالى يعز الناس بطاعته ويذلهم بمعصيته.

٢- الظاهرة الطبيعية الكونية:

وأما الظاهرة الطبيعية فتتجلى في قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ .

أي أن الله تعالى يوالي بين النهار والليل ويدخل أحدهما في الآخر زيادة أو إنقاصاً تبعاً لطول كل منهما . وهو سبحانه يخرج الحي من الميت في العين المجردة، فبيضة الدجاجة ميتة في الظاهر، أما الفرخ الذي يخرج منها فهو حي . وقل ذلك بالنسبة للنطفة، فإنها مع وجود الملايين من الخلايا الحية فيها، تبدو للعين ميتة . أما الإنسان الذي يتخلق منها فهو حي . هذا من الناحية الحسية، أما من الناحية المعنوية فإن الله تعالى يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن . كما أخرج كنعان وهو كافر من أبيه نوح وهو مؤمن . وقد كنى الله تعالى عن المؤمن بالحي . وعن الكافر بالميت .

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

فالإنسان الحي، هو الذي نور الإيمان قلبه وزينه بالشيم النبيلة كالوفاء والصدق والأمانة وحب الغير والاستعداد للبذل والعطاء . هذا

(١) الأنعام / ١٢٢ .

هو الإنسان الحي حقاً. أما الإنسان الذي أظلم قلبه بالكفر ومات ضميره فاندثر حسه الإنساني فهو بحكم الميت. إن الذي يقتل النفوس بغير حق، ويعتدي على الأعراض ويروّع الأطفال ويحرق البيوت، إن هو إلا قبر يمشي على قدمين.

دخلت على الرسول الأعظم فتاة استمت بالكمال والجمال والتقوى والصلاح، اسمها خالدة بنت سواد بن عبد يغوث وكان كافراً. فلما عرفها الرسول قال: سبحان الله الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي.

لقد توهم الطفلة أنهم قتلوا الإمام الحسين عليه السلام، وما دروا أنه حي في وجدان الشعوب وقلوبها، وحيثما توجهت تسمع صرخة "يا حسين" مدوية تهز عروش الظلم والطغيان.

فالإنسان المؤمن نعمة وخير لنفسه وللآخرين، لذلك اعتبره الله تعالى ويعتبره الناس حياً. أما الإنسان الكافر فهو نقمة وشر لنفسه وللآخرين. لذلك اعتبره الله تعالى ويعتبره الناس ميتاً. ولأن الرسول وأهل البيت -عليهم السلام- هم المثل الأعلى في الإيمان فقد أمرنا الله تعالى بحبهم حتى يزداد إيماننا توهجاً ووجودنا غنى.

* حب الله هو الأساس:

يتنازع نفس الإنسان عاطفتان هما الحب والبغض، ويتجلى الحب في التعلق بالمحبوب والانجذاب إليه. أما البغض فيتجلى في النفور من البغيض والابتعاد عنه. فقلب المؤمن يحب الله وأهل الإيمان، ويشعر



صاحبه بانجذاب نحو الله وأهل الإيمان. أما قلب الكافر فينفر من الله ومن أهل الإيمان، ويشعر صاحبه بانجذاب نحو الشيطان والأشرار.

وحب الله هو الأساس الذي تتفرع عنه كل قضايا الإيمان والصالح والفلاح. وهذا الحب لا حدود له، لأن المحبوب هو الحق الذي لا حدود له والذي تعالى على الوصف. ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١).

ولكن حب الله لا بد أن يقوم على أساس، ولا بد أن يكون له رمز. لا بد أن يقوم على أساس في القلب ورمز في السلوك، حتى يتم التفاعل بين المحب والمحبوب. فما هو هذا الأساس، وما هو هذا الرمز؟

♦ حب أهل البيت عليه السلام أساس ورمز لحب الله.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢).

فحب الله مشروط باتباع الرسول واتباع الرسول مشروط بمحبة وحب أهل البيت عليه السلام. إذن حب الرسول وأهل البيت هو أساس ورمز حب الله سبحانه وتعالى. وهذا ما لم يفتن إليه أهل التصوف، فوقعوا في مطب كبير لأنهم ابتعدوا عن أهل البيت عليه السلام.

إن المتصوف الذي لا ينفك يتحدث عن حب الله، يغيب عن باله أن أي حب لا بد أن يترجم بتصرف أو كلمة أو رمز. لا بد أن يترجم بعمل يدخل الفرح إلى قلب المحبوب، كأن يقدم له المحب باقة ورد أو يبعث له برسالة ود أو كلمة حب.

(١) الأنعام/ ١٠١.

(٢) آل عمران/ ٣١.

ومثل المتصوف كمثّل رجل وقع في بئر لا ماء فيه. فمر جماعة بهذا البئر فرأوا أن يضعوا على فوهتها صخرة كي لا يقع أحد فيها، وسمعهم الرجل يتداولون في الأمر فقال في نفسه: لو قلت لهم أنني هنا وطلبت معونتهم أكون قد خلصت نفسي من البئر ولكنني وقعت في الشرك.

والوقوع في البئر والموت فيه أهون من الوقوع في الشرك. يورد أبو حامد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" ويقول: بعد أن مات الرجل المؤمن في البئر، مر جماعة بالبئر وكانت تبحث عن ماء. فقال بعضهم: لعل في هذه البئر ماء فأزاحوا الصخرة عن فوهتها، ونظروا في داخلها فرأوا جثة رجل وبجانبها رسالة. أخذوا الرسالة وقرأوا ما كتب فيها، وفهموا منها أن كاتبها هو صاحب الجثة، وهو يقول فيها: "لقد سمعت أولئك الذين وضعوا الصخرة على فوهة البئر. ففكرت في أن أقول لهم أنني في البئر وأطلب إليهم أن ينتشلوني منها. ولكن هذا يعني أنني لا أحب الله. فحبي الله يمنعني عن سؤال غيره. لذلك فضلت أن أموت على أن أطلب المعونة من غير الله".

وقد ساق الغزالي هذا المثل، أو الحادث إذا كان قد وقع، للاستدلال على عمق وشدة حب الرجل لله.

أي حب هذا الذي يستدل عليه الغزالي؟ هل حب الله يقتضي أن نلقي بأنفسنا في التهلكة، وقد نهانا سبحانه وتعالى عن ذلك؟ ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (١).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢).

(١) البقرة/ ١٩٥.

(٢) النساء/ ٢٩.

إن رأي الغزالي مناف للفطرة. فالغريق يتشبث ولو بأسلة عشب. وكان على الرجل أن يصرخ قائلاً للجماعة التي سدت فوهة البئر: أنا هنا، أنقذوني.

فهل وقع يوسف في الشرك عندما رضي أن يلتقطه بعض السيارة؟ هل كان عليه، ليدلل على حبه الله، أن يرفض انتشاله من البئر؟!

حقاً إنها عقلية تثير الاستغراب، تلك التي روج لها الغزالي وأمثاله. وما سبب ذلك إلا الابتعاد عن أهل البيت، مع أن حب أهل البيت شرط لاتباع الرسول وحبّه، وحب الرسول واتباعه شرط لحب الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

فهل من المقبول في العقل والمنطق أن يتبع الإنسان الرسول دون أن يحبه؟ وهل من المقبول في العقل والمنطق أن يحب الإنسان الرسول ولا يحب أهل بيته عليهم السلام؟!

*** إحياء ذكرى الإمام الحسين عليه السلام رمز لحب الله ورسوله:**

أخي المؤمن:

إن إحياءك ذكرى الإمام الحسين عليه السلام إحياء لذكرى رسول الله وإحياءك لذكرى رسول الله رمز لحبك الله تعالى وحبّه إياك. لأن الإمام الحسين عليه السلام حبيب الله وحبّيب رسوله. قال الرسول: "حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً". وهذا حديث ثابت في صحاح المسلمين جميعها.

(١) آل عمران/ ٣١.

بالمِرصاد !!

سؤال: كيف ينشأ الظلمة وكيف يمكن التغلب عليهم ..

يوجد سبب واحد لتكوين الظالم في المجتمع .. وهو أن يترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وهنا ينتشر الفساد، وتعم الفوضى ويبدأ الشيطان ينظم ويضبط أعماله وهنا تصح القاعدة في علم الاجتماع التي تقول: "كيفما تكونوا يولى عليكم" وذلك وفقاً للقانون الاجتماعي الذي تركه فينا علي أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه: "لا تتركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم" وهنا تقع الرزية وتعم المصيبة حيث يبدأ الظالمون ببسط سلطانهم، وأعمال نفوذهم وتسلطهم على الرقاب حيث لا ينفع دعاء ولا دموع .. لأن الدعاء عندها يكون محجوباً بسبب الذنوب التي تمارس في المجتمع وهذه الذنوب هي التي تنزل البلاء، وتقطع الرجاء وتكسر الظهر.

وقد كشف الإمام علي عليه السلام النقاب عن هذه الحقيقة في دعاء كميل، إذ يقول: "اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم .. اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء .. اللهم غفر لي الذنوب التي تنزل البلاء .. اللهم اغفر لي كل ذنب أذنبته وكل خطيئة أخطأتها ..".

إذاً : فهذه هي الأسباب التي تساهم في تكوين الطغاة والظلمة في المجتمع .. وقد ذكر القرآن الكريم في آياته السبب الذي من أجله ينشأ



الطغاة، والطريقة التي تتم فيها مقاومتهم .. وتتلخص في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتركه والابتعاد عنه .. ففي الحالة الأولى يكون الطريق مفتوحاً، أمام الطغاة والظالمين .. بينما في الحالة الثانية يصبح الطريق مسدوداً بوجه الطغاة حينما يقوم الناس بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهم مؤمنون بالله وبالرسول واليوم الآخر.

على أننا نقرأ في آية كريمة تصويراً دقيقاً لنفسية الطاغية ولون تفكيره، وحتى خلجات نفسه وانحطاطها .. وذلك في محاولة في القرآن الكريم لاجتتاب الوقوع في فخ الطغاة والظلمة. تقول الآية الكريمة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (١).

فبين القرآن لون هذا الطاغية وهو أولاً-يملك منطقاً يثير الإعجاب في النفوس، وهو إشارة صريحة وواضحة إلى زخرف القول في الإعلام وأبواق الدعاية التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان ومكان، فالإذاعة والتلفزيون والصحافة، والأقلام المرتزقة هذه كلها تهب في حملة رجل واحد لدعم هذا الظالم والإبقاء عليه لأنه يضخ بأمواله ونفطه وذهبه، وفضته عليهم .. أي على هؤلاء المرتزقة الذين أحاطوا به يدافعون عن رعونته، ويبررون ظلمه، ويلمعون وجهه البشع القبيح.

(١) البقرة/ ٢٠٤-٢٠٦.

هذا أولاً -وثانياً إنه هو ذاته يتحدث فيكثر من ذكر الله في حديثه للتعمية والتضليل: يشهد الله على ما في قلبه .. ولكن الحقيقة أنه ألدّ الخصام، وأخطر الأعداء على سلامة المجتمع .. لأنه إذا وصل إلى الكرسي وأخذ زمام السلطة، يبدأ بنشر الفساد وإشاعة الفاحشة، وتسهيل كل طرق الميوعة والانحلال والفساد بفتح دور الملاهي، والرقص والغناء، وحانات الخمور وانتشار الفجور، وتيسير أمور الفجرة الفسقة وهكذا إلى ما لا نهاية ثم هو -أي الطاغية- يرفض أية نصيحة تقدم إليه من قبل الشعب، فإنه إذا قيل له: اتق الله .. أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهادر.

لقد وصلت هذه الحالة المتردية في المجتمع أيام عبد الملك بن مروان إلى درجة فظيعة بحيث إنه قال في أثناء خطبة الجمعة ما نصه بالحرف الواحد: لا يأمرني أحد بعد هذا اليوم بتقوى الله إلا ضربت عنقه بسيفي هذا. وواضح أن هذا من أكبر الذنوب وأعظم الخيانة .. لأنه يكشف عن أدنى وأحط مستوى يمكن أن يصل إليه الإنسان.

يقول ابن مسعود: "إن من الذنوب التي لا تغفر أن يقال للرجل: اتق الله، فيقول: عليك نفسك".

ويقسم الإسلام الطاغية إلى نوعين: نوع مكر فطن .. ونوع غبي بليد .. ولكل واحد منهما مواصفات خاصة ومحددة به دون غيره .. فالطاغية الماكر الفطن يكون -في العادة- غادراً في الحرب .. وفاجراً في السلم، بخلاف النوع الثاني الذي يكون في الحرب شرساً وفي السلم مستهتراً .. وإذا أردنا أن نطبق هذين الوصفين على لوتين من الطغاة فإننا لا نجد أمامنا أفضل من معاوية ويزيد لهذه الفضيلة (...)

إذ أن معاوية بن أبي سفيان كان يغدر في الحرب ويفجر في السلم، ومواقفه واضحة لا تحتاج إلى دليل يدع عليها .. ففي الحرب كان غداراً وفي السلم كان فاجراً .

على أن عملية رفع المصاحف في الحرب .. ومنع الماء عن الإمام علي وجيشه .. وتمرد معاوية في الشام وعدم انصياعه وطاعته لإمام الزمان الحق علي بن أبي طالب عليه السلام كل هذا يدل على غدر معاوية في الحرب .. أما بالنسبة لفجوره في أيام السلم فيكفي أن تقرأ خطبة الجهاد للإمام علي حيث يصور فيها هذا الجانب من معاوية، لتعرف كم كان معاوية غارقاً في الغدر والفجور إلى آخر شعرة في رأسه ..

على أننا نقرأ في مكان آخر من نهج البلاغة قولاً للإمام علي عليه السلام يصف فيه نفسية معاوية فيقول: "والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر.. ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس".

إن الطاغية الماكر يتحين الفرص فإذا لاحت له فرصة أسرع لاقتناصها من دون أن يفكر بالحلال أو الحرام .. وإنما همه أن يصل إلى غايته بأية وسيلة كانت، سواء عنده الحلال والحرام .. يقول الإمام علي في ذلك: "قد يرى الحول القلب وجه الحيلة، ودونها حاجز من أمر الله ونهيه فيدعها رأي العين، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في دين" والحول القلب يعني الرجل الذي يعرف كل الطرق له حيلة في كل شيء وقلب الأمور كلها فلا تخفى عليه خافية في مسار الحياة غير أنه ربما وجد الطريق مفتوحاً أمامه .. ولكن في الطريق مانعاً من أمر الله ونهيه فيترك الفرصة تذهب من بين يديه .. بينما ينتهز فرصتها من لا حريجة له في دين .. فالذي ليس له دين، ولا ضمير يسرع إلى



اقتناصها، والتفرد بها .. وهذا ما حصل لموقف الإمام علي من معاوية بن أبي سفيان، حيث كان هذا الأخير لا يتورع في أي عمل يقوم به ابتغاء الوصول إلى غايته وهدفه لأن الغاية تبرر الوسيلة عند معاوية .. في حين أنها لا تبرر الوسيلة عند الإمام علي أمير المؤمنين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- ولذلك رد على الذين أشاروا عليه أن يهادن معاوية .. رد عليهم بقوله: "تأمروني أن أطلب النصر بالجور؟!" .

ويا لها من كلمة عظيمة كشف عن عظمة من قالها .. وتدل على المبادئ العظيمة التي كان يحملها علي بن أبي طالب من أجل خلاص الإنسانية من الظلم والعذاب.

هذا كان بالنسبة لصفات الطاغية الماكر الفطن مثل معاوية .. أما بالنسبة للنوع الثاني وهو الطاغية البليد الغبي، فمواصفاته تتطبق على يزيد بن معاوية حيث كان شرساً في حربه .. ومستهتراً في أيام السلم .. ففي الحرب رأيناه ماذا صنع يوم عاشوراء بريحانة رسول الله وقرة عين الزهراء الإمام الحسين عليه السلام حيث قتله عطشاً وحمل نساءه وأطفاله على اقتاب الجمال يطاف بهن من بلد إلى بلد وهن ودائع الأنبياء وبنات رسول الله .. وسيأتي الكلام عن هذه الجريمة البشعة التي اقترفها يزيد بن معاوية بحق أهل البيت -عليهم السلام سيأتي الكلام عنها في حينها إن شاء الله.

*** أكل الحرام وانعكاسه على النفس:**

هذا وإن أكل الحرام يترك أثراً عكسياً على النفس .. وحتى النطفة



الحرام تؤدي إلى تكوين أمثال هؤلاء الطفلة اللئام .. ولذلك يوجد عندنا في الفقه الإسلامي بحوث علمية حضارية تصب اهتمامها في هذا الجانب التربوي الخطير من الإنسان، فأكل الحرام يؤدي إلى الانحراف والجنوح ولهذا وقف الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء يخاطب القوم ويصور نفسياتهم الجبانة المظلمة فيقول: "ملئت بطونكم من الحرام .." فيظهر أبو الشهداء أن السبب الرئيسي وراء انغماسهم في حمأة الشيطان، إنما هو أكلهم السحت والحرام.

على أن الفقه الإسلامي في هذا المسعى يصل به الحرص إلى امتناع الناس عن الحرام إلى درجة الكراهة الشديدة أن يعاشر الرجل زوجته وفي ذهنه امرأة أخرى لأن هذا اللون من المعاشرة يترك أثراً سلبياً على الجنين الذي سيتكون في أحشاء الزوجة .. وذلك أن النطفة حين انطلاقها من الرجل تكون متأثرة بلون تفكيره فإذا كان يفكر بمعاشرة امرأة ثانية من الحرام فإن هذا اللون من التفكير يصبغ النطفة بغمامة من الحرام والقدرة على الانحراف .. ولهذا نجد الإسلام يضع مناهج تربوية في هذا الباب وخصوصاً في المعاشرة بين الرجل والمرأة حيث توجد أدعية وصلاة ومنها أن يكون الإنسان على وضوء وأن يبدأ بالتسمية، ثم بعد ذلك ينطلق في المداعبة وشؤون الإثارة وتحريك مكامن الشهوة عند المرأة ودغدغة مشاعرها بلطف الكلام وعذوبة الكلمات .. ورقة الحديث.

هذا جانب .. وجانب آخر يتمثل في الطريقة التي يتبعها الطاغية وهي أنه يجعل في مقابل الإيمان والعمل الصالح إثارة الشبهات ونشر المنكرات لأن الشبهات ضد الدين والإيمان .. والمنكرات تفسد العمل

الصالح فتنهار أعمدة المجتمع وقواعد الأخلاق، ومن ثم تسهل سيطرة الطاغية على رقاب الناس .. وهذا هو بالضبط ما صنعه معاوية وابنه يزيد من الفسق والفجور.

وقد وقف الحسن والحسين بوجه معاوية ويزيد فكان الإمام الحسن يمثل موقفاً موفقاً ناجحاً ضد كل طاغية مثل معاوية .. بينما كان الحسين يمثل موقفاً ناجحاً ومنتصراً ضد كل طاغية يجري مجرى يزيد بن معاوية في كل زمان ومكان.

وعلى فكرة أن التفكير في الذنب ينشأ سحاباً من الغبار في دخائل النفس، نقرأ هذه الأحاديث التي تكشف لنا عن الدقة في قدرة النفس على التأثر بغبار الذنوب بمجرد التفكير في اقتراف الذنوب، أو الدنو من الشيطان وحبائله الملتوية المتعرجة.

وسنتابع في وقت لاحق موضوع الظلمة الذين ظلموا الزهراء وقتلوا بهذا الشكل المأساوي.



الخطاب الهادف

هناك فئة من الناس يعيشون في غطاء عن ذكر الله لأن بصائرهم عميت وقلوبهم ران عليها ما كانوا يكسبون من الذنوب.

نقرأ في آية كريمة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (١).

والحجاب المستور هو الذي خرج على قدرة الحواس المادية أي أنك لا تستطيع أن تلمسه بيدك، ولا تستطيع أن تراه بعينيك فهو مستور عنك ولكنه يجري في الكون كما تجري الشمس في الأفق.

وكم هناك من قوانين وسنن تعمل في هذا النظام الكوني ولكننا لا نشعر بوجودها ولا نحسها لأنها لا تخضع للحواس وإنما نلمسها بعقولنا ونحسها بقلوبنا أي أنها خارجة على موازين المادة.

على أن القرآن الكريم يفتح لنا طريقاً نستطيع أن ندخل فيه متى شئنا المعرفة ومتى أردنا الحقيقة: إنه طريقة الإيمان بالآخرة لأن الإيمان بالآخرة هو وحده الذي يجعلك تفقه القرآن وتستوعب قوانين الله ومناهج الحق وبغير هذا الشرط يظل الواحد منا جامداً راكداً لا يدري شيئاً مما يجري حوله.

(١) الإسراء / ٤٥.



﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

على أن القرآن الكريم إذا أراد أن يتحدث عن القيامة فإنه يأخذ الكلمات بقوة ويختارها بعناية فائقة كما هي عادته في كل الأمور التي يطرحها .. ففي القيامة نجد الكلمات نوعين: نوعاً خاصاً بالنعيم، ونوعاً خاصاً بالعذاب والجحيم .. فالكلمات التي تتحدث عن الجحيم تكون في العادة قوية جارحة ليس فيها لين ولا نسيم. بينما كلمات الجنة تأتي رقيقة دافئة تنزل في القلوب كما ينزل الغيث في الأرض الجرداء .. كل ذلك لأجل أن تتفتح البصائر على الحقيقة ويستعد الناس للقاء رب العالمين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

* الإسلام والشباب:

ولكي يبدو الإسلام على حقيقته، ويدرك الناس عظمته فإنه لا بد لنا من عرض الإسلام الجيد الجميل: إسلام الحب والسلام لا إسلام الحرب والإقتتال والدماء.

إن شبابنا اليوم يتعرضون لرياح فكرية خبيثة تهب عليهم من الغرب والشرق فتصرفهم عن عقيدتهم ومبادئهم ويذهبون ينفقون أوقاتهم في الفراغ ساعات طويلة في الليل والنهار دون جدوى ودون فائدة تذكر .. كل ذلك وأكثر انما ينشأ من الفراغ العقائدي الذي يعاني منه شباب اليوم .. ولكي نحفظ أبنائنا من الضياع فإنه لا بد لنا من فتح نوافذ

إسلامية، ونشر الفكر الإسلامي الصحيح بأسلوب جميل وجذاب يستعذبه الشباب وتهفو إليه قلوبهم الطيبة البريئة فقد قال الرسول محمد : عليكم بالشباب فإنهم أرق أفئدة وأسرع إلى الخير ..

وفي حديث آخر يقول: "الله الله في الشباب" وطبعاً أنا هنا أنقل مضمون الحديثين وليس النص الكامل لأنني لا استحضر النص الشريف لهذين الحديثين .. ولكن من المؤكد أن النبي كما نجد ذلك في سيرته الذاتية كان يكرم الشباب ويجعلهم في مناصب قيادية يشار إليها بالبنان مثل أسامة بن زيد إذ جعله على رأس جيش كبير ونفس الصنيع صنعه مع عتاب بن أسيد إذ جعله أميراً على أهل مكة بعد الفتح .. ومواقفه مع حنظلة غسيل الملائكة .. ومصعب بن عمير واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار.

وكما في سيرة النبي كذلك في سيرة المرتضى علي وأولاده الأئمة المعصومين حيث كانوا يركّزون اهتمامهم على الشباب لهدايتهم إلى الحق وحل مشاكلهم.

دلني على الله

كان الإمام الصادق عليه السلام جالساً، فدخل عليه الديصاني، وهو رجل ملحد لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وطرح سؤالاً على الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام والسؤال هو: دلني على الله أين هو؟ .. فالتفت الإمام الصادق إلى طفل صغير كان يمشي أمامه في صحن الدار وفي يده بيضة فأخذ الإمام البيضة من يد الطفل، ثم وجه قوله إلى الديصاني متسائلاً: يا ديصاني إن هذا حصن حصين، تحته غطاء رقيق، وتحت الغطاء الرقيق أو الجدار الرقيق فضة ذائبة وذهبة مائعة، لا تختلط هذه لهذه، ثم تتفلق عن مثل ألوان الطواويس أترى لها خالقاً أم لا؟ وطبيعي أنني نقلت المعنى دون النص، وسيأتي النص في مكانه. ولكن إذا حفظت المعنى فلا مانع من نقله في قالب آخر كما صرح أهل البيت بذلك عليه السلام. وبالفعل نحن حين نفكر في هذه البيضة الصغيرة المؤلفة من جدار سميك وهو القشرة الخارجية ثم بعدها غطاء رقيق تحت الجدار، يسميه الإمام، جلدًا رقيقاً وبعد الجلد الرقيق البياض السائل والمحيح الأصفر، وكل واحد منها، له حدود ووظيفته، وهنا يتخلق الطير أو الكتكوت، الذي يأكل من المحيح المادة الصفراء، ويسبح في السائل الأبيض حتى لا يحتك جسمه الناعم بجدار البيضة ويتمزق، ثم بعد رحلة يقطعها داخل البيضة، هي عبارة عن واحد وعشرين يوماً أو قل ثلاثة أسابيع، يكون بعدها مهياً للخروج، ومعداً لاستقبال الحياة، وعندها أي عند إتمام هذه المدة، يبدأ الكتكوت بنقر البيضة من أضعف نقطة فيها ثم تتفلق البيضة ويخرج منها يلتقط الحب بمنقاره! أترى أله خالق ومعلم أم لا؟.

وهنا بهت الديصاني، وقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته.





تأملات وخواطر في منبر الخطابة

من وحي خطاب الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام

الخطيب والخطابة والمنبر الحر

لكي يستخدم المرء كل طاقاته في سبيل البناء والنجاح والظفر، فإنه لا بد له من معرفة الحواجز التي تمنع الإنسان من الانتفاع والاستفادة من مواهبه وطاقاته العقلية والفكرية والبدنية، فإن لكل واحدة من طاقات النفس تأثيراً خاصاً سلباً أو إيجاباً تتركه على السلوك، وتصيب بلونه عمل المرء. ومن هنا جاء تحذير قوي بهذا الخصوص، من أهل البيت - عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام - يقول الإمام علي:

«ينبغي للعاقل أن يحترس من سكر المال، وسكر القدرة وسكر العلم، وسكر المدح وسكر الشباب، فإن لكل ذلك رياحاً خبيثة تسلب العقل، وتستخف الوقار»^(١). ونحن عندما نتأمل هذا الحديث بشيء من العمق وقليل من التدبر، نكتشف حقائق، تثير الدهشة، ومنها أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام - قد وضع أيدينا - هنا - على العقبات التي تتكون في النفس فتمنع المرء من التقدم والنجاح.. وهذه العقبات هي: عقبة الغرور الذي يتسرب إلى داخل النفس بفعل كثرة المال والثروة فإن للمال حالة يتركها في داخل الإنسان تشبه حالة السكر، فكما أن السكران لا يلتفت إلى واقعه وحقيقته، كذلك صاحب المال الذي ضربته رياح الغرور يظل هو الآخر حائراً خائراً يتعثر في مطبات الطريق ومنعطفات الهوى والشیطان.. حتى يصل إلى درجة الطغيان، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾^(٢).

(١) كتاب غرر الحكم ص ٨٦٢.

(٢) العلق / ٦-٧.

وهذه حالة النفس البشرية عندما تتفصل عن الله، وتقطع علاقتها
بالسمااء.

وما ينطبق على سكر المال ينطبق على سكر القدرة - أياً كان نوعها-
فصاحب القدرة إذا لم يكن لديه دين ولا إيمان فإنه يصاب بالغرور،
والكبر.. فينطلق في الحياة كالحيوان المسعور إذ إنه لا يفرق بين النافع
والضار وإنما كل همه أن يؤكد وجوده، ويركز شخصيته بأي وسيلة
كانت، وليس عنده أفضل من هذه الوسيلة وهي وسيلة القدرة، وهذا
التاريخ سجل حافل بجرائم الطفافة، ورعونة الظلمة وأعوانهم بفعل
تراكم القدرة عندهم، قدرة السلطة، وقدرة المال، وبقية القدرات..

ونفس الشيء يقال بالنسبة لقدرة العلم فإن لها رياحاً خبيثة -على
حد تعبير الإمام علي- تستلب العقول من الرؤوس، وتستخف الوقار
فتدفع بالعالم الذي لا إيمان له ولا ضمير، تدفعه في سبيل الغي
والضلال والدمار فيحول نعمة العلم إلى دمار وكفر وتسافل، فتراه بدل
أن يخدم الناس بالعلم يهدم كيانهم ويفري لحومهم وأوداجهم كما يرى
المشاهد ما يجري على مرأى ومسمع منا.

هذا بالنسبة لهذه الطاقات، أما بالنسبة لما قيل عن المدح، والشباب
وغيرها فإنها تسكر الإنسان الضعيف الصغير العقل فتصيره مخلوقاً
بلا ضمير ولا وجدان. هذا بالإضافة إلى الموانع والحواجز النفسية
التي تتشأ في أعماق النفس كما تتشأ الطفيليات في الأحراج مثل
اتباع الهوى، وطول الأمل، والحرص والحسد، والبخل.. وهي غرائز
شتى يجمعها سوء الظن بالله.. فتتشأ بفعل فقدان الإيمان، وانعدام
اليقين حيث تصبح النفس عشاً للشك والتردد، والوصول..



يقول أمير المؤمنين عليه السلام: وحبسني عن نفعي بعد أملي، وخدعتني الدنيا بغرورها، ونفسي بخيانتها.. ومطالي يا سيدي.. وهذه كلها إنما تذكر من أجل أن يأخذ الخطيب حذره، لكي لا يتسرب الغرور إلى رأسه فيكون مثل أحد الخطباء الذي صعد المنبر وحين نزل قالوا له: كثر الله أمثالك، فقال: لقد كلفتم الله شططاً! أي أن الله لا يقدر على أن يأتي بخطيب مثلي، وهذا هو الغرور بعينه.

على أن أول ثمار الغرور أنه يسد الطريق أمام الخطيب فيمنعه من الوصول إلى هدفه. وهدف الخطيب المسؤول يتلخص في إنقاذ الناس من أعدائهم، وتثويرهم بالإيمان والوعي... وذلك بتحريك مشاعرهم وإثارة عقولهم وتغذيتها بالوعي لمعرفة حقيقة الحياة.

وبالمناسبة، فهناك خطيب داعية، وخطيب تاجر. ونحن لا نبحث عن الخطيب التاجر وإنما نفتش عن الخطيب الداعية الذي يظماً من أجل إرواء الآخرين، ويجوع من أجل المعذبين في الأرض -إننا نبحث عن الخطيب الذي يعيش في قلوب الجماهير.. لا الخطيب الذي يعيش في القصور الحمراء، وفي أروقة الظلمة وأعوان الظلمة.

إن الناس -في العادة- لا يتبعون الخطيب التاجر المحترف.. وإنما يتبعون الخطيب الداعية الذي لا يسألهم أجراً ولا يساوم على منبر الحسين عليه السلام. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ^(١).

(١) يس/ ٢١.

وقد جريت ذلك بنفسى فوجدت الناس يقدون الداعية الذي لا يسألهم أجراً بأنفسهم، يقدونه بكل ما يملكون بل وهم على استعداد لأن يضحوا من أجل مبادئه وأهدافه التي يناضل من أجلها، في حين أنى وجدت الناس ينفضون من حول الخطيب الذي يزن كلماته بميزان الدينار والدرهم فيعطيههم بقدر ما يعطون، ويمنع عنهم ما يمنعون.. إن هذا الخطيب لا يستطيع أن يترك أثراً كبيراً في النفوس.. لا ولا حتى أثراً صغيراً لأن كلامه يذهب أدراج الرياح، فما خرج من القلب وقع في القلب، وما خرج من اللسان لا يتعدى الآذان.

ومعروف أن الذي يفتح محلاً تجارياً من خلال المنبر هذا لا يقال له داعية إسلامي، له رسالة ويحمل أمانة، وإنما هو تاجر يبيع ويشترى كما بقية الناس.. ولكنه هو الخاسر وهو المتعثر لأن الذي يطلب الدنيا من وراء الدين فإنه يخسر الدنيا ويخسر الدين أيضاً، بينما على العكس تماماً من الذي يطلب الدين أولاً حيث تأتيه الدنيا تسعى بين يديه.

يقول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ما معناه: كونوا من أهل الآخرة ولا تكونوا من أهل الدنيا، فإني رأيت أقواماً طلبوا الآخرة فربحوا الدنيا والآخرة.. وما رأيت أحداً طلب الدنيا فربح الآخرة.

المنبر الحر

هذه تأملات كتبها في المنبر لتكون معالم في طريق الخطابة تهدي إلى المنبر الحر.. والمنبر الحر لا يكون إلا إذا كان هناك خطيب حر.. يريد إيصال صوت الحق إلى الناس جميعاً... وهذا هو المنبر الحر الشريف، وما أحوجنا إلى مثل هذا المنبر.

أولاً: إن المنبر الحر الشريف يعتمد أولاً وقبل كل شيء في أخذ الفكر، على الكتاب والعترة.. وذلك القرآن الكريم والعترة الطاهرة يشكلان قاعدتين أساسيتين في بناء المنبر الناجح الهادف ولعلني لا أعدو الحقيقة إذا قلت: إن حديث الثقلين هو المنهج العلمي العملي لكل عمل شجاع شريف.. إن النجاح الذي يحرزه الخطيب إنما هو نجاح لحديث الثقلين.. بمعنى أن المنبر الذي يعتمد على القرآن والعترة هو المنبر الذي يقود الشعوب من الظلمات إلى النور. لقد أخبرنا الحبيب المصطفى محمد ﷺ: أن الذي يتمسك بالقرآن والعترة، لا يرى بؤساً ولا ذلاً ولا هواناً في حياته أبداً... وإنما يعيش مرفوع الرأس مطمئن الفؤاد، طيب الحياة. وذلك أن النبي ﷺ قال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي.. وقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». إذن: فالشرط الأساسي في نجاح الخطيب هو: أن يجعل القرآن والعترة نصب عينيه.

ثانياً: على الخطيب أن يحرك مشاعر الناس بالمحبة والصفاء، وأن

يشير عقولهم بالعلم والحضارة، وهذا هو المنبر الحضاري الذي يمكن أن يؤدي رسالته بشكل كامل وجيد. وهو بهذا يستطيع أن يحرك كل جوانب الإنسان ويفجر كل طاقاته بعد أن يوجهها نحو الخير والصالح.. لأن الإنسان لم يكن ذا جانب واحد، ولا مخلوقاً ليس له إلا بعد واحد، وإنما الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي له عدة أبعاد، وجوانب مختلفة ومتعددة، ولكل جانب غذاء خاص ونمط خاص من الخطاب والحياة... فمثلاً، نجد في الإنسان عقلاً وروحاً، وقلباً ونفساً، وفطرة، وبدناً هذا بالإضافة إلى عشرات الأدوات والآلات والأجهزة التي أشار إليها الإمام زين العابدين عليه السلام في بعض أدعية الصحيفة السجادية حيث تحدث عن العقل والقلب، والفطرة وقال إن لكل واحد من هذه الأدوات غذاءً ومنهجاً للتربية.. أضف إلى ذلك أن في الإنسان طاقات عميقة ضاربة بجذورها إلى أعماق النفس البشرية..

والمنبر الناجح هو الذي يفجر هذه الطاقات في سبيل البناء والعمار.

وواضح أن هذا التفجير، إنما هو عملية تحتاج إلى جرأة وشجاعة، وإقدام من الخطيب الناجح، أما الخطيب الجبان فإنه لا يستطيع أن يؤدي هذا الدور.. ومن هنا أصبح الإيمان والشجاعة من أهم صفات الخطيب الناجح وهذا هو الجهاد بعينه... فقد ورد في الحديث: «أن أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر..» وهذا الحديث مستمد من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (١).

(١) الأحزاب / ٣٩.

وما أكثر الأدلة والشواهد التاريخية التي تدعم هذه الفكرة وتعمقها في النفس.. فمثلاً نجد الإمام زين العابدين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- نجده حين أراد أن يصعد المنبر بيدنه المرتعش الضعيف قال ليزيد: «إئذن لي أن أصعد هذه الأعواد، فأتكلم بكلمات هي لله رضي وللهؤلاء الجالسين أجر وثواب».

أجر وثواب.. إشارة إلى ربح الدنيا والآخرة.. فالأجر يشير إلى الدنيا، والثواب يشير إلى الآخرة وهذا هو المنبر الهادف الذي يجعل الناس يربحون الدنيا والآخرة.. وهنا تبدو الحضارة في أجلى صورها، وأعمق أساليبها.

أجل، هذا هو الحق. صحيح أن الإمام علي بن الحسين يوم صعد المنبر في الشام كان بدنه يرتعش من الضعف لأنه كان أسيراً مكبلاً بالحديد بأيدي العداة الذين لا يرحمونه.. وكانت الدماء تسيل من رقبتة بفعل السلاسل والأغلال التي كانت على بدنه الشريف.. أقول: صحيح أن الإمام السجاد كان يحمل بدنًا مرتعشاً من الضعف.. بسبب مشقة السبي والأسر.. والجوع والعطش.. هذا كله صحيح. ولكن الإمام زين العابدين كان يحمل في بدنه هذا قلباً أقوى من الجبال الرواسي، وأعمق من البحر... كان قلبه يتفجر علماً وإيماناً، وشجاعة منقطعة النظير... ولذلك تراه نجح وانتصر، وبدّ القائلين ونقع غليل السامعين.

على أن هذه الشجاعة إنما تعود لقوة القلب... فقوة البيان تدل على قوة الجنان كما قال علي أمير المؤمنين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام-.



ثالثاً: لكي يكون الخطيب في هذا المستوى، وهذه القمة فإنه لا بدّ له من قراءة الكتب ذات الوزن الثقيل مثل: كتاب الكافي بأصوله وفروعه.. وكتاب من لا يحضره الفقيه... وكتاب التهذيب... والاستبصار... ثم لا بد للخطيب من الغوص في بحار الأنوار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان.. وبحار الأنوار هذا هو كتاب جمع النور كله في ١١٠ أجزاء أحصى العلامة المجلسي عليها ضلوعه حتى أخرجها إلى النور فكانت بحق بحار الأنوار لأنه تحمل بين جوانحها أعرق فكر، وأعظم فكر حضاري رآته الإنسانية في تاريخها الطويل.. ألا وهو فكر النبي وأهل بيته.. فكر العترة الطاهرة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وعندما يكون المنبر منطلقاً من هذه الكتب ذات الوزن الثقيل والتي تعتبر أحاديثها ومواضعها صهاريج من نور.. أقول: عندما ينطلق المنبر من هذه القاعدة فإنه سيكون منبراً حياً... وحرّاً وشريفاً ذا مسؤولية وأمانة وإخلاص... بخلاف الخطب التي تطلع علينا في أيام الجمعة مُرّة هزيلة متثاقلة مملة يتشاءب تحتها المنبر، وتفوح منها رائحة الجنائز، ووحشة السأم والملل.

إن على الخطباء مسؤولية كبيرة لا بد من حملها بإخلاص وشرف ووفاء.. ومن أبرز ملامح هذه المسؤولية، هو أن يقوم كل واحد منا - نحن معاشر الخطباء والدعاة - بمحاولة جادة وصادقة لتصعيد مستوى المنبر، وتحديثه، وتطويره، حتى يكون المنبر - وهذا على أقل تقدير وأضعف الإيمان كما يقال - حتى يكون المنبر في مستوى إذاعة

لندن، أو في مستوى جريدة المختار (ريدرز دايجست) وهذه ليست دعوة مني ولا شهادة تدل على صدق إذاعة لندن أو مجلة المختار.. ولكن فقط نتعلم منهم كيف يعرضون أفكارهم على الناس، وكيف صار الناس يتهافتون على سماع وقراءة أفكارهم وما يقدمونه من غذاء فكري للأجيال. وكل ذلك بسبب سهولة اللغة وجمال الكلمة بعيداً عن التعقيد، وبعيداً عن اللغة اللزجة التي لا يفهمها إلا كاتبها.. سألوا أحد الأدباء: ما أصعب قصيدة قلتها في حياتك؟ فقال الأديب: لو كان عندي قصيدة صعبة - لا سمح الله - لمزقتها وذهبت إلى طبيب نفساني للعلاج.

وهذا.. وقد أشار الإمام علي بن أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذه الحقيقة وذلك في آخر لحظة من حياته حيث حذرنا من مغبة التأخر والتخلف، والتعثر في الظلام، ونحن نملك أقوى مصادر النور، ومنابع المعرفة.. فقال علي: «الله الله في القرآن فلا يسبقكم بالعمل به غيركم».

وقطعاً إن الإمام أمير المؤمنين لا يريد بقوله: «فلا يسبقكم بالعمل به غيركم». أن الغربيين يطبقون شعائر الله من عبادة وصيام وصلاة وأمر بمعروف ونهي عن منكر، أبداً.. ليس هذا هو مقصود الإمام لأن القرينة تدل على ذلك. فالكافر والملحد لا يسبقاننا بتطبيق العبادة.. وإنما يسبقاننا بأخذ مناهج القرآن في الحياة والتعلم منه كيف يربحان الحياة، ونخسرهما نحن.. وهذا هو أنصع مصداق على قول علي عليه السلام فعلى الرغم من أننا نحن أهل البلاغة والفصاحة، وعلى الرغم من أن أهل البيت هم أعظم من فكر وتكلم، وكتب.. كما قال علي: «نحن أمراء الكلام فينا تشبث عروقه وعلينا تهدلت أغصانه».

يقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «وإن لكلامنا نوراً وإن عليه لحلاوة».

أقول:

على الرغم من هذا كله، فإن الغربيين هم الذين يملكون زمام الفكر.. -أعني الفكر العلماني الذي لا علاقة له بالسماء طبعاً- وهم الذين أخذوا ناصية الأدب والكلام، وهم الذين عرفوا كيف يخاطبون أبناءنا بلغة هي سلاح لنا فشهروها ضدنا وراحوا ييئون سمومهم وأفكارهم في رؤوس أبنائنا، ورُحنا نحن نلهث وراء وسائل وأدوات إعلامهم نسمعها ونقرأها، ونستلطفها وذلك أننا لا نملك الوسائل التي يملكونها هم.. بل نسينا حتى أصالتنا... وفقدنا حتى لغتنا العربية الجميلة.. فقدناها وصار أعداؤنا هم أهل هذه اللغة بعد أن كنا سادة الأرض.

إن أول آية في القرآن نزلت تمجد العلم والقراءة والقلم والكتابة.. بل إن الإسلام يعتبر الكتابة عبادة حضارية من أروع ما يتقرب بها العبد إلى الله، وإن مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء.. ولكن مع هذا كله فإن الكلمة لا زالت عندنا معقدة متعثرة ليس فيها فصاحة ولا بلاغة، ولا حتى ذوق سليم- أقصد بعض أهل الخطابة والمنبر طبعاً-.

وإذا أردت أن تتأكد من قولي هذا فما عليك إلا أن تلقي نظرة على حملة الأقلام والكتاب، ورواد الأدب والشعر والكلمة، لتجد كم فيهم من المسلمين، وكم عدد الذين هم من غير المسلمين إنك لتفاجأ عندما تكتشف أن أرقى الأقلام التي تقدم الغذاء الفكري لأبنائنا اليوم. وإنما هي أقلام لا علاقة لها بالإسلام لا من قريب ولا من بعيد، إنما هي

أقلام تتضح حُقدًا ضد الإسلام والمسلمين، وتتفت سمومها بين السطور.. ولا أريد أن أدخل بهذا الموضوع أكثر من اللازم. ويجب أن نعلم أن الذين كتبوا في روائع الفكر الإسلامي إنما هم من المسيحيين أمثال: جورج جرداق.. وجورجي زيدان.. وسليمان بستاني.. وبولس سلامة.. وجبران خليل جبران وأمثال هؤلاء من الكتاب المسيحيين الذين حملوا القلم وتعاملوا مع الكلمة بجد ليقدموا هذا النتاج الكبير.

وفي الطرف الآخر تجد أكثر حملة الأقلام المسلمين لا علاقة لهم بأهل البيت عليه السلام وإذا ظهر واحد منهم وكتب عن أهل البيت مثل عبدالرحمن الشرقاوي، فإنه يعتبر نشازاً وتقوم الدنيا ضده كما فعلت بعض الدوائر ذات النفوذ النفطي، ومنعت كتابه: «علي إمام المتقين» أن يدخل بلادها كما وقفت موقفاً عدائياً من مسرحيته الناجحة: «الحسين ثائراً - الحسين شهيداً» التي أخرجها في القاهرة، في ذكرى الإمام الحسين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- فقامت بعض دول الخليج توزع الدنانير والدراهم في الجيوب، جيوب الذين لهم كلمة يمكن أن تساهم وتؤثر في منع هذه المسرحية وعدم إخراجها إلى النور... وهكذا فعلت حيث صدر قرار من الأزهر بمنع هذه المسرحية التي كانت بحق أروع ما شهده إنسان القرن العشرين حول واقعة الطف وأهداف ومبادئ الإمام الحسين الذي قال فيه رسول الله ﷺ «حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً».

وتشاء الصدف أن أشاهد هذه المسرحية بنفسي يقول أحد المفكرين من العلماء: عندما كنت في تلك الأيام في القاهرة يوم عرضت للتجربة وليس للنشر، كنت هناك وكانت القاعة التي جرى فيها العرض تتسع

لأكثر من خمسة آلاف شخص وكانت مزدحمة بالناس وكان الذي يمثل شخصية الإمام الحسين، هو الممثل القدير عبدالله غيث والتي تمثل دور زينب هي الممثلة أمينة رزق، التي أدت دورها باتقان وبراعة شهد لها فيه كل الحاضرين، ثم يضيف هذا المفكر قائلًا: وما زلت أذكر عمق التأثير الذي تركته هذه المسرحية في النفوس حتى أن القاعة ضجت بالبكاء والنحيب، وما رأيت باكيًا ولا باكية أكثر من ذلك اليوم على كثرة مجالسي، وتجوالي في البلاد أيام عاشوراء. حتى بلغ البكاء بالدكتورة بنت الشاطيء التي كانت هناك إلى درجة الإغماء... ولا عجب ولا غرابة فالحسين قتيل العبرة ما ذكره مؤمن إلا وبكاه...

المهم، لست أنا هنا في معرض التحدث عن هذه المسرحية وإن كانت قد تركت جرحاً في قلبي لا يندمل أبداً حين صدر قرار من الأزهر يقضي بمنعها ومنع الناس من الاطلاع عليها وإنني، والله يشهد، لأتذكر جيداً، ولعل أهل القاهرة في مصر يذكرون أيضاً كيف تراحم الناس على باب القاعة الرئيسية التي كانت تعرض فيها هذه المسرحية للمرة الثانية حتى شاع بين الناس في مصر وفي القاهرة أن الذي لا يرى هذه المسرحية فعمره خسارة ولا يستحق الحياة. ولكن ماذا نقول لأعداء الإسلام الذين يدعون أنهم مسلمون، والإسلام بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب... أقول: ماذا نقول لهؤلاء وقد ساعدتهم الدنيا على أن يحولوا بيننا وبين أهل بيت النبي الذين ندين بحبهم لله سبحانه وتعالى. «من معشرٍ حُبُّهم فرضٌ وقربُهُم منجىٌ ومعتصمٌ».

إنها الدنيا.. دنيا الغدر، والنفاق، الدنيا التي بخلت على أهل البيت حتى بعد وفاتهم فظلمهم الناس مرتين: مرة في حياتهم ومرة بعد

وفاتهم. ومع الأسف فإننا نسمع باستمرار فتاوى تصدر من هنا وهناك تحرم حلال الله بحجة واهية، أوهى وأهون من بيت العنكبوت وذلك بقولهم: إن أهل البيت ناس مطهرون لا يمكن لأحد أن يتشبه بهم!! ومن قال لكم ذلك؟ وأين الدليل على ذلك؟ هل في القرآن آية تمنع هذا التمثيل؟ أو هل هناك رواية عن النبي أو عن أحد المعصومين تقول بحرمة هذا العمل؟ أبداً ليس هناك دليل ولا برهان ولا آية تقول بالتحريم، بل كل الأدلة والبراهين تؤكد أنه عمل حلال وليس بحرام، لأن الأصل في الأشياء الإباحة حتى يرد فيه نص. هذا بالإضافة إلى أنه لم يرد نص من النبي ﷺ ولا من أهل بيته يحرم هذه المظاهر. على أن الأدلة تذهب إلى الحلية والتحليل ففي القرآن الكريم نقراً أن الله عز وجل قد ألقى شبه المسيح على رجل يهودي، فيقول تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ...﴾ (١).

على كل أرجع إلى صلب الموضوع.. فأقول: إن زمام الإعلام، وناحية الكلام صارت بأيدي الأعداء بعد أن كانت بأيدي الأصدقاء، وأيدنا نحن، وما ذلك إلا لتقاعسنا وتخلفنا عن ركب الحضارة الإسلامية أعود إلى كلامي وأؤكد من جديد أنه لا بد من القيام بمحاولة صادقة وجادة لتصعيد المنبر، وتحديث أسلوب الخطابة حتى يستطيع المنبر أن يؤدي رسالته، ويقوم بدوره في إعطاء الوعي والرشد لشعوب الأرض كافة وللمسلمين بصورة خاصة. وإنه لما يؤسفني، يوجعني ويحز في نفسي أن أرى الأقلام القوية المؤثرة بأيدي الآخرين في حين أن علماءنا قد أفلسوا من هذه القدرة بالكامل... وإذا أردت التأكد من هذا القول،

(١) النساء/ ١٥٧.

فدع عنك التعصب الأعمى، ودع عنك الميل لأيّ طرف، وكن موضوعياً وتعال معي - إذا كنت ممن يبحث عن الحق، تعال معي وانظر إلى رسائلنا العملية، رسائل الفقهاء التي هي محل ابتلاء، ومحل حاجة لكل الناس، ثم انظر هل تجد أن هذه الرسالة كتبت بلغة يفهما الناس أم أنها كتبت بلغة حوزوية ثقيلة على السمع والطبع والذوق؟

أجل.. جرب أن تأخذ كتاباً لأحد الكتّاب مثل مصطفى محمود، أو مصطفى أمين، أو خالد محمد خالد أو نزار قباني، ثم خذ رسالة عملية لواحد من العلماء وقارن بين الأسلوبين في الكتابة فإنك تجد أن هؤلاء الكتاب قد سبقونا بمسافات طويلة في هذا المجال وبقينا نحن نتعثر في لغة دبكة لزجة لا علاقة لها بالأدب، أو الأصالة..

ويسأل المرء: من أين جاء هذا الأسلوب؟ وهل كان أهل البيت يكتبون بهذا اللون من الكتابة؟ طبعاً لا.. إن أهل البيت من أوضح الناس كلاماً، ومن أعمق الناس فكراً ومعرفة، فليس هناك في قاموس أهل البيت كلمة لا نعرفها نحن أو غريبة عن فطرة الإنسان أو بعيدة عن طباع النفس الإنسانية، إنهم يخاطبون الفطرة الإنسانية بلغة سهلة ميسرة سليمة تنزل في القلوب نزول المطر في الحقول الخيرة.. وهذه هي الكلمة الطيبة التي أرادها أهل البيت -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام- كما أرجو من القارئ ألا يحسبني أنني أشن هجوماً على بعض العلماء.. أبداً. أنا لا أشن هجوماً على أحد وإنما أحترم كل عالم يحترم فكر أهل البيت ويقدمه للناس بلغة مفهومة ومعروفة وليست معقدة وبعيدة عن الأذهان وإن تعجب فعجب قول البعض -عند رؤيتهم كتاباً معقداً- فإنهم يقولون: إن هذا الكتاب فوق مستوى الناس،

وفوق عقلية الجماهير.. وإنه لشيء مقرف يثير الدهشة ويثير الفزع،
إذ إنه إذا كان الكتاب الفلاني فوق مستوى الناس، فلمن كتبه صاحبه؟
هل كتبه للناس أم للجن؟ فليفصح عن نيته وغايته.

إننا نعرف أن الله سبحانه وتعالى إنما قد أرسل رسله وأنبياءه إلى
الناس جميعاً وليس إلى غيرهم ولذلك خاطبهم بلغة يفهمونها فقال:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (١).

المهم. اسأل الله أن يطيب قلوبنا بنور الإخلاص والحكمة حتى ننقذ
أنفسنا من الأنانية والحسد، والطمع والحق، وهذه كلها إنما تنشأ من
حب الدنيا لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. إذن: فلا بد لنا من القيام
بمحاولة لارتفاع مستوى المنبر. وحين نقرأ في الحديث: أن مداد
العلماء أفضل من دماء الشهداء، فيجب أن ندرك أن هذا الحديث
ينطبق بشكل واضح لا لبس فيه على المنبر، لأن المنبر هو الذي يحرك
الجماهير، وهو الذي ينشر مداد العلماء.. وهو الذي يحرك قوافل
الشهداء للتضحية والفداء من أجل الحق، والحرية، والمساواة والعدالة
الاجتماعية.

رابعاً: هناك ملاحظة تجدر الإشارة إليها، وهي: أن الإمام زين
العابدين علي بن الحسين عليه السلام حين صعد المنبر في المسجد الجامع
بيّن نقطتين مهمتين في معرض خطابه وإن كان كل كلامه على جانب
كبير من الأهمية، فقد بيّن الإمام وأوضح أن المنبر يجب أن يدور في
إطار رضى الله، ونفع الجماهير... هذا أولاً، وثانياً: أن الخطيب

(١) إبراهيم/ ٤.

الناجح هو الذي يتسلح بالعدة التالية: (أ) يتسلح بسلاح العلم. (ب) والحلم، (ج) والسماحة، (د) والفصاحة، (هـ) والشجاعة، (ز) والمحبة في قلوب المؤمنين». لأن الذي لا يملك هذه العدة، أو أنه يفقد شرطاً واحداً من هذه الشروط فإنه لا يمكن أن يصبح خطيباً قديراً. فالإمام -سلام الله عليه- وإن كان أوضح أن هذه هي من صفاتهم أهل البيت ولكنه أراد من باب إياك أعني واسمعي يا جارة. أراد أن يبين طريق النجاح الذي يجب على الخطيب أن يسلكه. فقال: أعطينا ستاً والستة هذه هي كما تقدم:

(أ) العلم.. لأن الخطيب الفارغ من العلم لا يمكن أن يؤدي رسالته. هذا بالإضافة إلى أن الناس تتفض من حوله وتتركه وتبحث عن غيره ممن هو يحمل علماً ومعرفة.

(ب) والحلم -وذلك أن الحلم هو الأرضية التي ينبت فيه العلم، وإلا فيكون أشبه بمن يحترق في البحر..

(ج) ثم السماحة - وهي التي تجعل الخطيب يطرح الإسلام طرحاً جيداً في سماحة ويسر وسهولة.. بينما إذا لم يكن الداعية متصفاً بالسماحة فإنه ينفر الناس من الإسلام لأنه لا يملك تشويقاً لهم، ولا ترغيباً. فقد جاء في الأثر أن النبي ﷺ حين أرسل علياً عليه السلام إلى اليمن أوصاه بقوله: يا علي يسّر ولا تعسر، وشوّق ولا تنفّر.. إلى آخر وصيته التي نقلها لابن عمه وأخيه علي أمير المؤمنين.

(د) ثم تأتي الفصاحة لأنها هي سلاح الداعية إلى الله، فلو لا الفصاحة لما استطاع أن ينقل أفكاره للناس.. وإنما ذكر الإمام الفصاحة دون البلاغة لأن الكلام لا يكون فصيحاً إلا إذا كان بليغاً

وليس العكس، فكل فصاحة بلاغة وليس كل بلاغة فصاحة، ومن هنا نجد الإمام السجاد قد اكتفى بذكر الفصاحة دون البلاغة لأنها تجمع الاثنين معاً.

(هـ) ثم قال: والشجاعة لأن المؤمن الشجاع خير عند الله من المؤمن الجبان، هذا بالإضافة إلى أن الشجاعة تجعلك تقول الحق دون خوف ولا وجل.. وأفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر.. هذا أولاً، وثانياً يقول القرآن: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (١).

ثم الشجاعة تعني قوة الجنان والفؤاد، وقوة القلب هي التي تصنع الكلمة المعجزة، الشجاعة. فقد ورد في الحديث أن قوة البيان تدل على قوة الجنان.

(و) ثم ختمها بقوله: والمحبة في قلوب المؤمنين.. وواضح أن الذي تجتمع فيه هذه الخصال فإن حبه ينمو في قلوب الناس جميعاً، وما أحلى الخطيب المحبوب حيث يستطيع أن يقوم بدوره، ويؤدي رسالته على نحو كامل وجميل.

(١) الأحزاب / ٣٩.

للإنسان عقل ومنطق

في حديث لرسول الله ﷺ يخاطب فيه أبا ذر يقول: يا أبا ذر حسبك من الكلام ما تبلغ به حاجتك،

وفي عقيدتي أن هذا الحديث جمع التعبير كله عن البلاغة وموضوع البلاغة.. فالبلاغة في أجلى مظاهرها هي الكلمة المؤدية التي يستطيع المتكلم أن يبلغ بها حاجته أي يستطيع أن ينقل أفكاره بهذه الكلمة إلى الطرف الآخر، وهذا هو الجمال في التعبير.

يقول الإمام علي عليه السلام: «نحن أمراء الكلام فينا تنشبت عروقه وعلينا تهدلت أغصانه».

ويقول الإمام الرضا عليه السلام: اعربوا كلامنا فإننا قوم فصحاء، إذن: فالبلاغة معناها: إهداء المعنى الجميل إلى القلب في أحسن صورة لفظ.

وقالوا: إن الكلام ثلاثة أنواع: نوع لا يفهمه الناس ولا يتكلمون به، ولا يقرأونه.. مثل افرنقوا عني، ولغة أكلوني البراغيث. ونوع يفهمونه ويتكلمون به، مثل اللغة الدارجة، أو العامية. ونوع ثالث وهو الذي يفهمه الناس، ولكنهم لا يتكلمون به إلا قليلاً وهو أحمدها وأحسنها مثل لغة الصحافة والإعلام، والإذاعة والتلفاز. وهذه اللغة المحبوبة وهي التي يجب أن نمرن أنفسنا عليها.. وهي موجودة في القرآن الكريم وفي كل كتب الحديث والتاريخ والأدب والشعر والأخلاق، وهي



بالتالي موجودة لدى أهل البيت -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام-.
وإذا أردتها فيمّم وجهك شطر بيت فاطمة الزهراء -سلام الله عليها-،
وما من أحد من أهل هذا البيت إلا وهو خطيب بارع وقدير أخذاً من
سيدة نساء العالمين فاطمة.. وبعلمها علي أمير المؤمنين سيد البلغاء
والمتكلمين ومروراً بأبنائها الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم، وانتهاءً
بالأئمة المعصومين وأبنائهم وبناتهم، فما فيهم من أحد إلا وهو يمتطي
صهوة البلاغة ويمسك بيده زمام الكلام، وناصية البيان وفصل
الخطاب.. وكل ذلك فيض من بحر سيّد هذا البيت الطاهر أبي
القاسم محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا هو القول البليغ الذي ذكره الله عز وجل في كتابه الكريم:
﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (١).

وفي آية ثانية يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٢).

وهكذا خص الله سبحانه هذا الإنسان بعطية ثمينة هي نعمة
البيان، ولو عرف الإنسان قدرها لارتفع إلى أعلى عليين.

يقول علي أمير المؤمنين عليه السلام: «للإنسان فضيلتان: عقل ومنطق،
فبالعقل يستفيد، وبالمنطق يفيد» وهذا هو سلاح الخطيب: عقل رشيد،
ومنطق سديد. على أن المنطق السديد لا يتأتى إلا عندما يكون
الخطيب في أحسن حالاته، وإلا فلو كان الخطيب منزعجاً أو أنه
متأثراً بأمر نفسي أو أنه يعاني من مشكلة، فإنه لا يمكن أن ينطلق،

(١) النساء/ ٦٣.

(٢) الأحزاب/ ٧٠.

كما أنه لا يمكن أن يبدع بالبيان والخطابة أبداً.. إن انشراح الصدر شرط رئيسي وأساسي في انطلاقة الخطيب فوق المنبر، كما أن انقباض الخطيب وضيقه يؤديان إلى فشل ذريع وتعثّر في الكلام.. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة النفسية في آياته الكريمة. جاءتنا على لسان كريم الله موسى -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- في الأولى يقول: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ (١).

فجعل اللسان معقوداً بالصدر بحيث إذا كان الإنسان محبوساً وضائقاً صدره، فإنه من المستحيل أن يسترسل بالكلام بخلاف انشراح الصدر الذي يؤدي إلى حل عقدة اللسان وإلى انطلاق البيان والفصاحة والبلاغة.

ويقول في آية ثانية تشير إلى هذا المعنى الدقيق. ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (٢).

وانظروا أيها الأحبة هنا إلى الآيتين بشيء من الدقة والعمق تجدوا أن القرآن الكريم قد كشف عن أعظم حقيقة في علم النفس لم يتوصل إليها العلماء اليوم، وهي كما أسلفنا ارتباط اللسان بحالة المتكلم بحيث إذا لم يكن مرتاحاً فإنه ليس في مقدوره أن يبدع في شيء من الخطاب على الإطلاق، ومن هنا فإنه يتوجب على الخطيب أن يكون في غاية الارتياح والهدوء قبل صعوده المنبر وذلك حتى يتمكن من أداء دوره بنجاح سهل ميسر.

(١) الشعراء/ ١٢.

(٢) طه/ ٢٥-٢٨.

* المنبر الدوار:

الخطابة للجميع وليس لطائفة محدودة من الناس.. فلقد كان النبي ﷺ طبيباً دواراً بطبّه... ومعنى دَوَّار بطبّه أي أنه ما كان يخطب في مكان واحد وإنما كان يتنقل بمنبره من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد وهذا هو شأن الداعية الذي يحمل رسالة إلى العالم.

هناك من الخطباء من يبقى في مكان واحد لا يغادره أبداً، وهذا بلاء مكروه يؤدي بالخطيب إلى الضياع والتلف لأن المكان الواحد لا يصنع خطيباً عالمياً، وذلك أنه يقابل نفس النمط من الناس ويواجه نفس المشاكل في كل مرة يصعد المنبر، يواجه الناس ذاتهم، والمشاكل نفسها.. وهذا لا يجعل منه خطيباً عارفاً بأمراض الناس ودوائهم.. في حين نجد الخطيب الناجح على العكس من هذا بالكامل. فهو خطيب يذهب إلى كل مكان، ويزور على بلاد الدنيا حاملاً رسالته على لسانه، عارفاً بزمانه مقبلاً على شأنه، وشأنه هو نشر الإسلام، وإحياء أمر أهل البيت -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام- ومن هنا فإن مثل هذا الخطيب لا يعود خطيباً فقط عارفاً بمجاري الأمور، وسير الأحداث، بل وأيضاً يكون خليفة من خلفاء النبي الذين ذكرهم الرسول ﷺ حين قال: اللهم ارحم خلفائي، فقالوا: يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي فيروون حديثي وسنتي للناس.

ثم إذا قرأنا قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (١).

(١) الأحزاب / ٢١.

أدركنا كم هي الرسالة التي نحملها عظيمة ومهمة. إن الخطيب يحمل رسالة مقدسة إلى كل شعوب الأرض، وهي رسالة الإسلام.. وصاحب الرسالة مسرحه العالم وليس دويلة باهتة من دول الأرض، حتى ولو أغرقته بالمال.

* وحدة الموضوع:

جاء في علم النفس أن وحدة الموضوع هي أكثر وقعاً في القلوب وتترك أثراً إيجابياً في النفس البشرية. لأن النفس ترتاح للموضوع الموحد، ولكن بشرط أن يتخلل البحث أنماط متعددة من الكلام والبيان، أو القصص المثيرة. والشواهد والأدلة والأمثلة.. وإلا فإن الموضوع يأتي جامداً راكداً لا يثير اهتمام أحد على الإطلاق. وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ وَفَرَادَى﴾^(١).

أي أن الموعظة يجب أن تكون بواحدة أو بفكرة واحدة، وموضوع واحد، أي وحدة الموضوع... وطبعاً هذا لا يعد تفسيراً للآية الكريمة لأن تفسيرها غير هذا وإنما هذه رؤية تتبع الذوق السلم الذي يستخرج من كنوز القرآن لؤلؤاً، وفكراً، ونوراً ومرجاناً.

على أن الأمثلة يستحسن أن تكون منتزعة من القرآن الكريم، لأن الله عز وجل خلق النفس البشرية ويعلم ما يؤثر بها خصوصاً في

(١) سبأ/ ٤٦.

مجال التذكير فقال: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (١).

وهذا يعني أن التذكير بأمثلة وشواهد وقصص القرآن يترك أثراً بالغاً في نفس الإنسان مما يجعله يسرع إلى طريق الحق والعدل، والحرية، طريق الأنبياء، والأولياء طريق الأئمة الطاهرين -عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين-.

ضرورة إعداد الخطباء

إننا اليوم في أمس الحاجة إلى إعداد جيل واع من الخطباء والمبشرين، خصوصاً ونحن نعيش فترة الانحطاط التي ما شهدت البشرية فترة انحطاطٍ مرت بالمسلمين مثل هذه الفترة التي تعصف بهم من أقصاهم إلى أدناها.. أوطانهم مسلوقة وحقوقهم مهضومة.. وأرضهم مفتعبة ولا وزن لهم ولا قيمة.. وإن أراد التأكد فلينظر إلى المسلمين وحالتهم في العالم اليوم.. وليزن الأمور بميزان الإنصاف، فسيجد أن المسلمين اليوم هم غناء كغناء السيل كما وصفهم الحبيب المصطفى، وما ذلك إلا لأنهم تركوا الله عز وجل، تركوا النبي وأهل بيته وساروا في ركاب الشرق والغرب، فوصلوا إلى هذه الدرجة من التدهور، والانحطاط والإحباط.

وقد أشارت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- إلى هذا الواقع الذي ينتظر المسلمين بسبب غفلتهم عن الحق، وبعدهم عن الأصالة والوعي، أو قل: بسبب ابتعادهم عن أهل البيت عن هديهم وفكرهم ونورهم. قالت فاطمة: «وأبشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً وجمعكم حصيداً.. الخ». المهم.. أننا اليوم في أمس الحاجة إلى إعداد الجيل من الخطباء الشرفاء المناضلين الذي يدورون في الأرض لإعلاء كلمة الحق والعدل والحرية. وعندها ترى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. على أن هذا الإعداد يحتاج إلى عزمةٍ من عزمات الرجال من قبل أحد الخطباء

المتمكنين إضافةً إلى عزمة ثانية من أحد الأثرياء المؤمنين.. لأنه لا عمل من دون مال.. وعندما أراد الله أن ينزل جبرائيل على النبي، فإنه هياً خديجة وجعلها في خدمة النبي ثم أنزل جبرئيل عليه بآية: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ ومعنى خديجة، يعني المال فمن دون المال لا يتم عمل.. ولكننا نحن نريد أن نعمل وننشر الإسلام ولكن من دون أن ندفع الحقوق الشرعية، من دون خمس ولا زكاة ولا صدقات، ولا تبرعات لنشر الفكر الحضاري في الإسلام، يحدث هذا في الوقت الذي نرى فيه بقية الأديان ينشط أصحابها بدفع الملايين من الأموال الطائلة لنشر أديانهم ومبادئهم على رؤوس الناس.. ونحن نعلم أننا على حق ولكن مع ذلك فإننا لا نتحرك ولا نضحى لا بأموالنا ولا بأولادنا ولا بأنفسنا من أجل الدين الإسلامي العظيم الذي ضحى أهل البيت من أجله.. وضحى الإمام الحسين بكل ما عنده من أجل هذا الدين العظيم حتى قال محمد عبده: لولا الحسين لما بقي لهذا الدين من أثر.

ونقرأ في التاريخ أن الحوراء زينب بطلة كربلاء، وقفت يوم عاشوراء وقد وضعت يديها تحت جسد حجة الله في الأرض والسماء، وضعت يديها تحت جسد أخيها الحسين الصريع ثم قالت: اللهم تقبل منا هذا القربان فداءً لوجهك الكريم. أقول: نحن نقرأ هذا ونسمع أمثاله، ولكن دون أن نتحرك الأريحية في نفوسنا لنصرة الإسلام والمسلمين.

ولكن لا بد من رؤية النور حتى ولو كنا في أحلك ساعات الظلام، فلا مكان لليأس ولا مكان للتراجع عندنا لذلك نقول إن المستقبل لنا بإذن الله، وإننا قادمون على حدث عظيم وهو انتشار الإسلام وسيطرة الحضارة الإسلامية على كل ربوع الأرض، وما ذلك على الله بعزيز

ولكن بشرط أن نبدي قدراً من الاهتمام أكثر حتى نصل إلى هذا الهدف وهذه الغاية.

ومن الأمور التي تحقق هذا الهدف وهذه الغاية هو أن نعزز وجود الخطباء ونقوم بصناعة مجموعة لا يستهان بها من الخطباء الذين يحملون رسالات الحق والعدل والحرية ويدورون بها في ربوع العالم أجمع. وهذا لا يحتاج إلى أكثر من شيئين: عنصر العلم، وعنصر المال.. والعلم موجود، والمال موجود أيضاً عندنا لأن الله جعل المسلمين في أغنى وأثرى مواقع الأرض. ولكي يستطيع الخطيب أن يحيط معرفة بالإسلام فإنه لا بد له في بادئ الأمر، من قراءة دورة في التفسير ودورة في الحديث، ففي التفسير يفضل مجمع البيان وفي الحديث يُستحسن كتاب الكافي للشيخ الكليني - وهذه هي خطوة أولى في الطريق، وإلا فالخطيب يحتاج إلى علوم إسلامية متنوعة أكثر مما يحتاج إليه صاحب الاجتهاد والمرجع الديني لأن الخطيب شغله مع الجماهير وطرح مشاكلهم العقائدية والفكرية، والنفسية، والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما شابه ذلك.. وهذه كلها تحتاج إلى دراسة واستيعاب للنظرية الإسلامية الحضارية أي أن الطرح الذي يريده الرسول منا هو الطرح الحضاري لمعالم الإسلام، ومبادئه ومناهجه. هذا بالإضافة إلى التركيز على تنمية الكلمة الطيبة لدى الخطيب، والكلمة الطيبة تتكون من شيئين: من الفكر والأدب.. فالتعمق في الفكر مع التعمق في الأدب يساوي الكتابة الناجحة والمنبر الناجح أو قل: يساوي الخطابة الناجحة والخطيب الناجح وهذا يتطلب قراءة واعية في كتب الحديث والتفسير، ترافقها قراءة واعية مستوعبة لكتب

الأدب والشعر والتاريخ والبيان، ككتاب الأغاني للأصفهاني والعقد
الفريد لابن عبد ربه.. والبيان والتبيين للجاحظ وبقية الكتب الكثيرة
التي يغلب عليها طابع الأدب والشعر.

وهنا لا بد من الإشارة إلى نقطة بالغة الأهمية وهي التدقيق فيما
تتقله هذه الكتب إذ ربما يكون الكلام موضوعاً يقصد به التشهير
والدسّ وهذا كان حال الشيعة مع كثير من أصحاب الأقلام المأجورة
الذين باعوا ضمائرهم ونفوسهم من أجل التقرب إلى السلاطين. وهنا
على الخطيب أن يكون واعياً وذكياً. وكل هذا إنما نركز عليه لأن
الحديث فوق المنبر يجب أن يوافق مستوى ثقافة الناس، ويناسب
عقولهم -لذلك فإن التعمق في الفكر والأدب، هو الذي يجعلك تعطي
عطاءً طيباً ترتاح إليه الفطرة، وتميل إليه النفس البشرية.

يقول النبي ﷺ: «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم». ومن هذا
المنطلق تكون مراعاة مستوى عقول الجماهير، شرطاً أساسياً في نجاح
الخطيب، وأداء رسالته بشكل جيد.

* المنبر وتحريك العاطفة:

إذا أردنا أن نأتي بنموذج للخطبة الناجحة التي تحرك العواطف فلا
بد من إثبات بعض مقاطع من خطبة للنبي ﷺ ومن خطبة السيدة
الزهراء عليها السلام. ففي موقف له مع سعد بن معاذ. قال سعد: يا رسول
الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدَ عليك لأنك وزَّعت الغنائم على
أهل مكة ولم تعطهم شيئاً. فقال له النبي: وأنت يا سعد؟ فقال: ما أنا

إلا واحد من الأنصار. قال النبي: فاجمع الأنصار في هذه الحاضرة، وعندما تجمعوا اتاهم النبي فقال: يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم.. وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم.. وبدأ النبي الكريم يشرح لهم موقفه بلهجة هادئة تزخر بالدفع والحنان والمحبة، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قال: وبماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. ثم قال: أما لو شئتم لقلتم ولصدقتم وكانوا كلهم في حالة من الانشداد والانجذاب إلى الرسول الكريم وقالوا: لقد كنت أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك فانفجروا بالدموع والبكاء. وسكت لحظة ثم التفت إليهم فقال: يا معشر الأنصار.. ما وجدة وجدتموها عليّ.. أما ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فصاحوا: بلى يا رسول الله، وانخرطوا بالبكاء..

ثم قال النبي ﷺ اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار. فالرسول هنا أبكاهم في خطابه الذي اقتطفنا منه هذه العبارات، لأن إثارة مشاعر الناس وتحريك عواطفهم تساعد على الإسراع في الالتحاق بركاب الحق وأهله.

والموقف نفسه وقفته الزهراء يوم جاءت إلى المسجد لإلقاء خطبتها حيث إنها جلست قبل البدء في الكلام. ثم أنت أنتة أجهش القوم لها في البكاء، ثم أمهلت هنيهة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على أبيها رسول الله فعاد القوم ثانية في بكائهم، فلما امسكوا عادت إلى مخاطبتهم فقالت: الحمد لله على ما أنعم... إلخ. وهنا نجد الزهراء قد ركزت على شيء

بالغ الأهمية قبل البدء في خطبتها وهو تهيئة الناس لتلقي خطابها؛ فقد راحت تهيئهم بإثارة مشاعرهم، وتحريك عواطفهم لأن الناس إذا تحركت عواطفهم ومشاعرهم وبكوا فإنهم يتقبلون الفكرة بسهولة ودون كثير من العناء والجهد. وقد استخدمت الزهراء هذا الأسلوب التربوي الرفيع، وفقاً لسيرة أبيها رسول الله ﷺ حيث صنع الشيء ذاته في قصة خطابه الذي ألقاه على الأنصار فحرك عواطفهم وأثار مشاعرهم حتى غرقوا بالدموع والبكاء.

صحيح أن العقل بمنزلة النور أو المصباح الذي ينير الطريق أمامنا ويكشف لنا عن الحق والباطل وعن الصلاح والفساد، ويحفظ الإنسان من السقوط والضياع، هذا صحيح، ولكن الصحيح أيضاً هو أن الذي يحرك الإنسان في الحياة هو العواطف والمشاعر والأحاسيس. فالعواطف هي التي تحرك الناس في الجوانب المادية والمعنوية، ولذل نجد الأنبياء أثبتوا العقيدة والإيمان بالعقل والطرق العقلية.

ولكن في أداء الواجبات واجتناب المحرمات وحركة الإنسان نجد الأنبياء قد استخدموا العواطف والمشاعر وأثاروها كما أثاروا دفائن العقول في البشر. فمثلاً الحب في عالم الموجودات له تأثير كبير ولذلك نجد الأنبياء قد حركوا هذا الجانب في الناس. فالكائن الحي بفعل حب الذات يدافع عن نفسه، والأم بحبها لولدها تدافع عنه وتتحمل المتاعب والمشاق من أجل أولادها. وحب المنزل والمال والجاه هو الذي يحرك أسواق العالم ويجعل الحركة مستمرة.

وفي تعاليم الإسلام نجد أنه من أجل أداء الفرائض وترك المحرمات، نجد الإسلام يستخدم قوة الحب، وغريزة الحب في النفس

فيقول: وهل الدين إلا الحب ويقول: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم.

ويقول النبي ﷺ: حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحبّ حسيناً.

وهكذا نجد الإسلام قد ركز تركيزاً بالغاً على هذا الجانب بالذات، جانب تحريك المشاعر والعواطف للاندفاع في ساحات العمل النافع والبناء.

والإسلام يربي أتباعه على السمو والرفعة، ولذلك يتوجب على الخطيب أن يبتعد عن مجالس الغيبة والنميمة والبطالين لأنها مجالس لا يحبها الله ورسوله. فقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: يا علي من اغتیب عنده أخوه المسلم واستطاع نصره فلم ينصره خذله الله في الدنيا والآخرة. (١)

♦ وصايا للمنبر:

وهذه بعض وصايا للمنبر لا يستغني عنها الخطيب اللبيب الفطن. يقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسناً استزداد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه.

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: يا أبا النعمان، لا يفرّك الناس من

(١) راجع مكارم الأخلاق / ٤٤.

نفسك، فإن الأمر يصل إليك دونهم، ولا تقطع نهارك بكذا وكذا، فإن معك من يحفظ عليك عملك.

وفي حديث ثالث للإمام أبي عبدالله يقول فيه الصادق: اصبروا على الدنيا، فإنما هي ساعة، فما مضى منه فلا نجد له المأ ولا سروراً، وما لم يجيء فلا تدري ما هو، وإنما هي ساعتك التي أنت فيها، فاصبر فيها على طاعة الله، واصبر فيها على معصية الله.

ونقرأ في حديث آخر كيف يثير الإمام الصادق فينا الهمم. والنخوة وروح المبادرة فيقول: احمل نفسك، فإن لم تفعل لم يحملك غيرك.

وقال الصادق لرجل: إنك قد جعلت طبيب نفسك وبين لك الداء وعرفت آية الصحة، ودلت على الدواء، فانظر كيف قيامك على نفسك.

على أن الذي يثير الفزع في قلوبنا هو أن الرسول الأعظم محمد ﷺ قد قالها بصراحة مطلقة لأبي ذر الغفاري وهو أن الخطيب الذي يصعد المنبر سيرى خطبته يوم القيامة وساعة الورود وأكثر من ذلك تعرض عليه الكلمات التي قالها فوق المنبر وتعرض عليه نيته التي انطوت في صدره ساعة الإلقاء. يقول الرسول لأبي ذر: «يا أبا ذر ما من خطيب إلا عرضت عليه خطبته يوم القيامة، وما أراد بها...»^(١).

ولا أشك ذرة واحدة في أن هذا الحديث يعتصر القلب اعتصاراً. ولا تقل إنه لم يأت بشيء جديد.. لأن هذه الفكرة موجودة في القرآن

(١) أمالي الشيخ الطوسي.

الكريم في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (١).

أقول: لا تقل ذلك لأن كلام الرسول وكلام القرآن نور واحد، وهما يصبان في نهر واحد، ولكن التركيز على كلام الخطيب وعلى الخطبة بالذات، وبالأخص عرض النية التي صعد الخطيب بها المنبر، عرضها عليه يوم القيامة، ثم أضف إلى هذا كله أن الخطاب موجه إلى أبي ذر وهو من قد علمنا، في صدقه وإيمانه بحيث ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء على ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذر.. ومع هذا كله فالتحذير يوجه إلينا فإذا كان أبو ذر على جلالة قدره، ومع عظيم منزلته، يتلقى تحذيراً بهذا الشأن فما بالنا نحن، أو قل: فما بالك بنا نحن الذين لا نلتفت إلى هذا الجانب؟! في أغلب الأحيان، يصعد الواحد منا فوق المنبر وجل همه إرضاء الناس، أو إرضاء فلان من الناس أو عدم انزعاج فلان من الخلق وهكذا يضيع الهدف وسط هذا الغبار الجبان.

صحيح أن الخطيب يحتاج رضا الناس ليلتفوا حوله ولكن الصحيح أيضاً هو أن الخطيب يحتاج أول ما يحتاج إلى رضا الله سبحانه وتعالى.. ويجب ألا يكون رضا الناس على حساب رضا الله وعلى حساب العقيدة أبداً. بل على الخطيب أن يدرك أنه لكي ينجح في مهمته فإنه لا بد له من عكازتين يتوكأ عليهما الأولى من أجل رضا الله، والثانية من أجل رضا الجماهير، وهذا الموقف يستدعي منه أن يحفظ حالتين في ذاته واحدة خارجية والثانية داخلية.. فالخارجية

(١) الزلزلة / ٧-٨.

هي أن يحفظ علاقته بالناس من دون أن يكون ذلك على حساب الإيمان والعقيدة.. والداخلية أن يحفظ علاقته بالله عز وجل في السر والعلن، والليل والنهار.

إذن: فإن الخطيب يحتاج إلى قوتين أساسيتين تدعمانه من الداخل والخارج: ففي الداخل يحتاج إلى قوة علاقة الله.. بينما في الخارج يحتاج إلى تعميق علاقته بالجماهير على أساس ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة».

والمنبر الناجح له صفتان: القبول من الله، ونفع الناس. أما القبول فشرطه التقوى، لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين. ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١).

فر(إنما) هذه أداة حصر وهذا يعني أن غير المتقي لا يقبل منه عمل قط إنما أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف. والمتقي له شروط ومواصفات وهي مذكورة في خطبة المتقين التي أثبتها الشريف الرضي في نهج البلاغة للإمام علي أمير المؤمنين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- والتي يقول فيها: فالمتقون فيها هم أهل الفضائل... منطلقهم الصواب.

ولأهمية هذه الخطبة فإني أنصح إخوتي الشباب بقراءتها لأنها تصب السكينة في النفس، وتسكب النور في القلب. هذا جانب، والجانب الآخر هو نفع الناس. لأن الإيمان يتمثل بصدق وأخلاق إذا انعكس على الناس ينفعهم وينفض عنهم غبار الأيام، وعناء السنين.

(١) المائدة / ٢٧.

يقول الإمام الحسن العسكري عليه السلام: صفتان ليس فوقهما شيء: الإيمان بالله ونفع الإخوان ونحن نجد هذه الظاهرة موجودة في كل فكر أهل البيت عليهم السلام فهذا الإمام زين العابدين عليه السلام نراه يقوم بعمل حضاري يجمع بين هاتين الصفتين: صفة الإيمان بالله، وصفة نفع الإخوان ففي الجانب الأول: نجد الإمام يعطينا الصحيفة السجادية التي تربط علاقة الإنسان بالله عز وجل، بينما في الجانب الثاني، يصدر رسالة الحقوق التي تعنى بشؤون الناس، وتتحدث عن حقوقهم وتطالب بحفظها وأدائها كاملة.

وكما جاء هذا الطرح الحضاري في الصحيفة السجادية وفي رسالة الحقوق، كذلك جاء في خطابه الذي ألقاه في المسجد الجامع حيث قال ليزيد: «إئذن لي أن أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات فيها لله رضى ولهؤلاء الجالسين أجر وثواب» فجمع الجانبين في كلامه هذا... فرضا الله يشير إلى التقوى التي هي ضرورة ملحة للخطيب ونفع الناس يسبب التفاف الجماهير حول المنبر.

المنبر وأهل الفكر الحضاري

هناك ملاحظات عدة فيما يخص المنبر، والبحوث التي يمكن أن تطرح أعواده:

الأولى: مسألة العبادات في الإسلام، مثل فروع الدين.. وهذه الفروع، تارة تطرح أمام النفس بشكل عار لا علاقة لها بأمثلة، ولا شواهد، وإنما مجرد أحكام عبادية، وتارة تطرح بشكل منهجي، بمعنى أننا حينما نتحدث عن الحج، مثلاً، فإننا نتحدث عن الحج في التشريع الإسلامي، وما هي أهداف الحج، وما هي مبادئه، ثم ضرب الأمثلة، التي ضربها القرآن الكريم حول الحج، ثم أخذ لوحات رائعة، وقطع مضيئة من سيرة أهل البيت في الحج، وكيف كانوا يؤدون مناسك الحج... ونفس الشيء يقال بالنسبة للصلاة، والزكاة، وهكذا قل في الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن طريقة القرآن الكريم في نقل الفكر الإسلامي هي الطريقة المثلى، وهي الطريقة الناجحة، لأنها تخاطب الفطرة، بل هي جزء من الفطرة، أو قل: إنها المصراع الأول لباب الفطرة الذي يكمله تركيب الإنسان الفطري، وهكذا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإننا يتوجب علينا أن نشدّد هممنا في كشف الحقائق الإسلامية، وإعطاء الصورة الحقيقية للإسلام، ولأهل البيت عليه السلام.. فقد تعرض أهل البيت، أو قل سيرة أهل البيت، قد تعرضت لعملية تشويه وتزييف متعمدة من قبل الأعداء

خلال السنوات الماضية، والآن ينبغي أن نعيد الصورة الناصعة لأهل البيت، في أذهان الناس... وهذه المهمة لا يستطيع القيام بها إلا المنبر الحسيني بخطبائه العمالقة.

على أنني لا أريد أن أقدم هذا المنهج، ولكنه على كل حال واضح جداً، فالحوزات العلمية تركز وقت الطالب في دراسة الفقه والمنطق والأصول، واللغة العربية، ولكن، لا يوجد في مناهجها برنامج خاص بدراسة الأخلاق، ولا بدراسة التاريخ، ولا بدراسة التفسير، بل حتى ولا منهج لدراسة نهج البلاغة أو الصحيفة السجادية، أو علوم أهل البيت، في الإدارة والاقتصاد، والسياسة، الأمر الذي يجعل الطالب يخرج من الحوزة، وهو لا يفقه الكثير من أمور السياسة، أو الاقتصاد، أو الأخلاق.. فتراه عالماً بالفقه والأصول، ولكنه ليس عالماً بمداواة الناس ولا يعرف كيف يخالطهم أو يعيش معهم، وهذه حقيقة يجب ألا نتجاهلها، فأهل العلم أو طلاب الحوزة يجب ألا يكونوا في حجاب عن المجتمع ويجب ألا يعيشوا في عالم يختلف تماماً عن العالم الذي يعيشه سائر الناس في المجتمع، بحيث لا يفهم رجل الدين لغة المجتمع، ولا المجتمع يعرف لغته. فبهذه الرواسب يصبح المجتمع في قارة، وعالم الدين في قارة ثانية، فتتسع الشقة، والهوة يوماً بعد يوم، وتتعمق أكثر فأكثر.

إن أهم شيء يجعل الناس يفهمون صاحب العلم، هو المنطق وطريقة العيش مع الناس، وأعترف أن كلامي هذا سيثير الدهشة في عينيك، ولكن بنظرة واحدة متأنية وفاحصة تذهب الدهشة منك، وتدرك حقيقة الأمر... والنظرة هي هذه يلحظها سؤال واحد.

قوة الأقلام الأدبية سلاح في المعرفة، فمن يملك هذا السلاح؟ هل هو في أيدي رجال الدين أم أن هذه القوة في أيدي المثقفين الذين هم بعيدون عن الدين؟

أجب على هذا السؤال بصدق، تدرك مدى عمق الحقيقة.

ولكي أعرض عليك الفكرة هذه بصراحة وفي النور، خشية أن لا يفهمها خطأ بعض الناس الذين يعيشون بعيدين عن الحقائق، وفي غشاوة عن الواقع، أقول: أوضحها في مثال أضربه لكم هنا، والمثال هذا هو.

نحن نعرف أن هناك ثلة كبيرة من حملة الأقلام في العالم العربي والإسلامي، وهؤلاء يمكن أن نعبر عنهم بعمالقة الأدب، أو قل: عمالقة الكتابة، وطبعاً أنا هنا لا أقيمهم من حيث المبدأ أو العقيدة، ولا أريد أن أبين مدى إيمانهم بالإسلام وبالقرآن لا... فلست في هذا الصدد، وإنما فقط أريد أن أدلل على أن الذين يحملون أعظم سلاح في الحياة وهو القلم، ويتعاملون مع أكبر قوة في الوجود وهي الكلمة، هؤلاء كلهم ليسوا من أهل العلم الحق، ولا من رجال الدين، ولا تخرج واحد منهم من الحوزات العلمية. ولا أريد هنا أن أذكر أسماءهم فكلكم تعرفونهم وأكثركم قرأ لهم وهم معروفون جيداً لأنهم من الذين مكنتهم أقلامهم من التغلغل في أعماق المجتمع ومن القريب إلى قلوب الجماهير.. فأني واحد من هؤلاء تخرج من الحوزة العلمية؟... وإذا كان الجواب أنه ليس واحد منهم درس في حوزة علمية، فالسؤال الذي يطرح نفسه أمامنا هو:

هل تمكنا نحن من تخريج أبطال من رجال الفكر والعقيدة، نصنع منهم أبطالاً في ميادين الكلمة والأدب والعمل الأدبي، وتربية الأقلام؟..



هل ربينا الأقلام في أناملنا لندافع عن حمى الإسلام، ولنعكس صورة الإسلام الناصعة أمام الجماهير حتى يعرف الناس دينهم ويتوجهوا إليه؟...

طبعاً... لا...

وحينما أقول: طبعاً.. لا.. فإن ذلك لا يعني انعدام الأدب وفقدان رجال الكلمة بالمرّة من الحوزات العلمية، فهناك نخبة لا بأس بها من رجال العلم استطاعوا أن يتعاملوا مع الكلمة، وتمكنوا بالتالي أن يمسكوا أقلاماً بأيديهم للدفاع عن العقيدة، وعن الفكر الإسلامي الصحيح... ولكنها أقلام تعوزها القوة، والتدفق والمتابعة الهادفة.

صحيح أنهم حملوا الأقلام... ولكن أقلامهم ما جاءت في قوة أقلام الآخرين بل الذي حصل أن معظم هذه الأقلام التي أشرت إليها، والتي انبثقت من الحوزة العلمية، جاءت أقلاماً تميل إلى التعقيد أكثر من ميلها إلى التبسيط والسهولة... والسبب واضح جداً، وهو أن الآخرين الذين استطاعوا أن يمسكوا أقلاماً جبارة في أيديهم، إنما استطاعوا ذلك، بفعل الصحافة والإعلام أي بفعل دخولهم في عالم الصحافة، فقلما تجد واحداً منهم لم يمارس مهنة الكتابة في حياته في صحيفة أو مجلة أو إذاعة، وإنما الكل تراهم قد مارسوا الكتابة في الإعلام. إنهم جميعاً، كانوا يتعاطون الكتابة اليومية والبت الأدبي، والعمل الأدبي المركز، ولذلك جاءت أقلامهم قوية ومتميزة.

وعلى هذا، فنحن إذا أردنا أن نخدم الإسلام، فإن علينا أن نربي أقلامنا، وأن نقوي أدبنا، ونعمق الفكر الإسلامي في رؤوسنا، حتى نتمكن من نشر الإسلام، وإعطاء صورة صحيحة عن الدين وعن أهل البيت -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام-.



كان حديثنا في بداية هذا المقال عن كيفية الاستعداد والتشмир عن ساعد الجد لإعادة الصورة الناصعة لأهل البيت إلى أذهان الناس، وقلت أنه ليس في إمكان طلاب العلوم القيام بهذه المهمة فليس لها إلا الخطباء، ليس لها إلا منبر الحسين، لأن المنبر أكثر قدرة على جمع الناس، والتأثير في نفوس الجماهير.

وليس معنى كلامي هذا، إسقاط وظيفة التبليغ الإسلامي عن أهل الحوزات العلمية. فإثبات الشيء لا ينفي ما عداه، وإنما هدفي من هذه الكلمة، هو أن نستجمع قوانا الخطابية، ونوجه كل طاقات المنبر الحسيني، لإعادة الصورة الإسلامية المشرقة التي تراكم عليها القتام والغبار خلال هذه السنوات العجاف التي مرت بالأمة الإسلامية، وحاول كثير من حكامها أن يطفئوا نور الإسلام باسم الإسلام، ولكنهم ما أفلحوا، وفشلوا بشكل مخجل، وفي النهاية ذهبوا إلى الجحيم وبقي الإسلام متألّقا في آفاق الحقيقة وسماء الواقع.

ومن هنا أرى لزماً عليّ أن أنبه الأخوة الكرام من الشباب المسلم، من الذين منّ الله عليهم ببصيرة نافذة، وإيمان عميق، وعقيدة راسخة، أنبههم إلى ضرورة الدخول في رحاب التبليغ الإسلامي، وحمل الرسالة الإسلامية ليس هنا في بلاد الإسلام فحسب بل وأيضاً إلى شعوب الأرض كافة، حتى تمشي الأجيال المتعاقبة كلها في نور الوحي والرسالة، والقرآن الكريم، الذي يهدي للتي هي أقوم، فيخرجهم من الظلمات إلى النور، يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العقل والعمل... والفكر... والوعي، وبالتالي نستطيع أن نتربّع على قمة الرشد وحينئذ لا يعود في إمكان الأعداء أن ينالوا من الإسلام شيئاً.

الزهادة والفقاهة ومعناها الحضاري

جاء في الحديث أنه: «من أراد الدنيا فعليه بالتجارة، ومن أراد الآخرة فعليه بالزهادة، ومن أرادهما معاً فعليه بالفقاهة».

والفكرة الحضارية التي يحملها هذا الحديث أنه يفتح عقولنا وأبصارنا على حقيقة الحياة، ولماذا ركبت بهذا الشكل.. فالدنيا والآخرة كفتان متعاكستان إذا خفَّت الأولى، ثقلت الثانية، وإذا أقبلت الثانية أدبرت الأولى وهكذا. لا يمكن أن يتساوى الميزان في الدنيا والآخرة إلا بشرط واحد وهو أن يطلب الإنسان الآخرة بالدنيا، بمعنى أن يتحرك في الدنيا باتجاه الآخرة وهنا فقط يستطيع أن يريح الدنيا ويريح الآخرة في آن واحد. وطبعاً هذه فلسفة تحتاج إلى بحث أكثر نتركها لبحثها في مجالها وموقعها الصحيح من هذا الكتاب، ولكن أردت فقط أن أبين اللفتة الحضارية في هذا الحديث وهي أن الزهادة لا تعني هجر الدنيا، وترك الحياة، لأن ذلك لون من الرهبانية وهو حرام في الإسلام، فلا رهبانية في الإسلام، وإنما الزهادة معناها ألا تسمح للدنيا أن تسيطر عليك أي أفد نفسك منها، وهذا هو المعنى الذي أراده أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله: ليس الزهد ألا تملك شيئاً ولكن الزهد ألا يملكك شيء». وهذا هو الواقع الذي يغيب عن أذهان الكثير من الناس فيتصورون أن الإسلام ضد الحياة وضد الدنيا، في حين أن الحقيقة تختلف عن هذا التفكير، إن الإسلام دين الحياة..

وحيث نقرأ القرآن الكريم نجده يعدد نعم الدنيا وملذاتها ثم يقول: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١).

وأجمل مثال يمكن أن يضرب في هذا المجال هو مثال السفينة والماء. فالدنيا بالنسبة لقلب الإنسان أشبه بالماء للسفينة، فكما أن الماء كلما كثروا وازداد عمقاً استطاعت السفينة أن تتطلق أكثر فأكثر، كذلك المال والدنيا، كلما كثر المال وازدادت الخيرات في الدنيا استطاع الإنسان أن ينطلق أكثر فأكثر.. ولكن حذار من تسرب حب المال والدنيا إلى القلب.. فكما أن السفينة تفرق إذا تسرب الماء إلى داخلها كذلك الإنسان يفرق إذا تسرب حب الدنيا إلى داخله.. ومن هنا قالوا إن حب الدنيا رأس كل خطيئة.

إذن: «فليس الزهادة ألا تملك شيئاً، وإنما الزهد ألا يملكك شيء». هذا من جانب ومن جانب آخر فإننا نجد الزهد هنا ليس أكثر من محاولة جادة لضم الدنيا إلى الآخرة في صفقة رابحة، وهذه هي التجارة المطلوبة التي أرادها الله بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ﴾ (٢).

وهي ليست التجارة المادية التي يقول عنها: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٣).

(١) الأعراف/ ٣٢.

(٢) الصف/ ١٠.

(٣) النور/ ٣٧.

نقول هذا في الوقت الذي نعرف فيه إلى أي مدى يشجع الإسلام على العمل التجاري. ولقد جاء في الحديث أن التجارة تنمي العقل، وأن تركها يؤدي إلى نقص العقل.

واضح طبعاً هذا العرض الذي يعرض لوتين من التجارة: تجارة مادية، وتجارة معنوية، والغلبة دائماً للتجارة المعنوية فما دام الخط يؤكد أن من أراد الآخر وسعى لها سعيها جاءته الدنيا تركض وراءه، فإن المعادلة هنا واحدة وهي أن التجارة المادية تشير إلى الدنيا بينما التجارة المعنوية تعني الآخرة والسعي إليها.

على أن الذي يؤمن بالآخرة فإن الإيمان ينعكس على سلوكه وحركاته في الحياة بحيث لا يكون أسيراً لشهواته، ولا لغرائزه وغضبه، وإنما هو يوجه الشهوة، والغضب في البناء. هذا عن النقطتين الأوليين وهما: الزهادة، والتجارة، أما فيما يخص النقطة الثالثة وهي الفقه، فإن الكلام يقتضي مناً مقدمة قصيرة لتوضيح الفكرة. فالفقه لا يعني فقط دراسة المسائل والأحكام الفقهية، وإنما كلمة الفقه فيها معنى أكبر وأعمق من هذا المعنى الذي سارت عليه العادة، وجرت الطريقة.. ألا وهو: الوعي والرشد.. أي أن الفقه معناه فهم الدين والدنيا.. فهم الحياة.. إن الإنسان الذي يعرف زمانه هو الفقيه الحق وليس الفقيه الذي درس الأحكام الشرعية، وغفل عما يجري حوله في الأرض.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه».

وقال: «العارف بزمانه لا تهجم عليه اللوابس».



أجل هذا هو الفقيه، لأن أكبر وظيفة للفقيه العالم هي أن ينقذ الناس من أعدائهم ويقف بوجه الظالمين وهذا الموقف يحتاج -أول ما يحتاج- إلى المعرفة الكاملة لمجريات الأمور، وسير الأحداث في الحياة، وإلا فكيف يستطيع الفقيه الذي لا يعرف السياسة ولا يدري ما يجري في العالم، كيف يستطيع هذا الفقيه أن ينقذ الناس من أعدائهم؟

يقول الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «ألا إن الفقيه -كل الفقيه، من لم يُقنط الناس من رحمة الله. ثم يقول: والفقيه كل الفقيه من أفاض على الناس خيره.. وأنقذهم من أعدائهم».

ونقرأ كلمة للإمام علي عليه السلام يقول فيها: لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم؛ لألقيت حبلاً على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه عندي أهون من عفطة عنز».

وهذا هو المعنى الدقيق للفقيه، فالفقه يعني فهم الدين والدنيا، واستيعاب الحياة لأن الفقه عبارة عن التفهم الكامل لأصول الدين، وفروعه، وإذا كان الفقه كذلك، فإن الفقيه لا بدَّ له من دراية كاملة بالحديث والتاريخ، والسياسة والحضارة والاقتصاد، والاجتماع وعلم النفس، وكيف تُدار الأمور في الحياة وفي هذا العصر الذي يعيش فيه الناس.

إن سورة العصر تحمل هذا المعنى بوضوح. فهي تقول: ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (١).

(١) العصر / ١-٢.

وحيث تقسم بالعصر، فإن ذلك يعني أن أغلى شيء يملكه الإنسان هو الوقت والزمن والعمر، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن السورة عندما تذكر العصر، فإنها تريد أن تقول: إن الذي لا يعرف لغة العصر ولا يعرف لوابس العصر لا يمكن أن يربح الحياة وإنما يخسر قضيته، ولذلك أعطت هذه السورة للإيمان والعمل الصالح معنى ومفهوماً مغايراً لما هو مألوف بيننا نحن المسلمين.. إنها أعطت صورة حضارة للإيمان والعمل الصالح، وهي أن الإيمان والعمل الصالح هما اللذان يربحان العصر ويواكبان مسيرة العصر بل يطوعان العصر إلى شواطئه ومرافئه.

واليوم ماذا صنعنا نحن حيال أدوات العصر العملاقة في التطور التكنولوجي؟ هل استطعنا أن ننتفع بهذه الأجهزة والأدوات بشكل يناسب وظيفتنا، ويوافق رسالتنا الإسلامية الخالدة.. تلك الرسالة التي هي الطرح الحضاري للإنسانية كافة؟

لا أظن أننا قمنا في هذا المجال بشيء يُذكر..!. والمطلوب منا أن ننفض الغبار عن أكتافنا وننهض مستعنيين بالله عز وجل ومنطلقين في طريق الحق، والعدل والحرية، وهو طريق الحضارة الإسلامية التي يحلم بها كل بني البشر. هذا هو معنى الفقه. وقد ورد في الدعاء: «اللهم فقهنى في الدين، وحببني إلى المسلمين، وأجعل لي لسان صدق في الآخرين».

ونسلم الإمام الحسين عليه السلام يقول يوم عاشوراء: «الحمد لله الذي فقهننا في الدين» ومعنى كلامه أنني أفقه ما يجري في العالم وأدرك خطورة الموقف، ولذلك خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، وأريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر.

* حضارة الخطيب:

والخطيب الحضاري هو الذي لا يغفل عن ذكر الله لحظة واحدة قط فقد كان النبي ﷺ يقرأ: إلهي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً، وكان يبكي فجاءت أم سلمة وقالت: هذا أنت يا رسول الله؟ فقال: نعم يا أم سلمة، إن أخي يونس بن متى وكله الله إلى نفسه لحظة واحدة، فجرى عليه ما جرى.

على أن هذا الشعور لا يتأتى إلا من الوعي، والرشد. يقول القرآن الكريم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (١).

ويقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٢).
ويقول: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ (٣).

ثم انظروا الارتباط بين العين والقلب في الآيتين. لأن الضمير في أبصارها يعود إلى القلوب. ولذلك نقراً في آية أخرى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ (٤).

أي أن هناك علاقة بين اضطراب القلوب، وزيفان العيون.
ويقول الحق سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٥).

(١) الحج/ ٤٦.

(٢) الحج/ ٤٦.

(٣) النازعات/ ٨-٩.

(٤) الأحزاب/ ١٠.

(٥) محمد/ ٢٤.

بمعنى أن التدبر مفتاح القلب، وبكلمة: إن تحريك العقول وإثارة الفكر يفتح القلب ويضيء داخل النفس.. كما يقول القرآن في بعض آياته: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١).

على أن السير في الأرض، والسير في العلم، والسير في القراءة والمطالعة يصنع القلب الذي يعقل ويستوعب أحداث العالم. على أن هذا من شأنه أن يجعل الخطيب مسؤولاً، يتحمل المسؤولية أينما كان وأينما اتجه.. فهو ينثر الخير والبركة أينما حل ونزل: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾.

ولكن شريطة أن يجعل الآيات التالية نصب عينيه وفي قلبه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٢).

ويقول الله سبحانه: ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٣).

ويقول سبحانه: ﴿وَلْتَسألُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤).

وفي آية أخرى نقرأ قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (٥).

(١) يونس / ١٠٠.

(٢) الأحزاب / ٧٢.

(٣) الصافات / ٢٤.

(٤) النحل / ٩٣.

(٥) الأحزاب / ٢١.

وقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ (١).

ثم نقرأ في الحديث الشريف: «من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم». وقراءة هذه الآيات، والأحاديث تثبت في نفوسنا ونمارس المسؤولية، ونشعر بالإحساس بالآخرين، وهذا أعظم شيء يجعل الخطيب قادراً على أداء رسالته لأنه -عندئذ- يتكلم من قلبه وليس لقلقة لسان فقط، فالخطيب الذي يعيش آلام الناس ومعاناتهم، هو الخطيب الناجح الذي لا تأخذه في الله لومة لائم. بخلاف خطباء السوء من الذين يروجون للباطل، ويشترون مرضاة المخلوق بسخط الخالق. مثل الخطباء الذين كانوا يسبون علماً فوق المنابر ثمانين سنة وهي الفترة التي حكم فيها بنو أمية.

وبالمناسبة، فكل واحد منا لديه استعداد فطري لأن يكون أبرع خطيب وأقدر ناطق. غير أن البعض يستخدم هذه الطاقة فيصبح خطيباً، بينما يتجاهلها الآخرون فتموت في صدورهم. نحن نعرف أن الله سبحانه وتعالى، حين خلق أول إنسان أمره أن يقوم بين الملائكة ويخطب: قال: «يا آدم انبئهم بأسمائهم» وطبعاً سبقت هذه اللحظة، لحظة التعلم والأخذ التي وردت في قوله: «وعلم آدم الأسماء كلها» وهنا نحن أمام إنسان له قدرة على أخذ العلم وقدرة على نشره وإذاعته على الآخرين وذلك عن طريق العقل والمنطق فبالعقل يستفيد وبالمنطق يفيد. وعندما نقرأ في القرآن الكريم عن أهمية البيان، نجد

(١) آل عمران/ ٦٨.

أنه جاء في المرحلة الثانية بعد خلق الإنسان. ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (١).

وأود أن أذكرك أيها القارئ العزيز أن الخطابة تعتمد على علم
النفس، وعلم الاجتماع، وهي بعد كل ذلك تحتاج إلى ذوق رفيع في
اختيار الألفاظ. وانتقاء الكلمات بعناية فائقة وهذا هو جمال الكلام
وجمال الكلام يسمى فصاحة.. في حين أن تكلم الناس على قدر
عقولهم يسمى بلاغة أي بلوغ كلامك إلى ذهن السامع بأجمل لفظ
وأوقع معنى، وهذا هو المعنى الدقيق الواضح للفصاحة والبلاغة.
ونطلق عليه في علوم الحوزة اسم البديع.. وهي مجموعة من العلوم
مودعة في كتاب المطول: الفصاحة.. والبلاغة، والبديع، وقراءة هذه
العلوم، كفضيلة برفع مستوى الخطيب الأدبي والفكري. ومن هنا كان على
الخطيب أن يعبئ عقله بالكتاب، والعترة ويعبئ منطقته بأحلى الأدب،
وأروع الكلم، لأن الكلمة وردة، والمعنى عبيرها.. فكما أن الوردة بلا
عطر لا تساوي شيئاً رغم جمالها، كذلك الكلمة الفارغة لا تساوي
شيئاً رغم جمالها الظاهري.

أجل.. كلمة بلا معنى مثل وردة بلا رائحة. على أن الكلمة لها
طرفان فهي إما حلوة مثل العسل، أو مرة مثل الحنظل.. والأولى هي
الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت في الأرض وفرعها في السماء.. في
حين أن الثانية هي الكلمة الخبيثة التي لا أصل لها، ولا قرار.

(١) الرحمن/ ١-٤.



* المنبر وصفاء السريرة:

إن من يعتلي المنبر عليه أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة وأن يكون مخلصاً في قوله وتوجهه أخذاً من الإيمان بالله سبحانه وتعالى وانتهاءً بحب الناس.

- تقوى الله، والتقوى عملية تطبيقية تحصل بالممارسة، بالصلاة والدعاء وترك المحرمات.

- الأخلاق ومداواة الناس «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ومقابلتهم واستقبالهم بالبشر وطلاقة الوجه والكلمة الحلوة.

- قوة الفكر والعلم والحجة.

- قوة الأسلوب والطرح.

- قوة الحافظة.

- قوة الكلمة والأدب والثقافة الواسعة. فالمنبر إذاً يحتاج إلى أئافٍ ثلاث:

الأولى هي العلاقة الطيبة مع الله ومع الناس: مع الله في العبادة، ومع الناس في المعاملة.

والثانية هي العلم قراءة وحفظاً.

والثالثة هي الأدب قراءة وكتابة.

ولا بدّ من اليقين ومعرفة المبدأ، أي التركيز على العقيدة لأن العمل من دون مبدأ هو عمل هباء منثور، والإيمان هو الذي يضفي الصلاح على العمل، فلا يمكن أن يكون عمل صالح دون إيمان. فالإيمان من

ضرورات العمل الصالح. ولكن نحقق المبدأ ونذكر المبدأ، فإنه لا بد من التوجه إلى النبي ﷺ وأهل بيته لأنهم هم المرشدون وهم الدالون على الحق.

وأهم ركيزة في إنجاح المنبر، هو سهولة الطرح وجمال الأسلوب والأداء. يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

يحدث أحياناً -أن يحمل الخطيب فكرة ناضجة ونافعة، ولكنه لا يملك الوسائل لطرحها بشكل جيد ومقبول، وأعني بالوسائل -هنا- وسائل التعبير، وأدوات البيان والكلام. فتراه لا يتمكن من الإلقاء الجيد، فيروح متعثراً في إلقائه، مضطرباً في هيئته، وعندئذ تموت الفكرة اختناقاً تحت ضغط الإلقاء المضطرب. وكما لا بد للخطيب من الرزانة في الإلقاء، كذلك لا بد له أن يبتعد -قدر المستطاع- عن الطرائف الباهتة التي تسبب خفة للمنبر، بخلاف الطريفة المعبئة بالحكمة فإنها تأخذ بمجامع القلوب، وهي التي أرادها النبي ﷺ بقوله: «إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة».

عندما يكون القلب خاشعاً

ليس في وسعنا أن نصف الحضارة المعاصرة المادية، بأنها حضارة مجنونة، رغم الجنون الذي يتخبط فيه العالم اليوم، تخبطاً عشوائياً .. جنون التسلح .. جنون الحرمان .. جنون الفقر .. جنون القلق والهلع .. أقول: رغم هذا القدر الكبير من الجنون، إلا أننا لا نستطيع أن نعرف الحضارة بأنها حضارة مجانين وذلك للأسباب التالية:

أولاً: إنها قائمة على العقل المشبع بالعلم.

ثانياً: التطور المدهش الذي يضرب بقوة في كل ميادين الحياة .. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على استخدام الحضارة للعقل استخداماً موفقاً.

ثالثاً: إن الجنون معناه الغاء العقل والحضارة ملاكها العقل. ولكن هناك فارقاً حضارياً يفصل بين الحضارة الأجنبية .. والحضارة الإسلامية .. وهو: أن العقل الحضاري في الإسلام، هو العقل المضيء بنور العلم والإيمان، وليس بالعلم وحده، لأن التجارب أثبتت أن العلم وحده لا يؤدي إلى نتيجة مثمرة، بل بالعكس، حيث نجد العلم الفارغ من الإيمان يتحول إلى جريمة وغوغائية .. وهنا يمكن أن نصف الحضارة بالجنون من هذا الباب، أي لأنها ما استخدمت العلم الممزوج بالإيمان .. وإلا فالإمام علي عليه السلام يقول: "الله الله في القرآن، فلا يسبقكم بالعمل به غيركم" وعندما يقول الإمام: فلا يسبقكم بالعمل به غيركم، فإنه - بغير شك - لا يريد أن الكفار والغريبين، سيسبقونا إلى

تعظيم شعائر الله، وتطبيق مناهج الإسلام في العبادة، والتربية والأخلاق .. وإنما أراد أن الأجانب سوف يسبقوننا بتطبيق الجانب العلمي المادي في القرآن الكريم .. أو قل إنهم يسبقوننا إلى أخذ البرنامج العلمي الخاص بتطوير الحياة .. في مختلف المجالات: التكنولوجية .. والعلمية في إدارة الحياة .. وإمرار المعاش. وهذا هو الذي حصل.

وإذا أردت أن تدرك كم هي الخسارة الكبيرة التي حلت بنا نحن المسلمين .. فما عليك إلا أن تعرف حجم الكتب، والنظريات العلمية في الفيزياء والكيمياء .. والرياضيات .. والهندسة التي نقلها الغربيون، من جامعات المسلمين في الأندلس .. والقاهرة والمدينة. وبغداد، إلى بلادهم في الغرب .. على أن هذه النظريات العلمية تعد أكبر ثراء حضاري، تركه علماء الإسلام للأجيال.

المهم .. أن الفاصل الحضاري بين حضارة الغرب، والحضارة الإسلامية. هو: أن الإسلام يعتمد مع العقل على القلب .. وبتعبير آخر: العقل في الإسلام متداخل مع القلب، وهو بالتالي يشكل وظيفة من وظائف القلب.

يقول القرآن الكريم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا..﴾.

وجاء في الحديث الشريف: "إن العقل ما عبد به الرحمن" ومعنى ذلك أنه يجب أن يكون ملازماً للقلب، لأن الإيمان في القلب .. والعلم في العقل .. على أن الخطأ الفادح الذي وقعت فيه الحضارة اليوم، هو أنها فتحت جامعات للعلم .. ولكنها لم تفتح مساجد للقلوب .. ودائماً

الجامعة إذا سارت من دون مسجد فإنها ترتطم بالجاهلية وتتحطم.
ولهذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١).

لأن الإيمان يجب أن يسير دائماً مع العلم أو قل: العلم يسير في ظل
الإيمان وإلا فالمحنة كبيرة .. والكارثة محققة.

ومن هنا: فإن العقل لا يقابل الجنون أبداً، وإنما يقابل الجهل. وحتى
في فكر أهل البيت نجد أن العقل قد جاء في مقابل الجهل .. ويمكن
رؤية ذلك في كتب الحديث حيث يكون أول كتاب، في هذه الكتب هو:
كتاب العقل والجهل .. والدقة هنا هي أن العقل وعاء العلم .. وبما أن
العقل بلا علم يعدُّ ميتاً، لأنه يموت بالفعل، فقد جعل الجهل قبالة
العقل.

(١) فاطر/ ٢٨.

العلم والعلماء الأسوة

المؤمن لا بدّ أن يكون عالماً لأن الجهل ضد الإيمان .. يقول الإمام علي عليه السلام: الناس ثلاثة: فعالم ربّاني، ومتعلم على سبيل نجاة .. وهمج رعاع أتباع كل ناعق" وإذا كان الصنفان الأولان، من أصناف الناس، هما العلماء، فإن جماعة الصنف الثالث لا يمكن أن يكونوا مؤمنين لأن انزلاقهم في متاهة الشيطان سهل يسير .. وعلى هذا الأساس فإنه مستحيل أن يكون المؤمن من الهمج الرعاع. ولذلك قال علي عليه السلام: "يا كميل: العلم خير من المال .. العلم يحرسك وأنت تحرس المال" فالعلم ليس فقط يحرسك من اللصوص، والتخلف والجهل .. وإنما يحرسك من الانزلاق في المخاطر .. ومهاوي الشر، لأن العلم حاجز عن الوقوع في الشر .. وطبعاً حين نقول: العلم حاجز عن الشر، فإن المقصود بالعلم، هو العلم الذي يرافقه الإيمان والخشية، والخشوع .. وليس العلم الجاف اليابس: "إنما يخشى الله من عباده العلماء .." العلماء وحدهم هم الذين يخشون الله، ويخافون سوء الحساب .. أما غيرهم، أما الجاهلون .. فإنهم لا يخافون الله وليس لله في قلوبهم مكان ولا وزن. ومن هذا المنطلق، فإننا إذا رأينا عالماً لا يخاف الله ويمارس الذنوب والمعاصي وهو تحت لباس العلم، ويعتمر تاجه، فإنه أبعد ما يكون عن العلم الشريف الذي يصنع القلوب صناعة ربّانية .. ولذلك قال الإمام علي عليه السلام: "فعالم ربّاني .." أي أن العالم الذي هو القدوة، والأسوة في المجتمع .. إنما هو العالم الربّاني الخاشع قلبه لله رب العالمين.

العلماء الخطباء الذين لا يخشون غير الله

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (١).

"أنا أقول كلمة الحق على لساني، وفوق المنبر .. والذي ينتظر مني غير ذلك، فهو واهم حتماً، لأنني لست خطيباً محترفاً أسعى وراء المال .. وإنما أنا خطيب أحمل رسالة مقدسة أكبر من الدنيا، وأعظم من جمع المال والذهب".

بهذه الكلمة افتتح أحد الخطباء كلامه فوق المنبر .. وكم شدني هذا اللون من الصراحة في إظهار الحق .. وكم تمنيت لو سار بقية الخطباء على طريق هذا الخطيب الصادق، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم.

إن الذي يتلأ فوق المنبر، فيظهر نصف الحقيقة، أو يتجاهلها بالكامل .. لا يصلح أن يكون ناطقاً باسم الإسلام .. وباسم الجماهير المحرومة .. المطحونة بالذل والفقر والهوان .. وبالتالي فمثل هذا خطيب، لا يمكن أن يرضي أهل البيت أن يمثلهم فوق الأعواد وعلى رؤوس الأشهاد. فالخطيب الذي أعد نفسه إعداداً صالحاً وصادقاً لهذه المهمة، رسالة مقدسة متشحة بنور الله سبحانه، كلماتها الحق، وحروفها الإيمان وغايتها تطهير الإنسان من كل الرذائل والأخذ بيده،

(١) الأحزاب / ٣٩.

ووضعه في الطريق السليم الموصل إلى الجنة. هذه هي مهمة الخطيب
العالم القادر المؤمن الذي لا يخاف في الناس لومة لائم والذي لا يقول
إلاَّ الحقَّ سيَّان عنده إذا كانت المواقف حرجة أم خطرة محفوفة
بالصعاب، أو إذا كانت سهلة وعادية. ويجب على الخطيب الذي يبلغ
رسالة الله سبحانه أن يعي دوره أولاً ويعلم مكانته بين الناس التي لا
تضاهيها مكانة من حيث التأثير، ومن ثم عليه أن ينطلق دون خوف أو
وجل لأن مهمته أشرف مهمة وأنبل مهمة وأطهر مهمة لأن لها صلة
بالله سبحانه.

نصيحة خطيب مجرب

في لقاء نافع جمعتني مع الشيخ البهلول في الشام وقد انتفعت من لقائه هذا كثيراً، حيث وجهت إليه أسئلة كثيرة وكان يجيب عنها .. ومن جملة الأسئلة قدمت إليه السؤال التالي:

هل أنت مجتهد أم لا؟

- لا .. لست مجتهداً!

- لماذا لست مجتهداً؟

- لأنني وجهت وجهي إلى النجف الأشرف أيام المرحوم السيد "أبو الحسن الأصفهاني" وقررت أن انصرف بكامل قواي إلى الاجتهاد فما كدت أصل النجف الأشرف، والتقي بسماحة السيد "أبو الحسن" رحمة الله عليه، حتى بادرني بالسؤال: هل جئت زائراً أم مقيماً؟ فلما أخبرته بنية الإقامة والانصراف الكامل للدرس والتحصيل في سبيل الاجتهاد -يقول الشيخ البهلول- قال لي بعدما عرف تصميمي وعزيمتي على بلوغ الاجتهاد: إن الاجتهاد حرام عليك الآن - لأنك ستضطر إلى ترك المنبر في سبيل الانصراف إلى دراسة الاجتهاد .. وهذا حرام عليك فعله، بل يجب عليك أن ترجع إلى منبر الحسين لتتشر الإسلام وتصمد بوجه الظلمة وأعوان الظلمة .. ثم أردف يقول: لأن هناك كثيرين من الناس يصلون درجة الاجتهاد، ولكن الذين يرتقون المنبر ويبلغون، فهؤلاء قليلون جداً .. - ثم أكمل الشيخ البهلول حديثه معلقاً

على هذه الكلمة بقوله: إن خطيباً واحداً ناطقاً بالحق على المنبر، أفضل من ألف مجتهد ساكت. وهذا هو الواقع .. على أن ذلك لا يمنع من سلوك الخطيب دروب الاجتهاد، فالخطيب المجتهد أكثر نفعاً من الخطيب غير المجتهد .. ولكن كلام السيد "أبو الحسن" رحمة الله عليه، يشير إلى الحاجة الملحة لصعود المنبر، بحيث لا ينبغي أن يُترك المنبر هكذا من دون خطيب، ومن دون مبلغ .. ويا ليت العلماء والفقهاء المراجع يلتفتون إلى ما التفت إليه السيّد "أبو الحسن" وهو العناية الفائقة بالمنبر وإعداد الخطيب، وتشجيعه على مواصلة دربه .. وأين هذا القول من أقوال بعض العلماء، الذين ينظرون إلى الخطيب نظرة استخفاف وازدراء. باعتبار أن الخطيب ليس عالماً، وأنه لا وزن له في المجتمع، ويطلقون عليه اسم (الروزخون) ولذلك تراهم إذا كلف أحدهم بالكلام فوق المنبر، فإنه يتكلم عن كل شيء إلاّ الحسين وتعزية عاشوراء، فإنهم يستكفون من ذكر التعزية والبكاء، معتقدين أن ذلك يقلل من شأنهم ويصغرهم في عيون الناس .. على العكس تماماً مما كان يصنعه العلماء الكبار في السابق حيث كان الواحد منهم لا يهدأ دون أن يقرأ بنفسه تعزية وقراءة وبكاء.

لقد سألت الشيخ البهلول عن الخطابة وفنونها وكيف يستطيع الإنسان أن يكون خطيباً ناجحاً فقال لي: لا بد للخطيب من ثلاثة أشياء يركز عليها، ويوليها اهتماماً كبيراً ..

أولاً: ينبغي للخطيب أن يهتم بصفاء نفسه، والصفاء إنما يجيء عن طريقتين الأولى ترك المحرمات والالتزام بالواجبات، والثاني: الرياضة النفسية المركزة عن طريق التقوى.



وثانياً: لا بدّ من كثرة القراءة المركزة.

وثالثاً: لا بد من الكتابة والتمرين والحفظ، وممارسة الخطابة يومياً، كأن تذكر آية أو حديث أو بيت شعر ثم تقوم بشرحه وتفسيره إلى آخر القائمة .. ثم صمت الشيخ البهلول وتابع يقول: إن هذه الأشياء وحدها لا تصنع خطيباً، وإنما هناك شيء يقبع في داخل النفس هو الذي يصنع الخطيب، بل هو وحده الذي يمكن أن يصنع خطيباً، ثم ضرب مثلاً على ذلك وهو: أن ملكاً من الملوك كان قد دفع ولده ليتعلم علم النجوم ومساعدته في ذلك، فمكث ابن الملك يدرس هذا العلم قرابة أربع سنوات حتى أتقنه أحسن إتقان وأروع إحكام، ثم رجع إلى أبيه عالماً في النجوم .. فأراد الملك أن يعرف مدى علم ولده .. فأجرى عليه امتحاناً سريعاً إذ وضع خاتمه في قبضته ثم قال لولده: أنت عالم في النجوم .. وعالم النجوم يعرف الشيء الذي أحمله في يدي، فقل لي: أي شيء أنا أحمله الآن في يدي ..؟ ففكر الولد .. ثم طبق قواعد العلم، فقال: إن الشيء الذي تحمله هو شيء مدور.

قال الملك: أوضح أكثر من ذلك.

قال الولد: إنه أجوف مجوّف ..

فقال أبوه: يا بني عيّن ما هو الشيء بالضبط.

فقال: طاق رحي .. فضربه الملك وأرسل في طلب المعلم ثم سألَه

قائلاً:

لقد أرسلت إليك ولدي لتعلمه علم النجوم، فماذا علّمته؟

قال المعلم: يا حضرة الملك .. لقد علّمته أن يقول: إن الشيء الذي



في يدك هو شيء مدوّر .. وعلمته أن يعرف أنه أجوف .. وبقي عليه
أن يدرك أن طاق الرحي لا يناسب حجم الكف ..

فقال البهلول: إن هذه الأشياء التي ذكرتها لك إنما هي جزء من
الخطابة، وبقي على الخطيب أن يستعين بالله وبالذوق السليم على
انتخاب الموضوع، وطريقة طرحه على الناس. فالخطيب يتطلّب ثقافة
واسعة متنوّعة وعليه أن يكون ذكياً يتمتّع بشخصية قوية تُجبر
المستمعين على احترامه وتقديره وإجلاله.



مع الخطابة في شروطٍ لا بدّ منها

على الرغم من كل ما قرأت، وسمعت في المنبر، وفنّ الخطابة، إلا أنه يظل المنبر في حاجة ماسة إلى الأشياء التالية:

أولاً: البيان القدير - وهذا يعتمد على المطالعة الأدبية، والكتابة الأدبية، وحفظ النصوص الأدبية لتنمية القدرة على التصوير والإبداع.

ثانياً: الطرح الجديد المنطقي لواقعة الطف مع مصائب جديدة وشعر جديد.

ثالثاً: المنبر يحتاج إلى القصص الهادفة، وكثرة الأمثلة والشواهد، مثل مثال الشجرة بباب الشباب، ومشية الجندي والسائح، وغير ذلك من الأمثال المعبرة.

رابعاً: المنبر يحتاج إلى جو من الروحانية، وهذه تعتمد على نفسية الخطيب - وأظن أن وجودي في المحراب هذه الأيام يضيف على المنبر جواً من الروحانية والقداسة - وبعد نفسية الخطيب تحتاج إلى مطالعة وقراءة في البحار، في كتاب الإيمان والكفر، وكتاب العشرة وأمثال هذه الكتب التي تتحدث عن العقائد، وبالخصوص عقيدة الآخرة والمعاد، فإن هذه العقيدة لها أثر كبير في نفوس الناس، فاجتهد أن لا يفرغ منها منبر أبداً.

خامساً: المنبر يحتاج أن يعالج مشاكل الناس ويدخل في حياتهم اليومية وهذه نقطة مهمة على الخطيب النبيه أن يوليها اهتمامه وعنايته.



الطريق إلى المنبر

طريق الخطابة شاق وطويل، ولا بد لمن يريد أن يقطع هذا الطريق، من التزود، بالزاد والراحلة، وهما التقوى، والصبر فالمتقي الصبور، هو الناجح، وهو الظافر في النهاية، ومن دون التقوى، والصبر لا يستطيع أحد أن يكون خطيباً ناجحاً إنه طريق مليء بالصخور والأشواك، ولكنه لذيذ، وجمل، وفياض، بمقدار ما يحوي من الأشواك، يحوي من الورود، وأكثر، وبمقدار ما يحوي من الصخور يحوي من الأحجار الكريمة، والدرر الثمينة. وأكثر. والفرق بين واحدٍ تسلح بالتقوى والصبر ثم انطلق في طريق التبليغ، وآخر لم يتسلح ولم يهيئ نفسه ويعدها لحمل هذه الرسالة، هو فرق كبير إنه الفرق بين الظلام والنور .. الفرق بين المحارب المسلح، وبين ما ينزل إلى المعركة بغير سلاح .. الفرق بينهما، هو الفرق بين من يعلم ولده السباحة ويتركه في قارب أمين قرب الماء، وبين من يلقي بولده في الأمواج دون أن يعلمه السباحة.

قال لقمان لولده: يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور.

ويجب أن نعلم أن الخطيب، كالمالح للطعام، وكالنور للظلام، وكالماء للسماك، وكالهواء للإنسان.



يقول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا...﴾ (١).

والذي يمعن النظر في هذه الآية، ويتعمق فيها يجد أن التقوى هي التي تجعل القول سديداً، والقول السديد هو الذي يصلح الأعمال، أو يكون سبباً مباشراً في صلاح الأعمال، التي يتعاطاها الواحد منا، في حياته.

ويقول في آية ثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا...﴾ (٢).

ومن خلال قوله تعالى: إن أكرمكم عند الله أتقاكم يبدو أن أقرب الخطباء للإمام الحسين عليه السلام هو الخطيب الأكثر تقوى، والأكثر خوفاً من الله، والأبعد عن المعاصي، والمحرمات.

ومعلوم أن بقاء الخطيب في مكان واحد، يعني نهايته، فالخطيب كالطبيب، يداوي النفوس المريضة، والأضماير المدخولة، وقد قيل إن النبي ﷺ كان طبيباً دواراً بطبه. ومن هنا، كان على الخطيب أن يتواجد في أكثر من مكان في العالم، وألا يقنع في البقاء بمكان واحد، بل عليه أن يعرض نفسه على الشعوب، والقبائل والأجيال ولكن في عزة وكرامة واحترام، وليس في ابتذال رخيص لأنه يمثل أهل البيت - عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام - ولا بد له أن يتحلى بأخلاقهم، ويتأثر بسلوكهم، ويحمل مبادئهم إلى العالم أجمع، ولكي يكون ناجحاً

(١) الأحزاب / ٧٠.

(٢) الأنفال / ٢٩.



في حمل المبادئ، لا بدّ له من تطبيقها على نفسه أولاً، قبل أن يطلب من الآخرين أن يجربوا تطبيقها.

إننا حين نقرأ آية التوبة التي تقول: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١).

أقول: لدى قراءة هذه الآية، نضع أيدينا على حقيقة مرة، وهي أن الخطيب الذي يجب أن يصعد المنبر، وينفر في الأرض، هو الخطيب الفقيه، وليس الذي لا يفقه من الدين شيئاً.

على أن هذه الآية تبين مدى الالتزام الكبير بين الفقه والخطيب.

ومن هذا المنطلق، نستطيع القول إن دراسة الفقه بعمق واستيعاب، هي ضرورة ملحة للخطيب، وذلك أن كشف فلسفة الأحكام الشرعية والمناهج القرآنية هي أحد أهم أركان المنبر الناجح، ومن هنا فإنه لا بد للخطيب من دراسة الفقه دراسة واعية مستوعبة لكل جوانبه، ولعلّي لا أبالغ إذا قلت إن وصول الخطيب إلى درجة الاجتهاد في الفقه، هو أحد الأركان الأساسية للمنبر، وهو من أهم شروط النجاح في الخطابة.

ولقتل الملالة، وكسر الرتبة المملّة في الإلقاء، ينبغي أن نختار مقدمات جديدة للخطب في كل ليلة، والمقدمات تؤخذ من كلام أو من خطب أهل البيت، فإن لديهم افتتاحيات كثيرة والافتتاحية تكون مناسبة للموضوع والآية التي نريد طرحها. فمثلاً لو أردنا الكلام عن الدنيا، ونظرة الإسلام إليها، فإنه يُستحسن بنا أن نبدأ بمقدمة خطبة

(١) التوبة/ ١٢٢.



سيّد الشهداء يوم عاشوراء والتي يقول فيها: "الحمد لله الذي خلق الدنيا، فجعلها دار فناء وزوال، متصرفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرّته، والشقي من فتنته". والصلوات الزاكيات على الحبيب المصطفى أبي القاسم محمد ﷺ.

وهكذا، وفي هذه العجالة استطعت أن تقف أيها القارئ الكريم على مدى أهمية المنبر في الإسلام وعلى مدى خطورة منصب الخطيب إذا لم يكن متسلحاً بإيمان صلب، وثقافة واسعة، وشخصية قوية، فهو لا يقل أهمية عن أي منصب مهما علا وسما، وشتان بين منصبٍ للدنيا، ومنصبٍ للآخرة.

المنبر في حديث الثقلين

لكي يأتي المنبر قوياً مؤثراً، يؤدي رسالته في ظفر ونجاح، فإنه لا بد له من أن يستفيد من تجاربه السابقة .. ولا يقدر أحد أن يستفيد من التجارب السابقة في المنبر، دون الرجوع إليها، وإلقاء نظرة عليها، والتأمل في جوانبها.

فالعودة إلى التجارب السابقة، شرط أساسي في المنبر الناجح، لأن نجاح الخطيب ما هو إلا حصيلة التجارب، والأتعاب والتمارين التي أداها بصدق فوق أعواد المنابر .. إن النجاح ثمرة التمرين المستمر الذي قام به الخطيب، أو قل الخطباء فوق المنابر خلال حقبة من الزمن، وإن كان في رأي أن تجارب المنبر لا تقتصر على جيل دون آخر، وإنما تمتد بجذورها إلى صدر الإسلام الأول، وإلى ما قبل الإسلام حيث كان العرب بارعين في الخطابة، والشعر، وصناعة الكلمة.

وحتى ندخل في صميم الموضوع نطرح السؤال التالي:

كيف يمكننا تصعيد مستوى المنابر في العصر الحديث؟ .. وإنما أقول في العصر الحديث، لأننا ندرك أن العصر الحديث، قد أدخل في كل بيت منبراً، ولكن هذه المرة من نوع جديد، بل هو أخطر المنابر التي مرت على البشرية، ألا وهو منبر التلفزيون والفيديو، إنه منبر على قدر كبير من الخطورة لأنه يقوم بتغذية كل أفراد الأسرة، صغاراً وكباراً، ونساءً على السواء بحيث يعطي لكل صنف منهم غذاءه الخاص



به، علماً بأن الغذاء الذي يقدمه التلفزيون غير الكوجّه غذاء يترك آثاره السلبية فوراً على عقيدة الشخص بشكل عميق، إن التلفزيون صار يصبغ كل شيء في الأسرة، بلونه الرمادي الغامق، .. أصبح يترك بصماته على تفكير الأطفال من خلال أفلام الكارتون، الأفلام المتحركة.. الصور المتحركة، ويترك بصماته على تفكير البنات، والأولاد في سن المراهقة، كيف يؤدي الواحد منهم دوره في مسرحية الخطف، والاغتصاب، والسرقعة، وشرب الخمر، وتعاطي المخدرات، وممارسة الشذوذ، وارتكاب الجرائم بكل أشكالها وصنوفها ..! وكل ذلك يحصل من جراء المسلسلات التي يسهر عليها الكبار والصغار .. علماً بأن هذه المسلسلات سواء كانت عربية أو أجنبية، فإنها لا علاقة لها بالفكر الإسلامي، ولا بالتربية الإسلامية، لا من قريب، ولا من بعيد. وصدقوني لو أننا حولنا هذه المؤسسة إلى مؤسسة تربية، إلى مؤسسة بناء الإنسان وليس هدم الإنسان، لاستطعنا أن نعكس صورة الإسلام في العالم أجمع.

ففي التراث الإسلامي، من رجال الفكر والعلم والأدب، والأخلاق، والتطور التكنولوجي ما يكفي لسد حاجات برامج التلفزيون في كل العالم إلى أكثر من ألف سنة، والذي يريد تفصيلاً أكثر فإننا على استعداد لإعطائه صورة أوسع وأكثر شمولية لأنني لا أستطيع بهذه العجالة السريعة فوق المنبر أن أعكس كل ما يدور في ذهني وخاطري من بيادر الرشاد في التراث الإسلامي.

من هنا أجد المسؤولية أكبر والرسالة أثقل وأعظم أن تعالج بمجرد كلمات خافقة بالحزن فوق الورق.



إذن: فالمنبر مسؤولية، ومعاناة وإصرار على النجاح .. وبغير هذه النقاط لا يتم العبور إلى شواطئ المنابر الراقية الصاعدة.

وما دام الأمر بهذه الدرجة من الأهمية، تعالوا معي إذن، لنبدأ رحلتنا مع المنبر الهادف الذي يرضي الله، وينفع الناس. - وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض - وسبب خلود المنبر، هو نفع الناس والاستفادة التي يأخذونها، ولكن من المنبر الصحيح الهادف.

إن المنابر السابقة، لم تستطع أن تؤدي دورها المطلوب، ورسالتها المنتظرة، والسبب في ذلك يرجع إلى عدة نقاط يمكن تلخيصها في الآتي:

أولاً: اعتماد الخطيب على زخرف القول، وزينة المنبر وليس على الحقيقة والواقع .. إن الخطيب كان يصب كل اهتمامه على زخرفة الكلام، وليس على فائدة الناس. فمثلاً، نجد إصرار الخطيب على إثارة الجماهير وشدهم إليه بأي وسيلة كانت حتى ولو على حساب الإسلام.. فالخطيب الذي يذكر قصة مثيرة فوق المنبر، لا يقصد من ورائها سوى إرضاء الناس، وإثارة دهشتهم، هذا الخطيب لا يستطيع أن يقوم بدوره التربوي في المنبر .. وعلى سبيل المثال: رأيت أحد الخطباء في أيام عاشوراء يقص على الناس طريقة الزواج في الهند، وكيف أن الهنود يوجبون على الفتاة التي مات زوجها أن تلقي بنفسها مع زوجها الميت في أحضان ألسنة النار لتحترق معه، أو أن تدلف نفسها داخل القبر لتتام إلى جانبه بغية إبعاد الوحشة عن زوجها .. لا شك أن هذه القصص والروايات مثيرة، ولكن ما علاقتها بأيام عاشوراء، التي ينتظر الناس فيها أن يعرفوا فكر الإمام الحسين عليه السلام.



أو مثلاً، خطيب آخر كان يرقى المنبر في قرية نائية عن المدينة وأغلب أهلها من المزارعين الذي يحرثون الأرض، ويجرحون وجه التراب من أجل لقمة العيش، في حياة كريمة، نجد هذا الخطيب الذي يرقى الأعواد في مكان كهذه القرية التي هي في أمس الحاجة لمعرفة الإسلام، وأخلاق النبي وأهل بيته، أقول: نرى هذا الخطيب يصرف من أوقات الناس ساعتين بالكامل يحدثهم فيها عن نظرية أنشتاين النظرية النسبية!! .. ويثير دهشتك هذا الكلام، وتتساءل: ما علاقة نظرية أنشتاين بأهل هذه القرية الوادعة التي تعيش على ما تجود به الأرض من غلات؟ .. وما علاقة النظرية النسبية بأناس لا يعرفون القراءة، والكتابة؟ ..

والجواب على ذلك يتلخص في جهل الخطيب الذي أنفق الساعات من عمر الناس، دون أن يقدم لهم شيئاً بالمقابل من الفكر أو الأخلاق، أو التربية التي يحتاجها كل واحد من سكان هذه القرية الوادعة المتواضعة. ولو أن الخطيب جلس لحظات وتأمل، ما يريد قوله، لأدرك أن رسالته أثقل وأكبر من أن يعرضها من خلال أنشتاين عالم الطبيعة الذي لم يسمع به القوم قبل هذه المرة.

ونفس الشيء يقال بالنسبة لمنابرنا في البلاد العربية، والإسلامية، حيث تتازعت المنابر موجتان: موجة التصوف التي غلبت على أكثر المنابر في بلاد فارس، وما بين النهرين، وموجة الأدب الجاهلي، وأخبار العرب وأشعارهم، وهي الموجة التي غلبت على أكثر منابر العرب .. وإذا خرج منبر جيد وطلع خطيب جيد، وإنما أقول: جيد بالنسبة للآخرين - تراه يعتمد على جانب واحد من الفكر الإسلامي، ويترك



الجانب الآخر، وقد يكون الجانب الآخر هو التفسير الصحيح، والانعكاس الناصع للجانب الأول .. وأقصد بالجانب الأول، والثاني: القرآن الكريم، والعترة الطاهرة، حيث إن المنبر ينبغي أن يقوم على هاتين الدعامتين: وهما: القرآن، والعترة .. ولكن مع شديد الأسف إننا نرى الاعتماد فقط على القرآن دون الرجوع إلى فكر العترة الطاهرة، في حين أن الرسول الأعظم محمد ﷺ قالها وأعلنها بصراحة في حديث الثقلين حيث أكد أنه لا نجا، ولا سعادة إلا بالسير على منهجية الكتاب والعترة، كما جاء في حديث الثقلين حيث أكد هذا المعنى بقوله: **إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي، وقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.**

إذن: فأهم ركيزة للمنبر، هو أن يقوم على حديث الثقلين أي وفقاً لما جاء في هذا الحديث العظيم الذي أطبقت شهرته الآفاق، واتفق عليه السنة والشيعه - علماً بأنني لا أرى فرقاً بين السنة والشيعه - حيث إن السنة هي إتباع سيرة وسنة النبي والشيعه مأخوذة من المشايعة وهي المتابعة، يقول الحق: ﴿وَأَنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ . وقال: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ .

وقال الحسين يوم عاشوراء مخاطباً أهل الكوفة: يا شيعه آل أبي سفيان. أي يا من تبعتم طريق ومنهج آل أبي سفيان ولم تتبعوا طريق محمد ﷺ إذن: فالشيعه من المشايعة وهي المتابعة، والسنة من الاتباع كذلك، فلا أرى فرقاً بينهما لا من حيث المعنى ولا من حيث اللفظ، غاية ما في الأمر أن الشيعه كلمة وصفة غلبت على من يهوى ويحب

عتره النبي، وخصوصاً الذي ساروا على منهج علي أمير المؤمنين عليه السلام، وأحبوا أصحاب الكساء. وهل هنا من لا يحب هؤلاء الطيّبين، وهل معنى السنة أن يتكرر المرء لأهل بيت النبي؟ .. هل معنى كونك سنياً أن تبغض الحسن والحسين؟ كلا وألف كلا..

إن السني هو الذي سار على سنة النبي، وسنة النبي هي:

- الحسن والحسين ريحانتي من الدنيا ..

- فاطمة بضعة مني.

- إن الله ليرضى لرضا فاطمة ويغضب لغضبها..

- وقوله: يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى.

- وقوله: "حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً" ..

هذه هي معالم سنة النبي، أما الذين تركوا أهل البيت وألقوا بأنفسهم في أحضان آل أبي سفيان وآل مروان، وآل زياد، فهؤلاء ليسوا من السنة في شيء أبداً، هؤلاء غريباء وأجانب عن الإسلام .. إن الإسلام هو إسلام محمد وعلي، وفاطمة والحسن والحسين .. والذي لا يذكر هؤلاء، ولا يردد أسمائهم ولا يأخذ إيمانه ونوره منهم .. لا يمكن أن يكون مسلماً قط..

إن حبّهم فرض .. وبغضهم كفر .. فالذي يبغض علياً، هذا كافر بإجماع أهل الرأي والرشاد. وإن الذي يحارب علياً بعيد عن الصراط، وطريق الحق، إنه بعيد عن الصراط، وعن الحق .. وهكذا والذي يحمل السلاح بوجه الحسين، يكون من ألد أعداء الله، والأنبياء .. لأن

الحسين حجة الله في الأرض، ووارث الأنبياء والصالحين .. وفوق كل هذا فهو وارث جده الحبيب المصطفى محمد ﷺ.

والخلاصة التي نخرج بها من هذا البحث: لكي يأتي المنبر قوياً مؤثراً فإنه لا بدّ له من الارتكاز والاعتماد على الكتاب والعترة .. وفقاً لإرشاد حديث الثقلين الأغرّ، المقدس، الشريف.



لا منبر بلا قرآن

المنبر يجب أن يقتدي بالقرآن، ويهتدي بنور هديه في المجال التربوي بالذات، أو قل: في تربية النفس، لأن القرآن الكريم هو كتاب الفطرة، والمنبر ينبغي أن ينصبغ بصبغة الفطرة ويرتدي ثوبها، وذلك بأن يستمد المنبر فكره وكل عطائه من القرآن الكريم، مع التذكير المطلق بالله سبحانه وتعالى، ففي القرآن نجد بين كل آية وآية وأحياناً بين موضوع وموضوع، نجد تذكيراً بالله عز وجل وهذا الأسلوب هو الأبلغ وقعاً في النفس، وهو الأكثر أثراً تربوياً في الإنسان، ولذلك ركز القرآن الكريم على هذا الجانب بالذات، أو قل: على هذا المبدأ عندما قال: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (١).

(١) ق/ ٤٥.

لا ترفعوا أصواتكم

في القرآن الكريم، ترحيب وتركيز على الصوت المنخفض الواطي، الذي لا يزعج أحداً، وليس على الصوت الرفيع الذي يريك طبلة الأذن. وجاء في آداب الكلام مع النبي أن نخفض أصواتنا في حضرته: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾^(١). ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾^(٢). وفي المقابل يقول: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾^(٣).

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الصوت المنخفض أوقع أثراً في النفس، بالإضافة إلى أن سلطة الخطيب المتكلم، إنما تحصل إذا كان متحكماً بصوته، والصوت، إذا ارتفع خرج من يد صاحبه، وأقلت كحصان هائج جموح.

وقد ثبت في علم النفس، أن الصوت ما دام خفيضاً ومنخفضاً، فإنه يترك أثراً بالغاً في النفوس، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنه حين يرتفع الصوت أكثر من المقدار المقرر له ذوقياً وفنياً، فإنه لا يتمكن الخطيب أن يتحكم فيه أو يسيطر عليه، كما قلنا وكما أسلفنا. وعلى هذا فإن المتكلم إذا أراد أن يملك ناصية الكلام بيده، فيجب عليه أن يبدأ بكلامه، بصوت منخفض ثم يصعد فيه أو ينزل حسب متطلبات الكلام، ووفقاً لفنون الخطابة والإلقاء.

(١) الحجرات/ ٢.

(٢) الحجرات/ ٣.

(٣) لقمان/ ١٩.

على أن هذا لا يعني أن يتحدث الخطيب بصوت خفيض يشبه الفحيح .. فحيح الأفاعي ونقيق الضفادع، وإنما صاحب المنبر والفن والخطيب القدير يدرك ما أقول. فللكلام مقتضيات تختلف من مكان إلى آخر .. فساعة يدرك الخطيب أنه لا بد من رفع صوته، وتارة يعرف أنه يجب أن يلقي الكلام بهدوء وخفض صوت، وطوراً يجمع بين الاثنين .. المهم أن يأتي الكلام حسب مقتضى الحال، ولكن الطابع العام هو ترك الصوت العالي المزعج الذي يمزق طبلة الأذن ويقتل الخشوع في النفس.

والصوت الخفيض يناسب العيش الخفيض، كما جاء في الأثر: أولئك الخفيض عيشهم، أي أنهم خفيضو المؤونة، يكتفون من الدنيا بأقلها فلا يتعبون أنفسهم في تحصيلها، وترك الملاذ أسهل من ارتكاب المشاق.

والخفض في العيش الدعة .. يقال: عيش خافض، أي عيش مليء بالدعة والسعادة.

وإنما ذكرت هذا استطراداً، لتعميم الفائدة، ولكي نفهم معنى الصوت الخفيض أكثر فأكثر.

وأعود فأؤكد أن هذا لا يعني - بالضرورة - أن يبدأ الخطيب بخطبة باردة يتشاءب تحتها المنبر، أبداً، لا أقصد هذا، وليس هناك من يريد للمنبر أن يكون بهذا المستوى من البرودة والفتور، واللون الباهت.

فالتاريخ حين يحدثنا عن النبي ﷺ يحدثنا عنه أنه كان خطيباً فارساً، إذا خطب بذ القائلين ونقع غليل السائلين وإذا تحدث عن

أشراط القيامة، وعلامات الساعة، أحمر لونه، وانتفخت أوداجه، حتى كأنه قائد جيش ينذر جنده.

والخلاصة هي أن علينا أن نربي منابرنا على الصوت الأكثر وقعاً في النفوس، والأعمق تأثيراً في القلوب .. وهو الصوت الذي يبدأ خفيضاً، ويتصاعد شيئاً فشيئاً وفقاً لحاجة، وحسب مقتضى الوقت ثم ينزل الصوت ناعماً مؤثراً في النعيم والآلاء .. ويرتفع مزمجرأ في تحذير الناس من العذاب والأغلال والفساد.

رسالة الأنبياء الحضارية

في التبليغ وإيصال صوت السماء إلى الناس جميعاً ملوكاً وشعوباً، نجد الأنبياء في حالة التبليغ على جبهتين: فقسم يبدأ من القاعدة، من الجماهير .. ونقرأ ذلك في القرآن حينما يتوجه أحد الأنبياء إلى قومه مخاطباً وداعياً إياهم إلى الخير والنور والحق .. فيقول: يا قومي .. يا قومي .. وهكذا يكون الخطاب موجه إلى القوم أي إلى الجماهير وليس إلى الملوك .. وهذا اللون من الخطاب له أوقع الأثر في القلوب لأنه يشعل النار في ضلوع الناس فيحركهم ضد الظالمين كما فعل أغلب الأنبياء وساروا على هذا الصراط الحق.

في حين نجد لونا آخر وقسماً آخر من التبليغ يبدأ به الأنبياء من القمة وليس من القاعدة، أي أنهم يبدأون من الملوك، كما كان موسى عليه السلام حيث قال له الله عز وجل : اذهب إلى فرعون .. الخ. ثم زوده بطريقة في التبليغ تترك أثرها حتى في الحجارة القاسية، وهي طريقة الكلام باللين والهدوء، وليس بالعنف والضجيج: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (١).

يقول لموسى: ﴿ادْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ .. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (٢).

(١) النحل / ١٢٥.

(٢) طه / ٢٤-٤٤.

والقول اللين الذي قاله موسى لفرعون هو: ﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ (١).

على أن أهداف الأنبياء تتمثل في إعطاء الناس الحريات، ونزع الأغلال عنهم .. من جهة .. وإنقاذهم من العبودية الأرضية، وذلك بإخراجهم من الظلمات إلى النور وعبادة الله الواحد القهار .. من جهة ثانية.

قال موسى لفرعون: أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم. هذه حزمة مضيئة من وظائف الأنبياء التي تفوق العد على أصابع اليدين .. ولكن في المقابل يجب أن تكون الشعوب واعية تفهم كيف تنتفع برفقة الأنبياء، والعيش تحت لوائهم .. أما إذا كانت الشعوب كاليهود فإن المرارة تتسع في الحلق حتى تقتل الإنسان الكريم .. ومثالي على ذلك قوم موسى .. هؤلاء الناس الذين كانوا تحت التعذيب وفي أعماق السجون، وأراد موسى إنقاذهم من أعدائهم، وخلصهم من أيدي جلاوزة النظام الفرعوني الفاشم، أقول: لننظر ماذا فعلوا .. وكيف قابلوا هذا الصنيع الجميل من موسى ﷺ .. إنهم قابلوه بدناءة وخسة، تكشف عن نكسة الشرف في الطباع الإنسانية - كما يقول البعض - لقد قابلوه بالكفر فقالوا: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ (٢).

وقالوا: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة - أي اتخذ لنا أصناماً نعبدوها! هكذا طلبوا من موسى أن يصنع لهم أصناماً يعكفون عليها لأن نفوسهم جبلت على الحرام والانحراف.

(١) النازعات / ١٨.

(٢) النساء / ١٥٣.



قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا
عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ
فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

(١) الأعراف/ ١٥٧.

موهبة الخطابة تولد مع الإنسان

موهبة الخطابة .. تولد مع الإنسان! بل هي أهم غريزة مزروعة في داخلنا .. فكل مولود يولد مفطوراً على الخطابة، والتحدث بطلاقة، وسهولة ولكن كيف تولد مع الإنسان .. والطفل، لكي يتكلم فإنه يحتاج إلى حولين كاملين من الرضاعة والتدريب على الكلام؟

في الواقع: القرآن لم يقل إن الطفل يولد خطيباً بارعاً يجعل من مهده منبراً، ومنصة للخطاب، كما فعل عيسى بن مريم، حينما خطب في الناس وهو في المهد، قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^(١).

فهذه صفة معجزة، خاصة بالأنبياء، وبالذات بالنبي العظيم عيسى عليه السلام والقرآن لم يقل إنها تسري في الناس جميعاً وإنما كشف القرآن، عن حقيقة كانت غائبة عن الكثير من الناس. والحقيقة تقول: إن القدرة على الخطابة، تولد مع الطفل، على شكل طاقة، غريزية قابضة في صدره.١.

وغريزة الخطابة من الأهمية بمكان، بحيث اعتبرها القرآن مرحلة جاءت بعد مرحلة خلق الإنسان مباشرة .. ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(٢).

(١) مريم / ٣٠.

(٢) الرحمن / ٣-٤.

فالبیان - أي القدرة على التعبير- جاء بعد خلق الإنسان مباشرة،
ودون فاصلة .. ! ويقول القرآن: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١).

وأيضاً نقرأ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا
إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

إن الإنسان وحده هو الذي يتمكن من أخذ العلم ونقله للآخرين ..
فهذه صفة خاصة بالإنسان دون غيره من المخلوقات. فلم يحدث أن
شاركه فيها مخلوق، لا من الملائكة، ولا من سائر الكائنات الحية
الأخرى .. فالملائكة علمهم محدود: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا
عَلَّمْتَنَا﴾ (٣).

والحيوانات ليس في إمكانها أن تفهم العلم، وتحصل عليه -وإذا
تمكنت أن تستوعب بعض المعلومات، فهي لا تستطيع أن تنقلها إلى
حيوانات أخرى. وبالمثل: لو أخذنا طفلاً وقرداً، وأدخلناهما في مدرسة
لتلقي العلوم، لشاهدنا -بعد فترة من الوقت- أن الطفل تعلم أشياء في
التربية وبقية العلوم، في حين أن القرد، لم يتعلم سوى معلومات أولية
وبدائية جداً .. يطبقها دون أن يتفاعل مع جوها .

(١) العلق / ٣-٥ .

(٢) البقرة / ٣١-٣٢ .

(٣) البقرة / ٣٢ .

والفرق بين قدرة الطفل على التعلم، وبين قدرة القرد، هو أن الطفل يستطيع أن ينقل معلوماته إلى طفل آخر، بينما يبدو القرد عاجزاً عن نقلها إلى أخيه القرد الذي ظل ملايين السنين لا يعرف حتى جغرافية الغابة التي يسكنها.

وهكذا نجد أن الخطابة أخذ وعطاء: أخذ بالعقل، وعطاء بالمنطق .. تلك هي ميزة الإنسان. يقول الإمام علي عليه السلام: "للإنسان فضيلتان: عقل، ومنطق: فبالعقل يستفيد، وبالمنطق يفيد".

الخطابة: موهبة وتصميم

هل شاهدتم خطيباً بارعاً، يتدفق الكلام على لسانه كالشلال الهادر..؟ وفي الطرف الآخر، هل شاهدتم خطيباً، متعثراً في كلامه، قد أصابه الارتباك والخوف، والفرع فالتصق لسانه في أعلى فمه؟ أعتقد أنكم لاحظتم هذين النموذجين من الخطباء. ولكن هل تساءلتم عن السر الذي يقف وراء نجاح الأول، وفشل الثاني؟ إن السر يكمن في نقطتين: الموهبة والتصميم.

فالكثير من الناس لديهم الموهبة، ولكنهم لا يمتلكون التصميم، واتخاذ القرار على أن يصبح الواحد منهم خطيباً من الطراز الرفيع. إن الله سبحانه قد أعطى عباده، موهبة البيان، حتى أن هذه الموهبة التي اسمها البيان، جاءت من حيث الأهمية بعد خلق الإنسان، حيث يقول القرآن الكريم: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(١).

أجل. لقد خلق الله الإنسان وأعطاه قدرة البيان. والخطابة تمثل أرقى صور البيان بالنسبة للإنسان.

* الخطابة والأنبياء:

من هنا، كانت الخطابة أبرز صفة، في الأنبياء، وفي أهل البيت كافة. فلم يحدث أن بعث الله نبياً لا يجيد فن الخطابة، ولا يتقن فن

(١) الرحمن/ ١-٣.

التأثير في الناس. ونظرة واحدة نلقيها على القرآن الكريم - في قصص الأنبياء- تكفي لإعطائنا ألف دليل، ودليل على أنهم -أي الأنبياء- كانوا في قمة البلاغة والفصاحة، والبيان. وخطابهم ليس فيه تصنع ولا تكلف، وإنما كان الكلام يجري على أفواههم بعفوية، وعذوبة يتذوقها السامع، ويجد حلاوتها في قلبه.

أما النبي الأعظم محمد، وأهل بيته، فقد ضربوا الرقم القياسي، في هذا المجال بالذات. كان النبي المصطفى، قمة القمم، في الخطابة، -كما هو قمة القمم في كل شيء- حتى وصفه أرباب السير والحديث، بأنه إذا خطب: كأنه قائد جيش ينذر جيشه ..

* الخطابة لدى الزهراء والمعصومين:

وما يقال في النبي محمد، يقال في بضعته، الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- إذ إنها بلغت شأواً، لا يصل إليه أحد من سائر الناس، في طلاقة اللسان، وقوة البيان. إن خطبتها العملاقة المؤثرة، التي ألقته في المسجد النبوي الشريف -إثر الحملة التي قادها أبو بكر ضد أهل البيت إن تلکم الخطبة كانت وما تزال، وستظل مشتعلة بالإيمان والثورية، ملتهبة باليقين، والعطاء والعظمة، تفجر براكينها بوجه كل جبار وطاغية.

هذا في النبي، وابنته فاطمة الزهراء، فإذا جئنا إلى علي أمير المؤمنين، والأئمة المعصومين من ذريته، وجدناهم متربعين، فوق أعلى قمة في البيان والفصاحة. ونهج البلاغة أفضل شاهد، وخير دليل على

ما أقول. ويكفي لمن يريد التعرف على مدى القدرة الخطابية لدى أهل البيت، أن يراجع نهج البلاغة، ويلقي نظرة على الخطب، التي ألقاها الإمام الحسن المجتبي، عليه السلام والخطب التي تفجرت كالبراكين، على لسان أبي عبد الله الحسين يوم عاشوراء. وكذلك الخطب التي ألقاها الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام في العراق، وفي الشام ..

بل نجد أكثر من ذلك، فالموهبة الخطابية، لم تكن مقصورة على المعصومين من أهل بيت النبي -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام- فحسب .. بل وأيضاً شملت كل واحد من ذرية الرسول وأهل بيته، الكبار والصغار كلهم سواء في الفصاحة والبلاغة .. فمثلاً - في الكوفة وبعد واقعة الطف - نجد بطلة كربلاء زينب عليها السلام، خطبت فهزت القلوب، وصكت الأسماع - ثم خطبت بعدها أم كلثوم أختها - زينب الصغرى - وأيضاً نجد سكينه بنت الحسين كانت قد ألفت خطاباً نارياً ..

ولكن هل توقفت الخطابات على هذا العدد من أهل البيت فقط؟

كلا بالطبع، فهذه فاطمة الصغرى فاطمة بنت الحسين، والتي كانت في العاشرة، من العمر، ألفت خطاباً، هي الأخرى .. فكان خطابها أكثر وقعاً، وأشد إيلاماً للقلوب، وذلك أنها انطلقت تخطب على سجيتها، وهي طفلة لم تلتفت إلى أحد، فأثارت القلوب، وأجرت الدموع، وكان خطابها عبارة عن رد مباشر منها لذلك الطاغية الذي كان يتغنى بقتل الحسين، تفوح الشماتة من كلامه. فما كان من فاطمة الصغرى، إلا أن صدمته بصوتها الحسيني الثائر.



* الخطابة سلاح:

وباختصار: فالخطابة سلاح لم يتركه الأنبياء والصالحون، ولم يتغافل عنه الرسول الأعظم، ولا أهل بيته. الخطابة سلاح. وأي سلاح أعظم من هذا الذي يجعله الله سبحانه، وفي مرحلة ثانية تلي مرحلة خلق الإنسان .. ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٢) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (١).

إن موهبة الخطابة أمضى سلاح في المعركة التي تجري -على طول التاريخ - بين الحق والباطل. وإذا كانت الخطابة بهذا المكان من الأهمية، فلماذا -إذن- يدير شبابنا ظهورهم للخطابة؟

* نداء الزهراء:

إن كون فاطمة الزهراء أعظم خطيبة في الإسلام، يشكل نداءً عميقاً وصارخاً، إلى كل فتاة تريد أن تمشي على طريق فاطمة .. وتستضيء بنور علمها، نداءً يدعوها إلى أن تصنع من نفسها خطيبة هادفة، تحمل كلمة الحق على لسانها، وتحمل هموم المحرومين والمعذبين في الأرض، على كتفها وتسير مواصلة طريقها دون تلكؤ ولا انقطاع.

هذا بالنسبة لكل فتاة مؤمنة. أما بالنسبة للفتيان من الشباب، فإن لهم أسوة حسنة بالرسول الأعظم، والأئمة المعصومين، حيث كان الواحد منهم يعد سيد البلغاء والمتكلمين. يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: "نحن أمراء الكلام فينا تشبعت عروقه، وعلينا تهدلت غصونه".

(١) الرحمن / ٢-٣.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: "أعربوا كلامنا، فإننا قوم فصحاء". إن حاجة المجتمع إلى خطباء، توجب على الجيل المؤمن، أن ينضم إلى صفوف المبلغين، من حملة الكلمة الإسلامية العليا.

♦ نحن وإياهم:

وعند المقارنة بين عدد الخطباء المسلمين في العالم من جهة، وبين عدد الخطباء المسيحيين -المبشرين- من جهة ثانية، تظهر كم هي الفجوة واسعة وعميقة بين الطرفين -هم ونحن- !. ويكفي أن تعرف أنه يوجد في دولة أوروبية واحدة، قرابة ربع مليون مسيحي يعملون بالتبشير بينما في دولة عربية إسلامية- لا أرغب في ذكر اسمها- لا يوجد حتى ولا خطيب واحد!!

ولكي تعرف -أيها الشاب- حاجتنا إلى تكثير الخطباء من رجال العلم والوعي المخلصين .. من الرجال الأشداء الأقوياء .. الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، من المناضلين الشرفاء، أقول لكي تعرف حاجتنا إلى هكذا نوع من الخطباء، لا بد لك أن تعرف أن البابا بولس السادس -مرجع النصارى في العالم- يملك جيشاً كبيراً من الخطباء المبشرين وهناك تقرير يقول: إن الفاتيكان يمتلك قدراً كبيراً من الخطباء المبشرين، الذين يتجاوز عددهم خمسة آلاف رجل. وقد هيأ الفاتيكان كل الترتيبات اللازمة لانطلاقة هذا العدد من المبشرين في القارات الخمسة، وخصوصاً القارة الأفريقية. وميزتهم أنهم أخذوا تدريبات مكثفة على الطريقة المؤثرة في مجال التبشير. يضاف إلى ذلك، أن البابا، كان قد خصص -لبعض أفراد هؤلاء المبشرين - طائفة صغيرة خاصة، تقله إلى أي بلد في العالم. والمعروف أن هذه الطائرات

تتمتع بصلاحيه -تتزود- بموجبها- بالوقود مجاناً، في كل مطارات العالم!! أما من ناحية ترتيبات السفر .. فإن مجلس الفاتيكان، قد زودهم بجوازات سفر خاصة، لا تحتاج إلى (فيزة) ولا تصريح دخول!..
أليس من المخجل والمؤسف في آن واحد، أن تعامل الدول الأوروبية علماءها، ورجال دينها، وخطباءها ومبشرها، بهذا الشكل من الرقة والعفوية، والسهولة والعذوبة والاحترام والتقدير، بينما نجد دولنا الإسلامية العربية أطلال الله في عمرها (...) ليس فقط لا تحترم علماءها ورجال دينها، بل وتطاردهم أيضاً!!

إن أفضل مكان للعلماء والخطباء وحمله الفكر من رجال الإسلام في البلاد الإسلامية -هو السجن والاعتقال التعسفي، أو الإبعاد والنفي من البلاد على طريقة نفي اللصوص وباعة المخدرات -هذا إذا كان اللصوص ينفون من البلاد!

وتلكم لعمري ظاهرة خطيرة .. لا سيما أن العلماء المسلمين، هم وحدهم الذين أخرجوا الاستعمار من الأرض الإسلامية .. وهم وحدهم الذين أعطوا البلاد الإسلامية حريتها واستقلالها . فلماذا -إذا يعيشون في غربة، واضطهاد؟! والإجابة واضحة سلفاً، ولا تخفى على القارئ الفطن، وعلى من له إلمام بما يجري في البلاد الإسلامية من ظلم، وجور ومعاناة، لم يشهد لها التاريخ نظيراً، ولكن نترك الإجابة على هذا السؤال لأسباب صحيحة!!



من عناق الشمس والبحر إلى عناق الحركة والهدف

كان الأصيل يدنو من الغروب، ليضفي على الطبيعة لون الشفق الساحر الأخاذ، وكنت أنا وهو، نتأمل سقوط الشمس في البحر لحظة المغيب؛ كم هو جميل ورائع، ذلك المنظر الذي يحدثه، مغيب الشمس في البحر! كنت أتأمل الأمواج في البحر كيف تغازل الشاطئ، وكان هو يجلس إلى جانبي. ها هي الشمس أخذت تقترب من حبيبها البحر، ثم انحنت تعانقه، فقبلها في جبينها، فاحمرت خجلاً، ثم ازدادت احمراراً حين احتضنها البحر، وغابت في صدره.

كان هو من الشباب المؤمن الذي آمن بريه، وزاده الله هدى، وكان مأخوذاً بهذا المشهد الذي لم ير مثله من قبل، فقد عاش في بلاد بعيدة عن ساحل البحر.

وفجأة أخذ يشد على يدي ويقول: رأيت كم هو مثير وعظيم هذا المنظر، الذي لم أر مثله طول حياتي ثم تابع يقول: أنظرت إلى الشمس كيف هبطت على صدر البحر تقبله، ثم ذابت في أحضانه، تكسوها حمرة الخجل، وارتعاشة الشفق؟

أجبت: نعم قد رأيت ذلك، وترك انطباعاً حسناً في داخلي، يشرح الصدر، ويفتح القلب، فله سبحانه في كل مخلوقاته آيات باهرات، لو

تأملها المرء، لأحس بالإيمان يتدفق في قلبه، والطمأنينة في نفسه، ولكن هناك ما هو أكثر جمالاً وأعظم قيمة، وأقوى جاذبية مما رأيت! قال: وهل يوجد جمال أكثر إثارة من هذا الجمال الذي تركه عناق الشمس والبحر؟.

- أجل.

- وما هو؟.

- الجمال الأكثر سحراً، هو: أن يلتقي هدفك مع حركتك في الحياة.

- لا أعرف ماذا تقصد .. ممكن توضيح ذلك؟

- توضيح ذلك أنك شاب مؤمن تحمل عقيدة عالية الشأن، مقدسة، تطالبك دوماً، بأن ترتفع إلى مستواها ..

قال: صحيح، فهمت مرادك، فأنا دائماً، أحاول أن أرتفع إلى مستوى عقيدتي الإسلامية، ولكن دون جدوى. صحيح أنا شاب مؤمن، وقد هداني الله، .. ولكني لا أعرف الطريق الذي يجعلني في مقام الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه، ولا يخشون أحداً إلا الله.

قلت له: أعتقد أننا بدأنا نقرب من الهدف الصحيح ...

- وكيف ذلك ..؟

- وصولك إلى مستوى العقيدة، يتلخص في أن تحمل صوت هذه العقيدة على لسانك. وفاطمة الزهراء، هي أروع مثال لصوت العقيدة الإسلامية، لأنها أول إنسان تحرك بعد وفاة النبي ضد الانحراف الذي أصاب القيادة الإسلامية، في محنة السقيفة وانتكاستها. والعالم بقاراته الخمس، ينتظر هذا الصوت الفاطمي منذ زمن طويل.



واليوم ونحن في عصر الأقمار الصناعية وقدرتها الفائقة في الإعلام وإيصال الكلمة إلى مسامع كل فرد من أفراد النوع الإنساني، فإن واجبنا يحتم علينا أكثر من أي وقت مضى أن نحمل صوت فاطمة الزهراء، إلى كل شعوب العالم، وبالأخص إلى الشعوب التي تعيش معاناة الجفاف، جفاف الطبيعة وجفاف السياسة والاقتصاد، وجفاف الأخلاق والتربية، جفاف الرحمة والشفقة.

ولأننا نعرف -بداهة- أن صوت الزهراء، لا ينطلق إلى العالم إلا من خلال طريقتين: هما: القلم واللسان، بمعنى أن الصوت، أي صوت لا يتم انطلاقه إلا بطريق الكلمة المقروءة، والكلمة المسموعة. ويخلصها: طريق الكتابة والخطابة. فإذا أردت أن تخدم أهداف فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - فإنه لا بد لك من أن تجعل من نفسك أكبر كاتب وأعظم خطيب لتستطيع أن تقدم فكر الزهراء إلى العالم. وهنا التفت إليّ صديقي المؤمن، وقال: أنا موافق على هذه الفكرة، وبالتالي فأنا وأنت نلتقي على هدف واحد، وهو: أن نكرس أنفسنا لخدمة مبادئ وأهداف الإسلام، الموجودة في حياة فاطمة الزهراء. ولكننا في حاجة ملحة إلى وجود برنامج نتعرف من خلاله على الأسلوب الصحيح الناجح في الخطابة وفي التأليف.

أجبتة بمحبة: أظن أن الأسلوب الصحيح في الخطابة، هو الأسلوب الذي وضعه أهل البيت عليهم السلام. وبقليل من التأمل في حياة المعصومين من أهل البيت، وخصوصاً في حياة البتول فاطمة، نتمكن من الحصول على أحسن أسلوب، وأرقى منهج في فن الخطابة، والتأثير في الناس. وواعدته أن أكتب أهم النقاط التي ركز عليها الإسلام -من خلال أهل

البيت- في جدول الخطابة. وفي الليل جلست أكتب عن الخطابة والكتابة، فكانت الصفحات التالية.

تأتي أهمية الموضوع، من أن القدرة على الخطابة، كان تشكل مساحة عريضة في حياة البتول فاطمة الزهراء -عليها أفضل الصلاة وأزكى السلام- .. ولأن الفصاحة هي جزء لا ينفصل عن حياة فاطمة، وأيضاً لأن الخطابة كانت ألزم للزهراء من ظلها، فإن البحث في فن الخطابة يعتبر بحثاً في حياة الزهراء.

فإلى كل شاب يريد حمل صوت محمد وعلى والحسن والحسين إلى العالم...

وإلى كل فتاة تريد إيصال صوت الزهراء، فاطمة وزينب وخديجة، إلى العالم عن طريق الخطابة، والكتابة...

وبالتالي إلى كل من يود النجاح، في حمل كلمة الحق على لسانه .. أضع بين يديه هذه الأوراق التي تتحدث عن الخطابة ورسالة الخطيب الهادف في القرن الحالي ..

١- حطم جدار الخوف بفأس الشجاعة:

التغلب على الخوف، وكسب الثقة بالنفس، أهم دعامتين لنجاح الخطيب، وتجمعها كلمة الشجاعة. فكل فرد حين يريد التحدث -لأول مرة- أمام الجمهور، فإنه يشعر بالارتباك، ويصيبه الخوف والفرع، بشكل يمنعه أن يفكر بوضوح فينسى ما كان ينوي قوله للناس. فالفكرة تطير من رأسه، والكلمات تموت على شفثيه، ويصيبه الإعياء والإرهاق.



وعندها، سوف تتضاعف دقات قلبه ويلتصق لسانه بأعلى فمه، ثم لا يستطيع التفوه بكلمة واحدة، وينزل عن المنبر، يلفه الخجل، والذل والشعور بالحر والهزيمة. وهذا ما حدث لأحدهم. وإليك الحكاية:

كان أحد الخطباء، قد كتب خطبته في ورقة ودسّها في قبعته، ثم صعد المنبر، وفي لحظة صعوده كان هناك طفل يتسلق الشباك الواقع وراء الخطيب ولما رأى الطفل طرف ورقة تحت قبعة الأستاذ، سحبها بهدوء من تحت قبعته وانصرف والخطيب لا يشعر بما جرى له، لأنه مأخوذ بالجماهير. ولكن لما أراد الأستاذ أن يبدأ خطبته، حاول عبثاً الحصول على الورقة فلم يجدها. فأخذه الارتباك، وصارت عيناه تدوران في أم رأسه، والناس يتصايحون من حوله: اقرأ .. اخطب، ابدأ كلمتك، قل شيئاً وخلصنا. فقال الخطيب، عليّ آثام العرب إن صعدت المنبر بعد هذا اليوم، فنزل وهو غارق بالخجل إلى قمة رأسه. ولو كانت لديه أدنى قدرة في كسب الثقة بالنفس، لما خرج مهزوماً من القاعة، بل كان في إمكانه أن يرتجل أحسن خطبة وأجمل كلام، لأن الارتجال يأتي -عادة- أقوى مما يكتبه الخطيب على ورقة.

٢- كسب الثقة ليس أمراً مستحيلاً:

إن كسب الثقة بالنفس، والقدرة على التحدث بطلاقة، والتفكير بهدوء، أثناء الصعود على المنبر .. ومواجهة الناس، ليس شيئاً مستحيلاً، ولا هو بالأمر الصعب .. كما يتخيل بعض الناس. وهي ليست منحة، أعطاهها الله لأناس دون آخرين. بل هي موهبة زرعها الله في طينة كل فرد من البشر. وغاية ما في الأمر، أن بعض الناس ينميها ويفجر طاقاتها، بينما يتركها الآخرون تموت في مكانها.



وفي استطاعة كل فرد، أن ينمي طاقته الخطابية الكامنة في صدره، إذا بدأ برغبة قوية، وإرادة فولاذية، لا تعرف التردد، ولا تشتت الضعف، والمنبر هو أعظم صانع لكسب الثقة بالنفس وإضائة الشجاعة في داخل الإنسان. وذلك أن الخطيب بمقدار ما هو يمتلك المنبر، بمقدار ما يكون المنبر قد أكسب هذا الخطيب ثقة بالنفس لا حدود لها.

والخطيب حين يواجه الناس، عليه أن يفكر بشكل أفضل، لأن وجود الجمهور بمثابة محرك، يجعل الواحد منا، يتحدث بفاعلية أكثر، ونشاط منقطع النظير، وهذا بدوره يرفع من قدرة الفرد على التفكير والبيان.

* ما هو الحل؟

إذن فما هو الحل .. للتغلب على الخوف؟

كتب أعظم وأكبر علماء النفس في العالم، على الإطلاق، وهو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- بالطبع، الإمام علي ليس هو فقط أعظم وأكبر علماء النفس في العالم، بل وأيضاً هو أعظم وأكبر قمة في الإسلام -بعد الرسول- فهو قمة ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير. إنه قمة في كل العلوم وفي كل شيء- كتب يقول: "إذا هبت أمراً، فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه"^(١). ويقول أيضاً: "قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان، والفرصة تمر مر السحاب، فانتهزوا الفرص"^(٢).

(١) نهج البلاغة للدكتور صبحي الصالح ص ٥٠١.

(٢) نفس المصدر ص ٤٧١.

ومعنى ذلك، إذا خفت من شيء فقع فيه .. أي أن المواجهة هي الحل، الممارسة هي الحل، فلكي تكون خطيباً بارعاً، ولكي تصبحي - أيتها الفتاة - خطيبة موفقة على خطى الزهراء - لا بد من صعود المنبر، ومواجهة الناس. فذلك هو أنجح وأحسن حل يستطيع الفرد بواسطته أن يتغلب على الخوف والارتباك.

فلا يكفي لمن يريد أن يكون خطيباً ناجحاً، أن يدرس كتاباً في فن الخطابة، بل لا بد له من أن يلقي بنفسه في أحضان البيان حتى يصبح خطيباً في المستوى المطلوب. ولا تخش السقوط، فالجواد يكبو، وأشهر الخطباء بدأوا متعثرين في الكلام. ودعني أذكرك بأن الفشل هو طريق النجاح.

* أمور لا بد من مراعاتها في الخطابة:

فمن أجل أن تفجر طاقاتك في الطريق إلى المنبر، ومن أجل الحصول على أقصى ما تستطيع من طاقات وجهود، لتصبح في مصاف رواد المنبر البارعين في هذا المجال، ولتحصل على ذلك بسرعة وفعالية، أقدم لك ستة أشياء ضرورية في عالم الخطابة والمنبر:

أولاً: ابدأ برهبة عميقة، ورغبة قوية وهبة من الله سبحانه، ورغبة في منفعة الناس. فمن دون الخوف من الله، لا يستطيع الخطيب أن يصل إلى رضوان الله، ومن دون الرغبة الشديدة في نفع الناس، لا يتمكن المرء أن يحتل قلوب الجماهير.

يقول القرآن الكريم: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾.

وهذا هو بيت القصيد. أن تصعد المنبر، وتعتلي صهوة الخطابة، فذلك شيء لا يحتاج إلى أكثر من التدريب. ولكن أن تقول الحق، وتتحدث بحديث فيه لله رضى وللناس منفعة وأجر وثواب، فذلك هو الطريق الصحيح إلى المنبر الهادف.

أنظر إلى عملاق الإسلام، وبطل الجهاد والتضحية، أنظر إلى الإمام زين العابدين، عليه السلام كيف يوضح لنا رسالة الخطيب الناجح، وذلك عندما أراد الإمام أن يصعد المنبر في الجامع الأموي في الشام في محضر يزيد بن معاوية وكان الإمام السجاد يومها، أسيراً يعاني الأغلال والقيود التي وضعها يزيد في عنق الإمام زين العابدين عليه السلام. فقال الإمام علي بن الحسين ليزيد بن معاوية: «إئذن لي أن أصعد هذه الأعواد -المنبر- لأتكمم بكلمات فيهن لله رضى، ولهؤلاء الجالسين، أجر وثواب».

ويريد الإمام، بهذه الكلمة أن يخط طريق المنبر، على هذا المنوال. بمعنى أن الكلام الذي يلقي من على أعواد المنابر، يجب أن تجتمع فيه خصلتان رضى الله، ومنفعة الجماهير ..

ولكي تقول الحق، فإنه لا بد لك من اللحاق بركاب الإيمان ولا بد لك من الذوبان في الله سبحانه وتعالى ولا بد لك أن تفرق في التقوى وفي الخوف من الله، لتكتسب الثقة بالنفس، والشجاعة في اتخاذ موقف بطولي ومشرف، ضد الطغاة وضد الباطل، ضد الشهوات والشيطان، والأهواء.

إن الخطيب الخائف من الله، هو وحده الرجل الشجاع المقدام، الذي يستطيع أن يرفع سوط الحق بوجه الجلادين من أعداء الله، وأعداء

الشعوب. يقول القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ يُلَافُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (١).

ويقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٢).

وأيضاً يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٣).

إن المسلمين -اليوم- بحاجة إلى الخطيب المؤمن الشجاع الذي لا تأخذه في الله لومة لائم.

وبالتصميم على النجاح، والمثابرة، يستطيع كل فرد منا، أن ينمي هذه الحالة في داخله -حالة الخشوع والخوف من الله سبحانه -وذلك عن طريق التدبر في آيات الله في القرآن الكريم، ومعرفة حياة الأنبياء، وأحوال الرسول الأعظم، وأهل بيته الطيبين الطاهرين. وعن طريق صلاة الليل - لأنها شرف المؤمن كما يقول الرسول. والتوجه الكامل إلى الله وحده، هو الذي يصنع الخطيب الممتاز، وحينئذ تحدث المعجزة.

صحيح أن أيام الإنسان معدودة في الحياة الدنيا وعمره فان ومحدود أيضاً، وهو -بالقياس إلى هذا الكون الهائل الذي يعيش فيه- ذرة تائهة لا مستقر لها ولا قيمة، وصحيح أن عمره - بالنسبة لعمر الكون وبالقياس إلى المدى الهائل الذي تعيشه المجرات والنجوم ليس

(١) الأحزاب / ٣٩.

(٢) فاطر / ٢٨.

(٣) آل عمران / ١٧٣.

أكثر من ومضة برق، أو غمضة عين، بل إن عمر الإنسان - بالنسبة لعمر الأرض التي تحمله - لو كان للأرض قلب - لما عادل دقة واحدة، من دقائق قلب الأرض!..

هذا كله صحيح .. ولكن الصحيح أيضاً هو أن هذا الإنسان الذي لا وزن له، ولا قيمة .. يملك في لحظة إيمان أن يتصل بقوة الأزل والأبد، يملك أن يتصل بالله الواحد القهار وأن يمتد طويلاً وعرضاً في هذا الكون الهائل الواسع الأرجاء، فيشعر بعظمة الإيمان ترفعه إلى السماء، يشعر بعظمة الخالق في نفسه، تتألق وتنتشر، فتصغر الأشياء في عينه، الأشياء التي هي من دون الله.

ولهذا نجد بطل الإنسانية الخالد، الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يصف شجاعة الخائفين من الله بقوله: "عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم".

فالذي يخاف الله، لا تستطيع جميع قوى الأرض أن تخيفه أو ترعبه، أو تتال من شموخه.

والذي يستمع إلى الصديقة فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- وهي تلقي خطابها، يعرف كم هي عظيمة، وشجاعة، وبطلة، في إيمانها، وصراحتها في عرض الحقيقة، وتسلط الأضواء على الباطل، فقد استطاعت أن تهز الجبال والقلوب بكلامها.

وخطاب ابنتها زينب بطلة كربلاء -في مجلس يزيد بالشام- فائض بالشجاعة والبطولة. لماذا؟ لأنها "عظم الخالق في نفسها فصغر يزيد في عينها" كما يقول أبوها علي عليه السلام فهي تقول ليزيد بن معاوية: "إني



لاستصغر قدرك .. وأستعظم تقريعك، وأستكبر توبييخك". أجل، إنها تستصغر قدر يزيد، لأنه لا وزن له، ولا قدر في مقياس الإيمان. وهي تستعظم تقريعه، لأن المقارعة، لا تقوم إلا بين اثنين متقاربين في الكفاءة والمروءة. وهل يزيد هو كفاء لأن يقابل مخدرة بيت الوحي، وعقيلة بيت النبوة والرسالة؟ كلا .. وألف كلا. وبالتالي فهي تستكبر توبييخه، لأنه أقل من أن تقف زينب لتوبييخه .. وحتى لا يسأل أحد: لماذا إذاً تخاطبينه إذا كان بهذا المستوى من الانحطاط ..؟ أجابت زينب تقول: "لكن العيون عبرى، والصدور حرى" وقبلها قالت: "لئن جرت عليّ الدواهي مخاطبتك" أي ما أصنع للأيام التي جرتني إلى مجلسك، ودفعتنني إلى مخاطبتك؟ .. وكل خطاب تسمعه من هذا البيت النبوي الطاهر، بيت محمد وعلي وفاطمة، تجده خطاباً يموج بالشجاعة، والإيمان.

إذاً: فالشجاعة التي يحتاجها الخطيب، للتغلب على الخوف، وكسب الثقة بالنفس، تستدعي الإيمان بالله والخوف منه أولاً، وقبل كل شيء. وهذا هو بالضبط، المقصود من كلمة: الرهبة العميقة من الله سبحانه وتعالى. يقول الإمام الصادق عليه السلام لأحد أصحابه: "خف الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن زعمت أنه لا يراك فقد كفرت، وإن قلت إنه يراك، ومع ذلك برزت له بالمعصية، فقد جعلته من أهون الناظرين إليك".



* لكي تصبح خطيباً ناجحاً:

أخلق في نفسك رغبة قوية، في منفعة الناس من خلال المنبر .. ابدأ برغبة قوية، وحافظ عليها، متوقّدة متوهجة في قلبك. إنّ هذا الشرط، له أهمية كبرى، أكثر مما تتصور .. فقد قال الله لنبيه يحيى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ .

والمؤمن القوي، خير عند الله من المؤمن الضعيف، كما يقول الرسول الأعظم.

اعمل بحماس ونشاط، أو لا تعمل على الإطلاق..

اجعل من إمكانية المضي في الطريق، أمراً سهلاً، وممتعاً، واجعل من التلكؤ والتراجع، أمراً مستحيلاً، وبعيداً عنك ..

ويجب أن تعلم أن الخوف من الجمهور، خوف أبله، لأن الخطيب لا يخاف سوى الله، فكيف يخاف من أناس يريد أن يحمل لهم شموع الخير، وقناديل الفرح؟! وهل يحمل المستمعون حجارة في أيديهم، يقذفونك بها .. أو سهاماً يرشقونك بها؟ كلا، ولا شيء يحدث من ذلك.

إنهم جاءوا لسماع صوتك، فإذا خفت منهم، ضيّعت نفسك، وضيّعت وقتهم معك .. فكل واحدٍ منهم يمنحك ساعة من وقته، فإذا كان عدد الجمهور، ألف إنسان، فمعنى ذلك، أن الناس أعطوك من عمرهم ألف ساعة تتصرف بها كيف تشاء، ولذلك فأنت مسؤول عن هذا الوقت أن يذهب سدى، ودون فائدة.

من هنا كانت كلمة الإمام السجاد، عظيمة ومعبرة عن الغرض



والهدف .. "لأتكلم بكلمات فيهن لله رضى ولهولاء الجالسين أجر وثواب".

اعرف تماماً ما الذي ستحدث بشأنه، فالخطيب الذي لا يعرف ما يقول، ولا كيف يقول، ولا أين يقول، سرعان ما يجد نفسه في حرج شديد، حيث تصطك أسنانه، وترتجف ركبته، ويرتجّ عليه.

ولتفادي السقوط في هذه الهوة، على الفرد الذي يريد أن يتحدث أمام الناس .. عليه أن يفكر ملياً، ويخطط لحديثه، ويعرف الموضوع الذي يريد طرحه بشكل واضح لا لبس فيه ولا غموض.

لأنه إن لم يفعل ذلك، سيكون كالأعمى، الذي يقود أعمى مثله.

*** بعض الذين ارتجّ عليهم الكلام:**

وأحبّ هنا أن أورد لكم بعض الذين تتطّحوا للمنبر فارتجّ عليهم الكلام، ومنهم:

- اليربوعي: حيث صعد إلى المنبر فخطب وقال:

أما بعد، فوالله ما أدري ما أقول ولا فيم أقمتهموني، أقول ماذا؟

فقال بعضهم: قلّ في الزيت.

فقال: الزيت مبارك فكلوا منه وادهنوا.

قال: فهو قول أهل التتakit الظرف اليوم إذا قيل: لم فعلت ذا، فقل

في شأن الزيت وفي حال الزيت.



- وارتجّ على عبد الله بن عامر بالبصرة وامتنع عليه الكلام، وهو على المنبر وذلك يوم أضحى، فمكث ساعة ثم قال: والله لا أجمع عليكم "أي أحضر الجمعة وأقيمها" عياً ولؤماً. من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها علي.

- وارتج على معن بن زائدة فضرب المنبر برجله ثم قال: أنا فتى حروب لا فتى منابر.

- وكان عبد ربّه اليشكري عاملاً لعيسى بن موسى على المدائن فصعد المنبر فحمد الله وارتجّ عليه فسكت ثم قال: والله إنني لأكون في بيتي فتجياً على لساني ألف كلمة، فإذا قمت إلى هذا المنبر جاء الشيطان فمحاها من صدري، ولقد كنتُ وما في الأيام يوم أحبُّ إليّ من يوم الجمعة، فصرتُ وما في الأيام يوم أبغض إليّ من يوم الجمعة، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه.

- وخطب أحدهم فارتجّ عليه وامتنع عليه الكلام فلما بلغ "أما بعد" بقي صامتاً متحيراً، ونظر فإذا إنسان ينظر إليه فقال: لعنك الله! ترى ما أنا فيه وتلمحني ببصرك أيضاً!!

- ولما أتى يزيد بن أبي سفيان الشام والياً لأبي بكر خطب فارتجّ عليه، فعاد إلى الحمد لله فارتجّ عليه، فعاد إلى الحمد لله ثم ارتجّ عليه فقال: يا أهل الشام عسى الله أن يجعل من بعد عسر يسراً، ومن بعد عيٍّ بياناً، وأنتم إلى إمامٍ عادلٍ أحوج منكم إلى إمامٍ قائلٍ. ثم نزل.

- وارتج على خالد بن عبد الله القسري فقال: إن هذا القول يجيء أحياناً ويذهب أحياناً، فيمتدّ عند مجيئه سببه، ويعزّ عند غروبه طلبه،



وربما كوبر فأبى، وعُولج فقسا، وقد يختلج من الجريء جنانه، وقد يرتجّ على البليغ لسانه.

وهكذا نرى أن ليس كل من صعد إلى المنبر يُعدّ خطيباً، فالوقوف على المنبر له شروط، ولا بدّ أن تتوفر في الخطيب شروطاً كنا أتينا على ذكر بعضها، لكن الذي يجب أن يُقال في هذا المجال، هو أن أهل البيت هم أهل الخطابة وأرياب القلم والتاريخ شاهد على ما نقول. والآن: ما الذي يجب عمله لتكون خطيباً ناجحاً؟ هذا ما سنعالجه في البحث الآتي.



كيف تتصرف وأنت على المنبر ؟

يقول أحد علماء النفس:

"يبدو أن الفعل يلي الشعور، وفي الواقع، الفعل والشعور يسيران معاً، ومن خلال تعديل الفعل الذي هو ضمن سيطرة الإرادة أكثر، نستطيع أن نعدل الشعور بشكل مباشر"^(١).

وعلى أساس هذا التقرير العلمي، يكون الطريق المؤدي إلى الفرح التلقائي -مثلاً، هو أن نتصرف وكأننا فرحين مسبقاً، وإذا لم يستطع هذا التصرف أن يجعلنا فرحين، فمن الصعب أن تجد شيئاً يفرحك.

وهكذا لكي تشعر بالشجاعة، تصرف وكأنك شجاع .. ولكي تشعر بالرغبة تضج في أعماقك، تصرف وكأنك راغب في هذا المضمار .
ولكي تطرد الضجر، والملل، تصرف وكأنك لا تعرف طعم الضجر، ولا رائحة الملل.

وبالتالي فلكي تصبح خطيباً بارعاً، تصرف وكأنك الخطيب الذي تتفجر ينابيع الحكمة على لسانه، فإنك سوف تجد نفسك، قد قطعت الطريق كله إلى المنبر وبلغت مأمناك من الخطابة.
وطبعاً، يحصل هذا، إذا كنت مهياً لذلك .. وكانت لديك طاقة وقابلية، وموهبة ..

(١) فن الخطابة لدليل كارنيجي ص ١٨.



أما إذا لم تكن بهذا المستوى من الاستعداد .. فإن كل التمثيل في العالم، لن يجديك نفعاً، ولن يفتح لك الضوء الأخضر.
ولكن مع ذلك .. حاول أن تتقدم، ولا تتراجع ..

يقول الرسول الأعظم محمد ﷺ: "استعن بالله ولا تعجز .. ولا تقل لو فعلت كذا لكان كذا، فإن "لو"، تفتح عمل الشيطان".
بمعنى أن التردد، والشعور بالعجز، يشكلان مدخلاً لنفوذ الشيطان إلى قلب المرء .. فيكسر همته، ويثني عزمه .

التوكل على الله هو الأساس: فإذا عازمت فتوكل على الله ...
إذن: فأوجد الرغبة في نفسك، وحافظ عليها مشتعلة في صدرك..
ملتهبة على شفتيك .. حتى تبلغ مرادك وتحقق أمنيته.
لا تفكر في الهزيمة، وفكر في النجاح.

يقول الشاعر:

ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر
وتلك حقيقة تجري على كل الأشياء في الحياة، بدءاً من فن الخطابة .. وانتهاءً بتسلق الجبال.
فكر بالنجاح، تكن ناجحاً ..

يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ (١).

(١) النجم / ٣٩-٤٠.



ومن هذه الآية الكريمة، نعرف أن مفتاح نجاح الفرد، وهزيمته، بيده هو، وليس بيد أحد سواه .. فالمرء حيث وضع نفسه .. كما يقول الإمام علي عليه السلام تضع نفسك في الناجحين، تصبح ناجحاً .. تضع نفسك في المهزومين، تكن مهزوماً معهم .. وهكذا في بقية القضايا التي تخص حياة الإنسان.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: "من طلب شيئاً ناله أو بعضه" ^(١). وتذكر دائماً، أن قرارك الذاتي للنجاح، هو وحده الذي يستطيع أن يوصلك إلى شاطئ النجاح.

يقول ديل كارنيجي: "إذا كنت تهتم جداً للتوصل إلى نتيجة، فإنك ستصل إليها بالتأكيد، إذا كنت ترغب في أن تصبح غنياً، فستصبح غنياً، وإذا كنت ترغب في التعلم، فستتعلم، وإن كنت ترغب في أن تكون صالحاً، فستكون صالحاً، ما عليك إلا أن تقرر، وبعد ذلك عليك أن تقرر، وبعد ذلك ستتشأ لديك رغبة في تحقيق تلك الأشياء".

وهناك وصية جميلة، ذكرها أحد علماء النفس، تساعد الناشئين على الخطابة والكتابة .. الوصية النفسانية تقول:

"كلما خرجت من المنزل، ارفع ذقنك وتاج رأسك نحو الأعلى، واملاً رئتيك تماماً - من الهواء الطلق - انهل من الشمس الساطعة .. قدم التحية لأصدقائك بابتسامة .. شدّ على يد على من تلقاه في مصافحة حميمة .. لا تخشَ ألا تُفهمَ .. ولا تتفق دقيقة واحدة بالتفكير في أعدائك .. حاول أن تثبت بحزم في ذهنك ما الذي ترغب في القيام به، ثم ومن دون الحياء عن الطريق، ستتطلق نحو الهدف.

(١) نهج البلاغة ص ٥٤٥ لصبحي الصالح.



وجه ذهنك نحو الأشياء العظيمة التي ترغب في القيام بها .. ثم عندما تسير الأيام، ستجد نفسك تستغل الفرص التي تحتاجها، لتحقيق رغبتك، .. تماماً مثلما تأخذ الحشرة المرجانية، العناصر التي تحتاجها من زبد البحر ..

صوّر بذهنك الإنسان القادر، والشريف والمفيد الذي ترغب أن تكونه .. وستحولك الصورة إلى هذا الإنسان .. فالفكرة هي الأساس.

احتفظ بموقف ذهني صحيح .. موقف الشجاعة، والصراحة، والفرح .. والتفكير الصحيح يعني الإبداع .. وكل الأشياء تتبع من الرغبة وكل صلاة مخلصة مقبولة لدى الله سبحانه^(١).

وفي الأخلاق الإسلامية، نجد أكثر مما جاء في هذه الوصية، من خصال جيدة، وصفات حميدة.

فالشجاعة، والصراحة، والسماحة، والمحبة في قلوب الآخرين، خصال من أبرز ما يتميز به الإنسان المؤمن في الإسلام.

إن القرآن الكريم يحثنا لرسم المثل الأعلى في نفوسنا، ثم يدفعنا لأن نسير على خطوات ذلك الإنسان المثل الأعلى، الذي أحببناه وجعلناه في قلوبنا ..

فالقرآن يجعل النبي الكريم، هو المثل الأعلى للبشرية عامة، وللرجال بالذات .. بينما يجعل فاطمة الزهراء هي المثل الأعلى للنساء كافة في كل زمان ومكان ...

(١) فن الخطابة لدليل كارنيجي ص ٧٠.



اغمر المنبر بنور الكتاب والعترة

البناء الذي يقوم على غير أساس .. يكون سريع الانهيار والتحطم ..
إن المنبر الناجح الذي يتمكن من أداء رسالته في بناء المجتمع، وفي
محاربة الظلم والفساد، والإستغلال، هو المنبر الذي يعتمد - في
أهدافه - على القرآن الكريم، والعترة الطاهرة ..

وبكلمة: الخطيب الهادف، هو الذي يجعل من حديث الثقلين،
منطلقاً له في ميدان الخطابة والكتابة.

لأن الاعتصام بحديث الثقلين، يعني الرؤية الواضحة، ويعني عدم
الضلال .. كما تحدث الرسول الأعظم: إني تارك فيكم الثقلين: كتاب
الله وعترتي، أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي ..".
والحديث واضح جداً، في مضمونه .. بمعنى أن التمسك بالكتاب -
القرآن الكريم- وبالعترة، وهم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم
الرجس وطهرهم تطهيراً .. أقول: إن التمسك بهما، يحفظنا من
الضياع في متاهات الحياة.

ونحن نعرف أن خطبة الزهراء، كانت تدور حول حديث الثقلين ..
وهي شرح مفصل، وتفسير واضح لأهداف حديث الثقلين .. أي أن
فاطمة، ما خرجت في خطبتها عن أجواء هذا الحديث أبداً .. وإنما
اعتمدت في خطابها على القرآن، والعترة، كما مرت الإشارة إلى ذلك
مسبقاً.



ويبقى أمامنا، أن الاعتماد على الكتاب والعترة في المنبر، شيء مجمل، يحتاج إلى قليل من التوضيح والتفسير.

وفي الحقيقة - هناك طريقة جيدة، وفي متناول الجميع، وهي أن يأخذ كل فرد يود أن يرتقي أعواد الخطابة .. أن يأخذ دورتين: دورة لتفسير القرآن الكريم، ودورة للحديث.

ومن المستحسن أن تكون دورة التفسير هي دورة مجمع البيان، أو الميزان .. وبالنسبة لدورة الحديث، يكون كتاب الكافي هو المفضل في هذا المجال.

ثم يقرأ بوعي، وليس بشرود.

ومن المؤسف جداً، أنك لا ترى حضوراً كاملاً، لا للقرآن، ولا للعترة، في منابرنا المعاصرة !!

فبعض المنابر، يغطيها التصوف، وأشعار مثوي وأمثاله، كما هو الحال في بعض المنابر في إيران - في حين تجد القسم الآخر من المنابر، تحتلها موجة الشعر، والشعراء، بحيث يبدأ الخطيب بالشعر، وينتهي بالشعر.

وإنها محنة المنبر المعاصر.

إن المنبر -اليوم- هو المصدر الوحيد لتغذية الجيل المسلم المعاصر، بالفكر، والوعي، والأخلاق.

وإذا كان كذلك، فإنه يتوجب علينا أن نقدم الغذاء الفكري الكامل، للجماهير المسلمة .. والغذاء الفكري الكامل، لا يوجد إلا في القرآن وعند أهل البيت عليه السلام ..

فلماذا -إذن- يبتعد بعضنا عن هذا المنهل العذب، ويبحث في الصحراء عن قطرة ماء!

يقول الله سبحانه : ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ .

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: "إن حديثنا يحيي القلوب .." ونجد الإمام الصادق عليه السلام، يقول لأحد أصحابه واسمه فضيل: "يا فضيل تجلسون وتتحدثون؟"

قال نعم سيدي.

قال الإمام: احيوا أمرنا .. رحم الله من أحيا أمرنا .. فإني أحب تلك المجالس."

وأحياء أمرهم لا يتحقق إلا بالالتزام الكامل بالقرآن، والعترة. يضاف إلى ذلك، أن المتحدث -دائماً- يحتاج إلى ضرب الأمثال، والشواهد، ودقة في التعبير، ويحتاج إلى كلمات تهز الجبال، والقلوب في قوتها، وعذوبتها .. وتلك أمور لا وجود لها إلا في القرآن الكريم، وفي فكر أهل البيت عليهم السلام.

على أن الأمثلة التي يسوقها القرآن، من أروع ما تكون الأمثلة .. وكلام أهل البيت، يثير العقول، ويشد الأسماع.

إن حديثاً واحداً تنقله للناس، عن النبي، عن الإمام علي، عن الزهراء فاطمة .. أو عن الحسن والحسين .. إن حديثاً واحداً تنقله عن هؤلاء الطيبين يعادل طناً من الشعر.

ولكن ذلك لا يعني -بالضرورة- أن نترك الشعر، ولا نتطرق لذكره

فوق المنبر .. بل هناك أبيات من الشعر تهز النفوس .. وقد كان الإمام علي عليه السلام يورد أبياتاً من الشعر خلال خطبه . مثل قوله:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحوالك أكباد تحن إلى القد

أنا لست ضد الشعر في المنبر .. ولكني مع الشعر في المنبر، شريطة أن لا يكون الأدب على حساب الكتاب والعترة -وشريطة أن لا تكون مساحة الشعر، أكبر من مساحة القرآن وفكر أهل البيت فوق المنبر.

إذن: فاعتماد المنبر على القرآن والعترة، لا يعني الامتناع عن ذكر الأشعار والأمثلة الأخرى.

غذّ عقلك بالعلم ، وقوّ لسانك بالمنطق

يقول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: "للإنسان فضيلتان: عقل ومنطق: فبالعقل يستفيد، وبالمنطق يفيد".

ما أروعها من كلمة جامعة .. ومعبرة في وقت واحد ..

وفي كلمة مماثلة يقول علي: "العلم غذاء العقل" أخذ وعطاء .. فإذا ارتوى عقلك بالعلم .. انطلق لسانك بالمنطق والبيان.

من هنا ندرك، أن انطلاقة اللسان، متوقفة على ارتواء العقل ..

وبتعبير آخر .. إذا كانت هناك خلفية علمية وفكرية لدى الخطيب، فإنه سرعان ما يجد الكلام، متدفقاً على لسانه كالسيل الجارف.

إذن: فالنتيجة واضحة .. لطلاقة اللسان .. علينا أن نهتم أولاً بتغذية عقولنا بالعلم والفكر والوعي.

وطريق التغذية العقلية، تتلخص في التركيز أثناء القراءة والمطالعة.

والتركيز يعتمد على ذكاء القارئ، وقوة الملاحظة في رأسه.

فليس من القراءة في شيء، أن يأخذ الواحد منا، كتاباً ويقرأه للتسلية، وإضاعة الوقت، دون أن يفكر فيما يقرأ.

إن أول آية نزلت في القرآن المجيد .. تعلمنا كيف نقرأ، وكيف نستوعب ما نقرأ.

الآية قالت: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ .. ولم تقل اقرأ باسم الله مثلاً - وإنما



جاءت بكلمة الرب، لأنها مشتقة من التربية، بمعنى أن القراءة المركزة الواعية، هي القراءة التي تكون في إطار تربوي .. فإذا عرفنا ذلك .. أدركنا الأهمية البالغة في القراءة المركزة.

ولكي تجيء القراءة واعية، لا تفكر بآخر الكتاب، وإنما فكر في الصفحة التي أنت فيها .. بل ركز فكرك على السطر الذي تقرأه دون غيره من الأسطر .. فإذا استوعبت الموضوع، الذي بين يديك وفهمته، انتقل بعده مباشرة إلى موضوع آخر، وهكذا.

ومن الأفضل أن تصحب معك، دفترًا صغيراً للجيب، تدون فيه أفكارك الجديدة التي حصلت عليها، من خلال القراءة المركزة.

كن بليغاً ، ولا تكن معقداً

كم هو رائع وجميل، أن يتحدث الفرد، في سهولة، وعفوية ..
كم هو عظيم، أن يكون المتحدث منا، عفويّاً في حديثه بلا تكلف، ولا تعقيد .. ولا تصنع فإن كل واحدة من هذه الثلاث، تجعل الحديث ثقيلًا على السمع، تتفر منه الطباع السليمة.
إن هذا القرآن العظيم، الذي هو أكمل كتاب قرأه الإنسان، ليس فيه آية تستعصي على الفهم .. بل كل آياته واضحة، وكل كلام في القرآن جميل ومفهوم، فلقد جعله الله يسيراً في الفهم، وقريباً من فطرة الإنسان ..

يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ .
وهذه الآية تكررت أربع مرات في سورة القمر .. وكل ذلك للتأكيد على أهمية اليسر في التعبير، والسهولة في الكلام...
كلام جميل، وآيات سهلة يسيرة .. يستطيع كل فرد فهمها، واستيعابها في أول مرة يسمعها .. وهذا هو أسلوب القرآن، في كل مسألة يتناولها .. حتى لو كانت من أعقد المسائل في الفلسفة، والعقيدة، فإنه يصبها في أسهل قالب، وأجمل تعبير ...
فمثلاً -حين يتناول القرآن مسألة القدرة الإلهية التي تدير هذا الكون الهائل .. يجيء بكلمة يعرفها الجميع .. يجيء بكلمة الكرسي .. فيقول: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (١).

(١) البقرة / ٢٥٥.

وكلمة كرسي، يعرفها الجميع، الوزير، والمدير، والمرأة في بيتها، والفلاح في حقله، وحتى الطفل الصغير يعرف معنى كلمة كرسي هذه. ويقول الرسول لمعاذ بن جبل، حين أرسله إلى ملوك اليمن: "يا معاذ .. يسر ولا تعسر، وشوق ولا تنفر".

إذن: فلماذا التعقيد في الكلام؟

ولماذا لا نتحدث بلغة العصر؟ وما المانع من ذلك؟ .. فالقرآن الكريم يقسم بالعصر، يقول: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾^(١).

وأحد الوجوه -في التفسير- التي تشير إليها هذه الآية الكريمة، هو أن الذي لا يتحدث بلغة العصر -أي عصر- يخسر قضيته، لأن الناس لا يفهمون لغته وما قيمة لغة لا يفهمها الناس؟! والقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾^(٢).

تأملوا جيداً، كلمة ليبين لهم -بمعنى أن الهدف من وراء اللغة، واللسان، هو تبيان الأمور، وتوضيحها.

إن القرآن الكريم واضح .. وحديث الرسول واضح .. وكلام أهل البيت واضح .. ولكنك تأتي إلى بعض المنابر فتجد الغموض والتعقيد يلفها بشكل مزعج. ومقرف.

خذ نهج البلاغة -مثلاً- وخذ الصحيفة السجادية .. وخذ خطبة الزهراء .. تجد الكلام الذي جاء في هذه المصادر الثلاثة، قمة في الفصاحة والوضوح.

(١) العصر / ١-٢.

(٢) إبراهيم / ٤.

فليس هناك كلام غير مفهوم، على الإطلاق، ولكن حين نأتي إلى بعض المنابر، نجدها غارقة في التعقيد، وعدم الوضوح .. وحين نقرأ بعض الكتب، نجدها هي الأخرى طامسة في ظلمات التعبير الرديء ويتساءل المرء -أحياناً- لماذا هذا الضباب الكثيف في أسلوب البعض؟ والإجابة واضحة سلفاً، وهي أن الأقلام الرديئة واللغة الركيكة الباهتة، لا تستطيع أن ترسم صورة واضحة للفكرة المطروحة .. وللخلاص من هذا الضعف اللغوي .. على الخطيب أن يحسن أسلوبه الأدبي، عن طريق قراءة الأدب الإسلامي الأصيل، الذي نراه متوفراً بشكل كبير في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف، وفي نهج البلاغة، والصحيفة السجادية، وبقية الخطب التي ألقاها أهل البيت عليهم السلام.

القول البليغ يساوي القول المعروف

يقول القرآن المجيد في خطابه للنبي: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (١).

والبلاغة هي: أن تبلغ مرادك بأبسط تعبير، وأعذب كلمة على السمع .. أي حسبك من الكلام ما تبلغ به حاجتك، ليس بالكلام القصير المخل، ولا بالطويل الممل.

وفي خطبة النبي على الأنصار خير دليل على ذلك. وملخصها:

أن الرسول الأعظم ﷺ عندما وزع الغنائم -يوم حنين- على المؤلفه قلوبهم من المشركين، ولم يوزع منها على الأنصار شيئاً .. تأثر الأنصار، وبفعل بعض المنافقين، حصلت فتنة بين أصحاب النبي، والأنصار هم الطرف المشار إليه في هذه الفتنة التي كادت تعصف بالموقف، لولا أن الرسول تدارك الموقف وعالجه بأحسن علاج .. وذلك بفضل خطبة ألقاها الرسول على الأنصار، فنقلتهم من أجواء الغضب، إلى أجواء السكينة والرضا والتسليم الكامل لله وللرسول.

قال سعد بن عبادة الأنصاري: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار، قد وجدوا عليك، لأنك وزعت الغنائم على أهل مكة، ولم تعط شيئاً لهم .. فهم واجدون.

فقال له النبي: وأنت يا سعد؟.

(١) النساء/ ٦٣.

فقال سعد: ما أنا إلا واحد من الأنصار !

فقال له النبي: إذن فاجمع الأنصار في هذه الحظيرة حتى أحضر عليهم، .. ثم جاء النبي وخطب بينهم قائلاً:

" يا معشر الأنصار، مقالةً بلغتني عنكم، ووجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم، .. مقالة بلغتني عنكم، في مبلغ من المال، في حطام من الدنيا، تألفت بها قلوب قوم، ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم.

ألم آتكم ضللاً فهداكم الله؟

وعالة فأغناكم الله .. وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟

قالوا بلى .. الله ورسوله أمنُّ وأفضل".

وهنا سكت الرسول لحظات، وراح يوزع عليهم نظراته الحانية. ثم أعقبها بقوله: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار.

قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله .. لله ولرسوله المن والفضل ..

قال: أما لو شئتم لقلتم، ولصدقتهم، وصدقتم.

وهنا - كلهم كانوا في حالة من الانشداد، والانجذاب إلى الرسول، بشكل غير متوقع في مثل هذه الحالة، ولكن الخطاب كان بليغاً فآثر فيهم أروع تأثير، وحرك عواطفهم، وأثار وجدانهم، فصاروا مشتغلين بالحماس والتوجه الكامل ..

وهنا انطلق الرسول يكمل خطابه: أما لو شئتم لقلتم، ولصدقتهم، وصدقتم: لقد أتيتنا مكذباً، فصدقناك .. ومخذولاً، فتصيرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك فانفجروا بالبكاء والدموع .. وسكت



لحظة ثم التفت إليهم قائلاً: يا معشر الأنصار، ما وجدة وجدتموها علي في لعاعة من الدنيا؟ .. أما ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة، والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟..

فصاحوا: بلى يا رسول الله، وانخرطوا في البكاء .. ثم ختم الرسول خطابه بالدعاء لهم قائلاً: اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار..

ونجد في هذه الخطبة القصيرة، التي لم تستغرق أكثر من دقيقتين نجد فيها الأسلوب المؤثر الواضح، والقدرة على إثارة العاطفة، وتحريك الوجدان ... من أجل الوصول إلى الهدف المقدس، الذي هو جمع كلمتهم، وعدم التفريط بهم.

إن للأسلوب وقعاً شديداً في النفس .. وعلينا أن نسعى لتحسين أسلوب المبنى .. وتصعيد مستواه العلمي، والأدبي، لأن المبنى هو الصوت الوحيد الذي يعبر عن الإسلام في القرن الحالي.



لون الكلام المرغوب في المنبر

توجد ثلاثة أنواع من الكلام .. في اللغة العربية، -وفي كل اللغات تقريباً-:

نوع لا يعرفه الناس، ولا يتحدثون به .. وهو من قبيل الكلام الثقيل على السمع مثل كلمة: إنما الحيزيون والدرديس، والطحخا والنقاح والعلطيسي، وما شابه ذلك، فهي وإن كانت من أصل عربي، ولكنها شاخت ولم يعد لها دور في الكلام، يضاف إلى ذلك أنها ليست فصيحة.

والنوع الثاني من الكلام، يتكلم به الناس ويعرفونه -وهو يكون عادة، من الكلام العادي السوقي الذي تتداوله العامة، وهذا لا يوافق أجواء المنبر ولذلك يجب الابتعاد عنه .. لأنه كلام عامي دارج لا يستفيد منه المجتمع.

أما النوع الثالث، فهو كلام يعرفه الناس، ولكن لا يتكلمون به إلا نادراً، وهذا هو المطلوب، وهو الكلام الذي يجري في وسائل الإعلام، مثل لغة الصحافة والراديو، والمسرح.

وهذا الكلام، هو الذي يشكل لغة العصر .. أي أنه كلام واضح فصيح، يؤدي إلى الغرض، ويفي بالحاجة، وهي إيصال الفكرة إلى الجماهير بأجمل تعبير، وأسلوب سهل يفيض بالعدوبة، والبساطة.



وهنا لا بد من ذكر نقطة جديدة بالملاحظة، وهي: أن اللغة التي يتحدث بها الإعلام المعاصر، إنما ذكرتها لتوضيح المطلوب .. وإلا ففي الفكر الإسلامي أعظم لغة، وأروع كلام .. فهذا القرآن الكريم، وتراث أهل البيت عليهم السلام .. فيه من الكلام البديع، ما يفوق حد التصور، ولا يمكن أن يستغني الخطيب عن هذا التراث بأي حال من الأحوال.

الهداية ماذا تعني ؟

جاءت الهداية في القرآن في لونين من المعنى وذلك في خطاب القرآن لنبي الله الأعظم ﷺ في آيتين:

الآية الأولى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

والآية الثانية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ .

فأثبت الهداية له مرة، ونفاها عنه مرة أخرى. وحسب القواعد العلمية .. فإنه لا يجوز أن يتعلق النفي والإثبات بموضوع واحد من جانب واحد.

فلا بد أن يكون الموضوع له جانبان: جانب الهداية، بمعنى الدلالة، وجانب الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب.

فالهداية التي بمعنى الدلالة، لا تقتصر على طائفة من الناس معينة وإنما تنسحب على الناس كافة -وهي ترمز إلى عالمية الدعوة الإسلامية- وذلك أن الأنبياء، إنما جاءوا من أجل هداية البشرية جمعاء ...

فقال الله - سبحانه - : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

وفي آية أخرى، مصداق لهذا المعنى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا

الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١).

(١) فصلت / ١٧.



تأملوا جيداً كلمة: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾، أي إننا زرعنا في طريقهم شموع الهداية، وقناديل الرحمة، فأطفأوا الشموع، وحطموا القناديل، وساروا في الظلام!

لقد هداهم الله، فاختاروا العمى والظلام، ورفضوا النور والهداية فكانت عاقبتهم، أن أخذتهم صاعقة العذاب الهون ومزقتهم شر تمزيق.. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٢).

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣).

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤).

إذن: فالهداية التي بمعنى الإيصال إلى المطلوب وتذليل العقبات والحمل على الخير والمساعدة، من الله للإنسان إنما تقتصر على الذين استمعوا لله -سبحانه- وأقبلوا عليه، وآمنوا به وأخذوا منهاجه وطبقوها على أنفسهم وأهليهم.

(١) يونس / ١٠٨.

(٢) يونس / ٩.

(٣) الجاثية / ٢٣.

(٤) المائدة / ١٥-١٦.

أما الذين رفضوا مناهج الله، وتركوا قرآنه وساروا في ركاب الشيطان، واعتصموا بقلعته فإن الله يرفضهم ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم. ولهم عذاب أليم .. !

بينما في الهداية التي هي، بمعنى الإيصال إلى المطلوب يقول الحق: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

فالذي يتقبل مناهج الله بقبول حسن يجعل النور في قلبه، والذي يرفض مناهجه يجعل على قلبه غشاوة: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

ومن أجل الوضوح التقريبي، نضرب لكم المثل التالي:

تصور أنك في سيارة، تريد التوجه إلى مسجد الإمام الحسين عليه السلام في القاهرة، ولأنك لا تعرف الطريق، سألت رجل المرور، عن الطريق المؤدي إلى المسجد:

هنا رجل المرور، يرشدك إلى الطريق بقوله: خذ هذا الشارع مستقيماً، ثم سر في منعطف اليمين، وبعدها اتجه نحو اليسار، وستصل مسجد الحسين ..

رجل المرور، هداك إلى الطريق، أي أنه ذلك على الطريق الصحيح .. فهنا الهداية معناها الدلالة، فقط ..

أما أخذ الهداية، أو رفضها، فيرجع إليك، أولاً وأخيراً ..

(١) النمل / ٨٠-٨١.

فأنت تارة، ترفض كلام رجل المرور، وتقول له: أنت على خطأ،
وليس الطريق من هنا، وماذا تفهم أنت .. فإنه عندئذ، يتركك رجل
المرور لأنك رفضت كلامه بدون سبب معقول.

ولكن من جانب آخر، عندما تأخذ بكلام رجل المرور، وتشكره على
عمله هذا، فإنه يلتفت إليك في حب واحترام! ويقول لك: احذر فإن
وسط الشارع حفريات عميقة، ولا أمن عليك من السقوط فيها، فخذ
حذرك، وكن واعياً في الطريق ..

فهنا من الممكن أن يركب معك السيارة، ليساعدك على تخطي
الصعاب، فتكون الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب.
كذلك القضية، بالنسبة لامثال أوامر الله سبحانه.

تأملات في الخطابة
من وحي مدرسة
فاطمة الزهراء عليها السلام

نموذج لخطبة قصيرة

في مدرسة فاطمة الزهراء عليها السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد منشجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم، في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والأصوال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب.

في الحياة أشياء وحقائق والأشياء تُرى بالبصر والحقائق تُرى بالبصيرة ولذلك نزل الإنسان من بطن أمه مزوداً بالبصر لرؤية الأشياء وبالبصيرة لرؤية الحقائق، مع ملاحظة أن الرؤية لا تتم إلا بالنور ومن هنا يأتي نور الطبيعة في رؤية الأشياء في عالم الطبيعة، ويأتي نور الإيمان في رؤية الحقائق في عالم الغيب، كما نقرأ كلمة للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها:

ما رآته العيون بمشاهدة العيان ولكن رآته القلوب بحقائق الإيمان،



وإذا كان الأمر كذلك وهو كذلك فإن رؤية الحق مثلها في ذلك مثل رؤية الشيء لا تتم إلا بشروط ومن الشروط وجود النور والهواء وسلامة العين، لأن المرء في الظلام الهواء موجود، والعين سليمة ولكن مع ذلك لا يرى الإنسان شيئاً في الظلام لأنه فقد شرطاً من شروط الرؤية وهو النور، كذلك موضوع الارتفاع يؤدي دوراً أساسياً في الرؤية والنظر وذلك أننا نعرف أن الارتفاع بالبدن يمكننا من رؤية أشياء أكثر كذلك الارتفاع بالروح يرينا حقائق أكثر ومن هنا كانت الصلاة معراج المؤمن لأن فيها ارتفاعاً بالروح عن الخطايا والمعاصي والذنوب، فهي -أي الصلاة- تؤدي هذا الدور العظيم وهي أشبه بالنهر الجاري يكون على باب دار الرجل فهو يغتسل منه في اليوم واللييلة خمس مرات فما عسى أن يبقى على جسده من درن وهذا هو الواقع الذي يجب أن ندركه جيداً، فالحياة حين يصورها القرآن تظهر في النور لأنها مع الحق، وتظهر في الظلام عندما تكون مع الباطل ويكون الشر هو المسيطر عليها فيصفها بظلمات البر والبحر، ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ الخ (١).

وتصل كثافة الظلمات هنا إلى درجة أن الذي يقع فيها إذا أخرج يده لم يكدرها، لأنه ليس له نور ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (٢).

إن القرآن الكريم يرشدنا إلى مكان هذا النور لنستضيء به فيقول: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ (٣) والبيوت هنا تشير إلى

(١) النور/ ٤٠.

(٢) النور/ ٤٠.

(٣) النور/ ٣٦.

أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً،
وأمرنا بمودتهم ومحبتهم والاخلاص لهم.

وفي بيان معرفة هذا النور وهذه الحقيقة، فانه لا بد من ذكر
النقاط التالية:

أولاً: الموضوع جاء على شكل مثال ضربه الله عز وجل لأهل البيت
عليهم السلام لأنه قال: مثل نوره كمكشاة فيها مصباح.

ثانياً: نحن نعرف من خلال الأحاديث الواردة إلينا في هذا المجال
أنه لا يعرف القرآن إلا من خوطب به، وأهل البيت هم أعراف الناس
بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

على أن الحقائق تؤكد أن كل علم -كما ورد عنهم بهذا الخصوص-
لا يخرج من هذا البيت فهو باطل لا تطمئن به القلوب، ولا تتغذى منه
العقول، وهذه حقيقة ليس عليها غبار ولا في رؤيتها غبش أبداً أبداً..
فقد قال أبو جعفر الباقر عليه السلام لقتادة فقيه البصرة: ويحك يا قتادة
يخرج أحدكم فراسخ فيبغي لنفسه دليلاً وأنت بطرق السماء أجهل
منك بطرق الأرض فابغ لنفسك -أو قال فابتغ لنفسك- دليلاً يدلك
على الطريق، وهذا معنى كلام الإمام إذ إنني لم أنقله بالنص الحرفي
للحديث وإنما أخذت معناه دون لفظه لأنني لا استحضر النص بالكامل،
ثم قال قتادة -وقد أخذته مثل الرعدة- أني لم أر موقفاً داخلني فيه
اضطراب شديد مثل هذا الموقف فقد جلست بين يدي ابن عباس

(١) النحل / ٤٣.

وأمثاله من فقهاء الحجاز والعراق فلم يصبني من الفزع والاضطراب
مثل ما أصابني اليوم وأنا أجلس بين يديك -موجهاً كلامه إلى الإمام
أبي جعفر الباقر عليه السلام، فقال له الإمام:

أتدري يا قتادة بين يدي من تجلس أنت بين يدي بيوت أذن الله أن
ترفع ويذكر فيه اسمه.

فقال له قتادة: أي والله يا سيدي إنها ليست بيوتاً من لبن وطين
وإنما هي أنتم يا ابن رسول الله، أعود فأكسر هنا أي لا أنقل نص
الحديث وإنما أنقل معناه وممكن في الأوراق القادمة التي سنصادفها
ونحن نقرأ في هذه المدرسة، سنلتقي النص الكامل لهذا الموضوع إن
شاء الله تعالى.

ثالثاً: إن النور في القرآن معناه الحياة الحقيقية حياة العلم والإيمان
التي يرفع الله بها أقواماً إلى أعلى عليين ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ ^(١) فالحياة هنا حياة العلم والإيمان وهي لغة
من نعم الله التي لا تحصى ولا تقع تحت دائرة الحصر، ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ^(٢) على أننا لا يمكن أن نختصر النعم في أربع
نعم كبرى وهي نعمة الوجود والعقل والعلم والإيمان، وهذا هو التدرج
العلمي المقبول فنحن لم نكن شيئاً مذكوراً ثم كنا ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ
حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ ^(٣) إذاً فقد كنا قبل عالم الذر نمر

(١) المجادلة / ١١.

(٢) النحل / ١٨.

(٣) الإنسان / ١.

بمراحل خاصة في الوجود، فقد مررنا بعالم ليس فيه شرع مذكوراً -
ثم خلقنا الله عز وجل وأفاض علينا الوجود وجعلنا نتقلب في رحمته
التي وسعت كل شيء في هذا العالم، اذن: فتعمة الوجود نعمة لا
يستهان بها على الإطلاق، ثم تأتي بعدها مباشرة نعمة العقل فلولا
العقول لكان أدنى 'ضيفم أدنى إلى شرف من الإنسان، ثم يضاف إلى
ذلك أن الله عز وجل حين خلق العقل قال له: اقبل فاقبل، ثم قال له:
أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك
ولا أكملتك إلا فيمن أحب، بك أثيب وبك أعاقب.

وهنا تأملوا هذه العبارة جيداً (ولا أكملتك إلا فيمن أحب) فليس في
الإمكان أن يكتمل عقل في رأس مخلوق لا يحبه الله، وإنما تكتمل
العقول عند الناس الذين أحبه الله، أطاعوه فاحبهم وجعلهم يعيشون
في الحياة أبداً أرواحها معلقة في الملأ الأعلى، وهنا يستحسن أن
ننقل مقاطع من خطبة أمير المؤمنين علي التي يصف فيها المتقين:
فالمتقون فيها هم أهل الفضائل، منطقتهم الصواب وملبسهم الاقتصاد
ومشيهم التواضع، غضوا ابصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا
اسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي
نزلت في الرخاء، فهم والجنة كمن قد رآها منهم فيها منعمون وهم
والنار كمن قد رآها منهم فيها معذبون، أما الليل فصافون أقدامهم
تالين لأجزاء القرآن يرتلون في حزن وتدبر وتفكر -هذه العبارة
الأخيرة جاءت هكذا على القلم وممكن أن تكون غير موجودة في
الأصل، أصل النص.

فإذا كان العقل لا يكتمل إلا عند الذين يحبه الله، فانظروا إلى

القضية من باب آخر أي لا تدخلوا من باب واحدة وادخلوا من أبواب متفرقة في البحث العلمي والفكري والأدبي.. فنقول -وبالله التوفيق-: من الذين يحبهم الله؟

- إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وهذا غير الآيات المحكمة التي تشير إلى ولاية الإمام علي عليه السلام، مثل شغله وانشغاله في هذا المجال بالذات. فالله يبين هنا أن التطهير والطهارة والتوبة هذه كلها أدوات وأسباب لإكمال العقل على أننا يمكن أن نسلط الأضواء من مكان آخر على نفس هذا البحث فنقول: كمال الإنسان بالعقل لأن الإنسان مؤلف من عقل وصورة، ولا خير في الصورة إذا غاب عنها العقل، فلا بد من وجود العقل لحفظ الصورة قائمة بالواجب والطاعة وقد مر علينا أن النعم التي يمكن أن نتناولها تختصر في أربع نعم: نعمة الوجود، والعقول، والعلم والإيمان، لأن الوجود بلا عقل لا معنى له، والعقل بلا علم لا يكتمل أبداً فهو يتغذى أبداً بالعلم كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: العقل يتغذى بالعلم، والعلم لا ينفع بغير إيمان وتقوى لأن الإيمان مع العلم يشكلان شرطاً أساسياً وركناً أساسياً أيضاً في عالم التكامل: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(١) على أن الإيمان لا يتم إلا بولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام وبمودة أهل البيت عليهم السلام حيث قال: الحق سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٢) إذا فالمودة تساهم في إكمال العقل، ولعل الأمر يكون أكثر وضوحاً عندما نقرأ حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم «حسين مني وأنا

(١) المجادلة/ ١١.

(٢) الشورى/ ٢٣.

من حسين أحب الله من أحب حسيناً» فأحب الله من أحب حسيناً هذه العبارة تشرح لنا كل الفكرة وهي تتخلص في أن حب الحسين يكمل العقول، فالذي يذكر الحسين ويكي عليه أو يذكر فضائله وينشرها بين العالم فإن هذا الإنسان الذاكر للحسين إنما يقوم بعملية إكمال عقله، لأن حب الحسين تكتمل فيه العقول، وهذا معناه أن الدمعة على الحسين إنما هي تثمر في إكمال العقول وما أعظمها الحياة إذا كملت فيها العقول على هذا الأساس بالذات.

والخلاصة: أن حب الحسين يبني العقول وأن أصحاب الحسين من أكمل الناس عقولاً، وأقواها نفوساً وأتقاهم قلوباً لذلك قال الإمام الحسين عليه السلام: لم يعرف أصحاب في مستوى أصحابه ولا أهل بيت في مثل أهل بيته، في نص خطابي ألقاه الحسين عليه السلام عند مشارف كربلاء المقدسة حين وصلها الإمام الحسين عليه السلام ونزل بها في اليوم الثاني من شهر محرم الحرام سنة ٦١ للهجرة.

خطبة النور بأسلوب آخر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دريٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.. الخ.

(الله نور السموات والأرض) فهذه حقيقة لأنه عز وجل هو الهادي للسموات والأرض ولأهلها، والنور يظهر الحقائق فهو بخلاف الظلمات التي تحجب عن الرؤية وهناك فرق بين من هو في الظلمات يتخبط بها، وبين من هو على نور من ربه وله نور يمشي به في الناس، لأن صاحب النور هو الحي التي يتمتع بحياة حقيقية، بخلاف صاحب الظلمات الذي يعده القرآن ميتاً من الأموات وأن سار على قدمين اثنين بين الناس إلا أنه في الحقيقة ميت ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ (١) على أن الذي يتخبط في الظلمات إنما يتخبط في حجب وموانع وسدود، فهو لا يعرف الحقيقة ولا يراها لأن بين الحقيقة وبينه حجاباً مستوراً: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (٢) هذا من

(١) الأنعام / ١٢٢.

(٢) الإسراء / ٤٥.



ناحية ومن ناحية أخرى نسمع موسى عليه السلام في مسيرته لهداية الناس يوصيه رب العالمين أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور، ويذكرهم بأيام الله وهذه ملاحظة جديرة بالاهتمام لأنه أوصاه بها رب العالمين: ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ (١) فكأن الظلمات حجب تستر الحقيقة وتمنع الرؤية وتطبع على القلوب والعقول، ومن هنا فإن الذكرى لا تنفع رجلاً غارقاً في الظلام وإنما تنفع رجلاً سابحاً في النور، ولذلك أو قل: ولهذا السبب نجد القرآن الكريم يكشف عن هذه الحقيقة، فأول شيء يركز عليه هو أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، فإذا أخرجهم من الظلمات ذكرهم بأيام الله لأنهم في النار والإيمان نور والتقوى نور والنور يكمل العقول وبه تبلغ الأحلام ذروتها وقمتها ومن هنا كان التذكير والذكرى نافعة وهذا هو الحق.

إن الذي يعيش في غطاء عن ذكر الله عز وجل لا يمكن أن يعي الحقيقة أو يتفاعل معها، لذلك كان لازماً إزاحة وإزالة الحجب والسواتر عن هؤلاء الناس ليروا الحقيقة ببصائرهم قبل أن يروها بأبصارهم لأن رؤية البصر لا تنفع إذا كانت البصيرة في غطاء وحجاب وعمى.

والآن تعالوا معنا ننظر هذه القضية من زوايا أخرى فنقول وبالله التوفيق:

(١) إبراهيم/ ٥.

إن الله عز وجل زود الإنسان بأدوات وآلات وأجهزة لرؤية الحق أو قل: ليرى فيها الحق: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾^(١) أي أن الاطعام جيد وحسن ومرغوب في سائر الأيام والحالات، ولكنه أحسن وأفضل في يوم الجوع والفاقة لكلا الطرفين المعطي والطاعم أو قل المعطي والسائل، فالمعطي يربيه العطاء ويظهره من الداخل ويزرع في داخله الشجاعة والسخاء ولا قدرة على المنح والعطاء، بخلاف البخيل المسك الذي يخاف من العطاء وذكره.. وعلى هذا الأساس نجد الإنسان يولد مزوداً بأدوات تجعله قادراً - لو استخدمها حق خدمتها واستثمرها حق الاستثمار - أن يعطي بحق ويأخذ بحق.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

فالسمع لسماع صوت الحق، والبصر لرؤية الحق والفؤاد لحب الحق وأهله، وقد كان الله عز وجل قد أجرى صفقة بيع وشراء من المؤمنين : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ.. الخ﴾ فالمال والنفس لا يملكها الإنسان المؤمن لأنه باعها في عالم الذر على الذي خلقهما ووهبهما الإنسان، ومن هنا كان الإيمان يخلق في المؤمن خصلتين: الشجاعة والسخاء، فلا يكون المؤمن جباناً ولا بخيلاً، لأن

(١) البلد / ٨-١٦.

(٢) النحل / ٧٨.



الجبان لا يضحي بنفسه في سبيل الحق، والبخيل لا يعطي ماله ابتغاء وجه الله، وإذا أعطاه فهو رياء وتريص علماً أن البخيل لا يستطيع دفع المال حتى للرياء والسمعة وطلب الذكر عند الناس. لأنه من الأساس يفقد القدرة التي (تؤهله) تجعله قادراً على العطاء والمنح.

(الله نور السموات والأرض..) زود الله عز وجل عباده بالبصر والبصيرة لرؤية الأشياء والحقائق، فالبصر يرى الأشياء بنور الطبيعة، والبصيرة ترى الحقائق بنور الإيمان وحين ينطفأ الإيمان في النفس تفرق القلوب والعقول في الظلمات، ومن هنا كان لا بد من الإنارة والإضاءة لرؤية الطريق، على أن رؤية طرق السماء أصعب من رؤية طرق الأرض، والغريب أن الناس يجتهدون في معرفة طرق الأرض ويغفلون عن معرفة طرق السماء، وقد وردت هذه الحقيقة على لسان الإمام محمد بن علي الباقر عليهما السلام، حين قال لقتادة فقيه البصرة وهو من العامة كما مر علينا قبل لحظات: يا قتادة يخرج أحدكم فراسخ فيبتغي لنفسه دليلاً (يدله على الطريق) وأنت بطرق السماء أجهل منك بطرق الأرض فابتغ لنفسك دليلاً وهذه الكلمة مليئة بالفكرة ومعبئة بالرشد والرشاد، لأن الإنسان مخلوق من قبضة من الطين، ونفخة من روح الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (١).

وتأملوا العبارة هنا جيداً: إنه مخلوق من طين ومن روح الله فالطين تمثل في البدن والغرائز، في حين أن النفخة الريانية تمثلت في الروح

(١) ص / ٧١-٧٢.

والعقل والقلب والفطرة، ومن هنا نجد الإنسان مؤلفاً من الصورة والعقل، والصورة كل حاجاتها من الأرض لأنها وجدت من الأرض في حين أن العقل كل حاجاته في السماء لأنه خلق من نفخة من روح الله عز وجل.. وهذه حقيقة يمكن لمن سار ورائها أن يأخذ منها الكثير من الأفكار بشكل دائم فهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، لأن مثلها مثل الشجرة الطيبة أو قل: إن هذا المثل الذي ضربه الله عز وجل وهو مثل يستحق الاستماع كما هي كل الأمثال التي يضربها الحق للناس لأن فيها قوة لإثارة دفائن العقول وتحريك الخواطر في هذا المضمار، أقول: كون الكلمة الطيبة تشبه الشجرة الطيبة لأن الشجرة تغذي الأبدان والكلمة تغذي العقول وهذا منتهى التكريم للإنسان أن يكون غذاءه من مصدر معصوم لا يخطأ سواء في مجال الطبيعة والأبدان، أو في مجال الغيب والأرواح.. ويمكن أن نتساءل لإثارة المزيد من المعرفة، وتبسيط المزيد من الضوء على هذه المسألة بالذات، والتساؤل هو التالي:

إذا كان غذاء البدن يجيء من مصادر ومنابع ليس فيها خطأ ولا ظلم لأن الشجرة لا تخطأ فهي معصومة -مجازاً- لا حقيقة لأن العصمة في الحقيقة إنما تكون عند المخلوق الذي يستطيع أن يعصي ولكنه لا يعصي في حين أن الشجرة ليس في مقدورها أن تعصي، ومن هنا كانت عصمة الشجرة مجازاً لا حقيقة، ولكنها تقرب كثيراً من المعاني البعيدة إلى الأذهان لنأخذ منها العبرة والدرس في هذا المجال بالذات، فأقول: إذا كان البدن لا يتغذى إلا من مصادر معصومة يعدم فيها الخطأ، فكيف يسيغ لنا إن تغذي أرواحنا ونطعم عقولنا ونفوسنا من مصادر غارقة في الخطأ وذلك حين نترك أهل البيت ونهجرهم

ونتوجه إلى بيوت غير بيوتهم ونقف على أبوابهم نستعطي الفكر ونستجدي الحديث وهذا لعمرى هو الطامة الكبرى إنك تأخذ غذاء غير طيب ولا حسن لعقلك وروحك في الوقت الذي أمرت فيه أن تختار أحسن الغذاء وأطيب الطعام لعقلك وروحك وقلبك كما ورد في تأويل هذه الآية المباركة: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أي فليُنظر إلى علمه الذي يأخذه عمن يأخذه.

إذن: فلنتوجه إلى بيت فاطمة الزهراء صلوات الله عليها لأخذ العلم والنور والمعرفة، بل لاستلهاام القوة لحالة الضعف التي تلف حياتنا، ولا سيما وأن لنا أسوة حسنة في رسول الله ﷺ حيث نجد الرسول عندما وجد في بدنه ضعفاً توجه إلى بيت فاطمة يقول لها: بني فاطمة إني أجد في بدني ضعفاً، وهذه ملاحظة جميلة وتجدر الإشارة إليها، وإبقائها ماثلة في القلوب والخواطر، لأن الرسول ﷺ يقول: إني أجد في بدني ضعفاً ولم يقل أجد في روعي ضعفاً، أو في قلبي ضعفاً، لأن الضعف لا ينال قلبه ولا روحه، وإنما ينال بدنه بفعل العمل المتواصل، والجهد المستمر الذي يطوي فيه الليل والنهار، وهذا معناه أن على الأمة الإسلامية أن تتوجه إلى فاطمة الزهراء عليها السلام لاستلهاام المعرفة والإيمان والفكر من هذه الصديقة الكبرى التي دارت على معرفتها القرون الأولى.

وهذه الكلمة تشكل نموذجاً من الخطبة الناجحة الهادفة، التي تتفع الناس وترضي الله رب العالمين.

على أن آية النور هذه إنما تشير إلى فاطمة الزهراء، لأنها هي المشكاة التي تمثل نور الله العظيم وسيأتي الكلام حول هذا الموضوع في مكان آخر من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.



صورة أخرى للخطبة الناجحة الهادفة

عن أبي سعيد الخدري: لما أصاب رسول الله الغنائم يوم حنين، وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم، ولم يكن في الأنصار شيء منها.. قليل ولا كثير.. وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله همومه.. فمشى (سعد بن عباد) إلى رسول الله فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار، وجدوا عليك في أنفسهم؟

قال: فيم؟

قال: فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شيء.

فقال رسول الله ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟

قال: ما أنا إلا أمرؤ من قومي!

فقال رسول الله، أجمع لي قومك في هذه الحظيرة.. فإن اجتمعوا فاعلمني، فخرج سعد، فصرخ فيهم فجمعهم في تلك الحظيرة..

حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد، إلا اجتمع له أتاه فقال يا رسول الله اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، حيث أمرتني أن أجمعهم.

فخرج رسول الله، فقام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:



«يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله.. وعالة فأغناكم الله.. وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟»

قالوا: بلى.

ثم صمت قليلاً.. وواصل كلامه:

ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟

قالوا: وما نقول يا رسول الله، وبماذا نجيبك؟ ألمن لله ولرسوله.

قال: والله لو شئتم لقلتكم، فصدقتم، وصدقتم: جئنا طريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك، وخائفاً فأمناك، ومخذولاً فنصرناك.

فقالوا: المن لله ورسوله.

فقال النبي: أوجدتم في نفوسكم، يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوماً أسلموا ووكلتكم إلى قسم الله لكم من الإسلام؟.. ألا ترضون يا معشر الأنصار.. أن يذهب الناس إلى رحالهم، بالشاة والبعير.. وتذهبون برسول الله إلى رحالككم؟ فوالذي نفسي بيده، لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار.

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا رضيونا بالله رباً، ورسوله قسماً.. ثم انصرف وتفرقوا»^(١) وهذه الخطبة هي قمة في الفصاحة

(١) فقه السيرة ص ٤٢٩.

والبلاغة، والتأثير في النفوس، لأن لغتها سهلة، وأسلوبها أخاذ يشد القلوب، ويجري الدموع، وذلك بفعل الصور المشتعلة بالعاطفة. التي تضمنتها هذه الخطبة النبوية العظيمة.

فالرسول لم يتكلف بكلامه أبداً.. وإنما يتحدث بعفوية، ورقة وعذوبة.. ولسان حاله يقول: «وما أنا من المتكلفين..» أي كان ينطلق على سجيته.

وكما في الرسول الأعظم.. كذلك في ابنته العظيمة فاطمة الزهراء، فإنك تجد خطابها يتموج بالعلم، والوعي، وإعطاء الرشد الفكري للجماهير.. الرشد الذي يحمل حلاً لمشاكل الناس.. وبكلمة خطاب الزهراء- بعد الرسول لا يدانيه خطاب في القوة والتأثير.. قوة في العقل والروح، وتأثير في الوجدان والعاطفة.

تكلم يعرفك الآخرون

الكلام يكشف عن حقيقة الإنسان، ولون تفكيره ونواياه، بل وحتى مقدار عقله.

وتلك مسألة واقعية، لا يرقى إليها الشك.

يقول الإمام علي عليه السلام: «تكلّموا تعرفوا فإن المرء مخبوء تحت لسانه»^(١) بمعنى أن اللسان، يكشف عن حقيقة الإنسان، ومقدار وزنه، وحجمه، بل وحتى نمط تفكيره.. ومداخيله..

ففي قصة يوسف عليه السلام ولقائه بملك مصر، يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾^(٢).

أي بعدما سمع الملك كلام يوسف الصديق، أدرك أن هذا الكلام العظيم، لا يصدر إلا من إنسان عظيم، وقلب عظيم.. فأعطاه إمكانيات، وخوَّله بصلاحيات لا حدود لها.. ثم جعله ملكاً على رأس مصر.. لذلك يقول القرآن: فلماً كلمه -أي كلم يوسف الملك- قال الملك ليوسف..: إنك اليوم لدينا مكين أمين.. فلم تظهر قدرته وقوته فقط من خلال الحديث، بل وأيضاً ظهرت أمانة يوسف من خلال كلامه، فعرف الملك أمانته وصدقه، فقرّبه إلى عرشه.

وللأهمية البالغة التي يتركها الكلام، على كشف أسرار النفس،

(١) نهج البلاغة ص ٥٤٥ لصبحي الصالح.

(٢) يوسف/ ٥٤.



وأظهار حقيقة الإنسان، يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ (١).

فمن خلال النبرات الصوتية، يكشف الطرق المقابل عن حقيقة شعوره، وإحساساته.

وهناك حقيقة في علم النفس - غابت عن الكثير، الكثير من الناس، أشار إليها بطل الإنسانية والإسلام، علي أمير المؤمنين - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - بقوله: «ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر على فلتات لسانه وصفحات وجهه».

إذن: فالقول المعروف.. والكلام الواضح.. وتوخي الحقيقة، هذه كلها هي التي تجعل الخطيب مفهوماً ومحبوياً في آن معاً، لدى الجماهير.. أما إذا تحدث بلغة عرجاء معقدة، لا يفهمها أحد غيره، فإن الناس ينفضون من حوله ويسقط في أول الطريق.

والرسول الأعظم، يقول: «أنا أفصح من نطق بالضاد» وهو أسوة حسنة لنا، ولكل إنسان مؤمن.. لهذا يتوجب علينا أن نقوم بمحاولة جادة، لزرع الفصاحة على ألسنتنا، وخلق الوضوح، في أفكارنا، حتى يفهمنا الناس، ويستوعبوا ما نقول.

إن استقطاب الجماهير، يعتمد أول ما يعتمد على الكلمة المؤثرة، والأسلوب الساحر الأخاذ، فلو تكلمت بغير لغتهم، لاتخذوك سخرياً. وإليك هذا المثل:

(١) محمد / ٣٠.



سقط أحد النحويين عن بغلته، في أحد شوارع البصرة، فاجتمع الناس عليه، لمساعدته أو للتفرج. فأراد النحوي أن يقول لهم: لماذا الازدحام من حولي، فأنا لست مجنوناً، وأنا رجل من علماء اللغة العربية.. فأرجوكم أن تتفرقوا عني ولا تجتمعوا بهذا الشكل.. ولكنه لم يتحدث معهم بمثل هذه اللغة المفهومة وإنما تحدث معهم، بلغة لا يعرفونها. قال لهم: «ما لكم تكأكم عليّ كتكأككم على ذي جنة، افرنقوا عني» فما كان منهم -بعد أن سمعوا هذه الكلمات- إلا أن ضحكوا عليه وسخروا منه، وقالوا: هذا والله مجنون.

ولا بأس من أن أورد لك نادرة ثانية: أبو علقمة النحوي، كان يتكلم فلا يفهمه إلا الأقربون جداً إليه.. أما سائر الناس، فلا يعرفون من منطقته، حتى ولا كلمة واحدة.. والسبب في ذلك، أنه لم يكن فصيحاً في كلامه وإنما كان غارقاً إلى رأسه بلغة معقدة، ليس لها رأس ولا ذيل. وكان عنده خادم يعمل لديه في البيت.. فصاح له: يا غلام أصعقت العتاريف؟..

وكان الغلام، ضائعاً ذرعاً، بأبي علقمة ولغته غير المفهومة.. فأراد أن يلقيه درساً لا ينساه.. فقال في نفسه، وما العتاريف، هذه المرة، سأرد عليك يا أبا علقمة بجواب لا تناسه أبداً.. هكذا كان يردد بينه وبين نفسه.. فكرر أبو علقمة نداءه ثانية: يا غلام أصعقت العتاريف؟.. فردّ عليه الغلام قائلاً: زقفيلم!.. فقال أبو علقمة: وما معنى زقفيلم؟ فقال الغلام: وما معنى أصعقت العتاريف؟..

قال: إنما أردت أصاحت الديكة.. قال الغلام: وأنا أردت أنها لم تصح! ومن أجل الابتعاد عن لزوجة هذا الأسلوب الذي لا يسمن ولا

يغني من جوع.. أقول من أجل الابتعاد عنه، يعلمنا القرآن كيف نتحدث، ويعطينا صوراً رائعة، وجميلة للحديث..

يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (١).

ويقول أيضاً: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٢).

وأيضاً القول اللين يؤثر حتى في الصخور الصماء.. ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّينًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٣).

وأعتقد أن الاستمرار على كتابة مقال أسبوعي، وتدوين الأفكار التي يستبطنها الواحد منا، خلال رحلة المطالعة، اعتقد أن الكتابة المستمرة، تكفي لأعطائنا قدرة أدبية لا يستهان بها. بالإضافة إلى أن الكتابة تحسن أسلوب الكلام، وتنمي القلم بين أناملك.

والكلام القوي، له وقع على القلب، يعادل وقع المطر الفرات، على الأرض الجافة، إذ أنها سرعان ما تهتز، وتبت من كل زوج بهيج.

يقول أمير المؤمنين: «ربّ قول أنفذ من صول» والصول -بالفتح- السطوة ومقارعة السيف. أو كما يقول أبو الطيب المتنبّي:

ولربما طعن الفتى أقرانه بالرأي قبل تطاعن الأسنان

قيل أن إبراهيم الحبشي، دخل على معاوية فشتمه معاوية، وأهانته في وسط المجلس.. فخرج إبراهيم هذا من لدن معاوية.. والغضب مائج في طلعته، وهو يقول:

(١) الأحزاب / ٧٠.

(٢) النساء / ٥.

(٣) طه / ٤٤.



أيشتمني معاوية بن حرب.. وسيفي في يدي ومعني لساني..
وعندي من بني عمي ليوث ضياغمة تهش إلى الطعان
وموضع الشاهد -هنا- هو كلمة هذا الرجل وسيفي في يدي ومعني
لساني.. إذ جعل اللسان في مقابل السيف.
ومن خطاب فاطمة نستلهم العزيمة والشجاعة والاصرار على قول
الحق مهما كان الثمن وهنا عندي وصية أوصيك بها هي:
أن لا تصعد المنبر قبل أن تحضر، لأنك في التحضير العلمي
والفقهى والأدبي تحترم رسالتك المقدسة وتحترم المنبر وتحترم الناس.
والآن هل تريد أن تتخلص من الارتباك أثناء إلقاء الخطاب؟ لنرى
ما هي أسبابه. إن الارتباك ناتج عن عدم التحضير.. كما أن الخوف
من الصعود على المنبر، ناشئ من الجهل وعدم التأكد من الحديث
الذي يطرح فوق المنبر.
إنه نتيجة لعدم معرفة ما تريد أن تقوله بالضبط.. وعدم المعرفة،
سببها قلة الخبرة وقلة التجربة وقلة العلم والفهم.. فالقلة في الفهم،
تزرع الارتباك في القلب، والتلكؤ في اللسان.
فعندما يقف الخطيب على أرضية صلبة، من العلم، والوعي،
والتجارب التي تعتمد على حافظة قوية، وذكاء وقاد، عندئذ تتلاشى
مخاوفه وتذوب كما يذوب ضباب الليل، تحت وهج الشمس.
وكما أن الطريقة المقبولة لتعلم السباحة، هي الغوص في الماء، كذلك
تصبح الطريقة المقبولة لتعلم الخطابة، هي الغوص في بحر العلم
والثقافة، وبالإضافة إلى التدريب المستمر على المنبر، ومواجهة



الجماهير بالحديث. وبغير هذا الشرط، تغدو الخطابة شكلاً باهتاً، لا طعم له ولا ذوق.. والطريقة من ذكرها سلفاً، هي أفعل طريقة لتوليد الثقة بالنفس في المنبر الهادف.

والتحضير الصحيح ماذا يعني؟ هل يعني أن تأخذ شريطاً خطائياً، وتحفظه ثم تلقيه على مجموعة من الناس؟ لا أظن ذلك صحيحاً، لأنك، في هذه الحالة، لا تكون أكثر من شريط كاسيت، تتقل أفكار غيرك إلى الآخرين، وربما تتقلها وأنت لا تؤمن بها. فكل واحد منا له أفكاره الخاصة، وطريقته المعينة.. وتقليد خطيب آخر، يقتل الإبداع في أعماقك، فلا تقلد أحداً من الخطباء، وإنما حاول أن تكون لك طريقة مبتكرة تتحدث بها أمام الناس. حاول أن تكون نفسك أنت لا غيرك.

فما هو التحضير إذن؟ هل هو أن تأخذ كتاباً، وتقرأه، ثم تعكس قراءتك على الناس؟ هذا نوع آخر من التحضير.. ولكنه ليس بالنوع الأفضل. فالقراءة ربما تساعدك -وقطعاً- تساعدك على اجتياز الصعوبات التي تعترض طريقك.. ولكن القراءة وحدها تكون خطرة، إذا حاولت أن تأخذ الأفكار الجاهزة المعلبة من كتاب وتوردها كما هي، دون استيعاب وفطنة.. لأن الخطبة -هنا- ستأتي هزيلة وناقصة. والأفضل هو أن تفكر بما تقرأ.

أجل.. فكر بما تقرأ، ثم عمّق الفكرة، والتأمل، حتى تتفاعل أنت مع ما قرأت من أفكار، وحتى تتكون لديك فكرة واضحة وصريحة عن الموضوع.



إن التحضير الجيد، يعني أن تجمع أفكارك، أنت وليس أفكار غيرك الجاهزة والتحضير، أن تجمع آراءك، وحوافزك وأن تكون لديك قدرة على التفكير، والاستنتاج، والتذكر، وانتقاء الكلمات المؤثرة، بعناية فائقة، ثم اختيار ما يعجبك من الفكر الأصيل، وبعد ذلك تقوم بمحاول واعية، لجمعه في وحدة نية، من صنعك الخاص، وليس من صنع الآخرين ولكي تطبق هذه الوصفة الأدبية، فإنك تحتاج فقط، إلى القليل من التركيز، والتفكير الهادف..

على أن ذلك لا يعني -بالضرورة- أن تستكف من أفكار الآخرين، وأن تبعد عن نتاج عقولهم أبداً، فأعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه، وأعقل الناس من جمع تجارب الناس إلى تجاربه.. وأحسن الناس، من أضاف محاسن الآخرين إلى محاسنه، ولكن شريطة أن لا يتحول إلى مجرد ناقل، ينقل الأفكار الجاهزة المعلبة، وإنما يقرأ ويفكر، ويتأمل بما قرأ. ثم تجيء مرحلة التفاعل العلمي والفكري في العقل، فتعطي -حينئذ- ثمارها ونتائجها..

يقول أحد العلماء في هذا المجال: «احتضن دراستك.. احتضنها حتى تصبح يانعة، فمن خلالها تحصل على قطيع كبير من الأفكار الناجحة، مثلما تسبب ذرات الحياة الصغيرة، في الانتشار، والنمو، ويستحسن أن تستمر في هذه العملية فترة طويلة.

وحين تَتَهَمِكُ في جمع مادةٍ لاحتفالٍ معين، اكتب جميع الأفكار المتعلقة بالمادة التي تخطر ببالك.. دَوِّنْ جميع أفكارك بوضع كلمات كافية لتثبيت الفكرة.. ودع عقلك يبحث عن المزيد.

ويضيف قائلاً: تلك هي الطريقة التي من خلالها يتدرب العقل على

الإنتاج، وبها تبقى عمليات الذهن نشطة وبناءة. دون كل هذه الأفكار التي ولدها تفكيرك، من دون أية مساعدة، فهي بالنسبة لتغذيتك الفكرية، أثمن من الذهب والياقوت».

ونحن نعرف أن تغذية العقل المستمرة بالعلم، هي الوسيلة الوحيدة، التي تدفع العقل للنمو لكي يصبح قوة حقيقية منتجة وفعالة.

إذاً: فالتحضير -مسبقاً- ضرورة ملحة، لنجاح المنبر، ومنفعة الناس، في حل مشكلاتهم في الحياة، والاهتمام بهم. فما من رجل عاقل، يبدأ ببناء بيت، من دون أن يضع خطة مسبقة للبناء، قائمة وفق تخطيط دقيقة. والذي يبدأ بالقاء خطابه، من دون أي نوع من البرمجة والتصميم، يكون أشبه بحاطب ليل، يضرب بفأسه في الظلام. والنتيجة الطبيعية، لهذا الخطاب، واضحة سلفاً، وهي الارتباك، والتعثر في الكلام، مع إضاعة أوقات الناس وصرف أعمارهم في فراغ وخواء، واعلم أيها الخطيب أنك مسؤول أمام الله عن اضاعة أعمار الناس لأن العمر فرصة واطاعة الفرصة غصة.

* الخطاب رحلة ذات هدف:

تذكر دائماً -وأنت فوق المنبر- أن الخطابة.. مسؤولية، وأمانة، ومعاناة.. والأمانة التي تتحمل مسؤوليتها ثقيلة جداً، ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (١).

(١) المزمّل / ٥.



وباختصار، الأمانة هي أن تخرج الناس من الظلمات إلى النور، فالتناس غارقون في طوفان من الظلام والضياع والفساد، وعليك أن تحاول إنقاذهم، بقوارب الإيمان السريعة النجدة. عليك أن تبحث عن المشاكل التي تعصف بالجماهير، فتقدم حلول الإسلام لها، وتأمّر الناس بأن يأخذوها بقوة وفعالية..

الإسلام يعطي الناس -من خلال مناهجه- أخلاقاً، ورشداً فكرياً، ووعياً سياسياً.. والمنبر هو لسان الإسلام، فعليك أن تضع هذا الغذاء الروحي في طبق أمام الجماهير. فالتناس في حاجة إلى معرفة سنن التاريخ وإلى معرفة حياة الأنبياء، وخصوصاً حياة الرسول وسيرته، ليجعلوا منه أسوة حسنة ونبراساً يضيء لهم الطريق.. وهم في حاجة، إلى معرفة حياة أهل البيت، والأئمة المعصومين. وخصوصاً حياة الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين عليها السلام.

الناس يعيشون في ظلام، فأرهم القمم المضيئة في الإسلام، وتلك القمم نجدها شامخة، متألفة في فكر محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، في فكر الأئمة المعصومين من ذرية الحسين، أخذاً من الإمام زين العابدين علي بن الحسين، ومروراً بالإمام الباقر، والصادق، والكاظم وانتهاءً بالإمام الرضا والجواد، والإمام الهادي، والعسكري، والإمام المهدي المنتظر.. عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام.. ولا تنسى البيوت التي أذن الله أن ترفع وبيت فاطمة قمته وذروتها فأووا إليه ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيأ لكم من أمركم رشداً، لأنه هو الكهف الحصين.

وصدقني أيها الأخ الخطيب، وأيتها الأخت الخطيبة، إن العالم



يعيش في حالة عطش وجوع، إلى فكر فاطمة وفكر أهل البيت، منذ زمن طويل.. وإذا تمكنا أن نضيء ظلام العالم، بفكر أهل البيت، فعندها سوف نكون قريبين من الله سبحانه، قريباً لا مثيل له ولا نظير.. وعندها فقط تشملنا رحمة الله، ونحقق النصر على أعداء الإنسانية.. وعلى الطغاة والجلادين.. وذلك لأن فكر فاطمة الزهراء عليها السلام يعلمنا كيف نعيش أحراراً، وكيف نعيش في عزة وكرامة، واستقلال. هذه هي الصورة للمنبر الهادف استوحيناها من خطبة فاطمة وما زلنا نقطع أفكاراً غالية وعظيمة من خطابها العظيم.

سادساً: استرخ قبل صعودك المنبر.

إن خمس دقائق من الاسترخاء العميق قبل بدء الخطبة، تفعل فعل السحر في الداخل.. تعطيك نشاطاً، وقوة بشكل مثير. إن الاسترخاء العميق، يولد طاقة عميقة في نفس المتحدث، لأن المتكلم يحتاج أولاً، وقبل كل شيء إلى انشراح كامل في صدره. فالصدر المضطرب لا يقوى على البيان والوقوف أمام الجماهير وطبعاً هذه وصايا ونقاط تخصنا نحن المبتدئين إذا أردنا أن نحلق في آفاق المنبر والبيان ونخلق الكلمة في ابداع وابتكار خلاقين.

هل إن انشراح الصدر يبدأ حين تعرف عما ستتحدث، فإذا عرفت ذلك، تقدم قليلاً بشجاعة، وخذ نفساً عميقاً، تنفس بعمق لمدة ثلاثين ثانية، قبل أن تواجه الجمهور، فإن ازديادك من الأوكسجين سينعشك ويمنحك الشجاعة، ثم استرخ قليلاً -كما قلت آنفاً- قبل بدء الخطاب، فإن الاسترخاء يعطيك قوة تفوق التصور، -على حد تعبير علماء النفس-.



أجل.. اشرح صدرك بالإيمان، قوِّ قلبك باليقين، نور نفسك بالثقة، فجزّ كل الطاقات في داخلك ثم افتح قلبك على الطبيعة، فإنها جميلة جداً.. واستغرق في لحظات من التأمل الهادئ، فإنك سوف تشعر بالانشراح يضيء صدرك، فإذا انشرح صدرك، انطلق لسانك. وتلك حقيقة في علم النفس، لم يعرفها العلماء إلا مؤخراً.. في حين أن القرآن الكريم، كان قد ذكرها.. في آيتين متقابلتين من آياته الكريمة جاءتا على لسان موسى عليه السلام في قوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (١).

وموسى واضح في كلامه، فهو يقول: إن انشرح الصدر، يؤدي إلى حل عقدة اللسان، بمعنى أن الصدر المنشرح يعطي لساناً منطلقاً، بعكس الصدر الضائق، فإنه لا ينتج إلا لساناً متلعثماً متلكئاً، كما جاء في الآية الثانية: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ (٢).

إذن: فهناك علاقة وثيقة بين انشرح الصدر، وانطلاقة اللسان، كشف القرآن عنها من خلال هاتين الآيتين. ومعلوم أن كلمة الصدر - هنا - تشير إلى القلب والنفس في آن واحد.

ولذلك يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «قوة اللسان تدل على قوة الجنان». وإذا حصل عندك، انشرح في النفس وانطلاقة في اللسان، فحاول أن تبدأ بمقدمة شيقة ساخنة قوية، تشد القلوب والعيون إليك، لأن البداية الباهتة، تؤدي إلى فتور المجلس وبرودة الخطاب، فلا تجعل

(١) طه / ٢٥-٢٨.

(٢) الشعراء / ١٣.

المنبر في الشتاء القارص، بل قم بإخراجه إلى حر الصيف وهجير الشمس. إن البداية الساخنة، تعادل في أهميتها النهاية الساخنة أيضاً. ولك في الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء أسوة حسنة في طريقة الطرح الفكري، وفي أسلوب الخطاب، حيث نراها إفتتحت خطابها بأنة حزينة جمعت التعبير كله اطلقتها مع زفرات وحسرات محبوسة في صدرها، أدت إلى تفجير المجلس بالبكاء واشعال القلوب الحرارة والحزن والألم حتى ارتفع نسيج القوم بالبكاء والعيول.

وفي ختام هذه الكلمة هناك بعض النقاط أود أن أشير إليها في عجالة:

١ - لا تقرأ في ظلام بل اجعل النور يغمر وجهك لأن ذلك يؤثر على شد المستمعين إليك.. أي أن الناس يهتم كثيراً أن ينظروا إلى ملامحك، وقسمات وجهك أثناء الخطاب. فدع الضوء يغمر وجهك، لأن الناس يريدون رؤية وجهك. وربما يكون الضوء وراء المنبر، فيترك سحابة من العتمة الخفيفة على وجه القارئ وللخلاص من العتمة، دع النور يغمر وجهك بوضع شمعة أمام المنبر.. أمام الخطيب..

٢ - لا تعباً، ولا تحفل بمن يدخل القاعة، أو المجلس أثناء الخطاب، فإن ذلك يسبب ضعف المنبر وخصوصاً إذا دخل رجل معروف اجتماعياً، فلا تحفل به وأنت فوق المنبر.. بل اتركه يدخل على طبيعته وإذا رأيت الجمهور يتطلع إليه، فلا تنزعج، لأن تلك حالة طبيعية، يذكرها علماء النفس، والاجتماع.



٣ - ابتعد عن الزوايا الحادة - أثاء الخطبة - قدر المستطاع - لأن مشاعر الناس رقيقة، ولا داعي لجرحها.. وإذا أردت أن تتناول قضية تثير نوعاً من الحساسية في بعض النفوس، فتناولها برفق وحكمة.

٤ - نوع المواضيع التي تجذب الانتباه، قصص وأمثلة، وشواهد، من كل العلوم، وفي كل الأفكار مع مراعاة أن يكون خط الموضوع واحداً. فالقرآن يقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ ^(١).

ثم لاحظ القرآن الكريم، فإنك لا تجد سورة تتحدث عن موضوع واحد، بل لا بد من تنوع المواضيع حتى لا يسأم الناس، ولكن يجب أن يبقى خط المحاضرة، واحداً، وواضحاً ليس فيه أي غموض..

٥ - كن مصوراً بارعاً فوق المنبر.. يقول ديل كارنيجي: «إن الخطيب يسهل الاستماع إليه، هو الذي يرسم صوراً، تتدفق أمام عينيك، والخطيب الذي يستخدم رموزاً غامضة وعامة، تخلو من الألوان. يجعل المستمعين يشعرون بالنعاس. إن الصور هي حرة، كالهواء الذي تتشقه، وزعها خلال خطاباتك، ومحادثاتك، فتكون أكثر تسلية ونفوداً..

وأخيراً إلى الشباب الطامح أقول: وإذا فشلت مرة في المنبر.. فلا تيأس، وتذكر دائماً، أن الفشل هو الطريق الأكيد إلى النجاح.

وبعد هذه الجولة في عالم الخطابة، تعالوا معنا إلى رحاب فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- لننصت في خشوع عميق لخطبتها العظيمة التي ألقته في مسجد أبيها رسول الله ﷺ.. ولكي نتفاعل مع

(١) سبأ / ٤٦.



الخطبة، يجب أن نسمعها كما لو كانت الزهراء واقفة تلقي الخطاب أمامنا.. ثم تعالوا نسمع معاً قول النبي ﷺ الذي تقدمم للأنصار الذين وجدوا عليه حين توزيع الغنائم على أهل مكة.

إذن: فأمامنا خطبتان لا بد من الاستماع لهما والاصغاء عند القائهما وهما: واحدة للزهراء وأخرى للرسول صلوات الله على الزهراء وعلى أبيها روعي لهم الفداء.



الخطاب المسؤول

قال سعد بن معاذ: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك لأنك وزعت الغنائم على أهل مكة، ولم تعط شيئاً - فهم واجدون. فقال له: وأنت يا سعيد؟ فقال: ما أنا إلا واحد من الأنصار - فقال: إذن، فاجمع الأنصار في هذه الحاضرة. وعندما تجمعوا أتاهم النبي ﷺ فقال: يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم، ألم آتكم ضللاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم، قالوا: بلى. الله ورسوله آمن وأفضل.

ثم سكت الرسول لحظات، وراح يوزع عليهم نظراته الحانية، ثم أعقبها بقوله: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل أما لو شئتم لقلتم، ولصدقتم وصدقتم.

وكانوا كلهم في حالة من الانشداد، والانجذاب إلى رسول الله. لقد كنت آتيتا مكذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك فانفجروا بالدموع، وسكت لحظة ثم التفت إليهم فقال: يا معشر الأنصار ما وجدته وجدتموها عليّ في لعاعة من الدنيا أما ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم، فصاحوا: بلى يا رسول.. وانخرطوا بالبكاء.



ثم تابع: مقالة بلغتني عنكم في مبلغ من المال في حطام من الدنيا
تألفت بها قلوب قوم ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟
ثم قال: اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار.

ولا بد هنا من إبداء ملاحظ وهي أن الرسول أبكاهم في خطابه
هذا، لأن إثارة مشاعر الناس، وتحريك عواطفهم تساعدهم على
الأسراع في الالتحاق بركاب الحق وأهله، ونفس الصنيع صنعته
الزهراء يوم جاءت إلى المسجد لإلقاء خطابها في المسجد النبوي
الشريف.



حالتا الخطيب الذهنية والقلبية

للخطيب حالتان: ذهنية.. وقلبية.. وهما أهم كل حالات الخطيب، لأن شخصيته تعتمد اعتماداً كلياً على هاتين الحالتين: الحالة الذهنية تعطيه القدرة على التركيز.. والحالة القلبية تعطيه القدرة على التفاعل مع الموضوع الذي يطرحه فوق المنبر.

حالة التركيز في الذهن. وحالة التوجه في القلب. وترك العفة يقتل هاتين الحالتين في النفس.. وهذه حقيقة لا يجادل فيها، وهي أن الخطيب الذي لا يملك التقوى، ولا الورع، وليس لديه الخوف من الله فإنه -قطعاً- تعوزه هاتان الحالتان: حالة التركيز في الذهن.. وحالة الخشوع والتوجه في القلب.

ودائماً طريق ذات الشوكة، هي الطريق التي تصنع مثل هاتين الحالتين، في النفس. ومعنى طريق ذات الشوكة: المجاهدة.. والرياضة النفسية والتزام التقوى والخوف من الله على الدوام، ودون تلكؤ.

وهذه مجموعة من الأحداث الشريفة الواردة في هذا المجال.

يقول القرآن الكريم: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

قالوا: إن هذه الآية نزلت في الخطباء الذين يقولون ما لا يفعلون، فقد رُوي أن مسلمة بن عبد الملك قال للحسن: (عظني قال: إذا نزلت عن المنبر فاعمل بما تكلمت به) والخطبة التي لا يطبقها الخطيب هي كما قال الشاعر:

غرداً كفعل الشارب المترنم

وخلا الذباب بها فليس ببارح



وعن النبي ﷺ أنه قال: رأيت ليلة أسري بي قوماً تقرض شفاههم، وكلما قرضت وفّت، فقال لي جبرائيل: هؤلاء خطباء أمتك، تقرض شفاههم، لأنهم يقولون ما لا يفعلون. (١)

وبالنسبة للصوت الحزين، فقد جاء في الفكر الإسلامي التركيز على أهمية الصوت الحزين، والقراءة به.. سواء أكان في القرآن الكريم، أم بشعر وأدب الطف. فقد قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن، نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، فمن لم يتغن بالقرآن فليس منا». (٢)

ويقول: «لا يأذن الله لشيء من أهل الأرض، إلا لأصوات المؤذنين، والصوت الحسن بالقراءة» (٣)

ويقول النبي ﷺ في حديث ثالث: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». (٤)
ثم يقول: لا ينبغي لحامل القرآن أن يظن أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي، لأنه لو ملك الدنيا بأسرها، لكان القرآن أفضل مما ملكه. (٥)

وفي أخبار الأئمة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين ورد أنهم كانوا يأمرّون من ينوح على الحسين عليه السلام أو ينشد الشعر في رثاءه أن يقرأ الشعر بصوت حزين كما صنع الإمام الصادق عليه السلام مع جعفر بن عфан وعمارة المنشد وأبي هارون المكفوف حيث قال لهم: اقرأوا بصوت حزين على طريقكم في العراق.

(١) أمالي المرتضى ٦/١.

(٢) أمالي المرتضى ٣١/١.

(٣) أمالي المرتضى ٣٢/١.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه.



تجلسون وتتحدثون ؟

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام لواحد من أصحابه يقال له الفضيل بن يسار: «يا فضيل تجلسون وتتحدثون؟».

قال: نعم يا سيدي.

فقال الإمام الصادق: «أما إني لأحب تلك المجالس فاحيوا أمرنا.. رحم الله من أحيا أمرنا».

وهذا الحديث معروف لدى الجميع، وأغلب الناس يحفظونه ولكن قلة قليلة أولئك الذين يحاولون الغوص في أعماق هذا الحديث، إنه حديث ينضح أدباً وذوقاً، وتقدمية، إنه حديث يدفعنا إلى تنظيم مجالسنا، وإلى توجيه طاقاتنا. فما من مجلس في الأرض يجتمع أهله ثم ينفضوا من دون ذكر الله عز وجل إلا وكان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة.

ونحن نقرأ في الصحيفة السجادية دعاءاً للإمام زين العابدين يقول فيه: «أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني..» ويقول في مكان آخر: «أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبينني وبينهم خليتني..».

فهو في المقطع الأول من الدعاء يدفعنا للالتفاف حول مجالس العلماء لأنها مجالس فيها غذاء الفطرة، والروح والعقل، والنفس.. وحين نبتعد عن مجالس العلماء تموت عقولنا، وتقسو قلوبنا فنستحق الخذلان من الله، بينما الحضور المستمر في مجالس العلماء يقرينا



إلى الله تعالى. ولذا قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك».

أما في المقطع الثاني، فتجد الإمام السجاد عليه السلام يحذرننا من الوقوع في مجالس البطالين، لأنها تثير غضب الله علينا، فيقول: «أو لعلك وجدتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتي».

وأعظم ما في أهل البيت عليه السلام أن الواحد منهم يصور الإسلام تصويراً كاملاً ودقيقاً، في كل شيء يلمسه، وفي كل خطوة يخطوها، أو كلمة يطلقها على لسانه. فهذا الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام، يصور الإسلام كله في كل مقطع دعاء من الصحيفة السجادية، بل هو يصور الإسلام عندما يقوم لصلاته، وعندما يجاهد يوم عاشوراء، وعندما يحمل الطعام على ظهره إلى بيوت الفقراء، والإمام السجاد يصور الإسلام في كل أبعاد الحياة. ولعمري أنها لميزة خاصة ينفرد بها النبي وأهل بيته دون غيرهم إذ أنهم تجسيد حي للإسلام والقرآن وأسماء الله الحسنى.

على أن الأمثلة على ذلك كثيرة جداً، يستطيع أن يلمسها كل ظامئ إلى المعرفة، وكل باحث عن الحقيقة، وذلك من خلال إلقاء نظرة واعية على تاريخ محمد وأهل بيته. كل ذلك حتى لا تنفق طاقتنا في الفراغ، والخواء..

إن الإسلام حريص جداً على أن نستفيد من كل طاقة في أعماقنا. فلا فضول، في الكلام، ولا فضول في العمل. بل هناك جد، واجتهاد ومواصلة جهود.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إياك وفضول الكلام، فإنه يظهر من عيوبك ما بطن.. ويحرك عليك من أعدائك ما سكن..».



مميزة الإنسان : عقل وبيان

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١).

أهم شيء في الإنسان، هو قدرته على أخذ العلم، ونقله إلى الآخرين، فقد زوده الله سبحانه بخصلة تفوق كل الخصال ألا وهي خصلة العقل، والمنطق، وعلى هذا الأساس فالإنسان يتميز عن بقية الكائنات بأن له عقلاً وأن له منطقاً، وقد أوضح الإمام علي عليه السلام فلسفة العقل والمنطق في الإنسان، بقوله: «لابن آدم فضيلتان: عقل ومنطق، فبالعقل يستفيد، وبالمنطق يفيد»، وهذه هي الملاحظة الأهم، فابن آدم له قدرة على الأخذ وقدرة على العطاء والحياة قائمة على أساس الأخذ والعطاء.. ولعمري إنها لخصلة تخشع لها القلوب، وتتفلق لها العقول. أجل.. أخذ.. وعطاء. يأخذ بعقله.. ويعطي بمنطقه..

ونحن حين نلقي نظرة على الكائنات كافة، فإننا لا نجد حيواناً واحداً، ولا فصيلة واحدة تستطيع أن تفعل ما يفعله الإنسان في أخذه وعطائه للعلم. إن قصارى ما يمكن أن يصل إليه مستوى حيوان ما، هو أن يتعلم بعض الأشياء السطحية البسيطة مثل: عبور الشارع، والتحرك وفقاً لبعض الأصوات والحركات، ومطاردة الصيد، وملاحقة المجرمين، كما تصنع الكلاب حينما تتلقى تدريباً يجعلها قادرة على

(١) العلق / ١-٥.

معرفة اللص الذي كسر الأقفال بواسطة رائحته التي تركتها أصابعه على سطح القفل.

.. ولا شك أن هذه العملية تكشف عن عظمة الحق سبحانه وكيف أن الله زود هذه البهيمة بحاسة شم قوية رهيبة، تستطيع أن تميز الرائحة من بين ملايين الروائح، وملخصها: هي أن الله سبحانه وتعالى قد أودع في كل إنسان رائحة خاصة في بدنه، والرائحة ليست هي رائحة العرق الذي يفرزه البدن، وإنما هي رائحة خاصة في البدن لا يهتدي إليها أحد إلا بعد جهد جهيد، في حين أن الكلاب تشمها بسرعة، وتلتقطها بسهولة ويسر. وعلى هذا الأساس فإن اللص أو اللصوص الذين يقتحمون البيوت والمحلات ويكسرون الأقفال ويحطمون الواجهاً، يتركون روائح أبدانهم في الأقفال المحطمة، والمقابض المسكرة، ويجيء الكلب المدرب فيشم القفل المكسور، فيعرف نكهة ولون وطعم الرائحة المتروكة على القفل، وهنا يتحرك الكلب بين الناس يحمل على خياشيمه تلك الرائحة ويستمر يفتش بين الرجال والنساء حتى يقع أنفه على الرائحة نفسها فيتعلق بثوب الضحية ويجريها إليه، معلناً أنها من أصحاب السوابق وأهل الجرائم!

المهم، ليس هو تفصيل ما تقوم به الحيوانات من نشاطات محدودة، ولكن المهم هو أن ندرك أن هذه الحيوانات في استطاعتها أن تتعلم أشياء متواضعة جداً، وبسيطة جداً - من قبيل تلقيها مطاردة الصيد، وملاحقة المجرمين كما مر بنا، وكما أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾^(١).

(١) المائدة/ ٤.



كل هذا في استطاعتها -أي الحيوانات- ولكن الذي ليس في استطاعتها، وخارج عن دائرة إمكانها، هو فقدان قدرة التعلم، وفقدان قدرة التعليم أي أنها ليس في إمكانها أن تأخذ العلم كما يأخذه الإنسان، وليس في إمكانها أن تتقل حتى تلك المعلومات الأولية البسيطة التي أخذتها في المدرسة أو في حقول التدريب، وبتعبير أكثر دقة: لو أخذنا مجموعة من الصقور والكلاب، وعلمناها بعض المعلومات الأولية في كيفية الانقضاض على الفريسة وجلبها سالمة إلى صاحبها، أقول: لو علمناها هذه المعلومات، وطلبنا منها أن تتقلها إلى مجموعة أخرى من الكلاب والصقور، لما كان في مقدورها أن تفعل ذلك أبداً. لأنها لا تملك القدرة على أخذ العلم، ولا على نقله. وهذه مسألة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار.

إذاً: فالإنسان وحده هو الذي أنعم الله عليه بقوة العقل، وطاقته البيان، ولولا هاتان القوتان: العقل.. واللسان.. لما استطاع الإنسان أن يحقق شيئاً من التقدم في الحياة، وبالتالي، لما تمكن من أن يحرز عملاً يؤكد إنسانيته، ولبقي راكداً، جامداً في مكانه لا يبرحه، شأنه في ذلك شأن بقية الكائنات التي نزع الله من وجودها العقل والمنطق.

وأود أن أؤكد هنا ملاحظة لا بد منها، وهي أن المنطق الذي نشير إليه هو المنطق الفصيح المبين الذي يجري في اللسان، ويرتبط بالعقل، وليس المنطق الذي يعتمد على الغريزة ويكتفي بالإشارة كما هو حاصل في دنيا الحيوانات. فالحيوانات منطق، كما قال داود وسليمان: ﴿عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ﴾^(١).

(١) النمل/ ١٦.



وكما سمع منطق الهدهد، وقول النملة، وفقاً لما يعرضه القرآن الكريم علينا. ولكن هذا كله لا يشير إلى أن للحيوانات منطقاً يشبه منطق الإنسان، لا .. وإنما منطق خاص بها هي أي الحيوانات. منطق لا يعتمد على العقل، ولا يختزن المعلومات كما هو شأن الإنسان.

والشيء الملفت للنظر، هو أن إنسانية الإنسان لا تبرز إلا من خلال قوتي العقل والمنطق، أو قل: من خلال هاتين الفضيلتين: العقل، والمنطق، فالعقل أداة الأخذ، والمنطق آلة العطاء. وهو -أي الإنسان- إنما يحقق وجوده في توازنه بين الأخذ والعطاء.

على أن الذي يلفت الانتباه، ويشد الفطنة هو أن الإسلام من بين ملايين الملل والنحل والمذاهب والأديان، يبقى هو الدين الوحيد الذي عرف كيف يربي الإنسان على أساس هاتين الفضيلتين. ومن هنا بدأت المناهج التربوية في الإسلام، تصب اهتمامها على تنمية العقل، وتنشيط المنطق.. حتى صار الأدب الإسلامي هو من أرقى أنواع الآداب في العالم، وذلك أنه يعتمد على العقل والمنطق. وأكثر من هذا فإنه يستمد طاقته من أعظم كتاب عرفته الإنسانية وهو القرآن الكريم، ومن أعظم أهل بيت عرفتهم البشرية ومشوا على التراب ألا وهم أهل بيت العصمة والطهارة والسماحة والمحبة في القلوب، وهم أهل بيت النبي الأعظم محمد ﷺ وبهذا التعادل الجميل بين الكتاب والعترة، استطاع الأدب الإسلامي، وخصوصاً الأدب الشيعي -لأنه يعتمد على أهل البيت أكثر من غيره- استطاع أن يتسلق سلم المجد، ويرقى إلى أعلى درجات الوعي، والرشد حتى أصبح الأدب الشيعي خاصة، والأدب الإسلامي عامة، هو الأدب الوحيد الذي يناهض الظالمين،



ويقف في صف المظلومين، بل هو الأدب الوحيد الذي يكون للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً.

أجل إن الأدب الإسلامي الشيعي هو الأدب الوحيد الذي يحمل في ثناياه النور والنار، نوراً يضيء دروب المحرومين والمظلومين، وناراً تحرق عروش الظالمين والمستبدين. إنه الأدب الوحيد الذي يقف مع معاناة الشعوب، ويرفع -في الوقت ذاته- صوته وسلاحه ضد الظلمة والفجرة، والمنافقين والكفار من أهل الضلال.

والحصيلة التي نخرج بها من خلال هذه الصفحات القليلة التي مرت بنا ورتعنا برياضها، إنما هي التوجه الكامل لموقف الإسلام من هذه الميزة التي تميز الإنسان بها، وهي تفردّه بالعقل والبيان. فقد جعل الإسلام لهذه الطاقة قنوات ومناهج، وأسساً، في المجال التربوي، بل في كل المجالات حتى تصب هذه الطاقة في الإطار التربوي الناجح، للأفراد، والجماعات، والشعوب. وهو -أي الإسلام- بهذا الأسلوب استطاع أن يرفع الإنسان إلى أعلى عليين في الدنيا والآخرة. طبعاً الإنسان الذي رضي بالإسلام ديناً، وطبقه عن رغبة وشوق ورغبة وشوق في الثواب والجنة، وخوف ورهبة من العقاب والنار.

ونلاحظ هذا الأسلوب التربوي الرفيع في أول سورة نزلت في القرآن الكريم، فكانت أول سورة تمجد العلم والعلماء.. وتعنى بغذاء العقل والمنطق، وهي سورة العلق..: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

فأول شيء أمر الإسلام به هو القراءة، ونحن نعرف أن القراءة هي



الغذاء الوحيد، أو هي الطعام الوحيد الذي يتغذى به العقل، ولولا القراءة لماتت العقول من الجوع الفكري، والغذاء العقائدي.

والشيء الملاحظ هنا: هو أن القراءة إنما جاءت في الإطار التربوي فقط، لأن الآية تقول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ..

ولم تقل: اقرأ باسم الله -مثلاً- وإنما قالت: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ..

وذلك أن الرب كلمة مشتقة من التربية أي أن القراءة يجب أن تكون في الإطار التربوي، وليس في الشكل الغوغائي الفوضوي.

إن كل الأجيال التي تعيش على سطح الأرض، لو علمت بهذا المنهج الإسلامي العظيم، وكيف أن الإسلام كان قد مجد العلم وأشاد بالعلماء في أول آية من القرآن، أقول: لو عرفت الشعوب ذلك لجعلت الإسلام تاجاً كريماً على رأسها، ولدخلت في دين الله أفواجاً، كما حصل وحدث في السابق حيث استطاع أهل البيت عليهم السلام واستطاع أبناء فاطمة الزهراء -سلام الله عليها وعليهم- أن ينشروا الإسلام في كل بقاع الأرض.

إذن: فهذه لقطات سريعة سجلتها وأسجلها لكم من مدرسة الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء سلام الله عليها لتكون نوراً وضياءاً وهدىً وبشرى لمن يريد الخروج من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى.

الخطيب الأكثر وقعاً في النفوس

هذه صورة للخطيب الذي ينطلق من مدرسة فاطمة الزهراء بلسان عربي مبين وغير عربي إلى العالم والناس كافة.

قال رسول الله ﷺ: «على العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه».^(١)

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس». وكأن الإمام قد أعطى تفسيراً معبراً لكلمة جده الرسول.. لأن الذي يكون على بصيرة ومعرفة، ورؤية واضحة في الزمان، فإنه لا تهجم عليه اللوابس فيظل حائراً لا يعرف الحق من الباطل، ولا الليل من النهار.. وإنما تتضح أمامه الأشياء، وتتجلى الأمور بشكل واضح ومُتَقَن لا لبس فيه ولا غبش.

وكان الإمام علي عليه السلام يوصي ولده الحسن بهذه الوصية فيقول له: «يا بني إنه لا بد للعاقل أن ينظر، في شأنه، فليحفظ لسانه، وليعرف أهل زمانه».

وعلى الخطيب الذي يريد النجاح، ويتطلع إلى الحق، أن يحترم مشاعر الناس، وإذا أراد الموعظة، فلتكن بلين الكلام فإنه أكثر وقعاً في القلوب.

(١) سفينة البحار ٢/٥١٠.

يقول الحق سبحانه: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (١).

ولا بد هنا من ملاحظة وهي أن القول اللين، ولين الكلام، إنما جاء في مقابل الطغيان، لأنه قال: فإنه طغى.. ثم قال: فقولا له قولاً لئناً ومعنى ذلك أن القول اللين هو أقوى من الحديد.. أو أنه يترك أثراً كبيراً في النفس، لا سيما أمام الطغاة..

طبعاً إذا أردنا أن نكلم طاغية أو إذا أردنا مواجهة في القوة، فإنه ينبغي أن نعد ما نستطيع من ألوان التهيئة وضروب القوة، لأن الطغيان - أحياناً - يصل إلى مرحلة لا يعترف معها بمنطق ولا حجة.. وهنا تتعدم الحاجة إلى اللين وتبدأ الغلظة كما هو معروف، ولموس، في سيرة الحبيب المصطفى محمد ﷺ وكما هو معروف أيضاً في سيرة الوصي علي أمير المؤمنين وسيرة أبنائه السادة الطيبين الأطهار - عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام - فهذا الإمام الحسين، نراه يوم عاشوراء يلقي خطاباً كان من قوة البيان، وحلاوة المنطق، بحيث قالوا: لم يسمع متكلم قبله ولا بعده، أحسن منه في منطقه.. ولكن مع هذا كله، لما لم ير الحسين نفعاً من كلامه مع خصومه، انطلق يخاطبهم بكلام كان ينزل على رؤوسهم كالأحجار الملهبة: «تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً.. أحين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا، سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتهم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا، وعدوكم فأصبحتم إلماً لأعدائكم على أوليائكم، من غير عدل

(١) طه / ٤٣ - ٤٤.

أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم فهلا لكم الويلات، تركتمونا
والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لما يستصحف.. ولكن أسرعتم
إليها، كطيرة الدبا وتداعيتم عليها كتهافت الفراش، فسحقاً لكم يا
عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب ومحرفي الكلم، وعصية
الآثم... الخ».

المهم أن للين الكلام موضعاً، غير الموضع الذي يستدعي غلظة
الكلام.

يقول القرآن الكريم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ
الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (١).

فبيّن أن الفظاظة، وغلظة الكلام من شأنهما أن ينفرا الناس عن
المرء، لأن الفطرة الإنسانية تنفر من اللفظ الغليظ الذي لا يألف ولا
يؤلف.. ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف، لأن المؤمن أوف، في كل
أدوار حياته. قال المتنبّي:

خُلِقْتَ أَوْفًا لَو رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لفارقت شبيبي موجه القلب باكيا
ودائماً الخشونة في الكلام، تسد منافذ النفع في الشخص.. ولهذا
أصبح القلب الرقيق أقوى من الجبال الرواسي، في تأثيره على
اجتذاب الناس. ومعلوم أن الرقة تملك قدرة مدهشة على استقطاب،
واجتذاب الآخرين. فلقد جاء عن مولانا الإمام موسى بن جعفر الكاظم
عليه السلام قوله: «فقلوا قولاً ليناً» أي كنياه.. بكنيته، وكان فرعون يكنى بأبي

(١) آل عمران/ ١٥٩.

مصعب، ولهذا كان موسى وهارون، عندما يكلماناه يقولان له: يا أبا مصعب. (١)

وكان علي عليه السلام يقول لولده الحسن عليه السلام: «ولنّ لمن غالظك، فإنه يوشك أن يلين لك». (٢)

ويقول: «عود لسانك لين الكلام» (٣).

إن إعطاء الناس حقهم في الاهتمام والعناية من الأمور المحبّبة، من أجل ذلك كان على الخطيب أن يوزع نظراته، وإشاراته بين الناس بالتساوي، كأن يلتفت إلى جهة اليمين مرة.. وإلى اليسار مرة، دون أن يركز على جهة معينة، بينما بقية الجهات في المجلس، لا تحظى من نظره إلا قليلاً.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقسم لحظاته بين أصحابه ينظر إلى ذا.. وينظر إلى ذا بالسوية».

والنقد الذي يؤد أن يوجهه الخطيب إلى موضوع معين، يجب أن يكون عاماً، وليس موجهاً إلى شخص معين، لأن ذلك مما يضعف الخطيب، وينزل قدره:

ولذلك كان النبي إذا بلغه عن أحد ما يكرهه، لم يقل: «ما بال فلان يقول كذا.. ولكن يقول: ما بال أقوام يصنعون كذا ويقولون كذا». (٤)

(١) بحار الأنوار ١٣/١٣٤.

(٢) بحار الأنوار / ٧٤/١٦٨.

(٣) فن الخطابة للفلسفي ص ١٩٨.

(٤) فن الخطابة للشيخ فلسفي ص ٢٠٠.

ولكي يجيء الكلام مؤثراً، وبليفاً فإنه لا بد للخطيب أن يختار كلماته بعناية فائقة، فلا يتكلم بما لا يعنيه، أو بما ليس له موضع في نفوس الجماهير.

قال الحسين بن علي عليه السلام يوماً لابن عباس: لا تتكلمن بما لا يعينك، فإنني أخاف عليك الوزر، ولا تتكلمن فيما يعينك حتى ترى للكلام موضعاً^(١).

نستنتج مما تقدم أن لين الكلام أكثر وقعاً في النفوس، فعلينا بالصبر والتأني، ولنعود أنفسنا على عمل الخير وسلوك طرق الإيمان الموصلة إلى رضى الله سبحانه، وهو غاية التمني. ولقد كانت سيدة النساء فاطمة عليها السلام تؤكد على هذا الجانب في خطابات وأقوالها، وفي كل ما من شأنه أن يربي الإنسان ويرفع قدره عند الله عز وجل.

على أننا يمكن أن نلمس ذلك في الشكل التالي لخطبة ناجحة وخطيب قدير يستمد رؤاه ويستلهم أفكاره من المدرسة الفاطمية للخطباء والمتكلمين.

ونحن الآن أمام خطيب على منبر جديد يريد أن يعالج مشكلة في أذهان الناس، أو قل: يحاول أن يردّ على شبهة عشعشت في أذهان الجماهير بفعل التيارات الفكرية المعادية للإسلام.. ولنفرض أن الشبهة هي من قبيل الشبهات التي يراد منها ويراد بها ضرب الإسلام، مثل الشبهة التي تقول: إن الإسلام قد أصابه القدم وصار نظاماً بالياً قديماً لا يوافق العصر الحديث الذي يعيشه إنسان القرن العشرين ولا

(١) ميزان الحكمة ٨/٤٣٧.

يوافق الحضارة المادية التي أخذت تصادق النجوم، وتسافر إلى الكواكب البعيدة المدى.. في حين أن مبادئ الإسلام أصبحت قديمة لا تثير اهتماماً، ولا تشعل دهشة في النفوس. أو كما يقول البعض: إن الإسلام لا يصلح للأجيال القادمة، لأنه نظام مرتبط بالأجيال المتخلفة التي أكل الدهر عليها وشرب.

والآن، ما هو الحل؟.. وكيف نرد على هذه الشبهة؟ أو بالأحرى كيف يردّ الخطيب على هذه الشبهات بحيث يترك أثراً بالغاً في النفوس؟ والجواب، هناك طريقتان للرد:

الأولى: أن تذكر الشبهة في بداية الحديث ثم تأخذ بتفنيدها والرد عليها نقطة بعد أخرى.

والثانية: أن تتحدث في مقدمة جامعة شاملة عن عظمة الإسلام، مبيناً أنه دين لكل الأجيال، ثم تؤكد هذا المعنى بشكل دقيق وعميق وواضح، بحيث تتكون قناعة كاملة لدى القارئ بأن الإسلام هو الدين الذي لا يصيبه القدم ولا يصير عتيقاً ولا بالياً وإنما هو يتجدد باستمرار، وتظهر آياته وعجائبه يوماً بعد يوم، بالإضافة إلى أنه دين الفطرة، ودين الفطرة لا يمكن أن يصيبه اندثار أو يدفنه الزمان والحدثان.

وحينما نفكر ونتأمل بشكل جيد ودقيق في الطريقتين اللتين تقدمتا الآن، فإننا سوف نجد أن الطريقة الثانية لرد الشبهات هي الطريقة المثلى وهي الطريقة الفضلى بخلاف الطريقة الأولى التي تزرع الشبهة في أذهان الجماهير، وحين تزرع الشبهة في الذهن فإنها تلح على

صاحبها وتقلقه وتملاً رأسه غباراً ووشوشة بحيث لا يعود في إمكانه أن يركز على الرد، فتكون الشبهة أقوى من الرد وخصوصاً إذا كان الخطيب قد طرح الشبهة بشكل جيد وتعبير قوي، بينما تلكاً في الرد ولم يتألق فيه مثل تألقه في طرح الشبهة في بداية الحديث على المنبر، فإننا هنا سنواجه حديثاً منبرياً ضعيفاً مرتعشاً لا يستطيع الخطيب أن يحصد الأشواك التي زرعتها في رؤوس الناس بإلقاء الشبهة عليهم في البداية.. في حين أن الطريقة الثانية، أو المنهج الثاني الذي يقوم على الطرح الجيد للإسلام، ولل فكر الإسلامي والتأكيد على أن الإسلام هو دين الأجيال وهو الدين الذي اختاره الله ليكون للبشرية كافة وليس لجيل دون جيل، ولا لأمة دون أمة، فإن هذا الطرح هو الطرح الناجح، وهو الذي يترك أثره في النفوس، ويتمثل كما أسلفنا، بأن يبدأ الخطيب بطرح جيد وجميل عن الإسلام وصلاحيته لكل الشعوب والعصور والأجيال، ثم يدلل ببراهين وأدلة وشواهد، وأمثلة على استمرارية الإسلام في الحياة وعلى أن المستقبل له، وأن البشرية كانت قد جريت كل الأديان والمذاهب والأحزاب فما أفلحت، والآن الساحة فارغة وليس لها إلا الإسلام، كما أثبت التاريخ أنه كان يقود البشرية لأكثر من ألف عام قيادة طيبة عاش الناس تحت لوائها في عز وكرامة وحرية، وإن كانت الخلافة قد تعثرت، وكانت الفتوحات مصحوبة بأنين اليتامى، ودموع المضطهدين، وحنين المعذبين.. أقول: وإن كانت هذه الأخطاء قد ارتكبت، كما هو الحال عليه اليوم، ولكن الطابع العام كان للإسلام وكان لواء الإسلام يخفق في أرجاء المعمورة حتى أن الخليفة العباسي هارون الذي لا يعرف من الرشد شيئاً كان يخاطب السحابة ويقول: «شرقي وغربي فأينما تمطرين فإنك ملكي، أو فأينما تمطرين

ففي ملكي»، على أن هذا لا يعني -بالضرورة- إعفاء هارون هذا، وإعفاء خلفاء الجور، وأئمة الظلم، عن سفك الدماء وهتك الأعراض وقتل الأبرياء، أبداً.

إن التاريخ يكتب نفسه بالدموع والدماء والآهات، والحسرات، والزفرات.. إنه يكتب أن هؤلاء الحكام أو أولئك الخونة وأعدائهم والظلمة والسفاكين، إنما كانوا أبعد الناس عن روح الإسلام وعن هدى القرآن وأهل البيت، بل إنهم قتلوا أهل بيت النبي، وداسوا تراث الرسول بأقدامهم، ولكن أتحدث أنا هنا عن عظمة الدولة الإسلامية التي تعتمد على قوة المسلمين أكثر مما تعتمد على قوة الحاكم الظالم الذي كان يظلم الناس باسم الإسلام.. أقول: إنما أتحدث هنا عن عظمة الإسلام ودولته العريضة الواسعة التي كانت تصفها الحوراء زينب في خطبتها بأنها: أخذت أقطار الأرض، وآفاق السماء وأنها خفقت ألويتها في أغلب بقاع الأرض وأرجاء المعمورة فما من أرضٍ إلا وفيها بيارق الإسلام تخفق وتلمع في أشعة الشمس.

ولكن يبقى الشيء الذي يدمي القلب، هو ظلم الخلفاء، خلفاء الجور والاستبداد الذي نشره على المسلمين، وأذلّوهم رذحاً من الوقت.

المهم، ولكي لا أذهب بعيداً في عرض وقائع التاريخ، أرجع إلى أصل البحث، فأقول: في إمكان الخطيب الناجح أن يبدأ بالطريقة الثانية لرد الشبهات، وهي تلخص في طرح جيد وعرض حكيم للإسلام ولصلاحية الإسلام وقوته الذاتية التي تجعله قادراً على المضي قدماً في كل الأجيال والشعوب دون أن يصيبه ضعف أو ترهل أو تراجع.. ثم بعد هذا العرض، وبعد إعطاء الأدلة والشواهد الكافية التي تؤكد قوة

الإسلام وعصرنة أفكاره، بعد ذلك يمكن للخطيب هنا أن يذكر الشبهة، التي تكون قد تلاشت في رؤوس الناس وذابت كما تذوب فقاعة فارغة تحت قوة حرارة الشمس وذلك لقوة الأدلة التي يكون قد ساقها فملاً بها الرؤوس قبل أن يطرح الشبهة.

إذاً: فهذه هي الطريقة المثلى والفضلى في رد الشبهات فوق المنبر. ولكي تكون أكثر وضوحاً، وحتى نعرف ماذا يعني الكلام السابق بالضبط، فإنه لا بد لنا من ذكر نموذج خاص بهذا اللون من خطب المنابر الذي هو عبارة عن طرح جديد وجيد للإسلام وللفكر الإسلامي، ليكون عوناً للخطباء الناشئين، وللذين يريدون أن يدافعوا عن الإسلام وعن العقيدة وخصوصاً لمن يريد الدفاع عن مقام السيدة المظلومة الشهيدة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها ويوضح للناس أنواع الظلم الذي وقع عليها حتى قضت مكسورة الضلع مسقطلة الجنين ناحلة الجسم.

وهنا نبدأ الحديث على الشكل التالي:

إن لله سبحانه وتعالى، كتابين في الوجود، كتاب التكوين، وكتاب التشريع.. فالطبيعة في حقيقتها كتاب نقرأ فصوله، ونتصفح أبحاثه، فنزداد يقيناً، والقرآن كتاب نتلوه ونتدبر آياته فنزداد نوراً وإيماناً.

الحق، أن الطبيعة أكبر وأعظم مدرّس للإنسان إذا أراد الإنسان أن يتواضع لها ويكون تلميذاً مطيعاً عندها، فهو -أي الإنسان- يستطيع أن ينتفع بها، ويستلهم منها العبر وذلك حين يرافقها بصدق وإخلاص، ويحبها من كل قلبه، ولا يعني الحب هنا -بالضرورة- أن يحب الكواكب



والنجوم ويتغزل بها.. لا .. أبداً ليس هذا هو المقصود، ولكن المقصود هنا هو التأمل والتفكير في الكون، وفي الطبيعة وفيما أودع الله سبحانه فيها من خلق عظيم، وإني لأتذكر جيداً ذات مرة، حين أوقفت السيارة على جانب الطريق، وأنا في طريقي من طهران إلى خراسان لزيارة قبر الإمام علي بن موسى الرضا -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- وكنا نمر في طريق جميلة ملئت بالأشجار والأنهار، وكانت أشجار الغابات العملاقة، تحف بنا من جانبي الطريق والأنهار تجري من بين أيدينا وعن أيماننا وشمائنا، وكان الوقت بعد منتصف الليل وكان القمر غائباً فبدت السماء صافية تتألق في النجوم والكون. وفجأة رأيت القمر بازغاً يغمر بنوره الفضي الوجود كله.

أقول: أتذكر جيداً حين أوقفت سيارتي ونزلت في قضاء حاجةٍ للأطفال وتهيئة بعض شؤونهم الخاصة فوق بصري على منظر لن أنساه ما دمت حياً: لقد وقفت السيارة بين جبلين كل واحدٍ منهما قد اتشح بعباءة خضراء كلها أشجار وخضار وفاكهة وزيتون ونخل وحدائق وبساتين.. وكانت الأنهار تجري والسواقي توشوش في همس مثير، فلا تسمع إلا زقزقة البلابل وتغريد الطيور، وحفيف الشجر، وخرير المياه، ثم من بين الجبلين فتحت كوة تطل منها على السماء الصافية المليئة بالكواكب والنجوم التي تلمع وتتألأأ وكأن الطبيعة في صلاة واحدة، وفي سجود للرحمن الرحيم الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

ولا أخفي عليكم أنني ما تماكنت نفسي، فما شعرت إلا ودموعي تجري على خدي فقد تذكرت خبراً التقطته من حياة الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام والخبر يقول: إن السجاد طلب ماءً للوضوء



في إحدى الليالي، وحين جيء إليه بالإناء المليء بالماء توضاً ثم وضع يده في الإناء وراح يسرح بفكره في الكواكب والنجوم إلى أن طرَّ عمود الفجر وahan وقت صلاة الصبح، كل هذا والإمام السجاد يفكر في الكواكب والنجوم، ويتدبر، ويتأمل بما خلق الله في هذا الكون الفسيح العريض الذي كل مجراته ونجومه وكواكبه وحتى ذراته، كلها تسبح الله وتقده وتمجده. ولذلك يقول القرآن الكريم: قال: ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١).

ويدعونا إلى التفكير والتأمل في الطبيعة لنزداد إيماناً فوق إيماننا، ونكسب يقيناً فوق يقيننا، هكذا: «الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانه فقنا عذاب النار».

هذه الآيات والأخبار والصور مرت كالبرق في ذهني وأنا واقف مشدود إلى هذه اللوحة الرائعة التي أبدعتها يد الحكيم العزيز العليم، وتذكرت قول الشاعر وهو يصف ليلة أمضاها في طاعة الله:

هذه ليلتي كليلة موسى إذ ينجي الإله فوق الطور

وتذكرت أيضاً قول أبي العلاء المعري، وأنا أقلب طرفي في الكواكب والنجوم فأراها منتظمة في السماء كما تنتظم اللآلئ أو كما ينتظم حب اللؤلؤ المنثور في قلادة على جيد فتاة من الزنج، -وإنما أقول من الزنج لأن السماء كانت تبدو سوداء بغياب القمر فبدت النجوم على حقيقتها، وأطلت بكل وهجها وتألقتها- أقول: تذكرت قول أبي العلاء

(١) يونس/ ١٠١.

المعري وهو يصف هذا المنظر -رغم عمى عينيه- السماء المزينة
بالنجوم في غياب القمر.

ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان

إلى آخر أبياته التي يقول فيها:

وعلى الأفق من دماء الشهيد ن علي ونجله شاهدان

فهما في أواخر الليل فجرا ن وفي أولياته شفقان

ثبتا في قميصه ليجيء الحش ر مستعدياً إلى الرحمن

وحتى نعرف ماذا يعني أخذ الدروس والعبر من الطبيعة، لا بدّ من
أن نفيض بالشرح والتفصيل ولو بشيء سريع ومهذب. وذلك لكي تجيء
القضية واضحة، وتصبح الفكرة كاملة وجاهزة للإلقاء على الجماهير
وللطبع على صفحات الورق.

على أنني لا أحسب هذا ابتعاداً عن مدرسة الزهراء عليها السلام فاطمة عليها السلام
في الخطابة، وإنما هي اقتباس من أقوال البتول فاطمة روعي فداها
لأنها تأخذنا في كلامها إلى رحلة عبر السموات والأرض لنأخذ
الدروس والعبر في التربية والأخلاق والسلوك وفي تعويد أنفسنا على
تحمل المسؤولية كاملة في إيصال صوت فاطمة الزهراء عليها السلام إلى العالم
كله وهذا ما نحاول إنجازه واحقاقه إن شاء الله تعالى.. فتعالوا
نواصل ما بدأناه من خطبة جديدة في عالم المنبر والخطابة والبيان.

وهذه هي الصورة الجديدة للخطبة الجديدة تحت عنوان:

الترابط بين قوانين الشريعة والطبيعة

القوانين التي تجري في الحياة نوعان: تكويني وتشريعي، فالقوانين التكوينية هي عبارة عن القوانين التي زرعها الله في الطبيعة وجعل الكون كله بنجومه وأشجاره وحجراته وأرضه وسمائه وجباله، جعله يجري ويمشي عليها، وذلك أن في هذا الكون قوانين وسنناً ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، والإنسان في حاجة ماسة إليها، فلا يمكن أن نتصور أن الإنسان يستطيع أن يستغني عن الشمس مثلاً، أو أنه يستغني عن قوانين الفيزياء والكيمياء التي تلف عنق الكرة الأرضية.. لا أظن أن أحداً يفكر في مثل هذا الأمر.

على أن هذه القوانين التكوينية -أي التي هي في الكون والطبيعة مثل قانون الجاذبية وسرعة الضوء، وقانون الطفو، وقوانين الفيزياء والكيمياء والرياضيات، والهندسة، وقوانين انكسار النور، وقوانين الموت والحياة- أقول على أن هذه القوانين التي نطلق عليها اسم القوانين التكوينية لأنها مأخوذة من الكون، ونسميها -أحياناً- القوانين الطبيعية نسبة إلى الطبيعة، أقول: هذه القوانين لا تبلى ولا تعتنق ولا تتغير ولا تتبدل أبداً، كما أن الإنسان يظل دائماً وباستمرار في حاجة ماسة إليها وإلى وجودها، فهو -أي الإنسان- بغير هذه القوانين لا يستطيع أن ينظم حياته، ومن دون السنن الكونية تغدو حياة الإنسان تافهة، وكأنها ريشة في مهب الريح، أو كأنها سعة مضطربة في ريح هوجاء..



ويقابل هذه القوانين التكوينية، قوانين تشريعية نزل بها الروح الأمين على قلب الحبيب المصطفى محمد ﷺ وهي قوانين العدالة الاجتماعية، والاقتصاد والسياسة، والتربية والأخلاق، وقوانين الحقوق والواجبات، ومبادئ الحرية والاستقلال والمساواة، وحقوق الإنسان واحترام الآخرين والحفاظ على كرامتهم وعدم إذلالهم، وما شابه هذه القوانين الإنسانية التي جاء بها كتاب التشريع وهو القرآن الحكيم.

وكما أن القوانين التكوينية في الطبيعة لا تبلى ولا تصير قديمة، كذلك القوانين التشريعية في القرآن هي الأخرى لا تبلى ولا تصير قديمة. كما أن السنن الكونية لا تتبدل ولا تتغير، وكذلك السنن التشريعية لا تتبدل ولا تتغير، وذلك لحاجة الإنسان الملحة إلى كلا النوعين من السنن.

وبالمثل: فكما أننا نحتاج إلى وجود الشمس بيننا لتستقيم الحياة الطبيعية على سطح الأرض.. كذلك نحتاج إلى وجود الإمام المعصوم بيننا لتستقيم الحياة التشريعية على هذه الأرض. وذلك أن المعصوم هو حجة الله في الأرض، ولولا الحجة لساخت الأرض بأهلها، أي أن هذه الأرض لا تسمح لنا بالعيش على ظهرها إذا لم يكن هناك إمام معصوم حجة الله يعمل بأمره ولا يعصيه طرفة عين أبداً.. ومن هنا فإن حياتنا إنما هي ببركات محمد وأهل بيته -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام-، وبالذات بفضل وجود صاحب الأمر وصاحب العصر والزمان الإمام القائد الحجة ابن الحسن المهدي أرواح العالمين له الفداء، وعجل الله فرجه الشريف، وجعلنا من أنصاره وأعوانه، والذابين بين يديه بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام-.

إذاً: فحاجتنا إلى الإمام المعصوم الذي يمثل السنن التشريعية، هي نفس حاجتنا إلى الشمس، والهواء والماء وبقية السنن والقوانين الكونية.

وعلى سبيل المثال: فكما أننا نحتاج إلى الهواء، كذلك نحتاج إلى الحرية، وكما أننا نحتاج إلى الماء، كذلك نحتاج إلى الحق والعدل والمساواة، وقطع هذه الأمور المهمة والضرورية عن الإنسان يشبه قطع الماء عنه ولذا تجد الإنسان اليوم في ظمأ شديد، وعطش رهيب وجوع قاتل، إلى الحق والعدل والحرية والمساواة، بل إن شعوب الأرض تفتش عن الحرية والعدل، عن الحق والمساواة، تفتش عن الكرامة الضائعة، والعزة المهدورة، -تفتش عنها الشعوب، ولا تجدها، وذلك لسبب بسيط وهو أن هذه المبادئ الإنسانية لا وجود لها إلا في ظل الإسلام وتحت رعايته ولوائه، وعلى شعوب العالم أن ينفضوا عنهم غبار الشيطان وأن يفتحوا عيونهم لينظروا كم هي المبادئ عظيمة وكريمة وإنسانية في الإسلام وليس في غيره.

والذي يفتش عنها في غير الإسلام فلن يحصل عليها أبداً.. وسيبقى في ضيق من العيش ونكد من الحياة لا يرى لنفسه حيلة ولا منجى.. ومن هنا، أو قل: من هذا المنطلق ركز الإسلام على هذه الحقيقة حين رفض كل دين ما عدا الإسلام لأن الإسلام هو وحده الدين الذي يضمن سعادة البشر، ويحفظ إنسانية الإنسان.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١).

(١) آل عمران / ٨٥.

ويقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ (١).

وجاء في التفسير: «أنه يُنسى في نار جهنم.. فهو عاش في جحيم الحياة، وراح إلى النار بعد الممات، لأن القوانين التشريعية والتكوينية متشابكة في عناق رهيب بحيث يؤثر بعضها في بعض: ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً».

ويقول الإمام السجاد عليه السلام: «من لا معاش له لا معاد له».

وقالوا: إن الصراط الذي نعبر عليه يوم القيامة، إنما هو هنا في الحياة، ولكن مع فارق واحد وهو أن صراط القيامة يمتد فوق نار الجحيم، في حين أن صراط الدنيا يمتد فوق نار الشهوات والأهواء، فالذي يملك شهواته، ويسيطر على هواه، يعبر الصراط يوم القيامة مثل البرق والخاطف لأنه عبر صراط الشهوة هنا في الدنيا كالبرق الخاطف بإرادته وإيمانه ولم يقع ولم يسقط في حبائل الشيطان، فإذا حدث أن وقع الإنسان هنا في حبائل الشيطان فإنه لا محالة سوف يقع هناك في حبائل النار إلا إذا تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، فباب التوبة مفتوح للعاصين، وخط الرجعة موجود للعائدين إلى الله سبحانه وتعالى.

ونتيجة البحث الذي تقدم الآن بشكل مقدمة للمنبر الناجح، تتلخص في أنه يوجد نوعان من القوانين في الحياة: قوانين كونية ثابتة في الطبيعة، وقوانين تشريعية ثابتة في القرآن الكريم.

(١) طه / ١٢٤-١٢٦.

على أن القوانين هذه -سواء كانت تكوينية أم تشريعية لا فرق- فإنها ثابتة وراسخة لا تتبدل ولا تتغير أبداً.. وذلك أن أي تغيير ولو طفيف يطرأ على قانون الطبيعة فإنه سيؤدي حتماً إلى الدمار والخراب.. فمثلاً لو اقتربت الشمس من الأرض ولو بمقدار قليل عن موقعها من الأرض، لنامت الأرض تحت غطاء كثيف من الجليد يخنق أنفاس الحياة ويدفن الناس في طمره اللاسع.

والشيء نفسه يقال بالنسبة للقمر. فلو اقترب القمر من الأرض، لأدى ذلك إلى ارتفاع أمواج البحر إلى أكثر من مائة متر فوق سطح البحر، ومعنى ذلك أنه في دقائق قليلة وخلال لحظات من الوقت سوف تغرق الأرض كلها وتطفو الحياة جثة هامدة فوق الماء.. فنحن ندرك، ونعرف أن المد والجزر اللذين هما بمثابة رئتي البحر اللتين يتنفس منهما وبهما، إنما يحصلان بفعل القمر وبعده عن الأرض، أي أن للقمر مسافة محدودة ومعينة ومضبوطة ومقدرة وفق نظام دقيق. لا بل إنها اختيرت بعناية فائقة وفصلت قوانينها -أي المسافة المقدرة بين الأرض والقمر- من لدن حكيم عليم.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (١).

والنتيجة من هذا الشاهد هي: أن القوانين التشريعية تشبه إلى حد بعيد -في نظامها ودقتها- القوانين التكوينية الطبيعية، لا بل أكثر من ذلك، لعل دقتها تفوق دقة القوانين الطبيعية لأنها حاکمة على الطبيعة

(١) يس/ ٤٠.

كما سيمر معنا خلال البحث، ولكن نريد أن نؤكد هنا حقيقة ثابتة وهي: كما أن التغيير الذي يطرأ في القوانين الكونية يؤدي إلى انفراط النظام وانهدام الطبيعة، كذلك التغيير الذي يحدث في القوانين التشريعية فإنه يؤدي إلى دمار الحياة وتمزق المجتمع. بحيث تتحول الحياة إلى جحيم.

وحتى نعرف إلى أي مدى يمكن أن يترك التغيير في القوانين الطبيعية من دمار وخراب، يكفي أن نذكر، أو يكفي أن نعرف أن الإلكترون إذا انحرف عن خطه حول النواة فإنه سينطلق بسرعة مذهشة مروعة تصل إلى ملايين الكيلومترات في الساعة وبذلك ينشر الدمار والخراب والضياع الذي يحدث في العادة عند انجار قنبلة أو تفجير طاقة معينة.

ومن هذا المنطلق يجب أن نعرف أن تغيير قوانين الكون يؤدي إلى فرط النظام، تماماً كما أن تغيير قوانين الشريعة يؤدي إلى فرط النعمة وإضاعتها. ولذلك كانت القوانين والسنن ثابتة: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(١).

يقول الحق سبحانه مشيراً إلى هذه الحقيقة، وهي أن هذه السنن لا تتبدل إلا إذا قام الإنسان بتغيير ما في نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢).

والبشرية اليوم استطاعت أن تكتشف بعض هذه القوانين المزروعة

(١) فاطر/ ٤٣.

(٢) الرعد/ ١١.

في الطبيعة بعد جهد طويل وصلت في نهايته إلى اكتشاف قسم من الحقائق العلمية في هذا الكون، وهي وإن كانت لا تمثل كل الحقائق العلمية، إلا أن البشرية استطاعت أن تنتفع بهذه السنن وتجعلها في خدمتها كما كان قد جعلها الله في خدمة الإنسان وسخرها له. وسأنقل لكم صوراً ولوحات رائعة من هذه القوانين المادية التي اكتشفها الإنسان واستفاد منها فائدة طيبة.

ولكن قبل أن أنقل لكم هذه الصور واللوحات، لديّ ملاحظة أود أن أبديها لكم لأنها تشد قلوبنا برياط الإيمان، وتضيء أعماقنا بنور الخشوع والرضوان، إضافة إلى أنها تقربنا من الله أكثر فأكثر. والملاحظة هي:

إذا كانت القوانين المادية تنفع الإنسان وتمنحه هذه الراحة والسعادة الدنيوية في الحياة، فما بالنا بالقوانين التشريعية التي جاءت لصياغة الإنسان، وتربيته وتزكيته ولتجعله في القمة أبداً ودائماً؟

وبالمثل: إن تعاملك مع كنز مادي يرفعك بمقدار فهمك لكيفية الانتفاع بالكنز وبمقدار فهمك لقيمة هذا الكنز ومكانته في الدنيا.. والشئ نفسه يقال بالنسبة لحبك لأهل البيت واعتناقك العقيدة الإسلامية السمحاء. فإنهما يرفعانك إلى أعلى عليين.. فكما أن تعاملك مع الكنز يرفعك مادياً، كذلك تعاملك مع أهل البيت واعتناقك الإسلام يرفعانك روحياً ومعنوياً وهذا ثابت ومؤكد.

وقد وردت أحاديث تتكلم عن حب أهل البيت وأنه ينزل على قلوب المؤمنين من كنوز تحت العرش، وهنا نجد النسبة في المثال بين الكنز المادي، وبين الكنز المعنوي الذي هو عبارة عن حبنا لمحمد وأهل بيته -

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- أقول: نجد النسبة قائمة بين المثالين، والارتباط موجوداً في الصورتين.. وإنما أوردنا هذا المثال لندلل على التشابك والعناق بين السنن الطبيعية والسنن التشريعية.

إذاً: فإن تعاملك مع كنز من الذهب يرفعك بقدر ما تعرف من طرق الانتفاع من هذا الكنز، وإذا كان الأمر كذلك، فتعاملك مع الحق يرفعك بقدر فهمك لمكانة الحق، ومنزلته في الكون والحياة والإنسان.

والآن آن الأوان لناخذ عدداً من القوانين الكونية، وآخر من القوانين التشريعية، ثم نرى هل في إمكان الإنسان أن يستغني عن واحد منها أم لا؟ ثم نرجع البصر كرتين لنرى هل يمكن لهذه السنن الكونية والتشريعية أن يعترها الفناء؟ هل يمكن لها أن تهدم وتشخ وتضعف، وتصير قديمة بالية لا تنفع ولا تضر أم لا؟

لنرى هذا الأمر، علينا أن نأتي البيوت من أبوابها، ونأخذ الخيط من رأسه، فنبدأ بمثالين واضحين، واحد للطبيعة، وواحد للشرية.

أما في الطبيعة فنأخذ خمسة قوانين، هي على التوالي:

١ - قانون الطفو في الماء.

٢ - قانون الجاذبية.

٣ - قانون النور.

٤ - قانون الموت والحياة.

٥ - قانون الفعل ورد الفعل.

وحتى نعرف كم هي أساسية هذه السنن في الحياة، يكفي أن نفهم



أن قانون الطفو هذا الذي يتم تعريفه بكلمة واحدة، هي أن الجسم الذي يغمر في سائل يتلقى قوة دفع من الأسفل إلى الأعلى تساوي حجم الجسم المغمور في السائل، ومعناه بالعربي الفصيح أن أي جسم نغمسه في الماء فإنه بدل أن ينزل في القاع وفقاً لقانون الجاذبية التي تسحب الأجسام من الأعلى إلى الأسفل، ومن فوق إلى تحت، فإنه بدلاً من ذلك يتلقى قوة دفع من الأسفل إلى الأعلى، أي أنه ضد تيار الجاذبية. ولولا هذا القانون لما استطاعت السفن أن تمر بالبحر، ولما استطاعت البواخر أن تبدو رواكد على ظهر البحر تارة، وتبدو مسرعة تتحرر الموج بصدرها تارة أخرى. إن هذا القانون، أعني قانون العوم، والطفو، الذي اكتشفه أرخميدس العالم الغربي، أقول إن هذا القانون موجود قبل أن يوجد الإنسان على الأرض، إنه ولد مع ولادة أول قطرة ماء نزلت على سطح الأرض، وقد أشار الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا القانون وأوضح معالمه ودقائق أموره في قضية شقيقة يذكرها المؤرخون.

المهم هو أن هذا القانون، قانون الطفو يعد -بحق- نعمة كبيرة من نعم الله التي أنعم بها على عباده، حيث سخر لهم البحر فأصبح الإنسان يركب البحر كما يركب البر والجو.. وهذه كلها قائمة على نظام دقيق وقواعد أساسية مكنوزة في هذا الكون.

ومختصر الكلام: أن الطفو، هو قانون أودعه الله سبحانه في ثنايا الماء لكي يستطيع الإنسان أن ينتفع من البحر والأنهار والغدران.

والآن نحن نجد أنفسنا أمام قانون من قوانين الطبيعة نستطيع بواسطته أن نسير مراكبنا وسفننا في البحار والأنهار لتتقل متاعنا

وتجارتنا وتنقل الناس على ظهرها. والسؤال الآن هو: هل في إمكاننا الاستغناء عن هذا القانون -أي قانون الطفو في الماء؟.. هل في استطاعتنا أن نستغني عنه ونتركه لأنه أصبح قديماً عمره ملايين السنين؟ ثم هل يظن أحد منا أن مثل هذه القوانين الطبيعية يمكن أن تصير بالية قديمة.. أو يمكن أن تبلى وتتآكل وتصبح غير قادرة على خدمة الإنسان وكأنها دون فائدة؟

كلا وألف كلا. إن قوانين الكون لا تعتق، ولا تبلى ولا تتآكل ولا تتعفن أبداً كما أنها لا تشيخ ولا تهرم ولا يصيبها القدم ولا البلى وإنما تظل جديدة محافظة على جدتها وتوهجها وتألّقها، وكأنها تستمد جدتها وطرافتها من أشعة الشمس ونور القمر.

هذا بالنسبة لقانون الطفو.. والآن تعالوا معي لنلقي نظرة على القانون الثاني وهو قانون الجاذبية، وهذا القانون بدأ منذ بداية الخلق، وهو يحكم في العالم من بداية الكون إلى نهايته ولا يستطيع أحد أن يخالفه أو يستغني عنه لأنه هو القانون الوحيد الذي بواسطته تأخذ المجرات والكواكب والنجوم مواقعها في نظام دقيق لا يتغير مقدار شعرة واحدة.

على أن الإنسان منذ بدء الخليقة وإلى أن يودع آخر إنسان في الحياة، يظل -أي الإنسان- في حالة حذر وتيقظ من مغبة مخالفة هذا القانون.. مع فارق واحد وهو أن في الماضي حين يتسلق الإنسان جبلاً فإنه يكون في العادة في قمة الحذر وأخذ الحيطة، والانتباه وذلك حتى لا يقع لأنه لو أفلت قدمه فإن قانون الجاذبية سيجره إلى الأسفل بقوة ويدك عظامه في صخور الوادي. والشيء نفسه اليوم،

نجد الإنسان يحذر هذا القانون فهو حتى إذا كان في طائفة وهي تحلق به في أرفع الأجواء فإنه يبقى خائفاً من قانون الجاذبية خشية أن تهتز الطائفة وتفقد سيطرتها وحينئذ تهوي إلى مكان سحيق بفعل قوة الجاذبية التي تسحبها إلى الأرض بقوة عنيفة.

فالطيار إذاً: إذا أفلت منه زمام القيادة، وخرجت من يده ناصية الطائرة فإن قوة الجاذبية -كما قلنا- تسحبه إلى الأسفل، فإما أن تفرقه في البحر، أو تدفنه في التراب هو ومن معه حطاماً من فوقه حطام -نسأل الله العافية، وأن يحفظ كل مسافر ويرده إلى أهله سالمًا وغانماً بحق محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين-.

والعالم عرف هذا القانون وانتفع به، بعدما سقطت تفاحة على رأس نيوتن، العالم الفيزيائي الكبير الذي ما أن سقطت التفاحة على رأسه حتى راح يفكر في أمر سقوطها وأسباب اندفاعها نحوه، فهو بدل أن يأكلها، أخذها بيده يقلبها ويتساءل: ترى لماذا وقعت هذه التفاحة على الأرض، ولم تندفع إلى الفضاء؟

ولا شك أنه سؤال غريب لمن يسمعه أول مرة، لأن المفروض بالأشياء أن تسقط إلى الأرض وليس إلى السماء، ولكن حين يفكر المرء ويتأمل في الموضوع. يجد أن سؤال وجيه نابع من عقل خلاق، مواج بالفكر والإبداع، وكانت نتيجة هذا السؤال بعد تأمل وإعمال فكر، وتجارب متعددة أن توصل نيوتن إلى نظريته عن قوانین الجاذبية، وأعطى العالم قواعد أساسية سارت عليها فيما بعد كل نظريات علوم الفيزياء ومعادلات الفلك، وخصوصاً النظرية النسبية لأنشتين حيث جعلت من جاذبية نيوتن قاعدة أساسية للإنطلاق في هذا الكون العريض..



وطبعاً إنما أتكلم هنا عن منابع العلم الحديث التي وصلت إلينا، وأصبحت في متناول الجميع، ولست في معرض تقييم إيمان نيوتن أو كفرة ولا في معرض تقييم أو وزن عقيدة أنشتين مكتشف النظرية النسبية، وإنما كل ما في الأمر، هو أن نفتح عيوننا على العالم، وعلى منابع العلم فيه، فالإسلام عملاق عظيم، وعقليته جبارة، وروحه منطلقة وهو لا يضيق بأحد من الناس، بل أن الإسلام يأمرنا أن نطلب العلم حتى ولو في الصين، ويوم جاء هذا الحديث: «اطلبوا العلم ولو في الصين»، كانت الصين تشكل أبعد منطقة من الجزيرة العربية التي هي مهد الإسلام ومهبط الرسالة السماوية، والحديث يشير إلى أن العلم يجب أن يطلب، وتشد الرحال إليه حتى ولو كان في أقصى نقطة من العالم.. وعلينا أن نتذكر أن الحكمة ضالة المؤمن، وأن المؤمن يأخذ الحكمة ويأخذ العلم حتى ولو كان من فم كافر أو غيره.. إذ ليس في دنيا العلم مناطق شائكة، ولا حواجز مانعة، وإنما العلم كالهواء يتنفسه الخاص والعام، والحكمة كالشمس تطلع على الناس جميعاً، أو قل: إن العلم شأنه شأن المطر، ينزل على كل ألوان الأرض، ينزل على الأرض الخصبة الطيبة الخضراء، كما ينزل على الصخرية والصحراوية.. والماء هو الماء، ولكن الأرض تختلف، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً.

وانطلاقاً من هذه القاعدة، أو هذا المثال فإن العلم ينزل على قلوب الجميع، ولكن القلب الذي يخشع لذكر الله، ينمو فيه العلم ويصير نوراً، في حين أن القلب المليء بالظلام والقسوة، هذا القلب يموت فيه العلم، وإذا صدف ونما فيه علم فإنه يتحول إلى أداة لإبادة الإنسان وتدمير الناس، وليس إلى نفعهم وسعادتهم.



ومن هنا حدّد الإسلام هوية العلم المقبول عند الله، بأن يكون نافعاً ولا خير في علم لا ينفع -وقد ورد في الدعاء: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ودعاً لا يرفع..» وذلك أن القاعدة هي: كل شيء فيه نفع للناس يكون مقبولاً عند الله، وكل شيء فيه ضرر للناس يكون مرفوضاً ومحرمّاً عند الله.. والقرآن الكريم يقولها في صراحة ووضح: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (١).

على كل حال، فالموضوع إذاً، يجيء في قضية نقل النظريات العلمية من الآخرين الذي هم بعيدون عن الإسلام، وذلك لتأصيل قاعدة: «إن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حتى من فم الكافر».

وأما في الإسلام فمجالات هذه العلوم واسعة جداً، بحيث أفردت جامعة الإمام جعفر بن محمد الصادق -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- أفردت حقولاً كبيرة ومتنوعة في مجال علوم الفيزياء، والكيمياء والرياضيات والهندسة، والطب، والزراعة والصناعة، وأمثلة هذه العلوم، ولكن الذي يحزّ في النفس، ويعتصر القلب هو أن تكون هذه العلوم الإسلامية مطمورة تحت غطاءٍ كثيف من جهل المسلمين بتراثهم، وعدم انتباه الطبقة المثقفة الواعية إلى هذا التراث العظيم الذي سيّر العالم لأكثر من ألف وثلاثمائة عام، ونشر النور، نور العلم الحضارة في أرجاء المعمورة.

وأود هنا، وإن كان المقام لا يسمح بذكر الكثير من هذه الأرقام العلمية المغمورة في فكر أهل البيت، أود أن أذكر مقطعاً واحداً أو

(١) الرعد / ١٧.

قطعة واحدة علمية تحكي قصة تراثٍ عظيمٍ عملاق كان وما يزال وسيظل يطل على العالم أجمع بنوره وتألّقه وثقته المطلقة بنفسه.

وها أنا أقدم لكم قطعة ذهبية من دعاء الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام وكانت عاداته أن يضمّن الأدعية حقائق علمية لينشرها مع جو المحراب المليء بالخشوع والإصغاء إلى كلام الله سبحانه وتعالى.

يقول الإمام: «سبحانك اللهم تعلم وزن الشمس والقمر، سبحانك اللهم تعلم وزن الفيء والهواء، سبحانك اللهم تعلم وزن الظلمة والنور، سبحانك اللهم تعلم وزن الريح كم هي من مثقال ذرة.. سبحانك.. سبحانك..».

ونحن أمام عالم متبحر يتحدث عن وزن الأجرام السماوية، عن وزن الشمس والقمر، ثم يتحدث عن وزن الظل، والهواء، وهذه قواعد نقرأها في الفيزياء، تبين لنا بأن للظل وزناً وللهواء وزناً، والدليل على ذلك أن تأخذ بالوناً فارغاً من الهواء ثم تجعله في الميزان والقبان، وبعد ذلك املاه هواءً واجعله في الميزان ثانية فستجد أن للهواء وزناً..

ويقول الإمام: سبحانك اللهم تعلم وزن الظلمة والنور.. ونحن نعرف أن علوم الفيزياء أثبتت بأن للنور وزناً وأن الشمس تطرح في الثانية الواحدة ما معدّه له ملايين الأطنان من الأشعة.. ولكن لم يكن في الإمكان معرفة وزن الظلام، وما زال العلماء يبحثون في هذه المسألة، حتى أن أنشتين ونيوتن وعلماء الفيزياء والفلك أدهشتهم هذه النظرية، ولكن الإمام زين العابدين كان قد أشار إلى هذه الحقيقة في دعائه كما بيّنا.



وهنا لا بد من سؤال: هل استطعنا أن ننشر هذه العلوم التي جاء بها أهل البيت عليه السلام ونقلوها عن جدهم رسول الله ﷺ؟

وخلاصة القول هي أن قوانين الجاذبية التي جعلها الله تجري في هذا الكون العريض، إنما تعمل في انتظام، والإنسان ليس في إمكانه أن يعفي نفسه من التأمل بها، وهو ليس في وسعه أن يستغني عنها بأي شكل من الأشكال، لأنه مطوق بها، ولا مجال لديه للانفكاك منها أبداً.

وشيء آخر يجب أن يقال هنا: وهو أن قوانين الجاذبية وسُنن الطبيعة، إنما مثلها مثل الشمس التي تجري في قلب السماء لغاية ولهدف ولمستقر لها.. لا تعتق، ولا تتبدل ولا يعثرها البلى والقدم، ولا ينوشها التآكل أبداً.. إن هذه السنن لا تشيخ ولا تهرم ولا تضعف، ولا يصيبها الخرف لا من قريب ولا من بعيد وإنما هي جديدة دائماً، وقوية متدفقة على طول الوقت.. وبالتالي لا يستطيع الإنسان أن يستغني عنها أو يزهد بها.

وأما قانون الضوء، وسرعة النور، فالإنسان القديم لم يكن يدرك أن للضوء سرعة مذهشة تخترق الأستار والحجب في لحظات.. إلا أن هذا القانون سار في طريقه كما هو.. لأن وجوده وحجم سرعته لا علاقة لهما بالإنسان، أي بمعرفته والقانون يعمل في هذا الكون ليؤدي وظيفته ومهمته. وحين يكتشف الإنسان واحداً من هذه القوانين، أو أكثر، فإنه ينتفع به، ويرتقي بسببه إلى أرفع المستويات الحضارية، وعلى سبيل المثال قانون النور، وسرعة الضوء.. هذا القانون على الرغم من جهل الإنسان في الزمن الغابر بأهميته، فإنه استفاد بوجوده

وانتفع به بشكل محدود وقليل، وذلك أن الإنسان القديم لم يكن يعرف شيئاً عن سرعة الضوء، ولكن إنسان اليوم عرف حقيقة هذا القانون وتوصل إلى قياس سرعة الضوء، واستطاعت البشرية بفضل هذا التصور العلمي الهائل أن تستفيد من الضوء، وسرعته المدهشة، حتى صارت الكرة الأرضية كقرية واحدة، وأصبح العالم، بفضل سرعة الضوء، واكتشاف أديسون لهذه الطاقة، كأسرة واحدة، طبعاً من حيث التقارب المادي وليس التقارب المعنوي، لأن العلم المادي خالٍ من الرحيات وفارغ من الأخلاق ومتهاوٍ على عروضه من العمى، ولذلك بدا العالم وكأنه خرج من حدود الإنسانيّة إلى حد البهيمية، وما هذه الحروب وهذا التناحر والتقاتل والتقاطع والتدابير إلا دليل واضح على ما نقول، ودليل على أن العالم فقد صوابه وألغى عقله، وسار في طريق دامس مسدود وإن بدا مضيئاً بنور الطاقة وبسرعة الضوء، لأن الضوء في الأساس هو ضوء الأرواح وليس ضوء المدن. ولأن النور -في الواقع- هو نور القلوب لا نور البيوت، وإلا فما قيمة أن تكون البيوت مضاءة ومنورة، والقلوب مظلمة تعيش في ليل أسود حاقدة؟.. ما قيمة هذه؟ إن الإسلام الذي نشر العلوم بين شعوب الأرض، إنما نشر العلوم على أطباق الإيمان، وموائد الأخلاق. وبالمثل إن الإسلام الذي قدم هذا القانون قبل أكثر من ١٤٠٠ عام قدّمه للبشرية مصحوباً بنور الإيمان، ونور العدل والحرية حتى صار المؤمن عبارة عن صهرج نور، وكتلة نور، وإنه ينظر بنور الله سبحانه وتعالى.

وحتى لا تأخذك الدهشة من قلبي هذا -وهو أن الإسلام كان قد تحدث عن الضوء وسرعته، والنور والمسافات قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة،



أقول حتى لا تفغر فاك مأخوذاً بالدهشة، أسارع أمامك فأضع يدك وسمعك وقلبك على كلمة للإمام علي أمير المؤمنين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- وذلك حين رجوعه من صفين، وكان قد وقف على نهر الفرات الذي تتلاطم أمواجه على الشاطئ، وقف يضرب أمواج الماء بسوط كان في يده، ويقول لكميل بن زياد: يا كميل لو شئت لاتخذت لكم من هذا الماء نوراً يستضيء العالم به. وهي إشارة إلى الطاقة الكهربائية التي توصل إليها أديسون.

ونحن نعرف أن علياً عليه السلام حين يتحدث، فإنه إنما ينقل لنا علماً صادقاً أخذه من كنوز تحت العرش.. أخذه من بيت الوحي، من صدر رسول الله ﷺ وهو القائل: «علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف ألف باب».

وكان النبي ﷺ يقول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

وجاء في كلام علي مع أحد أصحابه وهو كميل يخاطبه فيه فيقول له: يا كميل إن ها هنا -وقد أشار إلى صدره- إن ها هنا علماً جماً لو أصبت له حمله.

إذاً: فالكلام كان قد جاء على لسان أكبر عبقري وأغنى عالم وأشجع بطل عرفته الإنسانية، جاء على لسان علي أمير المؤمنين الذي كان العلم يتفجر من جوانبه، وكانت الحكمة تتطق من نواحيه.. ومعنى ذلك أنه قد أشار إلى هذا الاكتشاف العظيم، اكتشاف الطاقة وتحويلها إلى نور، ثم إنه أشار إليها في أعز منابيحها، وأغرز ينابيعها وهو الماء.. فآله سبحانه وتعالى، قد جعل من الماء كل شيء حي، وجعل فيه طاقة جبارة لو أذن الله لها، لأحرقت العالم في لحظات. وذلك أن الماء يتألف



من عناصر موجودة فيه، ومكنونة في طياته وثناياه، وهي عبارة عن الأوكسجين والهيدروجين مع شحنة كهربائية تقوم بعملية أشبه باللقاح والتلقيح بين الموجتين السالبة والموجبة، على أن هذه العناصر إذا تفجرت وانفصل بعضها عن بعض فإنها تطلق ناراً مدمرة، مزمجرة لا تبقي أحداً فوق الأرض، ولا تذر نباتاً كان أو حيواناً أو إنساناً يعيش فوق التراب.

على أن الإنسان إنما يستفيد من هذه الطاقة وفق حاجته، وحسب ما تقتضيه طبيعة تلك الحاجة، وهي التي أشار إليها الإمام علي، بقوله: «لو شئت لاتخذت لكم من هذا الماء نوراً يستضيء العالم به».

وشيء آخر بقي لم نذكره، وهو أن القرآن الكريم كان قد ذكر هذه الحقيقة، حقيقة الطاقة المخزونة في البحار، والمكنونة في أمواجه وأعماقه.. ذكرها في أكثر من آية، فمثلاً في آية نجد القرآن يقول: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾^(١).

بينما في آية ثانية يقول: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾^(٢).

وحين يقول فجرت فإنه يشير إلى تفجير عناصر الماء أي انفصال الأوكسجين عن الهيدروجين.. بينما حين يقول سجرت فإنه يشير إلى المرحلة التي تلي مرحلة التفجير.. فما بعد التفجير إلا التسجير أي أن البحار تتحول إلى أتون لهب أو إلى كتلة عملاقة مشتعلة توزع النار على كل شيء حولها فتحوله إلى فحم ورماد وخراب. إنه حريق هائل يقبع تحت هذا الماء الذي يبدو بارداً ولذيذاً ومريحاً للإنسان!

(١) الانفطار / ٣.

(٢) التكوير / ٦.

هذا من ناحية اكتشاف الضوء، أما سرعة النور، فقد أشار إليها الإمام علي عليه السلام في حديث مفصل وشامل، ونحن ننقل هذا خلاصته في كلمة:

قال علي: «إن في هذه النجوم مدناً تشبه مدنكم في الأرض، وإن بين مدينة ومدينة عموداً من نور طوله خمسمائة عام».

وعندما يقول الإمام: بين مدينة وأخرى عمود نور طوله ٥٠٠ عام، فإنه يريد أن يضع أيدينا على سرعة الضوء، ويريد أن يكشف هذه الحقيقة للعالم أجمع.. لأن كلمة عمود من نور فيها إشارة واضحة إلى سرعة الضوء، وهذا يدل على أن أمير المؤمنين علياً -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- هو أول من كشف عن سرعة الضوء، وأول من قاس المسافات الكونية بسرعة الضوء قبل مجيء العلماء الآخرين وقبل نيوتن وانشتين وأديسون وأمثالهم من رجال الطاقة والفيزياء والفضاء.. لا بل أكثر من ذلك لقد وقف علي أمير المؤمنين على منبر الكوفة قبل ١٤٠٠ عام ينادي بالناس: «أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن طرق السموات أنا أعلم بها من طرق الأرض» غير أنهم لم يسألوه.

ولا عجب في ذلك أي في قوله «سلوني عن طرق السموات».. لأنه الإمام العالم الرشيد.. ثم أوليس هو أخ النبي -في المؤاخاة- وزوج الزهراء، وأبا السبطين الحسن والحسين -عليهما السلام-؟ وبعد كل هذا وذاك، أليس علي ربيب النبي ومن تربى في حجر رسول الله ناهيك عن علمه ورشده ووعيه وبطولته؟



ولا تتسَّ أن علياً نفس النبي بنص القرآن، وهو أخوه وتلميذه البار، وإذا عرفنا أن النبي هو أول من انطلق في رحلة الإسراء والمعراج حتى وصل إلى أعلى نقطة في هذا الكون الجبار. أقول: إذا عرفنا ذلك فلماذا نستغرب من قول علي: «سلوني عن طرق السموات، أنا أعلم بها من طرق الأرض»؟ وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد خصَّ علياً بهذه العلوم التي نزل بها من رحلة الإسراء والمعراج. ولمَ لا؟.. ألم يقل علي: «علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف ألف باب»؟ فهذا يعني أن هذه العلوم التي أخذها النبي في الآفاق وعند سدرة المنتهى، إنما أودعها في صدر علي، في مستودع العلم والحجى.

إذاً: فلا غرابة في قول علي: «سلوني عن طرق السموات فأنا أعلم بها من طرق الأرض» وهذه حقيقة لا جدال فيها ولا نقاش.

والآن وبعد هذه الجولة أرجع بكم إلى قانون سرعة الضوء، فأقول: إن إنسان الأمس لم يكن يعرف شيئاً عن سرعة الضوء على أنني إنما ذكرت لكم قول الإمام علي في الضوء وفي سرعة الضوء، وذلك لكي تعلموا أنني عندما أقول إنسان الأمس أو الإنسان القديم فإنني لا أعني به واحداً من الأنبياء ولا الأئمة المعصومين ولا علماءنا الماضين عليهم الرحمة أجمعين، وإنما أقصد بذلك فقط سواد الناس وعامتهم فأرجو أن يكون كلامي واضحاً، لكي يبدو البحث واضحاً ومفيداً، ونافعاً بإذن الله تعالى أقول: إن إنسان الأمس لم يكن يعرف شيئاً عن سرعة الضوء، ولا كيفية الانتفاع بهذه الطاقة التي غيّرت وجه العالم، وألبست الأرض حلةً جميلة بدت الأرض فيها وكأنها عروس تزف إلى ليلة العرس.. على أن وراء هذه الحلة الجميلة تكمن المأساة، ويتربص بالأرض ريب المنون ليبيد صفحة الدهر الخؤون.



يقول القرآن الكريم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ (١).

وفي كلمة ليل أو نهار يكمن سر عظيم، لأن الله سبحانه لا يتردد في شيء، فلا يقول الله إن الأمر يجيء في الليل أو في النهار لانتفاء العلم -أبداً- وإنما في هذه الكلمة يكمن سر عظيم، وتتكشف حقيقة علمية كانت غائبة عن الأذهان في العصور الغابرة والأمم الماضية، ألا وهي أن الأرض تكون على الدوام في الليل والنهار فالآن عندنا نهار وعند الآخرين ليل، لأن الأرض تظل دائماً، نصفها غارق في الظلام ونصفها الآخر يسبح في النهار وذلك وفقاً لحركتها حول الشمس فهي دائماً وأبداً تحمل الليل والنهار على ظهرها، في حالة مطاردة حثيثة وسباق لا يعرف الفشل ولا الملل.

فالليل يطارد النهار، والنهار يذوب في الليل.. ولو قدر لنا أن نقف على عتبة في الفضاء لنطل من خلالها على الأرض، لوجدنا الأرض يتنازعها الليل والنهار وهما في مطاردة حثيثة لا تكل ولا تمل.

وقد صور القرآن هذه الحقيقة قبل أن يتمكن الإنسان من غزو الفضاء والصعود إلى الجو والذهاب إلى القمر ليرى في طريقه معركة الليل والنهار فوق سطح الكرة الأرضية.. أقول: لقد صور القرآن هذه الحقيقة في كلمات تتضح بالعلم، وتموج بالأدب والفكر والمعرفة على رغم قلتها واختصارها، يقول القرآن الكريم مشيراً إلى هذه الحقيقة

(١) يونس/ ٢٤.



العلمية التي كانت مطمورة ردىاً من الوقت: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ (١).

لاحظوا الدقة في الأداء وفي التعبير، أو في الأسلوب، وفي المضمون، يقول: يطلبه حثيثاً، ويطلبه حثيثاً تشير إلى الليل حين يطلب النهار، وتشير إلى النهار حين ينطفئ في الليل: ﴿وَأَيُّ لَّهِمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ﴾.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢).

إلى آخر الآيات الواردة في هذا المجال، والتي قرأت عليكم هنا من سورة يس بتقديم وتأخير مراعاة لموضوع الكتابة، وللبحث الذي يجري القلم في سواقيه، ومياهه.

أجل لقد استطاع إنسان اليوم أن يجعل الأرض قرية واحدة، ويجعل العالم كله يعيش في أسرة واحدة بفضل سرعة الضوء، واكتشاف الطاقة الكهربائية التي قلبت كل موازين الحياة، وصار الإنسان يقطع مسافات واسعة في لحظات قصار بصوته عبر الهاتف، ويسمع من في

(١) الأعراف / ٥٤.

(٢) يس / ٣٨-٤٤.

المشرق من في المغرب بواسطة الراديو والمذياع حتى أصبحت الأرض - بحق- كقرية واحدة يتحدث أبنائها بلغات شتى ولكن يسمع بعضهم بعضاً.

وبفضل هذا الاكتشاف أيضاً صارت الأخبار تنتقل من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق بأقل من طرفة عين وبأسرع من لمح البصر بحيث لم يعد هناك فاصل ولا جدار يفصل بين أقوال الناس ولا أفكارهم، ففي إمكان من يحمل فكراً وقولاً أن يتحدث مع شعوب الأرض كافة في وقت واحد، وساعة واحدة.

والآن وبعد هذه الجولة، نصل إلى حقيقة بالغة الأهمية وهي أن الإنسان الذي اكتشف هذا القانون -قانون سرعة الضوء- والطاقة- هذا الإنسان بقي متجمداً أمام عظمة هذه السنة الكونية فهو ليس في إمكانه أن يتصرف أي تصرف في هذا القانون. فهو -مثلاً- لا يستطيع أن يزيد من سرعة الضوء كما أنه ليس في مقدوره أن ينقص من تلك السرعة.. إضافة إلى أن الإنسان لا يتمكن أن يتحدى الطاقة التي يحملها الضوء فيتمرد عليها أبداً. وهل يستطيع الواحد منا أن يضع يده على سلك الطاقة دون أن تضربه وتضعقه طبعاً لا.. لأن الإنسان الذي يستطيع أن يسخر هذه الطاقة ويتمكن أن ينتفع بهذا القانون في خدمته، فإنه في الوقت ذاته لا يستطيع الخروج على هذا القانون قانون سرعة الضوء، وإنما عقله يرشده ويهديه لأن يكون صديقاً وقياداً لهذا القانون وذلك حتى يتم الانتفاع منه على أحسن وجه وأكمل طريق.

إذاً: فالإنسان يقف أمام قانون سرعة الضوء، موقفاً إيجابياً وليس



سلبياً، أي أنه يقف موقف الانتفاع منه وليس تغييره، لأن البشرية مهما تقدمت في التطور التكنولوجي فإنها لا تستطيع أن تغير ولا تبدل شيئاً في قوانين الله الكونية، كما أنه ليس في وسع البشرية أن تتكرر لهذه القوانين وتجعلها وراء ظهرها بحجة أنها قوانين قديمة بالية وأن الطاقة موجودة في الكون منذ ملايين ملايين السنين ونحن إنما نبحث عن شيء جديد!.

لا يستطيع أحد أن يتوهم هذا الوهم.. ولا يستطيع أحد أن يستغني عن الطاقة الكهربائية بحجة أنها قديمة.. أبداً.. وذلك لسبب بسيط وهو أن هذه الطاقة المتمثلة في النور وفي سرعة الضوء لا يمكن أن تبلى ولا تتآكل أبداً.

لا يمكن أن تشيخ فتصبح عجوزاً لا فائدة منها، بل هي التي تمدنا بالشباب والطاقة والنشاط والحيوية، وعلى هذا الأساس فنحن نحتاجها أبداً ما دامت السموات والأرض، وما دام الإنسان يمشي فوق سطح البسيطة.

بالإضافة إلى ذلك فهناك قانون اسمه: الفعل وردُّ الفعل Action and Reaction والقانون يقول: «لكل فعل ردُّ فعل يساويه في القوة، ويخالفه في الاتجاه» وتبعاً لهذا القانون فإن كثيراً من أمورنا في الحياة تمشي بشكل مستقيم، ولولا هذا القانون لما استطاعت البشرية أن تخطو خطوة واحدة نحو التقدم والعلم والازدهار.

على أن قانون الفعل ورد الفعل يجري في كل حقول الحياة، وليس فقط في مجال الكيمياء والفيزياء والفضاء.



أبداً، وإنما هو قانون يدخل كل جوانب الحياة. فحتى في مسائل التربية وقضايا الأخلاق وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والاقتصاد والسياسة وكثير من العلوم البشرية نجد أن قانون الفعل وردّ الفعل يمشي فيها بهيئته ونوره دون أن يتخلف عن أي مجال من مجالات تلکم العلوم.. ولمن أراد التأكد من كلامي فما عليه إلا أن يقرأ في العلوم المتقدمة قراءة واعية ليجد أن قانون الفعل ورد الفعل موجود حتى في التاريخ، وفي عوامل التاريخ، وفي ضعف الأمم وفي انحطاطها، كما يوجد في قوة الأمم وفي تماسك الشعوب.

وسيمر علينا في خلال البحوث القادمة أمثلة وشواهد تدل على هذا المعنى ليس مكانها هنا.

ولا بأس هنا من ذكر ملاحظة: وهي أنه إذا كان اكتشاف هذه العلوم المادية وهذه السنن الكونية، وقد أعطى للبشرية جزءاً من سعادتها فما بالكم بالعلوم التشريعية الفكرية لو أنها طبقت على الناس فكيف تكون حالهم، عند ذاك وكيف ستكون سعادتهم؟!

وقد نوّه القرآن الكريم ونبه لهذه الحقيقة بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١).

وأما قانون الموت والحياة، فإنه قانون يثير دفائن العقول، ويحرك مشاعر النفس.. فموضوع الحياة يظل سرّاً مدهشاً، ولغزاً محيراً، يقف أمامه العلماء في خشوع وإجلال وخضوع.

(١) الأعراف/٩٦.



وحتى نعرف عن أي شيء نتكلم يكفي أن نذكر الحقائق التالية:

أولاً: إن العلم الحديث الذي تقدم، وقفز قفزات رائعة وعريضة في شتى المجالات، لم يتمكن ولن يستطيع أن يصنع قطرة دم واحدة.. وذلك لأن قطرة الدم فيها حياة والعلم الحديث يقف وقفة الأعمى أمام سر الحياة ولغزها المحير.

صحيح أن العلم استطاع أن يصنع جناح طائرة، وصحيح أن العلماء تمكنوا أن يطلقوا السفن الفضائية إلى المريخ والزهرة، ولكنهم عاجزون عن صناعة جزء بسيط من أجزاء الحياة.. إنهم عاجزون عن صنع جناح بعوضة أو جناح ذبابة، لأن الفرق بين جناح الطائرة وجناح الذبابة هو أن جناح الطائرة جسم صلب لا روح فيه ولا حياة، في حين أن جناح الذبابة فيه سر وحياة وإرادة. وفي هذا المضممار يقول الإمام علي عليه السلام:

وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا، وَكَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ أَسْنَآخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا، عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَرْتَ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفْتَ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِيْجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرْتَ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَتَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقَرَّةٌ بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْتَائِهَا! (من خطبة له في نهج البلاغة ص ٢٧٥ - طبعة بيروت صبحي الصالح، رقم الخطبة ١٨٦ في التوحيد).



وفي خطبة أخرى من نهج البلاغة رقم ١٨٥ يقول فيها أمير المؤمنين علي -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - :

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النُّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ،
وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ عَلِيلَةٌ، وَالْأَبْصَارَ مَدْخُولَةٌ!
أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ اللَّهُ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَآتَقَنَ تَرْكِيبَهُ،
وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشْرَ.

انظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَا تَكَادُ تُنَالُ
بِلِحْظِ الْبَصَرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكْرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصَبَّتْ عَلَى
رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وَتَعْدُهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا
لِيَرْدِهَا، وَفِي وَرُودِهَا لِصَدْرِهَا، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا، لَا يُغْضِلُهَا
الْمُنَانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدِّيَانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ!
وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، وَفِي عُلُوقِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ
شَرَّاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا
عَجَبًا، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعْبًا! فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا،
وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرِكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعْنَهُ عَلَى
خَلْقِهَا قَادِرٌ.

وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى
أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النُّخْلَةِ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ
اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ، وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ
وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءً.

ثم يستمر سلام الله عليه في تبيان هذه الحقائق وتوضيح تلکم
المشاهد فيقول:

وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَّاحُ وَالْمَاءُ. فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ،
وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ
هَذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ، وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ،
وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ. فَالْوَيْلُ لِمَنْ جَحَدَ الْمُقَدَّرَ، وَأَنْكَرَ الْمُدَبِّرَ!

زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لاختِلَافِ صُورِهِمْ صَانِعٌ، وَلَمْ
يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ
غَيْرِ بَنٍ، أَوْ جَنَایَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ؟

ثم يواصل حديثه في هذا المجال فيقول:

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجُرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا
حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ،
وَجَعَلَ لَهَا الْحَسَّ الْقَوِيَّ، وَنَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ،
يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا، وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى
تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وَتَقْضِي مِنْهُ شَهَوَاتِهَا، وَخَلَقَهَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ إِصْبَعًا
مُسْتَدَقَّةً.

فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي (يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا)، وَيُعْزِرُ لَهُ خَدًّا وَوَجْهًا، وَيُلْقِي بِالطَّاعَةِ إِلَيْهِ سِلْمًا وَضَعْفًا،
وَيُعْطِي الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفًا! فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِامْرِئِهِ، أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ
مِنْهَا وَالنَّفْسَ، وَأَرَسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى وَالْيَبَسِ، قَدَرًا أَقْوَاتَهَا،
وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا، فَهَذَا غُرَابٌ وَهَذَا عُقَابٌ، وَهَذَا حَمَامٌ وَهَذَا نَعَامٌ، دَعَا

كُلُّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ. وَأَنْشَأَ (السَّحَابَ الثُّقَالَ)، فَأَهْطَلَ دِيمَهَا، وَعَدَّدَ قِسْمَهَا، فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه..؟

وإذا أردنا أن نستقصي الأرقام العلمية في هذا المجال، الذي ذكره الإمام علي عليه السلام ونشرح كلماته بشيء من التفصيل، لطال بنا الوقت وخرج بنا البحث عن هدفه وغايته لأن غاية البحث هي الإشارة إلى تلك الأرقام وليس ذكرها، وإنما سيجيء محلها فنذكرها بشيء من التفصيل وشيء من التركيز بشكل أكبر وأكثر حسب ما يستدعيه البحث وما يقتضيه الوقت إن شاء الله تعالى.

الحضارة وقانون الحياة والموت

قانون الحياة والموت هو قانون موجود في كتاب التكوين أي في الطبيعة، وليس في مقدور أحد أن يغير أو يبدل شيئاً في هذا القانون. فإله سبحانه وتعالى يقدر أن يخلق من الطين والماء بشراً سوياً يتمتع بطاقات فكرية هائلة إلى جانب طاقاته البدنية المدهشة. يقول الحق سبحانه: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ (١).

إذاً: فإن الله يخلق من المواد الميتة بشراً سوياً، وإنساناً خلقه في أحسن تقويم، وأجمل هندام، فجعله «إنساناً ذا أذهان يجيها، وفكر يتصرف بها، وجوارح يخدمها، وأدوات يقلبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل، والأذواق والمشام، والألوان والأجناس، معجوناً - أي أن الله جعل الإنسان معجوناً - بطينة الألوان المختلفة، والأشباه المؤتلفة والأضداد المتعادية، والأخلاط المتباينة من الحر والبرد، والبله والجمود...» إلى آخر كلمة الإمام علي عليه السلام في هذا المضمار.

لا شك أنها كلمة تموج بالفكر والفلسفة وهي تحتاج إلى وقفة تأمل وتفكر فيها، ونحن نرجى هذه الوقفة إلى محلها كما قلنا سلفاً لأننا لسنا في صدد التفسير والتفصيل هنا، وإنما نحن في صدد استعراض سريع لهذه الحقائق العلمية المدهشة التي تثير الدهشة وتبهر العقول. وذلك لنزداد علماً وإيماناً و يقيناً بديننا وعقيدتنا.

(١) ص / ٧١.



إذاً: فالله سبحانه يستطيع أن يخلق من المواد الميتة، من التراب الذي لا طاقة فيه ولا حياة يستطيع أن يخلق منه بشراً سوياً ويجعله في الأرض يعمرها إلى وقت محدود وعمر معلوم ثم يموت فيرده الله إلى التراب جسداً وليس إنساناً لأن الإنسان لا يعترية الفناء ولا يموت وإنما الذي يقع عليه الموت هو الجسد فقط أي أنه ينفصل عن جسد التراب المادي، ليرتدي جسده البرزخي والذي يستمر فيه إلى يوم يبعثون، وإلى يوم الوقت المعلوم.

فالإنسان إذاً يموت كجسد وليس كإنسان، لأن الذي يقع ويعود إلى التراب هو الجسد لا صاحب الجسد، أما صاحب الجسد وهو الإنسان فإنه يذهب بعد موته إلى عالم البرزخ وعالم البرزخ لا ينفصل عن قبره لحظة واحدة، غاية ما في الأمر أنه -أي الميت- يعيش في قبر تختلف قوانينه عن هذا القبر الذي نراه أمامنا علماً بأننا لا نرى من القبر إلا التراب والحجر، في حين أن أمامنا في القبر ذاته قوانيناً وسناً وعالماً آخر يعجُّ بالملائكة وبالأولياء والصالحين إذا كان الميت صالحاً، أما إذا كان صاحب القبر شريراً فإن قبره هذا الذي نراه أمامنا ساكناً لا يعكسه شيء، أقول: فإن قبره هذا يتفجر عذاباً ويشتعل ناراً أحاط بهم سرادقها، ولكننا لا نحس بها لأن هناك قوانين برزخية تفصل بيننا وبين أهل القبور.. وفي كلمة جامعة نستطيع أن نقول: إن هذا القبر المليء بالأحجار والتراب -هكذا نراه- إنما يحتفظ بالجسد في ترابه إلى يوم القيامة، حتى ولو تفتت الجسد، وتاكلت أجزاؤه وبليت أطرافه، فإنه سوف يرجع ويعود إلى حالته السابقة حين ينفخ إسرافيل في الصور وحين يأذن الله سبحانه بذلك وحين تقع الواقعة، وتأزف الآزفة



وتتطلق القارعة تقرر القلوب والأسماع لاستقبال هذا الحدث العظيم
الرهيب الذي يفقد فيه كل إنسان توازنه من شدة الهولة، وهول المطلع.
أقول: وعندئذ فإن أجزاء الجسد سوف تتجمع من جديد ويقوم
الإنسان ينفذ التراب عن كاهله وهو يتساءل: كم لبثنا يوماً أو بعض
يوم.

وهنا أود أن أسارع إلى القول بأنه لا ينبغي لمن يقرأ هذه الصفحات
أن يصاب بدوار في رأسه وذلك لأننا قلنا: إن الإنسان حين يموت
يرتدي بدن البرزخ وثوب العالم الآخر ويعيش إلى يوم القيامة، وفي
الوقت ذاته قلنا: إن الإنسان سوف يقوم من قبره ينفذ التراب عن
كاهله ساعة ينفخ الملائكة أو إسرافيل في الصور.

أقول: ينبغي ألا تدوخ من هذا الشيء الذي يبدو متناقضاً ويضرب
بعضه بعضاً كما تراه أمامك، ولكنها الحقيقة والواقع ولاكتشاف هذه
الحقيقة فإننا -أنا وأنت- نحتاج إلى تقديم دراسة أعمق وأوضح
وأوسع حول هذا الموضوع، وما أظن أن مكانها هنا وإنما لا بد لها من
مجال آخر يجيء في أحد فصول هذا الكتاب الذي نعيش في ظلاله
هذه الأيام.

والمهم في الأمر أن موضوع الحياة ومنح الحياة، يظل سراً غامضاً أو
سراً عظيماً في هذا الكون لا يعرفه إلا الله، وإلا فليس في إمكان أحد
منا أن يبعث الحياة حتى في خلية أو نملة أو ذبابة، ولا حتى في جناح
ذبابة أو بعوضة، كما مر سابقاً.

إنه هو وحده الذي ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾^(١).

وشيء آخر لا بد من ذكره وإدراجه هنا، وهو أن الحضارة المادية اليوم، ليس فقط لا تستطيع أن تخلق جناح ذبابة، بل وأيضاً لا تستطيع أن تفهم معنى الحياة ومن أين تتكون وكيف تتألف أجزاء الحياة وتدب حرارتها في الخلية وفي البيضة وفي ورقة الشجر وجناح الفراشة، وقلب الجنين في بطن أمه.

والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر قسماً وشطراً منها: فبالمثل: استطاع الإنسان اليوم -وبواسطة الأجهزة التكنولوجية والتطور العلمي المتقدم، استطاع أن يأخذ البيضة ويجعلها تحت درجة حرارة معينة لإخراج الفرخ، وهنا أود أن ألفت نظر القارئ الفطن إلى أنه حتى هذه المسألة لم يتمكن الإنسان أن يهرب بها من سنن الكون ويخرج على قوانين الله.. إن أخذ البيضة إنما يتم وفقاً لقوانين الله لا يختلف عنها بمقدار شعرة واحدة على الإطلاق.

أعود إلى أصل الموضوع فأقول: إن الإنسان استطاع اليوم حسب مناهج الله في خلقه، ووفقاً لقوانين الله في الحياة، استطاع أن يأخذ البيضة ويجعلها تحت درجة حرارة تعادل درجة حرارة بدن الدجاجة، لكي يتم تفقيس البيض في مصانع ومعاهد كانت قد أعدت لهذا الغرض. بمعنى أن الحضارة أخذت نفس حرارة بدن الدجاجة وأعطتها للبيضة التي هي أيضاً إنما صنعت في بطن الدجاجة وليس خارج

(١) الروم/ ١٩.

بطنها، فالحرارة -إذاً- إنما أخذت من درجة حرارة بدن الدجاجة، ثم أعطيت ونقلت إلى جهاز قام مقام الدجاجة في عملية التفقيس هذه، فأدت إلى أن فقس البيض وخرجت الكتاكيت تركض وراء الحب والطعام.

على أن الشيء الذي ينبغي الالتفات إليه والتوجه نحوه، هو أن البشرية ليس في إمكانها أن تصنع حتى ولا بيضة واحدة، ثم إن البشرية لا تقدر أن تقوم بصناعة نطفة أو ذرة تحمل بين جوانحها حياة ثم توضع في البيضة. أبدأً لا يمكن أن يحدث شيء من هذا القبيل على الإطلاق. وإنما كل ما في الأمر أنهم أخذوا البيض الموجود، وجعلوه تحت أجهزة الكترونية متقدمة تقوم بوظيفة الدجاجة في إعداد الجو المناسب للتفقيس وليس بتوليد وإنتاج البيض.

نحن إذاً أمام قانون طبيعي ليس في وسع الإنسان أن يغير أو يبدل فيه شيئاً على الإطلاق. على أن أي تغيير يدخل في هذا القانون - قانون إنتاج البيض وتفقيسه- إنما يؤدي إلى تعطيله وإلغائه بالكامل. هذا المثال الأول.

التلقيح الاصطناعي وتأجير الأرحام

وأنقل لكم مثلاً ثانياً طالما دغدغ النفوس، وأيقظ عفريت الشيطان في الصدور.. وهو قانون التلقيح الاصطناعي، أو ما نطلق عليه اسم: طفل الأنابيب.

وحتى نعرف حقيقة التلقيح الاصطناعي أو قضية طفل الأنابيب التي أثارت الهواجس في النفوس الضعيفة، وما زالت، أقول: لكي نعرف حقيقة هذا الاكتشاف العلمي الجديد، فإنه لا بدّ لنا من طرح صورة توضح الموضوع بكل أبعاده، حتى يعرفه القاصي والداني، والخاص والعام، وحينئذ نستطيع أن نقول إن مسألة طفل الأنابيب كذا وكذا، وإن الأمر الذي يريده الإسلام في مقابل هذا الاكتشاف كيت وكيت. أما الآن فلا يمكن أن نتحدث عن النتيجة من دون هذه المقدمة التي أضعها بين أيديكم من أجل أن نستوعب قضية طفل الأنابيب هذه. وحتى لا تتطلي علينا الدعايات والإشاعات المغرضة التي تنشرها أبواق الدعاية الغربية ووسائل الإعلام البعيدة عن الإسلام والمسلمين والتي لا تريد من وراء ذلك إلا ضعضة إيمان المسلمين، وهزّ عقيدتهم عن طريق الإيحاء بأنه أصبح في الإمكان خلق الإنسان عن طريق العلم وليس عن طريق الله تعالى، حتى لا تتطلي علينا هذه الدعايات المغرضة دعونا نسمع قصة طفل الأنابيب كما هي، أو لندعها هي تحدثنا عن نفسها ثم نكشف القناع عنها لنراها على حقيقتها ثم بعد ذلك نحكم بما علمنا.

«طفل الأنابيب ليس هو طفل أنبوية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولكن يحدث أن تتغلق قناة فالوب التي هي عبارة عن أنبوب تدخل فيه الحيامى المنوية أو قل: تسير فيه النطفة قاصدة البويضة في داخل الرحم. إذاً: فلكي يتكون الجنين، أو بالأصح لكي تتشأ النطفة وتتعد داخل الرحم فتكون صالحة، لا بد من توفر شروط ثلاثة هي:

أولاً: سلامة قناة فالوب التي تجري فيها النطفة وتأخذ طريقها إلى الرحم.

ثانياً: لا بد من وجود حيوان منوي صالح وسالم.

وثالثاً: لا بد من وجود بويضة من الأم صالحة وسالمة، وبهذه الشروط الثلاثة تتعد النطفة، فإذا سقط شرط واحد فإنه لا يعود في الإمكان انعقاد نطفة داخل الرحم. فلو فرضنا أن الحيوان المنوي ضعيف وغير سليم وليس في وسعه أن يقوم باللقاء والتلقيح مع البويضة فإنه هنا لا يمكن للنطفة أن تشق طريقها داخل الرحم لتتشأ إنساناً كاملاً سوياً - ونفس الشيء يقال بالنسبة إلى انعدام البويضة وفقدانها فإنه حينئذ لا تتشأ نطفة ولا تتعد خلية داخل الرحم.. يضاف إلى ذلك أن القناة، قناة فالوب يجب أن تكون سليمة وصافية ليس فيها انسداد ولا غبار ولا ظلام، وهذه إشارات يعرفها علماء الأجنة، وجاءت مفصلة في علم الأجنة وفي علم بايولوجية الجسم. فلكي يتم اللقاء واللقاح بين نطفة الرجل ونطفة المرأة، أو بين الحيوان المنوي المنطلق من الرجل والبويضة الطالعة من الرحم، لكي يتم اللقاء بين هذا وتلك، فإنه لا بد من أن تكون الطريق التي يقطعها الحيوان المنوي سالكة وغير مسدودة، وفي قصة طفل الأنابيب يحدث

أن تتغلق الطريق، أو يكون الطريق مسدوداً، وهنا يجد الحيوان المنوي نفسه يسير في طريق مسدود، فيرتد راجعاً وقبل أن يبلغ نقطة البدء يعتريه الفناء فيسقط ميتاً.

وفي طفل الأنابيب، يأتي الأطباء بأنبوبة تقوم مقام قناة فالوب ويتم فيها التلقيح.

إذاً: فطفل الأنابيب ليس أكثر من أخذ البويضة من المرأة، وأخذ الحيوان المنوي من الرجل ثم جعلها في وعاء معاً لفترة ثلاثة أو أربعة أيام حتى يتم التلقيح، وبعدها تؤخذ النطفة الملقحة وتوضع داخل الرحم -رحم الأم- لتبدأ عملها.

وهناك ملاحظات حول هذا الموضوع:

أولاً: إن هذه العملية تعد اكتشافاً علمياً رائعاً، بحيث أمكن بواسطته تلقيح البويضة مع المني في قناة فالوب.

ثانياً: إن حقيقة تكامل النطفة وتدرج الجنين في مراحلها التي يتخلق بها، إنما يحصل في داخل الرحم وليس في الأنبوبة المذكورة، وهذه حقيقة يجب الانتباه إليها، والالتفات نحوها إذ إن تمام فترة بقاء النطفة في الأنبوب لا تتعدى الأربعة أيام فقط وبعدها تنقل إلى رحم الأم الذي أطلق الحق عليه اسم القرار المكين.

ثالثاً: إن المسألة كلها لا تخرج عن إرادة الله بحال من الأحوال، فنطفة الرجل والمرأة إنما هما من خلق الله وليس من خلق الإنسان وذلك أن النطفة تعتبر الخلية أو أن انعقاد النطفة يشكل الخلية الأولى في خلق الإنسان. وهذه الخلية أخذها الأطباء وهي حية وليست ميتة..

وعلى هذا، فالعلم الحديث لم يتمكن أن يحيي خلية ميتة، ولا يستطيع أن يبعث الحياة في جسم ميت أبداً وإنما كل ما في الأمر هو أن النطفة التي تشكلت من مني الرجل ومن بويضة المرأة، إنما هي بالتالي من خلق الله العزيز العليم.

رابعاً: وانطلاقاً من هذا المنحى فإن هذا الاكتشاف يجب أن يعمق الإيمان بالنفوس، لا أن يهزّ العقيدة، ويطفئ نور الإيمان كما يريد الإعلام الكافر أن يفعل فبدل أن يقربهم إلى الله سبحانه، أبعدهم عنه، وأحدث ضجة إعلامية كبرى، استغلها الملحدون وأعداء الدين، حتى قرأت يوماً في الصحف عنواناً يقول: «والآن توصلنا إلى أن نخلق إنساناً عن طريق طفل الأنابيب دون الحاجة إلى الرجوع إلى الدين وإلى الله!!».

هذا العنوان قرأته في مجلة عربية تصدر من بلد عربي مسلم تزدحم فيه المساجد والمآذن! وكأن هذه القضية صارت أشبه بقصة التشريح، تشريح جسم الضفدعة والذي أظهر أنه يشبه إلى حد بعيد، تشريح جسم الإنسان، ولا شك أنه إنجاز علمي رائع، ولكنه بدل أن يقربهم إلى الله لأنه يدل على وحدة الخالق سبحانه، تراه أبعدهم عن الله واستدلوا بهذا التقارب في التشريح بين دولاب جسم الضفدعة، ودولاب جسم الإنسان.

أقول: اتخذوا منه دليلاً يدل على أن الإنسان كان أصله حيواناً وأنه ترقى في سلالة الحيوانات حتى مر بطريقه في الضفدعة وبقية الحيوانات ثم وصل إلى القرد، ومن القرد انحدر الإنسان وصار إنساناً كما يقول أتباع نظرية دارون واليهود في العالم، علماً أن نظرية دارون

قد تعثرت علمياً وسقطت في كل المحافل أو في أغلبها، فهذا هي الولايات المتحدة الأمريكية قد رفضت تدريس نظرية دارون في جامعاتها لأنها نظرية لا تقف أمام الأرقام العلمية، ولا تصمد أمام براهين العلم. ونحن أردنا هنا أن نبين اعتناق اليهود لهذه النظرية البهيمية وتركيزهم عليها وهي التي يسمونها نظرية دارون، أو نظرية النشوء والارتقاء والتي لا تقوم على أساس من الصحة، وإنما هي مجرد خريشات في خريشات وصاحبها يخطب خطب عشواء في ليل دامس.

والسؤال الآن هو: ماذا صنع الذين هم من دون الله؟ وهل استطاعت الحضارة أن تصنع جناح بعوضة أو تصنع قطرة دم واحدة؟

كلا وألف كلا.. وإلا لما رأينا بنوك الدم تنتشر في الأرض طالبة النجدة والإسعافات الأولية من الناس تهيب بهم أن يتبرعوا بدمائهم لإسعاف إخوانهم من بني الإنسان الذين يتعرضون دوماً للجراح الخطيرة نتيجة اضطراب العالم، واندلاع الفتن التي تلف الناس كقطع الليل المظلم.

وبعد كل هذا، هل سمعتم ماذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ (١).

وهكذا في كل يوم تسمعون الكفرة وهم يتحدثون عن صرعة جديدة وآخر صرعة سمعناها هي صرعة تأجير الأرحام، ولا شك أنها كسابقتها، إذ يحدث أن تكون المرأة في حالة من العقم والرجل ليس

(١) لقمان/ ١١.

لديه قدرة على الإنجاب وهما: أي الزوج والزوجة يتوقان إلى رؤية طفل صغير يدرج أمامهما في البيت، فيلجآن إلى أحد المكاتب المنتشرة في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوروبا وبعض الدول الإفريقية، وهي مكاتب تعنى بتأجير الأرحام -أرحام النساء- لمن له رغبة في الإنجاب ولكنه لا يملك القوة ولا يتمتع بالطاقة التي تجعله قادراً على أن يكون أباً طبيعياً، وعندئذٍ -كما قلت- يلجأ الرجل والمرأة إلى أحد هذه المكاتب باحثين عن فتاة تقوم بتأجير رحمها لمدة تسعة أشهر -وهي مدة الحمل الطبيعي-.

وهذه الصرعة، كما تلاحظون، تثير العجب، إذ أنها قد انتشرت في الغرب انتشاراً يوازي انتشار مكاتب تأجير الخدم في البيوت! لا تستغرب ذلك أبداً، ودعني أنقل لك هذا الخبر لتقرأه بنفسك أنت حيث التقطته لك من بعض وسائل الإعلام العالمية، وإليكم الخبر الذي يدل في مجمله على انصراف الناس عن طفل الأنابيب ورجوعهم إلى دنيا الأرحام ولكن هذه المرة عن طريق آخر وليس عن طريق الزواج. أنشر الخبر تحت هذا العنوان: وكالات تأجير الأرحام الأمريكية.

واحدة من هذه الوكالات، قامت بتأجير رحم جنيثرا المرأة المطلقة، من أجل الحمل لحساب رجل وزوجته لأنهما لا ينجبان. وبالفعل وضعت توأمين وسلمتهما للرجل وزوجته، مقابل عشرة آلاف دولار تتقاضاها من أصل ٢٥ ألف دولار هو المبلغ المقرر أخذه من الزوجين، للوكالة طبعاً، وليس (لجنيثرا) المرأة التي أجرت رحمها للإنجاب!.

وهذه تقليعة جديدة تجتاح العالم اليوم، انطلقت من أمريكا، لتنتشر فيما بعد في أفريقيا، وأستراليا وغيرها من القارات في العالم. وهذا

الخبر نشرته الصحف في حينه، بل بين الحين والحين، صارت الصحف تتحدث عن مثل هذه الأخبار، وقد نقلت لكم هذا الخبر - والكلام لي أنا كاتب هذه الكلمات- من جريدة الشرق الأوسط الصادرة في ١٥ ربيع الأول سنة ١٤٠٨ هجرية الموافق ١٦/١١/١٩٨٧ في عددها رقم (٣٢٦٥) وقد حولت هذا الخبر إلى سؤال علمي طرحته على مجموعة من العلماء الفقهاء فكان ردّهم مفصلاً لا نستطيع كتابته كاملاً لأنه يحتاج إلى وقت أكثر وملخصه أن الأطفال يعودون إلى الأم الأصل أي صاحبة النطفة وليس إلى المرأة التي أعطت رحمها بالإيجار. على أن كافة القضايا النفسية والروحية والإرثية تترتب على أساس أن الطفل يرجع إلى أبويه اللذين أودعا نطفتهما في رحم امرأة أجنبية.. وللفقهاء آراء في هذا المجال، فبعضهم يرى أن مجرد إيداع النطفة، نطفة الرجل في رحم لا تحل له يعد تجاوزاً وحراماً، وبعضهم يرى أن على الرجل أن يجري عقداً شرعياً بينه وبين المرأة التي تريد تأجير رحمها.. وليت شعري أليست عملية التأجير هي عقد من العقود؟

المهم أن الموضوع يحتاج إلى شيء من التأمل والرجوع إلى العلماء الفقهاء لإبداء رأي الإسلام الأخير في هذا المجال.

أصول واضحة

ولكي يبدو الأمر واضحاً، أرجع بكم إلى أصل البحث، فأقول إن الإنسان استطاع اليوم وفقاً لقوانين الله سبحانه وتعالى، أن يأخذ البيضة ويجعلها تحت جهاز يحمل نفس حرارة بدن الدجاجة بحيث تتمكن البيضة أن تفقس وتنتقل الكتاكيت من بطونها. وهذا كله صحيح ولذيذ وجميل، ولكن الصحيح أيضاً هو أنه ليس في إمكان البشرية أن تصنع بيضة أو خلية، لا بل ليس في إمكان أحد أن يعيد حياة فارقت خلية صغيرة، وإنما القادر هو الله وحده الخالق العالم البصير المصور المهيمن له الأسماء الحسنى.

إذاً: فهذا قانون طبيعي، ولكن ليس لأحد أن يغير فيه ويبدل أبداً ولا يمكن أن يحدث مثل هذا.

بالنسبة للتلقيح الاصطناعي، استطاع العلم بواسطة هذا التلقيح أن يأخذ نطفة من العجل السامي (أي الذي له أصل جيد ويعتبر من جياذ البهائم) ثم يلقحون أرحام الأبقار بهذه النطفة فتؤدي إلى الحمل. على أن هذا لا يعني -بالضرورة- إلغاء قانون الله، ولا يعني أيضاً تبديله أو تغييره -أي القانون الطبيعي- وإنما معناه أن الله سبحانه قد أعطى للإنسان قدرة ومنحه إذناً على أن يصرف هذه القدرة في الاستفادة والنفع من طاقات هذا الكون لأن الله قد سخر للإنسان كل شيء في الوجود وجعله في خدمته. فما دام الأمر لا يتعدى قضايا الحياة وقوانينها وأسرارها فإن كل شيء بعدها يكون وارداً ومسموحاً به من قبل الخالق جلّ وعلا.. ولا يعني كلامي هذا -بالضرورة- أن مقدور

الإنسان أن يتعدى مسائل الحياة ويفك أسرارها ويحل ألغازها أبداً.. لا يمكن أن يحدث مثل هذا وليس في إمكان أحد أن يقوم بهذا العمل مطلقاً.

والتلقيح الاصطناعي هذا لا يعني -أبداً- خلق النطفة، ولا خلق الخلية، ولا إعطاء الحياة لكائن ميت، لأن كل ذلك موجود من الأساس، أي أنهم يأخذون النطفة الحيّة، من الأم والأب وهما على قيد الحياة ثم تجري بعد ذلك عملية التلقيح، بمعنى أنهم، لا ينتفعون من القانون، ويمشون معه وليس ضده.

بالنسبة لموضوع طفل الأنابيب فقد تقدم رأينا فيه، ونحب أن نشير إلى أن العلماء قد اعترفوا بأنهم عاجزون عن صنع جهاز يقوم بعمل الرحم. وأصبح من المؤكد لديهم، وفقاً للأرقام العلمية، وللتجارب التي أجريت في هذا المجال، وكلفتهم مالياً، وعمراً وجهوداً لا يستهان بها.. أقول: أصبح من المؤكد أنه ليس في إمكانهم أن يوجدوا نظاماً يشابه نظام الرحم بحيث يمكن أن تتم عملية التلقيح والولادة خارج الرحم الطبيعي، الذي يصفه القرآن الكريم بأنه قرار مكين. ولهذا السبب نجد -في قضية طفل الأنابيب- أنه يتم التلقيح خارج الرحم في أنبوبة ثم بعدها مباشرة يتم إدخال النطفة الملقحة في الرحم لتأخذ سيرها، وتتطلق نحو أهدافها، ومبادئها وعملها المرسوم لها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (١).

(١) الحج/ ٧٣.

إن هذه الذبابة التي ننظر إليها بعين الضعف وليس بعين القوة، تستطيع أن تفني جيشاً بكامله، بفعل جرثومة تفرزها في الطعام مثلاً. فقد أكد العلم أن هذه الذبابة -وهي أنواع كثيرة ومختلفة- تستطيع أن تطرح على مائدة الطعام ملايين الألوان من الجراثيم القاتلة.. وهي -أي الذبابة- في مقدورها أن تسلبك صحتك بمرض تثقله إليك -حفظك الله من كل بلاء- وتستطيع أن تسلب منك شيئاً من الطعام، فلا تستطيع أنت إرجاعه. نعم، إن كل عباقرة العالم عاجزون عن استرداد ذرة من النشا تسلبك إياها هذه الذبابة. لأن هذه الذرة تتحول فوراً إلى سكر بفعل الخمائر الهاضمة في إمعاء هذه الذبابة.

ويظل العلم عاجزاً أمام ذبابة واحدة، كما يظل الإنسان مأخوذاً بها ومدهوشاً من فعلها. ﴿وَأَنْ يَسْلُبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾^(١)، فما أضعف الطالب والمطلوب!

تُرى، إذا كان موقف العلم الحديث مهزوزاً أمام تفاهة ذبابة، فما بالكم بعظمة الخلق، وعظمة المخلوقات التي تدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾^(٢).

يُروى أن المنصور الدوانيقي كان قد أزعجه الذباب ذات يوم، وكان في مجلسه الإمام جعفر بن محمد الصادق -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- فسأله المنصور قائلاً: لماذا خلق الله الذباب؟ فقال

(١) الحج/ ٧٣.

(٢) الحج/ ٧٣.

الإمام: ليذل به الجبابرة، أي أن الله إنما خلقه ليذل به الجبابرة،
ويكشف لهم عن ضعفهم.

أجل إن ذبابة صغيرة قادرة على قهر هؤلاء الظلمة وأعوانهم وتحويل
حياتهم إلى جحيم كما فعلت الخنفساء بالحجاج.. وكما لسعت حشرة
تافهة أحد كبار الجبابرة فتركته يلقي مصرعه في مرارة، يتقلب في
فراشه، لا يعرف لذة الطعام ولا لذة الشراب، حتى أخذه الله أخذ
عزيز مقتدر، بواسطة جندي ضعيف من جنود الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ
رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(١). ودائماً إن جند الله لهم الغالبون.

وجند الله سواء كانوا رجالاً يقفون على خط النار أو كانوا من عالم
الذر، أو غير ذلك فالنتيجة واحدة. وهي أن الطاغية مهما كان عاتياً
ومتجبراً، ومستبداً، فإن في إمكان حشرة واحدة عمياء حقيرة لا يحس
بها أحد، أن تنفص عيشه وعيش الطفلة وتميتهم.

كان هذا عن الحياة، أما قانون الموت، فإنه يشبه قانون الحياة
بالنسبة للحضارة المادية اليوم، التي وقفت عاجزة أمامه وستبقى كذلك
ويبقى دائماً هذا النص قائماً: «لكل أجل كتاب».

وهكذا فقد وجدت الحضارة نفسها عاجزة عن إيقاف هذا القانون
أو تبديله.. وعلى الرغم من أن العلم أصبح في إمكانه أن يطيل في
عمر الإنسان لسنوات أو شهور، ولكنه ليس في وسعه أن يدفع الموت
عنه ويجعله خالداً في الحياة. وهنا بيت القصيد: من يستطيع أن يردَّ
الموت عن الإنسان ويمنع الدود من أكل دماغه!!؟

(١) المدثر/ ٣١.

كلمة في القوانين التشريعية

كان هذا الحديث عن القوانين الكونية والسنن الثابتة في الطبيعة، وقد ضربنا أمثلة وشواهد، كلها تدل على أنه ليس في إمكان البشر أن يغيروا فيها أو يبدلوا فمن يعيش معها وفي كنفها يلق السعادة ومن يعاندها ويسر خلاف مبادئها يلقى الهلاك والموت المحتم.

والآن ننتقل إلى القسم الثاني وهو القوانين التشريعية التي تتلخص في المبادئ التي يحتاجها الناس في حياتهم، وفي المناهج التي جاء بها القرآن الكريم، ليعيش الناس في كرامة وسعادة واحترام. ومن بين هذه القوانين: «قانون العدالة الاجتماعية، والحرية، والمساواة بين الناس، والإحسان إليهم، والصدق، والعفة والشرف والأمانة، والإخلاص...».

وهنا أود أن أطرح سؤالاً سريعاً هو: هل في إمكان أحد منا أن يستغني عن هذه القوانين بحجة أنها قديمة وبالية وعتيقة ومتأكلة؟ كلا وألف كلا.. بل إنها قوانين ثابتة يحتاجها الناس كل الناس، في كل مكان.

وبالمثل، كما أن القوانين الكونية لا يمكن مخالفتها، وإلا أدى ذلك إلى الانتحار والدمار، كذلك القوانين التشريعية لا يمكن مخالفتها وإلا أدى ذلك إلى تمزيق المجتمع، ودماره، واندثار الحضارة فيه.

على أن القوانين التشريعية تحكم دائماً القوانين التكوينية، لأن التشريع أقوى من التكوين بل إن بناء الكون قائم على نظام التشريع



ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولمعرفة هذا الأمر فإنه لا بدّ من دراسة وتأمل وتفكر في هذا الموضوع. وفي الآية التالية إشارة واضحة إلى هذا المعنى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (١).

وهنا يُطرح سؤال: هل في إمكان أمة من الأمم أو ملةٍ من الملل أن تعلن رفضها للعدل والحرية والمساواة؟

هل في الإمكان أن يحدث مثل ذلك؟..

لا أظن. لأن الناس يتساوون جميعاً كأَسنان المشط في بحثهم عن العدل والحرية والمساواة. إذاً فمبادئ الإسلام صالحة لكل زمان ومكان لأنها مبادئ العدل والحرية والمساواة.

(١) الحشر/ ٢١.

نتيجة البحث الذي تقدم

النتيجة التي نخرج بها هي: إن قوانين الإسلام لا يصيبها القدم والخلل والعطب أبداً. لأنها قوانين الحضارة، تستمد قوتها من الحقيقة، ومن وهج الشمس والهواء الطلق. إن قوانين الإسلام، هي قوانين الفطرة، قوانين الإنسانية فوالله الذي لا إله غيره، ما شاهدت البشرية، ولا أحست بطعم الحرية إلا في ظل الإسلام، ومن دون مبادئ الإسلام، فإن البشرية تغرق في الظلام، وفي العذاب وهذه حقيقة لا يناقش فيها إلا مكابر.

فبعد القوانين التكوينية المزروعة في الطبيعة، تأتي القوانين التشريعية المكنونة في القرآن الكريم، والتي قلنا عنها بأنها حاكمة على الطبيعة لأنها أقوى منها دون أن نخوض في هذا البحث الذي يتطلب توضيحاً معمقاً سيأتي مكانه في هذه الموسوعة العلمية الكبيرة التي هي شعلة من نور فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- ولكن ذلك لا يمنع أن أشير إلى بعض الآيات التي وردت في هذا المضمار.

يقول القرآن في آية كريمة، وكل آياته كريمة: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلِّغَ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعًا﴾ (١).

ويقول في آية ثانية: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (٢).

(١) الرعد / ٣١.

(٢) الحشر / ٢١.

ويقول في آية ثالثة: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ (١).

ويقول في آية رابعة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢).

ففي هذه الآيات يكشف عن أثر الدعاء والصلاة والاستغفار -وهي قوانين تشريعية- يكشف عن مدى أثرها في الطبيعة وفي الكون بحيث نجد الاستغفار وحده يستطيع أن يفتح أبواب السماء بماء منهمر، ويفجر الأرض عيوناً وخيرات، وهذه قضايا علمية مكنونة في كتاب الغيب وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن التشريع أقوى من التكوين.

ونقرأ في آية خامسة: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (٣).

فالتقوى، هنا، ليست لقلقة لسان، وتمضية وقت، وإنما نحن أمام منهج تربوي ينطلق من أعماق الإنسان يحمل اسم التقوى، وينعكس على سلوك الأفراد فإذا وجدت التقوى، وجد الطريق، وانفتحت أبواب السموات وأبواب الأرض بالخير والعطاء والفرج، ومن شاء فليجرب.

إن هذه المبادئ باقية ما بقي الدهر لا يعريها فناء، ولا يصيبها وهن ولا هرم أبداً.. إنما هي جديدة ومتدفقة بالعطاء كالشلال والينبوع.

(١) نوح/ ١٠-١٢.

(٢) الأعراف/ ٩٦.

(٣) الطلاق/ ٢-٣.

أجل.. إن مبادئ العدالة والحق والحرية والمساواة، والإيثار، والصدق، واجتناب الإثم والعدوان، إن هذه المبادئ لا يمكن أن تكون قديمة فقدت أثرها في النفوس، إذ ليس في الإمكان أن يكون الحق بالياً، والحرية عتيقة، والعدالة قديمة، المساواة مرفوضة وكريهة. أبداً. أبداً. إن هذه المبادئ تبقى مشتغلة بالجدة والعطاء، وكأنها ولدت للتو لأنها مبادئ تنطلق من الفطرة الإنسانية وهي لا يمكن أن يستغني عنها أحد.

ومهما كانت الأقلام مرتزقة، وكان الأدب والشعر في خدمة الجور والعدوان تصور الأمور بالمقلوب، وبعكس الحقائق الثابتة التي تعود عليها الناس، فإنه ليس في الإمكان أن تتكرر البشرية لهذه المبادئ، وإلا فهذا هو الزهاوي الشاعر العراقي الذي أراد أن يصور الحقائق بالمقلوب، ويسمي الحق باطلاً، والشمس ليلاً، ها هو يقول ويخاطب الفتاة العراقية يطلب منها تتبذ الحجاب، وأن ترفضه وتتزرعه من على رأسها وتطرحه أرضاً لأنه صار قديماً كما يحلو له أن يصور بهذه الخفة التي ما بعدها خفة، فهل الهواء يصير قديماً؟ وهل الماء يصبح قديماً فلا نشرب منه بحجة أن الماء وجد منذ ملايين السنين ونحن اليوم في عصر النور والعلم؟..

إن نور العلم ينبثق من النور الذي يجري في الكون على شكل طاقة منذ ملايين ملايين السنين ولكنه مع ذلك لم يقل أحد: إن النور قديم. وعلينا أن نرفضه لأنه قديم.

وهل يعرف هذا القائل أن النفط الذي يمد الحضارة اليوم بالحركة إنما هو من الأشياء والمعادن القديمة؟ فهو منذ ملايين السنين ثاوٍ تحت



الثرى ينتظر دوره، وحين جاء دوره خرج عملاقاً ينفذ الغبار من على رأسه وحاجبيه ليدير وجهه إلى العالم فيستضيء العالم بهذه الطاقة التي مرّ عليها حين من الدهر ثاوية تحت الصعيد والتراب. فليس كل قديم يبلى، وليس كل شيء قديماً يجب أن ننبذه، هذه هي الحقيقة، ولكن أذئاب الاستعمار، وأعداء الإنسانية والإسلام، والضعفاء من أبناء الإسلام هؤلاء الذين اختطف الغرب أبصارهم ببريق تطوره التكنولوجي، أقول: هؤلاء راحوا يصورون الحقائق بخلاف حقيقتها، بأقلام مأجورة تقطر سماً ذعافاً.

إن هذا الشاعر الذي ذكرناه يتعرض لأمر بالغ الأهمية عند المسلمين وهو الحجاب الذي فرضه الله سبحانه على المرأة لأنه يعلم أن الحجاب عز المرأة وكرامتها، بل أكثر من ذلك أن الحجاب يجعل المرأة جوهرة ثمينة يحفظها من أيدي العابثين، وقطاع الطرق، من الذين يلهثون وراء خريشة أعراض الناس، وتدنيس نواويسهم، فيقول:

أسفري فالحجاب يا ابنة فهر

هو داء في الاجتماع وخيم

كل شيء إلى التجدد ماضٍ

فلمـاذا يُقر هذا القديم

أسفري فسفور الناس صبح

زاهر والحجاب ليل بهيم

إلى آخر أبياته.



وقد ردّ شاعر من الأدباء الشرفاء بقوله:

أكـرـيـمـة الزوراء لا يذهب بك

هذا الخـداع ربيئـة الزوراء

لا يـخدعـنـك شاعـرٌ بخياله

إن الخيال مطيئة الشعراء

حـصـروا عـلاجـك في السـفـور وما دروا

أن الذي وصفوه عين الداء

إلى آخر أبياته.

وأخيراً، نسأل الله أن يوفقنا للعلم والعمل في طريق الحق والسلام،
والحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية.



تأملات في الخطابة
من وحي مدرسة
فاطمة الزهراء عليها السلام

تأملات في الخطابة

عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام قال: (القول الحسن يثري المال وينمي الرزق وينسي في الأجل، ويحبب إلى الأهل ويدخل الجنة).^(١)

والسؤال هو: أي شيء في القول الحسن حتى يعطي هذه الثمرات المذهلة العظيمة في المال، ونماء في الرزق بل إنماء في الرزق، وطول الأجل وامتداد العمر في الخير لأنه ينتهي إلى الجنة مع ضمان حب الأهل ومودتهم، أي شيء في هذا القول؟ أول شيء في القول الحسن أنه يتحول إلى أسوة متبعة، وقدوة يسير الناس بنورها لأن الله عز وجل يصف المؤمنين بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إذاً فالقول الحسن يحرك أفراداً وجماعات من الناس الطيبين المؤمنين، وهذا بحد ذاته يجعل صاحب القول الحسن قائداً في الناس وأسوة لهم في حياتهم وهو مستمد من وحي الإمامة وظلال الإمام صلوات الله وسلامه عليه.

ثانياً - إن القول الحسن ينبىء عن نية حسنة، وقلب طاهر سليم، لأن النية الحسنة، هي التي تصنع القول الحسن، والقول الحسن هو قول الحق والصدق، وقول الحقيقة التي ترضي الله وتنفذ الناس، كما

(١) أمالي الصدوق/ ص ١٢.

قال الإمام زين العابدين عليه السلام: (اصعد هذه الأعواد فاتكلم بكلمات فيهن لله رضى ولهؤلاء الجالسين (من الناس) أجر وثواب).

على أننا نقرأ في القرآن الكريم شيئاً من هذا الفكر التربوي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلَحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (١).

فبين أن القول السديد ليس فقط ينمي الرزق ويجلب المال ولكن يصلح الأعمال وهذا منتهى النجاح في الحياة، فعلى الذين يفتشون عن النجاح، هذا هو النجاح بين أيديكم ليس محجوباً عنكم ولا مستوراً وإنما هو بين أيديكم لا يعوزكم أكثر من أن تتطلقوا في ظلال الكلمة الطيبة، والقول الحسن، وهنا أوصلنا هذا القول إلى حقيقة وهي أن القول الحسن إنما هو الكلمة الطيبة، والكلمة الطيبة جاءت في القرآن على مثل شجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، ثم يقول: تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، إذا فما دام الكلمة الطيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فإن ذلك يفتح آفاقاً جديدة في عالم التعامل مع القول الحسن الذي أمرنا الله به في محكم كتابه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وفي آية ثانية: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ (٢).

ومن هنا فإن القول الحسن يسد الأبواب في وجه الشيطان فلم يعد قادراً على النزوغ بين الناس في القول، وهذا بحد ذاته باب كبير من

(١) الأحزاب / ٧٠-٧١.

(٢) الإسراء / ٥٣.



أبواب الريح في الحياة الدنيا وهو -بدوره- يؤدي إلى النجاح والظفر والفلاح بكل معنى الكلمة.

إذاً: فقول الإمام السجاد عليه السلام: (القول الحسن يثري المال وينمي الرزق وينسي في الأجل، ويحبب إلى الأهل، ويدخل الجنة) أقول: إن هذا القول إنما هو مشروع للنجاح في الحياة وهو يستحق أن يعيد المرء النظر في حياته ليغير الأسلوب الذي يمشي به في الناس، فإذا كان فيه اعوجاج فلا بد له من أن يقوم الإعوجاج حتى ينطلق في أجمل وأحسن رحلة له في الحياة هذه.

على أن القول الحسن يكشف عن القلب الحسن، والنفس الحسنة ودائماً القول الحسن أقوى وأعظم من القول السيء، لأن الحسنات يذهبن السيئات أي بهذا المقدار من الحجم في هذه القضية نجد هذا المعنى الدقيق يلوح أمامنا في اشراقة بليغة.

وعلى ذكر القول الحسن يحدثنا أهل البيت عليهم السلام عن أن الإمام الحسين عليه السلام حين خطب يوم عاشوراء في الجموع والحشود التي خرجت لقتاله، حتى قيل: أنه لم يسمع متكلم قبله ولا بعده أحسن منه في منطقه، ولكنهم لم يتأثروا بكلامه لأن بطونهم ملئت من الحرام، فطُبع على قلوبهم، ولذلك استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله العظيم فتباً لهم ولما يريدون إنا لله وإنا إليه راجعون، هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هكذا كان الإمام الحسين عليه السلام يصفهم.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الباب أن خطاب الحسين الذي ألقاه بين الصفوف يوم عاشوراء قد سمعه أهل بيته وحرمة وبنات رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين في الوقت الذي كان الأعداء

يصنعون جلبه وضوضاء لحجب صوت الحسين عن الناس حتى لا يسمعه أحد، أو هكذا ظنوا، ولكن عندما ننظر إلى بنات رسول الله ﷺ وكيف ارتفعت أصواتهن في البكاء، ندرك أن الكلام أشبه بالمطر الذي ينزل على الأرض الطيبة والأخرى الخبيثة، ففي الطيبة يعطي ثماره ويؤتي نفعه بأن تهتز الأرض بالعطاء من كل زوج بهيج في حين أن الأرض الخبيثة لا تعطي سوى الشوك والحنظل، ونفس الشيء ينطبق على القول الحسن الذي يعطي ثمره إذا صادف قلوباً سليمة ونفوساً طيبة، وهذا هو الحق .. فالكلام الذي ألقاه الحسين ﷺ سمعه طرفان: الأعداء سمعوه، وأهل البيت سمعوه، ففي أهل البيت ترك الدموع والخشوع والبكاء والصراخ، وفي طرف الأعداء كانت السخرية والضوضاء والجلبة لمنع وصوله إلى اسماع الناس.

وشتان ما بين الفئتين: فئة خرجت لحفظ الدين والدفاع عنه، وفئة تقاتل من أجل الشيطان والمال والدنيا كما قال قائلهم:

املاً ركابي فضة أو ذهباً اني قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أمأ وأبا

انظروا إلى هذا المنطق المادي اللزج، أنه على استعداد أن يقتل خير الناس أمأ وأباً من أجل الذهب والفضة! أنه لعجب عجاب.

هذه تأملات كانت حول حديث الإمام زين العابدين ﷺ: القول الحسن يثري المال كتبتها لتكون نوراً يستضيئ به طلاب المعرفة ورواد المنبر من اتباع مدرسة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها لأنها هي المصدر في هذا اللون من العطاء، والنبع الرئيسي في الخطاب الموجه الهادف يدل على ذلك خطابها العظيم الذي ألقته في المسجد النبوي الشريف كما هو مشهور، ومعروف.

تأملات في المنبر
وطريقة إلقاء الخطاب
من وحي مدرسة
فاطمة الزهراء عليها السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (١).
- ﴿وَعَظَّمُوا وَقِيلَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (٢).
- ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (٣).
- ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ (٤).
- ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥).
- ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخَطَابِ﴾ (٦).
- ﴿نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (٧).
- ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٨).
- ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (٩).

(١) الأحزاب / ٣٩.

(٢) النساء / ٦٣.

(٣) الرحمن / ١-٤.

(٤) محمد / ٣٠.

(٥) العلق / ١-٥.

(٦) ص / ٢٠.

(٧) القلم / ١-٢.

(٨) فاطر / ٢٨.

(٩) التوبة / ١٢٢.

- فيم الجمال يا رسول الله؟

- في اللسان؟ النبي محمد ﷺ

- (أنا أفصح من نطق بالضاد) الرسول ﷺ.

- (المرء مخبوء تحت لسانه) الإمام علي عليه السلام.

- ليست البلاغة بحدة اللسان، ولا بكثرة الهذيان، ولكن البلاغة في إصابة المعنى، وبلوغ الهدف.

وأول شيء يواجهنا في المنبر أنه شيء يقوم على التفقه والفهم، والتفقه لا يحصل في المنبر ولا ينشأ في القلوب إلا بشروط ثلاثة:

أولاً: على طالب الفقه أن يأكل الحلال لأن الحرام يطبع على القلب فلا يعود قادراً على التفقه ولا بوسعه أن يتفهم، كما قال الإمام الحسين عليه السلام - مخاطباً الجيش الذي خرج لقتاله: (فقد ملئت بطونكم من الحرام فطُبِعَ على قلوبكم) لأنهم كانوا يحدثون جلبة وضوضاء - كما أمرهم عمر بن سعد قائد الجيش - حتى لا يتأثروا بخطاب سيد الشهداء صلوات الله وسلامه عليه .. ومن هنا فإن أكل الحلال خير مساعد على التفقه والفهم، بل أكثر من ذلك أن أكل الحلال الطيب يساعد على انجاز العمل الصالح، وعلى التوفيق للمسارعة في الخيرات: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ إذاً فهذا أول شرط لطالب العلم المتفقه أن يلتزم به، كما نلمح ذلك في قضية أصحاب الكهف حيث امرؤا أحدهم أن يذهب إلى المدينة لينظر أيها أزكى طعاماً فليأتي برزق منه، أزكى طعاماً أي الطعام الزكي الزاكي الطيب الذي ليس فيه حرام ولا اثم أبداً، وهذا هو الذي نريد التركيز عليه هنا، لأن

الأشياء كل الأشياء لا تحدث ولا تؤدي دورها إلا بشروط وأسباب، فقد أبى الله ﷻ إلا أن يجري الأشياء بأسبابها ولكل شيء سبب، وأحد أسباب التوفيق لدراسة الفقه، أكل الحلال ولقمة الحلال، وطعام الحلال.

الشرط الثاني: الإخلاص الذي ينبع من اليقين واليقين تنشأه التقوى وهي سبب كبير لخلق اليقين في القلب - : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ ومن هنا كان الشرط الأساسي في فهم القرآن الكريم، هو التقوى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وكذلك في شأن الوسيلة يأتي شرط التقوى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ .. ونفس الشيء يقال في مسألة الإلتحاق بركب أهل البيت عليهم السلام والركوب في سفينتهم سفينة النجاة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وما عني بالصادقين أحداً غير آل محمد عليهم السلام لأنهم هم الصادقون حقاً، والذين خالفوهم هم الكاذبون الذين كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون.

إذاً: فالتقوى شرط أساسي لإرساء دعائم اليقين في القلب وهذا من معالم الفقه والتفقه .. ثم لكي نعرف قيمة التفقه في الدين، فإنه لا بد لنا من معرفة وظيفة الفقهاء في المجتمع واسمعوا جيداً لما يقوله أمير المؤمنين علي عليه السلام: (أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء إلا يقاتروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز) وعفطة العنز الرذاذ المتناثر عند العطسة، فهذه قيمة

الدنيا عند الإمام علي عليه السلام حين يكون الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه .. إذاً: فمهمة العلماء ووظيفتهم في الحياة تشبه وظيفة الأنبياء وهي التبليغ الواضح المبين وإنقاذ الناس من الأعداء، لأنه ورد في ذلك قول الإمام الحسن العسكري عليه السلام: الفقيه كل الفقيه من لم يُقنط الناس من رحمة الله، وانقذهم من أعدائهم، وهذه عملية الإنقاذ من الأعداء ليست سهلة ولا ميسرة لكل الناس وإنما هي ذات خصوصية لا تقع إلا على رقاب العلماء الذين يخشون الله لأنهم عرفوه حق المعرفة، ولكن السؤال يظل ملحاً: يا ترى من هم الأعداء الذين يتريصون الدوائر بهذا الإنسان؟

أنهم النفس الأمارة بالسوء، والشيطان الرجيم، وأعداء الإنسان من الخارج وهم كل منافق وظالم وفاجر وكافر من الذين يعلنون الحرب على المبادئ والقيم وعلى حرمة الله عز وجل، أما غيرهم من الكفار فالمطلوب مداراتهم والاحسان إليهم لعلهم يرجعون إلى الحق، ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ ^(١) وفي آية ثانية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ^(٢).

إذاً: فهذه الشروط إذا توفرت واستوفت أسبابها فليس أمام الواحد منا إلا الكفاح والنضال، ولكن إذا لم تكتمل هذه الشروط ولم تستوف نصيبها من الأسباب وكانت العوامل كلها تشير إلى ذلك، فإنه يتحتم

(١) الممتحنة / ٨.

(٢) التوبة / ٦.

على المرء ألا يفكر بجهاد العدو، وإنما يبدأ بجهاد نفسه، ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، لأننا نقرأ في السيرة النبوية الشريفة أن رسول الله ﷺ رحب بقوم رجعوا من المعركة بقوله المعروف: مرحباً بقوم رجعوا من الجهاد الأصغر، إلى الجهاد الأكبر، -هذا مضمون الحديث وليس النص الكامل للحديث- إذاً: فالمعركة بما فيها من شدائد ومصائب وصعاب فإنها بالمقابل أهون من جهاد النفس، لأن النفس أعدى الأعداء لابن آدم خصوصاً عندما يتغلغل الشيطان في أعماقها، كما قال الإمام علي عليه السلام في دعاء الصباح: «وإن خذلني نصرك عند محاربة النفس والشيطان، فقد وكلني خذلانك إلى حيث النصب والحرمان..» وهذا بالضبط هو الذي يجري ويحدث بشكل دقيق ومستمر في حياة النفس والمجتمع.

على أن الإنسان يتعرض في العادة في حياته إلى نوعين من الاختراق والغزو، وهما الاختراق الثقافي والاختراق العسكري، والثقافي أشد وطأة على الإنسان من الاختراق العسكري على أن هذه ليست دعوة لتبرير الغزو العسكري والسكوت عليه وإنما هي دعوة لتفهم المسألة أكثر فأكثر واعطاءها لوناً من الفهم يختلف عن الألوان المطروحة في الساحة اليوم وهي ألوان من التفسير للغزو والاختراق العسكري غير مقبولة على الإطلاق وذلك للأسباب التالية:

أ - الإمام علي عليه السلام يؤكد أن الغزو العسكري يترك الأمة ذليلة خائفة: «فما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا» وكما يقول الحق سبحانه: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ»، وهذا تأكيد من الله تبارك وتعالى على كلام بلقيس ملكة

سبأ، لأنها هي التي قالت: إن الملوك.. الخ فجاء التأكيد من الله على قولها: وكذلك يفعلون.

ثانياً: إن الجهاد يورث العز، وتركه رغبة عنه يورث الذل والاذلال يقول أمير المؤمنين عليه السلام: أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء.

على أن هذا الكلام يجري على كل فصول الجهاد وأبوابه، سواء كان في ساحة المعركة، أو في أعماق النفس حيث تدور الحروب طاحنة بين جيوش الخير وجيوش الشر، كما تدور حرب طاحنة مثلها بل أشد منها، في مجال العقل حيث أن العقل ركب في جبهة الحق، يقابله الجهل في جبهة الباطل، وهذا هو الذي أريد أن أذكره هنا في هذه العجالة السريعة، الدقيقة بالذات، فقد جاء على لسان الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أن الله [بما مضمونه وليس بالحرف الواحد ولا النص لأن الحديث هذا موجود في كتاب الكافي في الجزء الأول الخاص بالعقل وجنوده والجهل وجنوده حيث يبيت أكثر من سبعين جندياً من جنود الجهل، أقول أن الأمر أنقله هنا بالمضمون لا بالنص ولا بالحرف الواحد، على أنه في الإمكان العودة إلى المصدر المذكور ونقل الحديث فيه بصورة صحيحة ودقيقة.

فقد جاء على لسان أبي عبدالله عليه السلام أن الله عز وجل ركب في العقل جنوداً وجعل في المقابل جنوداً للجهل، غير أن جنود العقل أقوى وأعظم من جنود الجهل الذين هم أضعف وأصغر وأوهن حتى وهم مجتمعون في جبهتهم، على أننا من خلال كلمة الجنود في العقل، وفي



الروح، وفي النفس ندرك أن هناك حرباً تجري بلا هوادة في أعماق النفس البشرية يوقد نارها الشيطان الذي يزيدها حطباً كل آن وكل حين، أي أنه يزد جبهة الشر بذلك أو قل: إن الشيطان يزود جبهة الشر بالحطب والنار. كلما اوقدوا ناراً للحرب اطفأها الله، فאלله عز وجل من شأنه اطفاء الحرب بجنود العقل والجنود الذين ينزلون من السماء لنصرة الحق وأهل الحق، كما جرى ذلك يوم بدر ويوم حنين، ويوم الأحزاب وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثير جداً في هذا المجال. لأنه حتى في شأن الاستقامة والمضي على طريق الحق، والانطلاقة على الخط المستقيم فإن ذلك مما يؤيد هذه الفكرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

إذاً: فنحن هنا أمام امداد رباني من السماد بالجنود والعدة والعدد لقوم مؤمنين خرجوا للدفاع عن الحق والعدل والحرية وعن أهل الصدق والحق والعدالة الاجتماعية بصدق وإخلاص فعلم الله ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأنزل الجنود ليربط على قلوبهم وأنزل حتى المطر ليثبت به الأقدام وأنزل النعاس عليهم.

وكأن قوى الطبيعة شاركت قوى الغيب في احراز النصر، وتغليب الحق على الباطل، وهذه هي طريقة الحق عندما يحاصره الباطل من كل مكان فإنه يهجم عليه فيدفعه فاذا هو زاهق وللظالمين الويل مما يصفون. وهكذا نرى أن الامداد الرباني الذي نزل من السماء إنما نزل لتقوية الأرض والقلوب والأبدان، فالماء للأرض والملائكة للقلوب، والنعاس للأبدان ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِّينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنِّ

عند الله إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١﴾

إذا: فهذه بعض الشروط التي ذكرناها لطالب العلم والفقه، على أنه يظل هناك شرط أكثر إلحاحاً من الشروط المذكورة، إلا وهو شرط الخشوع والخوف من الله لا من أحد غيره، لأن هذه الحالة تفتح الآفاق العلمية أمام الفقيه، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وإنما أداة حصر أي أنه لا يخشى الله إلا أهل العلم والمعرفة وهذا معنى الفقه لأن كل فقه علم وليس كل علم فقهاً أبداً ويقول في آية ثانية: ﴿الَّذِينَ يُلَاقُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ لأن الداعية الخطيب إذا لم تكتمل هذه الشروط في قلبه فإنه لا يستطيع النهوض بحمل هذه الرسالة، وذلك أن الخطيب الشجاع هو الخطيب المؤمن الذي يخشع قلبه لذكر الله وتدمع عيناه، فإذا خشع القلب وفاضت العينان بالدموع فدونك دونك، وهذه إشارة رائعة من الإمام الباقر عليه السلام للذين تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق.. إن الدمعة خير دليل وأصدق برهان على معرفة الحق ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

ونفس الشيء في قضية بكاء يعقوب وحزنه على يوسف لأنه عرف الحقيقة وعرف الحق في حين غرق الآخرون في أحوال الجهل لذلك

(١) الأنفال / ٩-١٢.

نجده يقول: «إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما تعلمون» وما دام ليعقوب علم من الله لا يعلمه غيره، فإن الحزن في قلبه يجب أن يصل إلى درجة العمى وفقدان البصر ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ على أنني يجب أن انبه إلى نقطة بالغة الأهمية في هذا السياق ولا يمكن تجاهلها والمروءة عليها مروراً يعتمد اخفاءها وطمسها وهي مسألة مقتل السيدة رقية عليها السلام على رأس أبيها الإمام الحسين عليه السلام فقد بلغ بها الحزن إلى أن نفضت حياتها وقضت نحبها على رأس أبيها الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وهذا يعني -ببساطة- أن حزنها على أبيها الحسين كان أشد من حزن يعقوب على يوسف، لأن حزن يعقوب اوصله إلى درجة العمى، في حين أن حزن السيد رقية وهي طفلة صغيرة لم تتجاوز سن الرابعة من عمرها، اوصلها إلى درجة الموت على رأس أبيها الشهيد المظلوم أبي عبدالله الحسين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

إذاً: فنحن أمام حزن عميق يقوم على المعرفة وهذا يؤدي -بدوره- إلى فتح آفاق جديدة في معرفة السيدة رقية بنت سيدي ومولاي الإمام الحسين بن علي عليهم الصلاة والسلام.

ومن كل ما تقدم نخرج بنتيجة واحدة وهي أن الداعية الخطيب لا بد له من أن يتسلح بالأسباب: العلم، والفقه والتقوى، واليقين والشجاعة ولعل الأشياء التي ذكرها الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام يؤكد هذا المعنى بالذات حيث قال: أيها الناس اعطينا ستاً وفضلنا بسبع: أعطينا العلم والحلم، والسماحة والفصاحة والشجاعة

والمحبة في قلوب المؤمنين، وفضلنا بأن منا المختار ومنا الصديق ومنا الطيار، ومنا أسد الله وأسد رسوله، ومنا سبطاً هذه الأمة ومنا سيدة نساء العالمين ومنا مهديها.

وكان هذه الشروط هي الأساس الذي يقوم عليه بناء المنبر، وإنشاء الخطاب وفتح الآفاق في هذا الخصوص، لأن الإمام السجاد عليه السلام قال: (اصعد هذه الأعواد لأتكلم بكلمات فيهن لله رضى ولهنؤلاء الجالسين أجر وثواب) وهذا هو الخط المستقيم، والطريق الواضح لكل خطيب مؤمن مسؤول عن المنبر وأداء الرسالة وتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة إلى الناس جميعاً. أرجو من الله عز وجل أن يأخذ بأيدينا لما فيه خير وصلاح بحق محمد وآله الطيبين الطاهرين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين. على أن هذا هو الخط الواضح الذي ركزت وأكدت عليه الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها في خطابها العظيم الذي ألقته في محضر المهاجرين والأنصار بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولأهمية رسالة المنبر خصوصاً في شهر محرم الحرام وذكرى عاشوراء نسمع الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: أن المحرم شهر كان أهل الجاهلية فيما مضى يحرمون فيه الظلم والقتال فاستحلت فيه دماؤنا وهتكت فيه حرمتنا وسبي ذرارينا ونساؤنا واضرمت النيران في مضاربنا وانتهب منها ثقلنا ولم ترع لرسول الله صلى الله عليه وآله حرمة في أمرنا إن يوم الحسين أقرح جفوننا وأسال دموعنا وأذل عزيزنا بأرض كرب وبلاء وارثنا (الحزن) والكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء فعلى مثل الحسين فليبك الباكون.



ثم قال الرضا عليه السلام: كان أبي إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكاً وكانت الكآبة تغلب عليه حتى تمضي منه عشرة أيام فإذا كان اليوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبتة وحزنه وبكائه ويقول هو اليوم الذي قتل فيه جدي الحسين عليه السلام وقال الرضا عليه السلام: من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة، ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبتة وحزنه وبكائه جعل الله عز وجل يوم القيامة يوم فرحه وسروره، وقرت بنا في الجنان عينه، وفي سمى يوم عاشوراء يوم بركة وادخر فيه لمنزله شيئاً لم يبارك له فيما ادخر وحشر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد لعنهم الله إلى أسفل درك من النار.

وأما اتخاذ يوم عاشوراء يوم عيد وفرح وسرور فهي سنة أموية وقد اتبعها من اتبعها جهلاً منه بالحال وإلا فلا يظن بمسلم أنه يفرح في يوم قتل ابن بنت نبيه الذي لو كان حياً لكان هو المعزي به والباكي عليه كما بكى عليه في حياته.

وأقول أن رسول الله حي ولا شك أن الحوراء زينب أثبتت ذلك حين خاطبت جدها رسول الله ﷺ بقولها: يا جداه يا رسول الله صلى عليك ملائكة السماء هذا حسين بالعري محزون الرأس من القفا مسلوب العمامة والردى، وبناتك سبايا وإلى الله المشتكى وإلى حمزة سيد الشهداء، يا جداه هذا حسين بالعري..

ملاحظة: الذي أراه في المنبر خلوه من النصوص واثقان النص، فإن هذا مما يجعل المنبر ضعيفاً متهاوياً لا يشد قلباً ولا يحرك دمعاً، ولا يثير عقلاً، وإنما يأتي في أغلب الأحيان جامداً ليس فيه جديد ولا

إبداع وآفاق جديدة في حين أن في الامكان أن يبدع الخطيب وذلك باتقان النصوص وحفظها بشكل دقيق إلى هذه الدرجة التي يقوم عليها المنبر في كل لحظة ويوم وساعة.

ملاحظة: كما أنه في الملاحظات الجديرة بالاهتمام هو حفظ المنبر من السقوط في وادي السطحية حيث لا نصوص محفوظة، ولا أفكار مشروعة ومطروحة، ولا بلاغة تصك الأسماع، ولا بيان يحرك الضمير والوجدان، فلا بد إذاً لمن يريد تطوير الذات من خلال المنبر أن يقوي حافظته ويغنيها بالنصوص المتنوعة والآداب المختلفة التي لا بد من اذكائها وصبها في قوالب دقيقة وجميلة تأخذ بمجامع القلوب وتستقطب القلوب وتجذب الأحرار وأصحاب الفكر وتجعل الافئدة تهوي في محبة تشد الأسماع في هذا المجال بالذات وهذا هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بل هو الحق الذي يقع على الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق، وللظالمين الويل مما كانوا يصفون.

شعر

مر سليمان بن قتبة العدوي رحمه الله بكربلاء بعد قتل الحسين
عليه السلام بثلاث فنظر إلى مصارعهم واتكأ على قوس له عربية وأنشأ
يقول:

مررت على أبيات آل محمد	فلم أرها أمثالها يوم حلت
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة	لفقد حسين والبلاد اقشعرت
وكانوا رجاء ثم اضحوا رزية	لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وتسألنا قيس فنعطي فقيرها	وتغنا بنا قيس إذا النعل زلت
وعند غني قطرة من دمائنا	سنطلبهم يوماً به حيث حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها	وان أصبحت منهم برغم تخلت
وان قتيل الطف من آل هاشم	أذل رقاب من قريش فذلت
وقد اعولت تبكي السماء لفقده	وانجمنا ناحت عليه وصلت



وقال آخر:

لا أضحك الله سن الدهر ان ضحكت	وآل أحمد مظلومون قد قهروا
مشردون نفوا عن عقردارهم	كانهم قد جنوا ما ليس يفتفر



وقال ثالث:

إذا العين قرت في الحياة وأنتم تخافون في الدنيا فاضلم نورها



امرر على جدث الحسين وقل لاعظمه الزكية
يا أعظمـاً لا زلت من وطفاء ساكبة روية
وإذا مـررت بقـبره فاطل به وقف المطية
وابك المطهر للمطهر والمطهر الزكية كبكاء معولة أتت يوماً لواحد لها المنية
الشعر للسيد الحميري انشده عند أبي عبدالله جعفر بن محمد
الصادق عليه السلام.

قال: فرأيت دموع جعفر بن محمد تتحدر علي خديه وارتفع الصراخ من داره حتى أمره بالإمساك فأمسك (يبدو أنه وصلت حالة الحزن بالإمام إلى درجة لم يستطع معها إلا أن يأمره بالتوقف ولو للحظات - علماً بأنني أشك في هذا أي أن الإمام لا يأمر منشداً وقارئاً للعزاء أن يمسك ولكن يمكن أن يكون صحيح فالقارئ -احتراماً للإمام- يظل مستمراً بالقراءة وإنشاد الشعر حتى يشير إليه الإمام بالإمساك فيمسك وإلا فإنه سيظل مستمراً مسترسلاً دون انقطاع كل ذلك احتراماً لمقام الإمام عليه السلام، ومن هذا الباب فان الخبر ينال مني اليقين ولا يضره الشك أبداً أي أنني غيرت رأيي في هذه العجالة من الشك إلى اليقين علماً أن الشك ليس في أصل الموضوع وإنما فقط في قضية الإمساك عن الإلقاء بأمر الإمام حتى ظهر لي أنه الحق وأنه فعلاً أمره بالإمساك إذ لو لم يأمره بالإمساك عن إنشاد الشعر

لاستمر يواصل القاءه والمجلس يتفجر بالبكاء والصراخ يرتفع من داخل دار الإمام وهذه ملاحظة لا تخلو من سر عميق إذ ما يرد فيها يرد في نفس الموقف الذي أرسل فيه الإمام الحسين عليه السلام أخاه العباس وابنه علياً الأكبر عليه السلام وقال لهما: سكتاهن -أي سكتوا النساء، اللواتي في الخيام يوم عاشوراء حين ارتفعت أصواتهن بالبكاء لما سمعن خطاب الحسين عليه السلام وهو يقول:.. ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون أن وليّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، فلما سمعن النساء هذا منه صحن وبكين وارتفعت أصواتهن فأرسل إليهن أخاه العباس وابنه علياً الأكبر وقال لهما سكتاهن فلعمري ليكثر بكاءهن فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه وصلى على الملائكة والأنبياء وصلى على محمد وآله وقال في ذلك ما لا يحصى ذكره ولم يسمع متكلم قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقه.

أقول: لعل هذا الموقف في بيت الإمام الصادق عليه السلام يحمل نفس الأسباب وذات الدواعي التي من أجلها أمر الحسين عليه السلام نساءه وبناته وحریمه بالتوقف من البكاء، ولعل هناك سبب آخر غير هذه الأسباب بالنسبة لسيد الشهداء حيث الدقة في كل شيء ونحن نلمحها في إرسال علي الأكبر مع العباس عليه السلام والسبب في ذلك أن الحسين عليه السلام ما كان يستطيع أن يواصل خطابه وأصوات البكاء تتعالى من خيامه عليه السلام ومن هن الباقيات؟ إنها زينب وفاطمة وسكينة والرياب ورقية وأمثال هؤلاء النسوة اللواتي يعرف الإمام الحسين عليه السلام كم لهن من المنزلة والمكانة عند الله تبارك وتعالى.

ولذلك لما رأى ابنته سكينه تبكي خاطبها:

لا تحرقى قلبي بدمعك حسرة	ما دام مني الروح في جثمانى
سيطول بعدي يا سكينه فاعلمي	منك البكاء إذا الحمام دهانى
لا تحرقى قلبي بدمعك حسرة	ما دام في الروح في جثمانى
فإذا قتلت فأنت أولى بالذي	تأتينه يا خيرة النسوان

وهذا الشعر الذي قاله الإمام الحسين عليه السلام يفسر لنا كلامه أو وصيته لأخته العقيلة زينب سلام الله عليها حيث يقول لها: أخي زينب إذا أنا قتلت فلا تشقي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً إلى آخر كلامه، أي في ساعة قتلي لا تصنعي شيئاً من ذلك وإلا فبعد مقتلي فأنت أولى بالذي تأتينه كما قال لابنته سكينه سلام الله عليها وهذا هو التفسير الصحيح لهذه الأمور بالذات.

يا آل أحمد لا يخيب موحد	متمسك منكم بحبل ولاء
ان فاتني من نصركم ما فاتني	وأطال فيكم لوعتي ويكائي
فالأرثينكم على طول المدى	بقصائد أعيت على الشعراء



الألفة وعدم الفرقة

- ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

- الألفة - وهي من أألف.

وقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا.. الخ﴾.

- ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ

بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ والنعمة هي نعمة الولاية، لأنه لولاها لما ألتفت القلوب. ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

- ومظهر هذه النعمة الأخوة في الإيمان.. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

- توجد ملاحظة وهي الفرق بين التنازع والمنافسة، فالتنازع يؤدي

إلى الفشل لأن الناس فيه يتحركون نحو أهداف شتى وليس نحو هدف واحد، في حين أن المنافسة يتحرك الناس فيها جميعاً نحو هدف واحد.

- ولا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وأحزاباً.

- تقول الزهراء سلام الله عليها: وجعل الله سبحانه طاعتنا نظاماً

للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، ولاحظوا الدقة في هذا المعنى أنه

يؤكد أن الإمامة هي القلعة التي يعتصم بها الناس جميعاً من مغبة

الفرقة. وعندما ننظر إلى الإسلام بعين واعية وبصيرة ثاقبة نجد أن

أحكام الإسلام وفرائضه كلها تؤدي إلى التآليف والألفة فقد وصف

الحق سبحانه المؤمنين بقوله ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ



خاصة» الخ.. في حين أنه يصف المنافقين بأنهم أهل تفرقة وانقسام فيقول: «تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى». هذا بالنسبة للمنافقين: اقرأ سورة المنافقون- كيف أنهم فرقوا صفوفهم وقتلوا الألفة.. الخ. على أن الصديقة فاطمة الزهراء سلام الله عليها قد تناولت في خطبتها موضوع الألفة والفرقة وسيمر علينا ذلك خلال استعراض خطبتها بالكامل.

وفي موضوع الألفة يجب أن يكون هناك مرجع للرجوع إليه. فتعالوا انظروا إلى موضوع الألفة والوحدة من جانب ومن جانب آخر في الفرقة والتنازع. ثم لا بد من ذكر الفرق بين التنازع والنزاع وبين المنافسة والحركة التي تؤدي إلى الألفة.

فمثلاً الغيبة، والبهتان، والنميمة وغير ذلك فانها تؤدي إلى تقطيع أوصال المجتمع -ولذلك قطع صلة الأرحام حرام.. الخ. أي أنك تجد كل الفرائض في الشريعة تدعو إلى الوحدة والألفة، في حين غير ذلك يؤدي إلى الفرقة والتمزق... الخ.

على أن الكلام عن الوحدة يعتبر من صميم السيرة النبوية الشريفة - وحين يقول الحسين عليه السلام: وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب... الخ فإنه إنما يدعو إلى وحدة الأمة وهذا بحد ذاته رد بالغ من الحسين عليه السلام على الذين يتهمون به بأنه خرج لشق عصا الأمة، وهذه التهمة هي التي ردها بنو أمية، وأكدها أيضاً ابن زياد في حديثه لمسلم بن عقيل عليه السلام حيث اتهمه بأنه إنما خرج لتمزيق الصفوف وشق عصا الأمة، ويبدو من خلال هذا البحث أن موضوع وحدة المسلمين

وألفة الناس الطيبين على الحق إنما يعد من صميم فكر عاشوراء لأنه فكر يجمع ولا يفرق، ويلتئم به الشمل ولا يمزق العصا عصا الوحدة.

- وأنه فكر ينطلق من أهل البيت عليه السلام وسيرتهم جميعاً سيرة الحق والعدل والحرية أبداً.

وأول الوهن يظهر بالفرقة والتنازع، وحين يقول: ولا تنازعوا فإن ذلك يؤكد هذه الحقيقة.

ومن هنا نجد أن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض وكذلك المنافقون بعضهم أولياء بعض.

ملاحظة: في هذا البحث موضوع ثقافة التعايش السلمي.. أيضاً عند أهل البيت عليه السلام. يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

- الله الله في نظم أمركم.

- الله الله في بيت ربكم.. الخ وهذه الوصية تؤكد هذا المعنى في هذه الملاحظات الدقيقة.

إذن: فما هو السبيل للوصول إلى هذه النتيجة؟

وللإجابة لا بد من التركيز على الاعلام والمدارس والجامعات.

وذلك من أجل التربية ضد الكراهية.. لا بد من زرع المحبة والحب والمودة ودار حوار بين طالب ومحاضر قال الطالب مستفسراً: هذه الأسرة التي تغذي أولادها بالكراهية.. الخ من أين جاءت بهذه الثقافة؟ أليست من قلب التاريخ؟ فقال المحاضر: أن المصارحة هي العلاج يقصد أن نبعد الغلاة من الطريق ويقصد بهم الذين يتحدثون عن حقوق أهل البيت.. الخ.



- ولكن حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء.. فرسول الله ﷺ يقول:
إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما
لن تضلوا من بعدي.

والفرقة من الضلال، فعدم الفرقة معناها التمسك بالثقلين الكتاب
وأهل البيت عليهم السلام.

إذاً: فرسول الله ﷺ ركز على المرجع الذي يرجع إليه المسلمون: ولو
ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه.. الخ.
ثم انظروا إلى فرعون كيف مزق المجتمع ثم استضعفهم وراح يعمل
فيهم سكينته.. الخ.

- إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة
منهم.. الخ. أي فلما فرقهم استضعفهم وهذه هي طريقة الطغاة في
إضعاف شعوبهم وأعمال السكين في رقابهم.

على أن الاختلاف والتعدد، حقيقة واقعية، وإن التعايش في ذلكم
التعدد ضرورة لا بد منها.. فالاختلاف قد يكون مدخلاً للأتلاف وكيف
يكون التنوع هو اختلاف التكامل والتآلف الذي يؤدي إلى قوة المسلمين
وعزتهم هذا كلام أحد الأفراد الذين اتصلوا ببرنامج -ثقافة السفينة-
كمثل قوم ركبوا في السفينة.. الخ.

أحدهم أراد أن يخترق السفينة -وثقافة السفينة أيضاً لها علاقة
بحديث السفينة: (إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح..)
فان السفينة اجتماع وحوار وعاقبة وتدبر.. الخ.



- في حديث السفينة.. الخ. هناك تساؤلات يمكن الإجابة عنها في وقت لاحق وهي: قد يقول قائل: ان السفينة ربما تفرق ركابها إلى سفن متعددة، العالم مليء بالسفن فهناك سفينة للأسرة، وسفينة للمجتمع.. الخ.

ثقافة السفينة - حديث السفينة الذي قال فيه الرسول ﷺ: مثل القوم الذين ركبوا في السفينة.. الخ.

- ما هي أسباب فرقة الأمة؟ هل هي في المال أو السلطان أو الجاه؟
- ثقافة التعايش - في وحدة الأمة، وفي الألفة، والمحبة.

- هناك فرق بين الفرقة والاختلاف والتعددية، فهناك.. الخ.

- أي أنه ينهى عن الاختلاف الذي ينشأ من الفرقة لا من الألفة، في حين أن اختلاف الرأي في الفقه والاختلاف في الرأي فليس في هذا خطر، وإنما الخطر في رفض الرأي الآخر (هذا ليس مني وإنما هو من برنامج الشريعة) والحياة الذي تذيبه الجزيرة في كل أحد، اترك الإجابة عليه الآن إلى وقت لاحق لأن فيه موضوعات شتى وأفكار مختلفة ومتعددة لا بد من الرجوع فيها إلى خطبة السيدة العظيمة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها.

على أن هناك بعض المؤلفات تؤدي إلى الفرقة والتفرقة. ويواصل المذيع حديثه فيقول: لماذا نحن نذكر المعارك الهامشية؟.. لماذا حصل كل ذلك؟ والجواب: أنه إنما حصل بسبب معصية الأمة لله وللرسول في حديث الثقلين.

- والملاحظة: في السيرة النبوية أن المطلوب هو عرض السيرة الجامعة لا المفرقة، والسيرة التي تجمع ولا تفرق، وتشوق ولا تنفر، وتيسر ولا تعسر وهكذا.. فلا بد أن يكون هناك رمز لوحدة الأمة والرمز هو حديث الثقلين لأنه حديث يبين للناس عظمة أهل البيت ويكشف عن السر الأعظم في حياة آل محمد صلى الله عليهم أجمعين ولكي تتضح الصورة أكثر تعالوا معي نصغي بقلوبنا ومسامعنا لحديث الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام وهو يناجي ربه في اظهار كرامة أهل البيت وعظمتهم فقد ورد عن معاوية بن وهب قال: دخلت يوم عاشوراء إلى دار مولاي جعفر الصادق عليه السلام فرأيتة ساجداً في محرابه فجلست من ورائه حتى فرغ فأطال في سجوده وبكاءه فسمعتة يناجي ربه وهو ساجد وهو يقول: اللهم يا من خصنا بالكرامة ووعدنا الشفاعة، وحملنا الرسالة، وجعلنا ورثة الأنبياء وختم بنا الأمم السالفة، وخصنا بالوصية، وجعل أفئدة من الناس تهوي إلينا، اغفر اللهم لي ولإخواني ولزوار أبي عبدالله الحسين عليه السلام، الذين انفقوا أموالهم في حبه، واشخصوا أبدانهم رغبة في برنا ورجاء لما عندك في صلتنا، وسروراً أدخلوه على نبيك محمد صلى الله عليه وآله وإجابة منهم لأمرنا، وغيظاً أدخلوه على عدونا، وارادوا بذلك رضوانك اللهم فكافهم عنا بالرضوان، واكلأهم بالليل والنهار، واخلفهم في أهاليهم وأولادهم، الذين خلفوا أحسن الخلف وأكفهم شر كل جبار عنيد وكل ضعيف من خلقك وشديد، وشر شياطين الأنس والجن، واعطهم أفضل ما أملوه منك في غربتهم عن أوطانهم، وما آثرونا به على ابنائهم وأهاليهم وقرابتهم، اللهم إن اعداءنا عابوا عليهم خروجهم فلم ينهم ذلك عن النهوض والشخص إلينا، خلافاً منهم على ما خالفنا، فارحم تلك

الوجوه التي غيرتها الشمس، وارحم تلك الخدود التي تقلبت على قبر أبي عبدالله الحسين، وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي حزنت لأجلنا، واحتترقت بالحزن، وارحم تلك الصرخة التي كانت لأجلنا.

اللهم إني استودعك تلك الأنفس وتلك الأبدان، حتى ترويهم من الحوض يوم العطش الأكبر، وتدخلهم الجنة، وتسهل عليهم الحساب، إنك أنت الكريم الوهاب.

قال: فما زال الإمام عليه السلام يدعو لأهل الإيمان ولزوار قبر الحسين عليه السلام وهو ساجد، في محرابه فلما رفع رأسه أتيت إليه وسلمت عليه وتأملت وجهه فإذا هو كاسف اللون، متغير الحال ظاهر الحزن، ودموعه تتحدر على خديه كالؤلؤ الرطب فقلت: يا سيدي مما بكاؤك لا أبكى الله لك عيناً؟ فقال لي: أوفي غفلة أنت عن هذا اليوم أما علمت أن جدي الحسين قد قتل في مثل هذا اليوم فبكيت لبكاءه وحزنت لحزنه، فقلت له: يا سيدي فما الذي أفعل في مثل هذا اليوم؟ فقال يا ابن وهب زر الحسين عليه السلام من بعيد أقصى ومن قريب أدنى، وجدد الحزن عليه وأكثر البكاء والسجود له «إنما يكون السجود لله عز وجل عبادة والسجود للحسين احتراماً وتعظيماً كسجود الملائكة لآدم وسجود يعقوب وابناءه ليوسف»، فقلت يا سيدي لو أن الدعاء الذي سمعته منك وأنت ساجد كان لمن لا يعرف الله تعالى لظننت أن النار لا تطعم منه شيئاً، والله لقد تمنيت أني كنت زرته قبل أن أصبح فقال لي: فما يمنعك من زيارته يا ابن وهب ولم تدع ذلك فقلت: جعلت فداك لم أدر أن الأجر يبلغ هذا كله، حتى سمعت دعاءك لزواره، فقال

لي: يا ابن وهب إن الذي يدعو لزواره في السماء أكثر ممن يدعو لهم في الأرض فأياك أن تدع زيارته لخوف من أحد، فمن تركها لخوف من أحد، رأى الحسرة والندم، يا ابن وهب أما تحب أن يرى الله شخصك؟ أما تحب أن تكون غداً ممن يصافحه رسول الله ﷺ يوم القيامة.. الخ.

اقرأه بدقة وتأمل فيه كثيراً، تتفتح أمامك آفاق واسعة من الإيمان واليقين والمعرفة وهذا بحد ذاته يشكل ركناً أساسياً في قوة المنبر وفاعلية الخطاب.

- ٥ - أفكار سارحة في تسبيح الزهراء (ع)
- ٩ - تسبيح الأنفاس بتسبيح فاطمة (ع)
- ١١ - تسبيح فاطمة (ع) على اليقين
- ١٣ - تسبيح فاطمة (ع) سعادة وحرية
- ١٥ - تسبيح فاطمة (ع) يطرد الشيطان
- ٢١ - تسبيح فاطمة (ع) غفران ورضوان
- ٢٢ - التسبيح الموظف
- ٢٥ - تسبيح فاطمة (ع) من شعائر الله
- ٣٣ - السلوك التربوي في تسبيح فاطمة (ع)
- ٣٦ - تسبيح فاطمة يحفظك من السقوط في القاع
- ٤٣ - لا تسبحوا ضد التيار النافع
- ٥٣ - فاطمة (ع) تصنع سبعة من تراب الشهادة
- ٥٧ - مصانع تليق الحديث
- ٦٢ - الكتابة تبدأ من فاطمة (ع)
- ٦٧ - رؤية جديدة للسباحة والتسبيح
- ٧٧ - الطريق إلى تسبيح فاطمة (ع)
- ٨٠ - ساعات الدعاء عند فاطمة (ع)
- ٨٧ - فاطمة (ع) هي الكوثر
- ٩٢ - كلمة أقولها
- ٩٣ - يسعى نورهم
- ٩٧ - الإيمان نور
- ١٠٤ - عندما تغضب السماء لغضب فاطمة (ع)
- ١١٠ - النبي (ص) يقبل فاطمة (ع)



- ١١٥ - علي ؑ أخو النبي (ص)
- ١٢١ - غضب فاطمة (ع)
- ١٢٢ - صورة ناصعة للتوحيد
- ١٢٩ - نقش خاتم الزهراء (ع)
- ١٣٠ - في فضل تسبيح الزهراء (ع)
- ١٣٣ - توسل بفاطمة (ع) يقضي الله حاجتك
- ١٣٧ - إذا أطلت الحوراء على الدنيا
- ١٤٠ - في قيام فاطمة (ع) بخدمة البيت وتعليم النبي (ص) لها التسبيح
- ١٤٣ - في إعطاء النبي (ص) فداً لفاطمة (ع)
- ١٤٧ - من هو الخطيب؟
- ١٥٢ - والله أخرجكم
- ١٦٩ - لكي تتفقهوا
- ١٧٤ - عندما يحضر الشيطان في المعركة
- ١٧٨ - الإرتفاع والنور لرؤية الحق
- ١٧٩ - فاطمة (ع) تصنع الأمناء على الحضارة والبلغاء إلى الأمم
- ١٨٠ - الظماً له جزاء
- ١٨١ - البلغاء إلى الأمم فاطمة الزهراء (ع)
- ١٨٧ - الناس على شفا جرف هار
- ١٩٤ - حين يتواضع العلماء
- ١٩٦ - نداء إلى حضنة الإسلام
- ١٩٩ - الطريق إلى الخطاب الناجح
- ٢٠٠ - داعية في بلاد الشرك
- ٢٠٤ - لا تؤذوا الداعية



- ٢٠٥ - انطلق في مدرسة فاطمة (ع)
- ٢٠٨ - كيف تلقي خطابك
- ٢١٨ - دروس في حياة الإمام علي عليه السلام
- ٢٢٢ - الحاجة إلى المثل الأعلى
- ٢٢٥ - سؤال الفتاة عن الزهراء (ع)
- ٢٢٩ - كلام فاطمة (ع) في مدرسة الخطابة
- ٢٣٢ - النبي (ص) وفاطمة وعلي (ع) المثل الأعلى للأسرة
- ٢٣٤ - بين القول والفعل: حق أو باطل
- ٢٣٩ - لون آخر من ألوان الخطاب في مدرسة فاطمة (ع)
- ٢٤٢ - فاطمة (ع) سيدة النساء وأفضلهن
- ٢٥٢ - فاطمة (ع) في المحراب
- ٢٥٧ - الأمير الطاوي
- ٢٦٦ - بن علي عليه السلام وفاطمة (ع) قاسم مشترك
- ٢٦٧ - فزت ورب الكعبة
- ٢٦٨ - الطريق إلى بيت فاطمة (ع)
- ٢٧٠ - في بيت فاطمة (ع) إحلال الأمن وإطعام الطعام
- ٢٧٢ - تقبيل فاطمة (ع) يثير غضب عائشة
- ٢٧٥ - في خصال زواج فاطمة (ع)
- ٢٧٦ - ملامح من زواج فاطمة (ع)
- ٢٨٢ - فاطمة (ع) تؤثر على نفسها ولو كان بها خصاصة
- ٢٨٩ - الشفاعة في مدرسة فاطمة الزهراء (ع)
- ٢٩٦ - الإيمان درجات
- ٣٠٥ - خصال علي عليه السلام

- ٣٠٧ - رؤية للنعم والآلاء
- ٣١٣ - رؤية في عبادة فاطمة (ع)
- ٣١٧ - رؤية القرآن للكون والحياة والإنسان
- ٣٣٠ - بالمرصاد
- ٣٣٧ - الخطاب الهادف
- ٣٤٠ - دلني على الله
- ٣٤٣ - الخطيب والخطابة والمنبر الحر
- ٣٤٧ - المنبر الحر
- ٣٦٠ - للإنسان عقل ومنطق
- ٣٦٦ - ضرورة إعداد الخطباء
- ٣٧٧ - المنبر وأهل الفكر الحضاري
- ٣٨٢ - الزهادة والفقاهة ومعناها الحضارة
- ٣٩٣ - عندما يكون القلب خاشعاً
- ٣٩٦ - العلم والعلماء الأسوة
- ٣٩٧ - العلماء والخطباء الذين لا يخشون غير الله
- ٣٩٩ - نصيحة خطيب مجرب
- ٤٠٣ - مع الخطابة في شروط لا بد منها
- ٤٠٤ - الطريق إلى المنبر
- ٤٠٨ - المنبر في حديث الثقلين
- ٤١٥ - لا منبر بلا قرآن
- ٤١٦ - لا ترفعوا أصواتكم
- ٤١٩ - رسالة الأنبياء الحضارية
- ٤٢٢ - موهبة الخطابة تولد مع الإنسان

- ٤٢٥ الخطابة موهبة وتصميم
- ٤٣١ من عناق الشمس والبحر إلى العناق الحركة والهدف
- ٤٤٦ كيف تتصرف وأنت على المنبر
- ٤٥٠ اغمر المنبر بنور الكتاب والعترة
- ٤٥٤ غذ عقلك بالعلم، وقو لسانك بالمنطق
- ٤٥٦ كن بليغاً ولا تكن معقداً
- ٤٥٩ القول البليغ يساوي القول المعروف
- ٤٦٢ لون الكلام المرغوب في المنبر
- ٤٦٤ الهداية ماذا تعني؟
- ٤٧١ نموذج لخطبة قصيرة في مدرسة فاطمة الزهراء (ع)
- ٤٧٨ خطبة النور بأسلوب آخر
- ٤٨٤ صورة أخرى للخطبة الناجحة الهادفة
- ٤٨٧ تكلم يعرفك الآخرون
- ٥٠١ الخطاب المسؤول
- ٥٠٢ حالتا الخطيب الذهنية والقلبية
- ٥٠٥ تجلسون وتتحدثون؟
- ٥٠٧ ميزة الإنسان: عقل وبيان
- ٥١٢ الخطيب الأكثر فعلاً في النفوس
- ٥٢٥ الترابط بين قوانين الشريعة والطبيعة
- ٥٥٤ الحضارة وقانون الحياة والموت
- ٥٥٩ التلقيح الإصطناعي وتأجير الأرحام
- ٥٦٦ أصول واضحة
- ٥٧٠ كلمة في القوانين التشريعية

- ٥٧٢ - نتيجة البحث الذي تقدم
- ٥٧٩ - تأملات في الخطابة
- ٥٨٣ - تأملات في المنبر وطريقة إلقاء الخطاب من وحي مدرسة فاطمة الزهراء (ع)
- ٥٩٧ - شعر
- ٦٠١ - الألفة وعدم الفرقة